تهذيب التفسير وتجريد التأويل

مما ألحق به من الأباطيل ورديء الأقاويل

عبد القادر شيبة الحمد
عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا
بالجامعة الإسلامية سابقاً
والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

الجزء الخامس

ⓒ عبد القادر شيبة الحمد، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة فهد الوطنيّة أثناء النشر
شيبة الحمد، عبد القادر
تهذيب التفسير وتجريد التأويل مما ألحق به الأباطيل ورديء الأقاويل./عبد القادر شيبة الحمد-ط2..- الرياض،1432هـ
٦مج.

ردمك٢-٠٠-٧٧٥٠-٦٠٣-٩٧٨(مجموعة)
٧-٧٧٥٥-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(ج٥)

١-القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان
ديوي٢٢٧/٦ ١٤٣٢/٦٠٨٣

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٦٠٨٣
ردمك٢-٠٠-٧٧٥٠-٦٠٣-٩٧٨(مجموعة)
٧-٧٧٥٥-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(ج٥)

الطبعة الثانية
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

مؤسسة علوم القرآن

دمشق هاتف: ٢٢٢٤٩٩٠ فاكس: ٢٢٣٨٤٩٠ ص.ب ١٣٢٧٧ موبايل: ٠٠٩٦٦٥٠٥٦٥٦٣٩٩ بيروت تلفاكس: ٠٠٩٦١١/٦٤٢٨٣٢
E-mail: uloom.alquraan@gmail.com

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا من الْمُشْرِكِينَ﴾.

بعد تقريع المشركين وتوبيخهم على اتخاذهم أصناما آلهة لا تضر ولا تنفع وهم يدَّعُونَ أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام وأنهم يحبونه، شرع هنا في إيراد ذكر إبراهيم عليه السلام وما كان من تقريعه وتوبيخه لمن يتخذ أصناما آلهةً مبينا أنهم في ضلال مبين حيث يقول عز وجل: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أَتَتَّخِذُ أصناما آلِهَةً إنى أَراكَ وَقَوْمَكَ في ضلال مُبِينٍ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿إني وَجَّهْتُ وَجْهِيَ للذي فَطَرَ السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾ وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزرَ﴾ نص صريح على أن آزر هو والد إبراهيم عليه السلام، وقد زعم بعض أهل الأهواء أن آزر لم يكن أبًا لإبراهيم عليه السلام بدعوى وجوب أن يكون آباء الأنبياء مسلمين وهي دعوى مردودة بصريح القرآن في هذا المقام، كما تردُّهَا السنة الصحيحة الصريحة الثابتة عن رسول الله ﷺ فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: يَلْقَى إبراهيم أباه آزرَ يوم القيامة وعلى وجه آزر قترةٌ وغَبَرَةٌ، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تَعْصني، فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم يا رب إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون فأيُّ خزْيٍ أخزى من أبي، الأبعد، فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة

على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار اهـ والذيخ بكسر الذال المعجمة بعدها ياء ثم خاء معجمة هو ذكر الضباع الكثير الشعر، والاستفهام في قوله: ﴿أتتخذ أصناما آلهة﴾ للتقريع والتوبيخ والإنكار، ومعنى: ﴿أتتخذ أصناما آلهة﴾ أي أتجعل لنفسك أوثانا تعبدها وتخضع لها وهي لا تضر ولا تنفع؟ ومعنى قوله: ﴿إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾ أي إني أعلم أنك ومن سلك مسلكك من قومك تائهون عن الحق، غارقون في بحار الضلال والضياع والحيرة والجهل، لا يشك في ذلك من له أدنى مسكة من عقل، فإنكم تعبدون ما تنحتون. ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وكذلك نُرِي إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض وليكون من الموقنين﴾ أي وكما آتينا إبراهيم رشده من قبل ومنحناه البصيرة في الدين فعرف ما عليه أبوه وقومه من الضلال المبين نُبَيِّنُ له وجه الاستدلال بآيات الله الكونية في السموات والأرض على أنه لا إله إلا الله ولا معبود بحق سواه ليكون عالما وموقنا، ولا شك أن علم اليقين هو أعلى مراتب العلم، وقد ساق الله تبارك وتعالى هنا صورة من صور دعوة إبراهيم عليه السلام التي سلكها في دعوته قومه إلى الله عز وجل حيث اتخذ هذا الأسلوب الحكيم الذي تنقطع به الشبهة وتتضح به الـمَحَجَّةُ، ويستدرج به الخَصْمَ ليعرفوا جهلهم، ويستبين خطؤهم ولا يتأتى هذا الأسلوب إلا من خبير بمعرفة ما عليه القوم حتى يتمكن من اجتثاث أصول باطلهم، وقد كان قوم إبراهيم عليه السلام من عبدة الكواكب، ولذلك ناظرهم عليه السلام فيها واستدرجهم ليقيم عليهم الحجة بأنهم ليسوا على شيء في عبادتها، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فلما جَنَّ عليه الليل رأى كوكبا قال هٰذا ربي﴾ أي فلما تغشاه الليل وستره أبصر نجما من النجوم التي يعبدها قومه قال إبراهيم عليه السلام لقومه:

أهذا يصلح لأن يكون ربًّا يُعْبَدُ وأصفه بأنه ربي؟ وحذف الاستفهام في مثل قوله: هذا ربي سائغ شائع في اللسان، وهو استفهام إنكار وتوبيخ لقومه عبدة الكواكب وقد جاء حذف حرف الاستفهام في مواضع من القرآن الكريم ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَإِن مِتَّ فهم الخالدون﴾ أي أفهم الخالدون. ومنه قوله تعالى: ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين﴾ أي أنموت ونحيا؟ وكذلك قوله تبارك وتعالى ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ أي أنموت ونحيا؟ ومن أمثلة حذف الاستفهام مع كونه مرادًا قولُ أبي خراش الهذلي:

رَفَوْني وقالــوا يَاخُوَيْلِــدُ، لَا تُرَعْ فقلتُ، وأنكرتُ الوُجُوهَ هُمُوا هُمُوا

يعني: أَهُمْ هُمْ، ومن ذلك أيضا قولُ أوس بن حجر أو الأسود بن يعفر النهشلي:

لَعَمْرُكَ ما أدري وإن كنتُ داريــا شُعَيْثَ بنَ سَهْمٍ أم شُعَيثَ بنَ مِنْقَرِ

بمعنى أشعيث بن سهم، ولا شك أن توجيه خليلِ الرحمن الإنكارَ بأسلوب الاستفهام هو أسلوب حكيم في زلزلة قواعد باطلهم، وله أثر كبير في نفوسهم حيث يلفت انتباههم إلى النظر فيما يرشدهم إليه دون تهييجهم عليه، ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿فلما أفل قال لا أحب الآفلين﴾ أي فلما غاب هذا النجم قال إبراهيم عليه السلام أنا لا أحب هذا الآفل ولا يتعلق قلبي به، بل أحب الباقي الدائم الذي لا يفنى ولا يزول وهو الله الحي القيوم، والمراد أن يوجه هؤلاء المشركين إلى أنهم على خطأ في عبادة هذا الكوكب لأنه إنما يعبدونه ويضرعون إليه عندما يكون مشاهداً ظاهرا فإذا غاب عنهم لا يوجهون إليه شيئا من عبادتهم وإن كانوا نصبوا له أصناما وهياكل وتماثيل، وهم يعلمون أنها ليست هي حقيقة الكوكب وإنما هي تمثال له، فبَيَّنَ إبراهيم عليه السلام بذلك أن المستحق للعبادة هو الحي القيوم القائم على كل نفس بما كسبت الذي يستجيب لعباده في كل وقت،

قال ابن تيمية رحمه الله: فإن الآفل هو الذي يغيب تارة ويظهر تارة فليس هو قائما على عبده في كل وقت، والذين يعبدون ما سوى الله من الكواكب ونحوها ويتخذونها أوثانا يكونون في وقت البزوغ طالبين سائلين وفي وقت الأفول لا يحصل مقصودهم ولا مرادهم فلا يجتلبون منفعة ولا يدفعون مضرة، ولا ينتفعون إذ ذاك بعبادة، فبَيَّنَ ما في الآلهة التي تُعْبَدُ من دون الله من النقص وبَيَّنَ ما لربه فاطر السموات والأرض من الكمال بأنه الخالق الفاطر العليم السميع البصير الهادي الرازق المحيي المميت اهـ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿فلما رأى القمر بازغا قال هٰذا ربي فلما أَفَلَ قَالَ لَئِن لم يهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ من القوم الضالين﴾ أي فلما أبصر إبراهيم عليه السلام القمر طالعا قال: أهذا يصلح لأن يكون ربا يعبد، فلما غاب القمر نبَّه إبراهيم عليه السلام قومه إلى أنه لا يجوز لهم أن يتعلقوا بهذا الذي غاب عنهم، وعليهم أن يطلبوا الهداية من الله وحده لأن نواصي جميع الخلق بيده، فمن لم يهده الله فلا هادي له، وكان من القوم الضالين. ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿فلما رأى الشمس بازغةً قال هٰذا ربي هذا أكبر فلما أَفلَتْ قال يا قومِ إني بَرِيءٌ مما تشركُونَ﴾ أي فلما أبصر إبراهيم الشمس طالعة قال: أهذا يصلح أن يكون ربا يعبد؟ هذا أكبر من القمر والنجم وأبرزُ ظهورا وأثرا، وهو عليه السلام بهذا الأسلوب الواقعي يضع قومه أمام برهان لا يستطيعون الانفلات منه إذا ما شاهدوا الشمس وهي تغرب وتغيب ولذلك قال: ﴿فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون. إني وجهت وَجْهِي للذي فطر السمٰوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾. أي فلما غابت الشمس جرَّد خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام الدعوة إلى توحيد الله عز وجل وإخلاص العبادة له وحده تبارك وتعالى فقال: يا قوم إني بريء من عبادة أصنامكم وأوثانكم وأندادكم ومُوَالاتِهِنَّ وبذل أي حب لهن، فكيدوني بها جميعا ثم لا تنظرون فإنها لا تضر ولا تنفع وإنما وجهت وجهي وجعلت قصدي بعبادتي لله

خالق السمٰوات والأرض وما فيهما ومخترعهما على غير مثال سابق حالة كوني حنيفا أي مائلا إلى الدين القيم ولن أكون مشركا أبدا. وهذا أسلوب في المناظرة رفيع قال ابن كثير رحمه الله: والحقُّ أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظرًا لقومه، مبينا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فَبَيَّنَ في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وَبيَّنَ في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشترى وزحل، وأشدهن إضاءةً وأشرفهن عندهم الشمس ثم القمر ثم الزهرة، فَبَيَّنَ أوّلاً صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلٰهية فإنها مسخرةٌ مقدرة بسَيْرٍ مُعَيَّنٍ لا تزيغ عنه يمينا ولا شمالا، ولا تملك لنفسها تصرفا بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرةً لما لهُ في ذلك من الحِكَم العظيمة، وهي تطلع من المشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية، ثم انتقل إلى القمر فَبَيَّنَ فيه مثل ما بَيَّنَ في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفت الإلٰهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قال يا قوم إني بريء مما تشركون﴾ أي أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعا ثم لا تنظرون ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السمٰوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾ أي إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها الذي بيده ملكوت كل شيء وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلٰهُ اهـ.

قال تعالى: ﴿وَحَآجَّه قَومُهُ، قَالَ أَتُحَٰٓجُّونِى فِي اللهِ وقد هَدَىٰنِ، وَلَآ أَخَافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إلآَّ أن يَشَاءَ رَبِّى شيئا، وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، أفلا تتذكرون* وكيف أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أنكم أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ ما لم يُنَزِّلْ به عليكم سُلْطَانًا، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمنِ إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. الَّذِينَ آمنُوا ولم يَلْبِسُوا إيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدونَ. وتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاها إبراهيم على قومه، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ، إن رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

بعد أن أقام إبراهيم عليه السلام على قومه الحجة البالغة وعجزوا عن الردِّ على ذلك وانقطعوا، ذكر عز وجل هنا أنهم لما انقطعوا لجئوا إلى تخويفه من بطش آلهتهم به حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وحاجَّهُ قومُه، قال: أَتُحاجُّوني في الله وقد هَدَانِ، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاءَ ربِّي شيئا﴾، إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿وهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ومعنى: ﴿وحَآجَّهُ قومه﴾ أي وجادله قومه وخاصموه بالتهديد لا بالبرهان حيث زعموا أنهم يخافون عليه من أن تصيبه آلهتهم بسوء لبراءته منها وكفره بها، يقال حاجَّهُ أي نازعه وجادله وخاصمه، ويقال حَاجَّه فلم يَحْجُجْهُ أي فلم يأت بحجة ولا برهان ويقال حاجَّهُ فَحَجَّهُ أي خاصمه فغلبه وأقام عليه الحجة، ومنه ما جاء في صحيحي البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: حَاجَّ موسى آدَمَ عليه السلام فقال له: أنت الذي أخرجتَ الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر قد كتبه الله عليَّ قبل أن يخلقني أو قدَّره علي قبل أن يخلقني. قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: فَحَجَّ آدمُ موسى. أي فغلب آدم موسى في هذه المحاجة. ومعنى قوله عز وجل: ﴿قال أتحَآجُّونّي في الله وقد هَدَانِ، ولا أخافُ ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا﴾ أي وقال إبراهيم عليه السلام

قاطعـا لأطماع قومـه في تهديدهم لـه بتخويفـه من آلهتهم ومحاولة صرفـه عن توحيد الله : أتجادلـونني في أنه لا إله إلا الله ولا معبود بحـق سواه وقد بصَّرني ربي وأرشدني إلى الحق وهداني إلى تـوحيده و إخلاص العبادة لـه وحده ، ولن يصرفني عن ديني أقـوالكم الفاسـدة وشُبَهُكُم الكاسدة فلسـتُ بخائف من آلهتكم لأنها لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضرًا ولا نفعا ، قال ابن كثير رحمه الله : يقـول تعالى مخبرا عن خليلـه إبـراهيم حين جادلـه قـومه فيما ذهب إليـه من التوحيد ، وناظروه بِشُبَهٍ من القـول أنه قال : «أَتُحَاجُّوني في الله وقد هدانِ» أي تجادلونني في أمر الله وأنه لا إلـه إلا هو، وقد بصَّرني وهداني إلى الحق وأنا على بينـة منه ، فكيف أَلْتَفِتُ إلى أقـوالكم الفاسـدة وشُبَهكم الباطلـة ، وقولـه : ﴿ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا﴾ أي ومن الدليل على بطلان قـولكم فيما ذهبتم إليـه أن هذه الآلهة التي تعبـدونها لا تُـؤَثِّـرُ شيئا ، وأنـا لا أخافها ولا أُبَاليهَا ، فإن كان لها كيد فكيدُوني بها ، ولا تنظرون ، بل عاجلوني بذلك ، وقوله تعالى : «إلا أن يشاء ربي شيئا» استثناء منقطع ، أي لا يضر ولا ينفع إلا الله عـز وجل ، «وَسِعَ ربي كلَّ شيءٍ علما» أي أحـاط عِلْمُـهُ بجميع الأشياء ، فـلا يخفى عليه خـافية ، «أفلا تتـذكرون» أي فيما بَيَّنْتُـهُ لكم ، أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة بـاطلة فتنزجـروا عن عبادتها اهــ وقوله تبـارك وتعالى : ﴿وكيف أَخَافُ ما أشركْتُمْ ولا تخافونَ أنكم أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَالَـمْ يُنَزل بِه عَلَيْكُمْ سُلْطَـانًـا ، فَأَيُّ الْفَـرِيقَيْنِ أَحَقُّ بـالأَمنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُـونَ﴾ تَعَجُّبٌ و إنكـار لسلوك قومه المعوج حيث انقلبت عندهم الموازين إذ يزعمون أنهم يخافون على إبراهيم عليـه السلام أن تصيبـه أصنامهم بسـوء بسبب براءتـه منها وهي لا تضر ولا تنفع ولا يخافـون على أنفسهم أن يصيبهم جَبَّـار السمـوات والأرض النافع الضـار الذي بيده ملكـوت كل شيء بسوء وهم يشركون بـه ما لا ينفع ولا يضر وما لا برهان لهم به ، قال ابن جرير رحمه الله : القولُ في تأويل قوله :

«وكيف أَخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم يُنَزِّلْ به عليكم سلطانا فأيُّ الفَرِيقَيْنِ أحقُّ بالأمنِ إن كنتم تعلمون». قال أبو جعفر: وهذا جوابُ إبراهيم لقومه حين خَوَّفُوهُ من آلهتهم أن تَمَسَّهُ، لذكره إياها بسوء، في نفسه بمكروه، فقال لهم: وكيف أَخَافُ وأَرْهَبُ ما أشركتموه في عبادتكم ربَّكم فعبدتموه من دونه وهو لا يضر ولا ينفع؟ ولو كانت تنفع أو تضر لدفعت عن أنفسها كَسْرِي إياها وضَرْبِي لها بالفأس، وأنتم لا تخافون الله الذي خلقكم ورزقكم، وهو القادر على نفعكم وضركم في إشراككمَ في عبادتكم إياه ﴿ما لم يُنَزِّلْ به عليكم سلطانا﴾ يعني: ما لم يعطكم على إشراككم إياه في عبادته حجة، ولم يَضَعْ لكم عليه برهانا، ولم يجعل لكم به عذرا، «فأي الفريقين أحق بالأمن» يقول: أنا أحق بالأمن من عاقبة عبادتي ربي مخلصا له العبادة، حنيفا له ديني، بريئا من عبادة الأوثان والأصنام، أم أنتم الذين تعبدون من دون الله أصناما لم يجعل الله لكم بعبادتكم إياها برهانا ولا حجة ﴿إن كنتم تعلمون﴾ يقول: إن كنتم تعلمون صدق ما أقول، وحقيقة ما أَحْتَجُّ به عليكم فقولوا وأخبروني، أي الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بالأمن؟ اهـ

وقد اشتمل قوله: «فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمن إن كنتم تعلمون» على أعلى الدرجات في أدب البحث والمناظرة، باستنزال الخصم عن درجة المكابرة، مع إلجائه إلى الجواب الحق إن كان الخصم معه نوع من العلم فإن كان مستغرقا في الجهل عُرِّفَ بالجواب الذي لا محيد عنه ولذلك جاء بيان الجواب في قوله عز وجل: ﴿الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانهم بظُلْمٍ أولَئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾. أي الأحق بالأمن هم الذين أخلصوا التوحيد لله عز وجل ولم يخلطوا إيمانهم بشرك فإن الله تبارك وتعالى يكلؤهم ويحفظهم ويبعثهم يوم القيامة آمنين لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون. وقد أثبت الله تبارك وتعالى هنا الأمن للذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم

بظلم كما أثبت لهم أنهم مهتدون أي مصيبون سبيل الرشاد، سالكون طريق النجاة، وقد فسَّر رسول الله ﷺ الظلم في هذه الآية بأنه الشرك فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿الذين آمنوا ولم يَلْبِسوا إيمانهم بظلم﴾ قال أصحاب رسول الله ﷺ: أيُّنا لم يَظْلِمْ؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ وفي لفظ للبخاري من حديث عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ قلنا: يا رسول الله أَيُّنَا لا يظلم نَفْسَه؟ قال: ليس كما تقولون ﴿لم يَلْبِسُوا إيمانهم بظلم﴾ بِشِرْكٍ أَوَ لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: ﴿يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بالله إن الشرك لَظُلْمٌ عظيم﴾ وفي لفظ للبخاري من حديث عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانهم بظلم﴾ شَقَّ ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله أَيُّنا لا يظلم نفسه؟ قال: ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمانُ لابنه وهو يعظه: ﴿يَابُنَيَّ لا تُشْرِكْ بالله إن الشرك لَظُلْمٌ عظيم﴾ وفي لفظ للبخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه ليس بذاك، ألا تَسمع إلى قول لقمان لابنه: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ وفي لفظ للبخاري من حديث عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الاية ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ شقَّ ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وقالوا: أَيُّنَا لم يلبِس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه ليس بذاك، ألا تسمعون إلى قول لقمان: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ وقد أخرجه مسلم في صحيحه من حديث عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ شق

ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: أيُّنا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه ﴿يابُنَيَّ لا تُشْرِكْ بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وتلك حُجَّتُنَا آتيناها إبراهيم على قومه، نرفع درجات من نشاء، إن ربك حكيم عليم﴾ إشارة إلى ما شرح الله عز وجل له صدر خليله إمام الحنفاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام من مناظرة قومه. وما ألزمهم به من الحجة البالغة والبرهان القاطع حتى حَجَّهُمْ وغَلَبَهُمْ وأبطل شبهتهم، وقطع عذرهم، وأفحمهم، أي وهذه بَيِّنَتُنَا لقَّنَّاها إبراهيم وبصرناه إياها، وعرَّفْنَاه بها، وهديناه إليها ونَصَرنَاه بها على قومه، ومعنى قوله عز وجل: ﴿نَرْفَعُ درجات من نشاء﴾ قال ابن جرير رحمه الله: والدرجات جمع درجة، وهي المرتبة، وأصل ذلك مراقي السُّلَّم ودَرَجه، ثم تستعمل في ارتفاع المنازل والمراتب، ثم قال رحمه الله: فمعنى الكلام إذًا: «وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه» فرفعنا بها درجته عليهم، وشَرَّفْنَاهُ بها عليهم في الدنيا والآخرة، فأما في الدنيا فآتيناه فيها أجره، وأما في الآخرة فهو من الصالحين ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ أي بما فعل من ذلك وغيره، وأما قوله: ﴿إن ربك حكيم عليم﴾ فإنه يعني: إن ربك يا محمد ﴿حكيم﴾ في سياسته خَلْقَهُ، وتَلْقِينِهِ أنبياءَهُ الحُجَجَ على أممهم المكذبة لهم، الجاحدة توحيد ربهم، وفي غير ذلك من تدبيره «عليم» بما يؤولُ أمرُ رسُلِهِ والْمُرْسَلِ إليهم، من ثبات الأمم على تكذيبهم إياه، وهلاكهم على ذلك أو إنابَتِهِمْ وتَوْبَتِهِمْ منه بتوحيد الله تعالى ذِكْرُهُ وتصديق رُسُلِهِ والرجوع إلى طاعته، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: فأتَسِ يا محمد في نفسك وقومك المُكَذِّبيكَ والمشركين، بأبيك وخليلي إبراهيم ﷺ واصبر على ما يَنوبُكَ منهم صَبْرَهُ، فإني بالذي يؤول إليه أَمْرُكَ وأمرُهُمْ عَالِمٌ، وبالتدبير فيك وفيهم حكيم اهـ.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا، وَنُوحًا هدينا من قَبلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وسُلَيْمَٰنَ وأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ، وكَذَٰلِك نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّٰلِحِينَ. وَإِسْمَٰعِيلَ والْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا، وَكُلًّا فَضَّلْنَا على الْعَٰلَمِينَ. وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وإخوانهم وَاجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم. ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْملُونَ. أولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَٰهُم الْكِتَابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ، فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾.

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى أن إبراهيم عليه السلام كان حنيفا مسلما ولم يكن من المشركين وأن قومه لما خَوَّفُوه من أن تصيبه آلهتهم بسوء لم يعبأ بهم ولا بآلهتهم وأن الله تبارك وتعالى آتاه الحجة عليهم، ورفع درجته، ذكر هنا أنه كان من فضل الله على إبراهيم عليه السلام وما جزاه به على طاعته لله وإخلاصه التوحيد له ويقينه في نصر الله لأنبيائه ورسله أنه وهب له إسحاق ويعقوب وجعل في ذريته النبوة والكتاب، لتثبيت فؤاد رسول الله ﷺ وتأكيد أنه ليس بدعا من الرسل، وأنه ﷺ على المنهج الذي سلكه من قبله إخوانه الأنبياء والمرسلون وأن الله تبارك وتعالى قد آتاه الكتاب والحكم والنبوة كما آتى الذين من قبله من المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. قال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله عز وجل: ﴿ووهبنا له إسْحَٰق ويعقوب كَلًّا هَدَيْنَا ونُوحًا هَدينا من قبل﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكرهُ: فجزينا إبراهيم ﷺ على طاعته إيانا وإخلاصه توحيدَ ربه، ومفارقته دِينَ قومه المشركين بالله، بأن رفعنا درجته في عِلِّيِّين، وآتيناه أجره في الدنيا، ووهبنا له أولادا خصصناهم بالنبوة، وذريةً شرفناهم منا بالكرامة،، وفضلناهم على

العالمين، منهم ابنـه إسحاقُ وابنُ ابنه يعقــوبُ «كُلاًّ هَـدَيْنَا» يقول: هـدينا جميعهم لسبيل الرشاد، فوفقناهم للحق والصـواب من الأديان «ونوحا هدينا من قبل» يقـول: وهدينـا لمثل الذي هـدينا إبـراهيم وإسحاق ويعقـوب من الحق والصواب، فـوفقناه لـه نوحا من قبل إبـراهيم وإسحاق ويعقـوب اهـ والضمير في قولـه تبارك وتعالى: ﴿ومن ذُرِّيَّتِهِ﴾ يمكن أن يعـود على إبراهيم عليه السلام لأن الكـلام سيق من أجله، وعلى هذا يكون أيـوب عليه السلام من ذرية إبراهيم أما لوط عليه السلام فلم يكن من ذرية إبراهيم عليه السلام لأنه ابـن أخيه كما هو المعـروف عند أهل العلـم ولا إشكال في ذلك لأنــه قد بعثه الله في زمان إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وقال بعض أهل العلم: إن الضمير في قولـه عز وجل: ﴿ومن ذريتـه﴾ راجع إلى نوح عليه السـلام لأنه أقرب مـذكور، وقد أشـار الله تبارك وتعـالى في سورة الحديد إلى أنـه قد حصر النبوة في ذرية نـوح وإبراهيم عليهما السلام حيث قال: ﴿ولقد أرسلنـا نوحا وإبراهيم وجعلنـا في ذريتهما النبوة والكتـاب﴾ فيكون قـوله تبـارك وتعالى في سـورة العنكبوت: ﴿ووهبنـا لـه إسحاق ويعقـوب وجعلنـا في ذريته النبـوة والكتاب﴾ دليلا على أن كل الأنبياء والمرسلين بعد موت إبراهيم عليه السلام هم من ذريتـه، ولا شك أنه قـد وُلِدَ لإسحـاق يعقوبُ وهو إسرائيـل وإليه ينتسب سائر أسبـاطهم، وكانت فيهم النبـوة حتى ختموا بعيسى ابـن مريم وهو من بني إسرائيل لنسب أمه فيهم، أما الفـرع الثاني من ذرية إبراهيم فهو إسماعيل عليهما السـلام، ومن ذريتـه خـاتم الأنبيـاء والمرسلين، الجوهـرة الباهرة، والدرة الزاهرة صاحب المقام المحمود والحوض المورود محمد ﷺ وقد ذكـر الله تبارك وتعـالى في هذا المقـام من سـورة الأنعام أسماء ثمانيـة عشر من الأنبياء والمرسلين ولم يصح عن رسول الله ﷺ تحديد لعدد الأنبياء والمرسلين، وقد ذكر الله تبـارك وتعالى في مواضع أخرى من الكتـاب الكريم أسماء سبعة

منهم، وبهذا يكون عـدد الأنبياء والمرسلين الذين قصهم الله تبـارك وتعالى في القرآن الكريم خمسة وعشرين جمعهم بعض الشعراء في قوله :

في تلكَ حُجَّتُنَا منهم ثمانيــــــةٌ　　مـن بعد عشر ويبقى سبعةٌ وَهُمُوا
إدريسُ هودٌ شُعَيْبٌ صالحٌ وكذا　　ذو الكفل آدمُ بالمختار قد خُتِمُوا

وقد أشار الله تبارك وتعـالى إلى كثرة الأنبياء والمرسلين، وأن منهم من قَصَّ خبره على رسوله محمد ﷺ ومنهم من لم يقصص عليه حيث يقول عز وجل في سورة غـافر: ﴿ولقد أرسلنا رسـلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ وقـد أوضحت الكلام على ذلك في كتـابي: قصص الأنبياء: القصص الحق، كما تحدثـت فيه عن قصة كل رسـول من رسل الله المذكورين في هذا المقام وغيره بما ثبت في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ وقوله تبارك وتعـالى: ﴿وكذلك نجـزى المحسنين﴾ تبشير لكل محسن من عباد الله في أي زمان أو مكان بأن الله تبارك وتعالى مـؤيِّدُهُ وناصرهُ ورافعُ درجته كما أيد إبراهيم وهؤلاء الصالحين، أي وكما جزينـا إبراهيم وهؤلاءالصالحين من أنبياء الله ورسله ورفعنا درجاتهم ونصرناهم على أعـدائهم وآتيناهم أجرهم في الدنيا وأعْدَدْنا لهم المساكن الطيبة في جنـات النعيم فإنا نجازي كلَّ محسن من عباد الله إلى يـوم القيامـة كـذلك، قـال أبـو السعود العمادي: والمراد بـالمحسنين الجنس وبمماثلة جزائهم لجزائه عليه السلام مطلق المشابهة في مقابل الإحسان بالإحسـان والمكافأة بين الأعمال والأجزيـة من غير بخس لاَ الْـمُمَاثَلَةُ من كل وجـه ضرورةَ أن الجزاء بكثرة الأولاد ممـا اختص به إبـراهيم عليـه السلام اهـ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿كُلٌّ من الصالحين﴾ أي وكلُّ مَنْ ذَكَرْنَا من هؤلاء الـذين سَمَّيْنَـا لكم هم من عبـاد الله الصـالحين الهداة المهتـدين إلى الصراط المستقيم الذين أنعم الله عز وجل عليهم واجتبـاهم، ومعنى قوله عز وجل: ﴿وكلاً فَضَّلْنَـا على العالمين﴾ أي وقد فضَّلْنَـا كلَّ واحد من هـؤلاء المذكورين

على سائر المخلوقين الذين ليسوا بأنبياء ولا مرسلين، وقد اختار الله تبارك وتعالى الأنبياء من أكمل خلقه، فعندما أخذ الله عز وجل طِينة آدم اختار منها الأنبياء، واختار من الأنبياء المرسلين، واختار من المرسلين أولى العزم، واختار من أولى العزم الخليلين إبراهيم ومحمدا عليهما السلام، وقد بيَّنَ اللهُ تبارك وتعالى أنه فضَّل بعض النبيين على بعض حيث يقول: ﴿تلك الرسلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بعض، منهم مَن كَلَّمَ اللهُ ورفع بعضهم درجات﴾ وقولُهُ تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ آبائهم وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وإِخْوَانهم واجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيم﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وهدينا أيضا من آباء هؤلاء الذين سماهم تعالى ذكره ﴿وَمِن ذُرِّيَّـاتِهِمْ وإخوانهم﴾ آخرين سواهم، لم يُسَمِّهِمْ، للحق والدين الخالص الذي لا شرك فيه، فَوَفَّقْنَاهم له ﴿واجتبيناهم﴾ يقول: واخترناهم لِدِينِنَا وبلاغ رسالتنا إلى مَنْ أرسلناهم إليهم، كالذي اخترنا ممن سَمَّيْنَا يقال منه اجتبى فلان لنفسه كذا إذا اختاره واصطفاه، يجتبيه اجتباءً، ثم قال رحمه الله: ﴿وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾ يقول: وسددناهم فأرشدناهم إلى طريق غير مُعْوَجّ، وذلك دِينُ الله الذي لا عِوَجَ فيه، وهو الإسلام الذي ارتضاه اللهُ ربُّنَا لأنبيائه، وَأَمَرَ به عِبادَهُ اهـ ولم يقصص الله تبارك وتعالى قصص من أشار إليهم من الأنبياء والمرسلين في هذا المقام لكثرتهم لأنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير، وكما قال عز وجل: ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ ولله الحكمة البالغة، ومعنى «مِنْ» في قوله عز وجل: ﴿ومِنْ آبائهم وذرياتهم وإخوانهم﴾ التبعيض لأن بعض آباء الأنبياء كان كافرا، كما أن بعض ذرية هؤلاء كان كافرا ومن أمثلة هؤلاء الكافرين من آباء الأنبياء آزر، ومن أمثلة هؤلاء الكافرين من ذرية هؤلاء الأنبياء ابن نوح الذي غرق مع الكافرين وقوله

تبارك وتعالى: ﴿ذلك هُدَى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾ زيادة بيانٍ على أن الهدى هو هدى الله وأن دين الله الذي يرتضيه هو الصراط المستقيم الذي أرشد إليه الناس، ووفَّق له من يشاء من أنبيائه ورسله وعباده الصالحين وتحذيرٌ شديد من الشرك وتنديد بالمشركين، ومعنى قوله عز وجل: ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾ أي ولو اتخذ واحد من هؤلاء الصالحين ندًا لله عز وجل لأبطل الله تبارك وتعالى جميع أعماله الصالحة التي سبقت هذا الإشراك، كما قال عز وجل: ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ولَتَكونَنَّ من الخاسرين﴾ ولا شك أن الأنبياء معصومون من الشرك، وقد جاء هذا التحذير بأسلوب الشرط، والكلام إذا سيق على سبيل الشرط لا يقتضي الوقوع، قال ابن كثير رحمه الله: وهذا شرط، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع كقوله ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ وكقوله: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناهُ من لَدنَّا إن كنا فاعلين﴾ وكقوله: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولدًا لاصطفى مما يخلق ما يشاء، سبحانه هو الله الواحد القهار﴾ اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿أُولَئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة، فإن يكفر بها هٰؤلآء فقد وكَّلْنَا بها قوما ليسوا بها بكافرين﴾ تقرير للنبوة والرسالة وثناءٌ على المرسلين ببراءتهم من الشرك واستمساكهم بما أنزل الله من الهدى والوحي، وتهديدٌ لمن كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، والإشارة بأولئك لعلو منزلة الأنبياء المذكورين، كما أن الإشارة بقوله: هؤلاء راجعة للمشركين الكافرين من قريش وغيرهم الذين يكذبون بالكتاب وبالرسول ﷺ وبالرسالة، والمراد بالكتاب الجنس فيعم كل الكتب السماوية والمراد بالحكم الفقه في الدين والمراد بالنبوة ما يشمل الرسالة. ومعنى: ﴿فإن يكفر بها هٰؤلآء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين﴾ أي فإن يجحد هٰؤلاء الكفار ما

أنـزل الله من الكتـاب وما أرسل مـن رسول فإن الله لا يعجـزه إهـلاكهم إن استمروا على جحودهـم، وأن يستبدل قوما غيرهم يؤمنـون بكتب الله ورسله ولا يكفرون بها كما قـال عز وجل: ﴿وإن تتـولوا يستبـدل قومـا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ ومعنى: ﴿فقد وكَّلْنَا بها قـوما ليسوا بها بكافرين﴾ أي فقد أرصدنـا لها من يؤمن بها ويحبهـا أكثر من حبه لنفســه وولده ووالـده والناس أجمعين، ويخالط الإيمان بها بشاشة قلبه فلا يَسْخَطُهَا أبدا.

قال تعالى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُم اقْتَدِهْ، قُلْ لاَ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَٰلَمِينَ * وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا ما أَنزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مِن شَيْءٍ، قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكِتَٰبَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى للنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وتُخفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثم ذَرْهُمْ في خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

بعد أن ذكر الله عز وجل أنه كان من فضل الله على إبراهيم عليه السلام وما جزاه به على طاعته لله وإخلاصه التوحيد له، ويقينه في نصر الله لأنبيائه ورسله أنه وهب له إسحاق ويعقوب وجعل في ذريته النبوة والكتاب لتثبيت فؤاد رسول الله ﷺ وتأكيد أنه ليس بدعا من الرسل، وندَّد بالمشركين الذين يدَّعون محبة إبراهيم عليه السلام وهم يناقضون مذهبه وبيَّن عز وجل أن الشرك يحبط كلَّ عمل صالح، وبشر نبيه ﷺ بانتصار الإسلام الذي هو دين جميع الأنبياء والمرسلين أكد هنا أن هؤلاء الأنبياء والمرسلين هم المستقيمون على منهج الهُدى وأمر نبيه ﷺ بسلوك منهجهم والاقتداء بِهُداهم في الاستمساك بشريعة الله والوقوف عند حدود الله، واجتناب الشرك بالله، وطَلَبَ من رسوله صلى الله عليه وسلم أن ينبه المشركين إلى حجة ظاهرة تثبت أن محمدا هو رسول الله ﷺ حقا وصدقا وتُدْحِضُ حُجَّتَهُمْ وباطلهم، حيث انتصب ﷺ لدعوتهم إلى الهدى والنجاة والفوز بالحياة الطيبة في الدنيا والآخرة وهو لا يسألهم على ذلك أجرا وهو قد جاءهم بالدين الذي يحصل لمن يتمسك به الشرفُ الرفيعُ مهما كان جنسه أو لونه أو مكانه أو زمانه، وهو تذكير للعالمين، وليس على رسول الله ﷺ إلا البلاغ، ثم وبَّخ المشركين واليهود الذين ينكرون الرسالة ويزعمون أن الله عز وجل ما أنزل كتابا ولا وَحْيًا على بشر، وأمر رسوله ﷺ أن يسألهم: من أنزل الكتاب الذي جاء به

موسى نـورا وهدًى للناس، ولن يستطيع أحد من هـؤلاء المشركين واليهود أن ينكر نـزول التوراة على موسى فإنهم جميعـا مقرون بذلك لا يستطيعـون إنكاره بحـال، وفي ذلك يقول تبـارك وتعـالى: ﴿أُولَئكَ الـذين هَدَى اللهُ فبِهُـدَاهم اقْتدهْ، قل لا أسألكم عليـه أجرا إن هو إلا ذكـرى للعالمين﴾ إلى قولـه تبارك وتعالى: ﴿والـذين يؤمنون بـالآخرة يـؤمنون به وهم على صـلاتهم يحافظون﴾ والإشارة في قول تبـارك وتعال: ﴿أولَئك الذين هَدَى الله فبِهـداهم اقتده﴾ إلى الأنبيـاء المشار إليهم بقـوله عـز وجل: ﴿أولئك الـذين آتيناهم الكتـاب والحكم والنبـوة﴾ ومعنى: «هَـدَى اللهُ» أي هـداهم الله ووفقهم إلى الصراط المستقيم وصـانهم من الانحـراف عن دينه القـويم، وجعلهم أئمـة الهُدَى. ومعنى قولـه عز وجل ﴿فَبِهُدَاهُم اقتـده﴾ أي فانهج منهجهم واتبع سبيلهم والزم هـداهم في الاستمساك بشريعة الله، والـوقوف عند حـدوده فيما يوحَى إليك كما التـزمـوا بحدود الله فيما أَوْحَـى إليهم، وما شرع لهم، كما قـال عـز وجل: ﴿شَرَعَ لكم من الـدين مـا وَصَّى به نـوحـا والـذي أوحينا إليك ومـا وَصَّيْنَا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أَقِيموا الدِّينَ ولا تَتَفرَّقُوا فيه﴾ ولا خلاف عند أهل العلم في أن الأنبيـاء متفقون في أصول الشريعـة وأنَّ لكل رسول من رسل الله صلى الله عليهم وسلم منهجـا يـلائم أمتـه، كما قـال عـز وجل: ﴿لكلٍّ جعلنـا منكم شرعـةً ومنهـاجـا﴾ فما ثبت نَسخُـهُ من شرائع الأنبيـاء السابقين فإنه لا يعمل به بعد النسخ، وقـد اقتدى رسول الله محمد ﷺ بداود عليه السلام في السجدة، فقد قال البخاري في تفسير سورة الأنعام: حدثني إبراهيم بن مـوسى أخبرنا هشام أنَّ ابن جُـرَيْج أخبرهم قال: أخبرني سليمانُ الأحولُ أن مُجاهِـدًا أخبره أنه سأل ابن عباس أَفِي ص سجـدةٌ؟ فقال: نَعَمْ، ثم تـلا: ﴿ووهبنا لـه إسحـاق ويعقوب﴾ إلى قـولـه: «فَبِهُدَاهُم اقْتَـدِهْ» ثم قال: هُـوَ منهم. زاد يزيدُ بنُ هـارونَ ومحمدُ بنُ عُبَيْـدٍ وسهلُ بنُ يوسفَ عن

العَوَّامِ عن مجاهد قلتُ لابن عباس فقال: نَبِيُّكُمْ ﷺ مِمَّنْ أُمِرَ أن يقتدىَ بهم، وقال البخاري في تفسير سورة ص: حدثنا محمدُ بنُ بَشَّارٍ حدثنا غُنْدَرٌ حدثنا شعبة عن العوَّام قال: سألت مجاهدًا عن السجدة في ص قال: سُئِلَ ابنُ عباس فقال: «أولَئك الذين هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُم اقْتَدِهْ» وكان ابن عباس يسجد فيها حدثني محمد بنُ عبد الله حدثنا محمدُ بنُ عُبَيْدٍ الطَّنَافِسِيُّ عن العوام قال: سألت مجاهدا عن سجدة ص فقال: سألتُ ابنَ عباس: من أين سَجَدْتَ؟ فقال: أَوَ ما تقرأ: «ومن ذريته داود وسليمان» «أولَئك الذين هَدَى اللهُ فبهداهم اقتده» فكان داود ممن أُمِرَ نبيكم ﷺ أن يقتدى به فسجدها داودُ عليه السلام فسجدها رسول الله ﷺ اهـ وقولهُ تبارك وتعالى: ﴿قل لا أَسْئَلُكُمْ عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾ هو كقوله عز وجل: ﴿وما تَسْئَلُهُمْ عليه من أجر، إنْ هُوَ إلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ والاحتجاج على صدق رسول الله ﷺ بعدم سؤاله أجرا على تبليغ الرسالة قد سلكه المرسلون قبله ﷺ، كما ذكر عز وجل ذلك في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول عن نوح عليه السلام ﴿ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله﴾ في سورة هود ويقول عنه في سورة الشعراء: ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين﴾ ويقول عن هود عليه السلام ﴿وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرىَ إلا على رب العالمين﴾. ويقول عن صالح عليه السلام: ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أَجْرِىَ إلا على رب العالمين.﴾ ويقول عن لوط عليه السلام: ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أَجْرِيَ إلا رب العالمين﴾ ويقول عن شعيب عليه السلام: ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين﴾ ولا شك أنَّ من ينتصب للدعوة لإقامة أقوم المناهج وأحسن أساليب الحياة الطيبة التي تجلب عز الدنيا وسعادة الآخرة ويحفظ للناس أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وعقولهم دون أن يطلب منهم أجرا في مقابلة

عمله هذا مع تعرضه لتكذيب المكذبين وعناد المعاندين وافتراء المفترين وأذى السفهاء الجاحدين لا بد وأن يكون صادقا وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالوا ما أنزل اللهُ على بَشَر من شيء﴾ بيانٌ لجهل المشركين واليهود بالله عز وجل وعدم معرفتهم لأسمائه الحسنى وصفاته العُلَى ونفيهم لرحمة الله وإحسانه وجوده حيث زعموا أنه لم ينزل كتابا ولم يرسل رسولا، ولا شك أن إنكار الرسالة طعنٌ في الله تبارك وتعالى ونسبةٌ له إلى الظلم والسفه والعبث وعدم الإحسان إلى خلقه بترك عباده سُدًى يتخبطون في معايشهم، مع أن الناس في حاجة إلى النبوة والرسالة والكتاب أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب لأن الإنسان مدني بالطبع كما يقرر علماء الاجتماع فلا يستغنى عن الناس ولا يستغنى الناس عنه ولو ترك الناس لأنفسهم لسلب القوى الضعيف والغنى الفقير والعزيز الذليل ولصاروا كحيوانات الغابات لذلك كانوا في أمس الحاجة إلى نظام يكفل لكل ذي حق حقه، والبشرية تعجز عن وضع مثل هذا النظام لخضوع الإنسان للمؤثرات البيئية والنفسية لذلك اقتضت حكمة أرحم الراحمين ورب العالمين العليم الخبير أن يبعث في كل أمة نذيرا يرسم لها منهج سعادتها وعزها في الدنيا والآخرة، فمن زعم أن الله لم يرسل رسولا ولم ينزل كتابا على بشر فهو جاهلٌ بالله عز وجل حاقدٌ على الناس ومعنى: «وما قَدَرُوا الله حق قدره» وما عظموا الله حق تعظيمه، وما عرفوه بأسمائه الحسنى وصفاته العلَى، وقد وصف الله تبارك وتعالى في هذا المقام من أنكروا الرسالة بأنهم ما قدروا الله حقَّ قدره، كما وصف من اتخذ ندًّا لله عز وجل بأنه ما قدر الله حق قدره حيث قال في سورة الحج: ﴿يا أيها الناسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعوا له إن الذين تَدْعُونَ من دون الله لن يخلُقُوا ذُبَابًا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذبابُ شيئا لا يستنقذوه منه، ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب * ما قَدَرُوا اللهَ حقَّ قَدْره، إنَّ الله لقويٌّ عَزِيزٌ﴾ وكما قال عز وجل

في سـورة الزُّمَـر: ﴿قل أفغير الله تأمرونِّي أعبـد أيها الجاهلون * ولقـد أُوحِيَ إليك وإلى الـــذين من قبلك لئن أشركـتَ لَيَحْبَطنَّ عَمَلُكَ ولتكـــونَن من الخاسرين * بل الله فـاعْبُدْ وكُـن من الشاكـرين * ومـا قَدَرُوا اللهِ حقَّ قـدره والأرضُ جميعا قَبْضَتُهُ يوم القيامة والسمٰوات مطويات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ فيجب على من يريد السعادة لنفسه أن يَقْدُرَ اللهَ عز وجل حق قدره كما يجب عليه أن يتقي الله حقَّ تقاتـه وأن يجاهد فيه حقَّ جهاده كما قال عز وجل: ﴿وجـاهدوا في الله حقَّ جهـاده﴾ وقال: ﴿اتقوا الله حقَّ تقـاته﴾ والمراد من حق قدره وحق جهاده وحق تقاته ما كان مأمورا به أي حق جهاده الذي أمـركم به، وحقَّ تقـاته التي أمركم بها، واقـدروه قدره الـذي بينه لكم وأمركم بـه، فصدِّقوا الـرسول ﷺ فيما أخبر، وأطيعـوه فيما أَوْجَبَ وأمر، على قدر استطاعتكم لأنـه عز وجل لا يكلف نفسا إلا وسعها، أمـا ما يخرج عن طاقة البشر فذلك لا يُذَمُّ أحد على تركـه، كالإحاطة بالثناء على الله و إحصاء ذلك فإنه خـارج عن طاقة البشر، ولـذلك قال رسول الله ﷺ في دعـائه وهو ساجـد: لا أُحْصِي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ على نفسـك فقد روى مسلم في صحيحه من حـديث الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين عـائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قـال: اللهم إني أعوذ برضاك من سَخَطِكَ، وبمعـافاتك من عقوبتك، وأعـوذ بك منك، لا أُحْصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ على نفسك. وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للنـاس﴾ نقضٌ لما زعمـه المشركون واليهود المُغَـرِّرُون بالمشركين الـذين ادَّعَـوْا أن الله تعـالى مـا أنـزل على بشر من شيء، وقطعٌ لشبهتهم على أكمل وجـه، و إلـزامٌ لهم بها لا سبيل لهم إلى إنكـاره أصـلا، فإن المشركين كـانـوا مقرين بنزول التوراة على موسى عليه السلام وكـانوا يقولون: لو أنا أُنزل علينا الكتاب لكنا أهـدى منهم، كما أن اليهودي إذا أنكر نزول التـوراة على موسى

كان خارجا عما يدعيه من اليهودية، ووصفُ الكتاب بكونه نورا وهدى للناس لزيادة التقريع والتوبيخ، وقوله: ﴿تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾ نَعْيٌ على اليهود الذين حرَّفوا التوراة وغيروا فيها، وزيادة توبيخ لهم بسوء صنيعهم، حيث كانوا يظهرون من أجزاء التوراة ما يشتهون ويخفون ما لا يشتهون، فقد كتموا صفة رسول الله ﷺ وأخفوا أحكام الرجم وحد السرقة ونحوهما، واتبعوا تعاليم التلمود العنصرية التي وضعها لهم أحبار السوء مما لا وجود لها في التوراة كما أشار إلى ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تُخْفُونَ من الكتاب ويعفو عن كثير﴾ وقوله: ﴿قل الله﴾ أمر لرسول الله ﷺ بأن يجيب عنهم إشعارا بتعين الجواب الذي لا محيد عنه وإعلاما بأنهم أُفحِمُوا ولم يقدروا على النطق بالجواب خجلا، أي قل لهم: الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى وقوله عز وجل ﴿ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ قال ابن كثير رحمه الله: أي ثم دَعْهُم في جهلهم وضلالهم يلعبون حتى يأتيهم من الله اليقين فسوف يعلمون: أَلَهُم العاقبة أم لعباد الله المتقين.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ، وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ . وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ، لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ .

بعد أن أفحم المشركين واليهود الذين زعموا أن الله ما أنزل على بشر من شيء جهلا وحسدا، وكذّبهم في هذه الكلمة الشنعاء بتقرير أمر لا يستطيعون دَفْعَهُ وهو أنه عز وجل أنزل التوراة على موسى فأبطل بذلك حجتهم وأدْحَضَ زعْمَهُمْ، شرع هُنا في بيان ما سيق الكلام من أجله وهو تحقيقُ رسالة محمد ﷺ وأن الله الذي بعث موسى ﷺ وأنزل عليه التوراة هو الذي بعث محمدا ﷺ وأنزل عليه القرآن المبارك المصدقَ للتوراة ولسائر الكتب السماوية التي تقدمته حيث إنها تدعو إلى توحيد الله ووجوب إخلاص العبادة له وحده لا شريك له والإيمان بجميع المرسلين وكلها متفقة أيضا في الكليات الخمس وهي حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال، كما أنها كلها متفقة على وجوب الإيمان باليوم الآخر، وبجميع كتب الله وملائكته، وقد تَوَعَّدَ الله تبارك وتعالى المفترين على الله الكذب بالعذاب المهين المذل لهم عند سكرات الموت وفي البرزخ وفي الجحيم، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿وهٰذا كتاب أنزلناه مبارك مُصَدِّقُ الذي بين يديه﴾ إلى قوله

تبارك وتعالى : ﴿لقد تقطع بينكُمْ وضَلَّ عنكم ما كنتم تزعمون﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿وهٰذا كتابٌ أنزلناه مبارك مُصَدِّقُ الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومنْ حَوْلَهَا﴾ أي وهذا القرآن كتابٌ موصوف بأنه أنزله الذي أنزل التوراة على موسى وهو مبارك أي عظيم المنافع كثير الخيرات لا تُحْصَى فوائده ويحصل لمن استمسك به عز الدنيا وسعادة الآخرة، مشتمل على المنهج الذي لا غنى للبشرية عنه أبدا، لتعرف به ربها ورسولها ومالها وما عليها، وتزدلف بتلاوته إلى ذي الجلال والإكرام، وهو كذلك موصوف بأنه مُصَدِّقُ الذي بين يديه أي مُقَرِّرٌ ومُوَافِقٌ لما جاء في جميع الكتب السماوية المنزلة من عند الله من أصول الدين، نافٍ عنها ما ألحقه أحبار السوء بها، ولذلك قالت الجنُّ لما سمعت القرآن : ﴿إنا سَمِعْنَا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم﴾ وقال ورقة بن نوفل : إنَّ هذا والذي جاء به موسى ليخرجان من مشكاة واحدة، وكذلك قال النجاشي . وقوله : ﴿ولتنذر أمَّ القرى ومن حَوْلَهَا﴾ معطوف على معنى ما قبله أي وهو مثبت لكون محمد ﷺ نذيرا لأم القرى ومن حولها والمراد بأم القرى مكة لأن بها البيت الحرام الذي هو أول بيت وضع للناس، والمراد بمن حولها جميع ما يحيط بها من مشارق الأرض ومغاربها وشماليِّها وجنوبيِّها، كما قال عز وجل : ﴿تبارك الذي نَزَّلَ الفرقانَ على عبده ليكون للعالمين نذيرًا﴾ وكما قال عز وجل : ﴿لأنذركم به ومن بَلَغَ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وَقُلْ للذين أُوتُوا الْكِتَابَ والأُمِّيِّين ءَأَسْلَمتُمْ فإنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وإن تَوَلَّوْا فإنَّمَا عليك الْبلاَغُ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا﴾ وفي التعبير بقوله عز وجل : ﴿ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾ في مجيئه مغايرا لنسق ما قبله وعطفه عليه بالواو لِلَفْتِ الانتباه إلى تأكيد ما سيق الكلام من أجله وهو إثبات أنَّ محمدا هو رسول الله حقا وصدقا وأن الله عز وجل أنزل

عليه هٰذا الكتاب العظيـم ليكون للعالمين نذيرا وقولُهُ تبـارك وتعالى ﴿والذين يؤمنـون بالآخـرة يؤمنـون به وهـم على صلاتهم يُحَافِظُـونَ﴾ تنديـد بالمشركين واليهـود بـالإشارة إلى أن الـذي يحملهم على الكفـر بهذا القـرآن العظيم هـو كفرهم بالقيامة واستبعادهم لها، فأمـا من انشرح صدره للإيمان باليوم الآخر وأيقن أن بديع السـمٰوات والأرض لا يعجـزه بعث الموتى وأن ذلك سهل عليه يسير، فإنه يؤمن بالرسالة والقرآن ويحرص على المحافظة على الصلوات، فإن قيل: إن أهل الكتـاب يـؤمنون بـاليـوم الآخر وهم مـع ذلك لا يؤمنـون بالقرآن فالجواب: أن إيمانهم باليوم الآخر إيمان غير صحيح فلا يعتد به لأنهم لا يؤمنون ببعث الأجسام وإنما يزعمون أن البعث للأرواح فقط، ولذلك قال عز وجل في سورة التوبـة: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بـالله ولا باليوم الآخر ولا يُحَرِّمونَ ما حَرَّمَ اللهُ ورسوله ولا يَدِينونَ دين الحق من الذين أُوتُوا الكتاب حتى يُعْطُوا الجزية عن يد وهم صاغـرون﴾ ولذلك سارع من كان على بصيرة بدين مـوسى أو عيسى عليهما السـلام من أهل الكتـاب كعبـد الله بن سـلام والنجاشي إلى الإيمان بمحمـد ﷺ وبما أنزل عليـه من الكتاب، فإن قيل: لم خصَّ الصـلاة بـالـذكـر مع أن المطلـوب مـن المؤمن أن يحافظ على جميع الطاعـات؟ فالجواب: أن تخصيـص الصلاة بـالذكـر للتنبيه على أنها أشرف العبـادات وأعظم أركـان الإسلام بعـد الشهـادتين، ولـذلك روى مسلم في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن بين الـرجل وبين الشرك والكفـر تـرك الصـلاة. كما روى الترمـذي وقـال حديث حسن صحيح من حـديث بُرَيْدَةَ رضي الله عنـه عن النبي ﷺ قال: العهد الـذي بيننا وبينهم الصلاةُ، فمن تـركها فقد كفـر. كما روى الترمذي وقال حديث حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أوَّلَ ما يُحَاسَبُ بـه العبدُ يومَ القيامة من عملـه صلاتُهُ، فإن

صَلَحَتْ فقد أفلح وأَنْجَحَ، وإن فَسَدَت فقد خاب وخَسِرَ. الحديث. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أُوحِيَ إليَّ ولم يُوحَ إليه شيء ومَن قال سأُنزِلُ مِثْلَ ما أنزل الله﴾ قال ابن تيمية رحمه الله: لما ذكر الله سبحانه قولَ الذين ما قدَرُوا اللهَ حقَّ قدره حيث أنكروا الإنزال على البشر، ذكر المتشبهين به، المدَّعِينَ لمماثلته من الأقسام الثلاثة فإن المماثل له، إما أن يقول: إنَّ الله أَوْحَى إليَّ، أو يقول: أُوحِيَ إليَّ وأُلْقِيَ إليَّ وقيل لي، ولا يُسَمِّي القائل، أو يُضيفَ ذلك إلى نفسه، ويذكر أنه المُنْشِئُ له، ووجه الحصر: أنه إما أن يحذف الفاعل أو يذكره وإذا ذكره فإما أن يجعله من قول الله أو من قول نفسه، فإنه إذا جعله من كلام الشياطين لم يقبل منه، وما جعله من كلام الملائكة فهو داخل فيما يضيفه إلى الله، وفيما حذف فاعله، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحِيَ إليَّ ولم يُوحَ إليه شيء ومَن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾ وتَدَبَّرْ كيف جعل الأوَّلَيْنِ في حيز الذي جعله وحيا من الله ولم يُسَمِّ الموحِي؟ فإنهما من جنس واحد في ادِّعاء جنس الإنباء، وجعل الآخر في حيز الذي ادَّعَى أن يأتي بمثله. ولهذا قال: ﴿ممن افترى على الله كذبا﴾ ثم قال: ﴿وَمَن قال سَأُنزِلُ مثل ما أنزل الله﴾ فالمفترى للكذب والقائل: أُوحِيَ إليَّ ولم يُوحَ إليه شيء من جملة الاسم الأول وقد قرن به الاسم الآخر، فهؤلاء الثلاثة المدَّعون لِشَبَهِ النبوة، وقد تقدم قبلهم المكَذِّبُ للنبوة، فهذا يَعُمُّ جميع أصول الكفر التي هي تكذيبُ الرسل أو مضاهاتهم، كمسيلمة الكذاب وأمثاله اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمَرَاتِ الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله: قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولو ترى يا محمد، حين يغمر الموت بسكراته هؤلاء الظالمين العادلين بربهم الآلهة والأنداد، والقائلين: ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ والمفترين على الله

كـذبـا، الـزاعمين أنَّ الله أوْحَى إليهم ولم يُـوحَ إليهم شيء، والقـائلين: ﴿سأُنزِلُ مثلَ ما أنزل الله﴾ فتُعَايِنهم وقد غشيتهم سكراتُ الموت، ونزل بهم أمـرُ الله، وحَانَ فنـاء آجالهم والملائكـةُ بـاسِطُو أَيْـدِيهِمْ يضربون وُجُـوهَهُمْ وأدبارهم، كما قال جل ثناؤه: «فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبـارهم. ذلك بأنهم اتبعوا مـا أسخط اللهَ وكرِهُـوا رضوانـه» يقولـون لهم: أخرجـوا أنفسكم. والغمرات جمع غمرة، وغمـرة كل شيء كثرتـه ومعْظَمُهُ، وأصله الشيءُ الذي يَغْمُرُ الأشياءَ فيُغَطِّيهَا، ومنه قولُ الشاعر:

وهـــل يُنْجِي من الغمرات إلا　　　بُرا كَـــاءُ القتــــال أو الْفِرَارُ

ثم قـال ابن جريـر رحمه الله: فإن قال قـائل: ما وَجْـهُ قولـه: ﴿أخرجـوا أنفسكم﴾ ونفوسُ بني آدم إنما يُخْرِجُها من أبـدان أهلها ربُّ العالمين؟ فكيف خُوطِبَ هؤلاء الكفار، وأمِرُوا في حال الموت بإخراج أنفسهم؟ فإن كان ذلك كذلك فقد وجب أن يكون بنـو آدم هم يقبضون أنفس أجسامهم؟ قيل: إن معنى ذلك بخـلاف الـذي إليـه ذهبـتَ، وإنما ذلك أمـرٌ من الله على أَلْسُن رُسُله الـذين يقبضون أرواح هؤلاء القـوم من أجسامهم بأداء مـا أَسْكَنَهَا ربُّها من الأرواح إليه، وتسليمها إلى رسلـه الذين يتَوَفَّوْنَهَا. القـول في تأويل قوله: ﴿اليومَ تُجْزَوْنَ عذابَ الهُون بما كنتم تقولـون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر الله جل ثناؤه عما تقول رسلُ الله التي تقبض أرواح هؤلاء الكفـار لها، يخبر عنها أنها تقول لأجسامهـا ولأصحابها: أخرجوا أنفسكم إلى سخط الله ولعنته، فإنكم اليـوم تُثَابُونَ على كفركم بالله، وقِيلِكُمْ عليـه الباطلَ، وزعمكم أن الله أوحـى إليكم ولم يُوحِ إليكم شيئـا، وإنكارِكُمْ أن يكـون الله أنزلَ على بشر شيئا، واستكباركم عن الخضـوع لأمر الله وأمر رسولـه، والانقياد لطاعته «عذاب الهون» وهـو عذابُ جهنم الذي يُهِينُهم فيُذِلُّهُمْ حتى يعـرفوا صغـار أنفسهم اهـ وقولـه تبارك وتعـالى: ﴿ولقد

جئتمونـا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتـركتم ما خوّلناكم وراءَ ظهـوركم وما نَـرَى معكم شفعـاءَكم الـذين زعمتم أنهم فيكم شركـاءُ، لقـد تقطع بينكم وضل عنكم مـا كنتم تَـزْعُمُـونَ﴾ هذا خبر من الله عـز وجل عما هـو مـوبخٌ ومقَرِّعٌ به أعـداء المرسلين على رءوس الأشهاد يوم القيامـة إذ يقول لهم: ولقد أتيتمونـا منقطعين عن الأهل والمال والولـد حينما دعوناكم مـن قبوركم ونفخ الصور فخرجتم مسرعين قد أحييناكم كما خلقنـاكم أول مرة وقد بعثناكم من قبـوركم حفاة عـراة غُرْلاً لم تنتفعـوا بما ملكنـاكم، فتركتموه وراء ظهـوركم ولم تكتسبوا منه عملا صـالحا ينفعكم في الدار الآخرة، وقد تَبَرَّأَتْ منكم آلهتُكُم التي اتخذتموهـا مـن دون الله فـلا تستطيع الشفـاعـة فيكـم، وقـد تقطعت الأسباب بينكم وضل عنكم ما كنتم تفترون، وهذا شبيه بقوله تبارك وتعالى: ﴿وعُرِضُوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة، بل زعمتم أَلَّن نجْعَلَ لكم مـوعدا﴾ وبقـوله عـز وجل ﴿ويـوم يقول نَـادُوا شركائي الـذين زعمتم فَدَعَوْهُمْ فلم يستجيبـوا لهم وجعلنا بينهم مَوْبقًا﴾ وبقـوله عز وجل: ﴿إذ تبرأ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبَعُوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾ في آيات كثيرة جدا.

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

بعد أن قرر عز وجل أدلة التوحيد والرسالة والبعث بعد الموت على أكمل وجه شرع في لفت انتباه عباده إلى ألوان من الآيات الكونية الشاهدة بأنه لا إلّه إلا هو، الدالَّةِ على كمال علمه وقدرته وبالغ حكمته وجليل صُنْعِهِ حيث يقول عز وجل : ﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحَبِّ والنوى ﴾ إلى قوله عز وجلَّ ﴿ إِنَّ في ذٰلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللـه فَالِقُ الحَبِّ والنَّوَى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ومُخْرِجُ الْمَيِّتِ من الحَيِّ ﴾ أي إن الله هو الذى يفْلِقُ أي يَشُقُّ الحَبَّةَ اليابسة فيخرج منها الزرع الحيَّ النامي كالأرز والحنطة والشعير والدخن والذرة والبرسيم ويشق النواة اليابسة الجامدة فيخرج منها الشجر كالنخل والخوخ والمشمش، وقد لوحظ أن الحبة أو النواة إذا وضعت في الأرض وأصابها الماء ومضت مدة من الزمن شَقَّ الله تبارك وتعالى فى هذه الحبة أو النواة شقًّا من أعلاها وشقًّا من أسفلها فيخرج من الشق الأسفل جذر الشجرة الذى يغوص في الأرض لإمداد الشجرة بأسباب حياتها وبقائها

بالقَدْر الـذى يريده الله لها ، ويخرج من الشق الأعلى الزرع والشجـر بسيقانه وأغصـانه وأوراقـه وما يتـولد فيـه بعد ذلك من المنـافع والثمار، وفى هذا آيـةٌ عظيمة تلفت انتباه ذوي الفكر إلى عجائب قدرة الله ، فإنَّ باطن الأرض جرم كثيف صلب قـد لا تنفذ المسلـة القـوية فيـه ولا يغوص فيـه السكين ، ومع ذلك فإنَّ الله عز وجل يُمَكِّنُ لعـروق الشجرة أن تنفذ فيه وتغـوص في باطن هذه الأرض مع أن هـذه العروق في غـاية الـدقة والضعف بحيث لـو دلكها الإنسان بأصابعه بأدنى قوة لصارت كالماء ، كما أن الزرع والشجر الذى ينبت من الحبة اليـابسة الجامدة أو النـواة اليابسة الجامـدة ينمو ويكبر ويحمل من الأوراق والثمار وجميع خصـائص الأصل الـذي منـه الحبـة أو النـواة ، حتى توجد فيه بمشيئة الله الحبة الجامدة اليابسة أو النواة الجامدة اليابسة ، ولذلك قال عز وجل : ﴿ يخرج الحي من الميت ومُخْرِجُ الميتِ من الحي ﴾ والعرب قد يريدون بالحي كل ما ينمو من الحيوان والنبات ، وبالميت ما لا ينمو كالنطفة والحبة الجامدة والنـواة اليابسة ، وكذلك مـا لا روح فيه . وفَلْقُ الحب والنوى وإخراجُ الحى من الميت والميت من الحي يجيء على مقدار قدَّره العزيز العليم لمنافع الناس وأنعامهم فيما يحتاجونه من أقواتهم وفاكهتهم وأدويتهم وغيرها ، كما أشـار إلى ذلك حيث قال عن خلقـه عز وجل لـلأرض : ﴿ وبارك فيهـا وقَدَّرَ فيهـا أقواتها فى أربعـة أيام سـواءً للسائلين ﴾ وكما قـال تعالى في سـورة عَبَس : ﴿ فَلْيَنظُـر الإنسـانُ إلى طعامـه* أَنَّـا صَبَبْنَا الماءَ صَبًّـا * ثم شَقَقْنَـا الأرضَ شَقًّا * فأنبتنـا فيها حَبًّا * وَعِنبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًـا ونَخْلاً * وحَدَائِقَ غُلْبًا * وفاكهـةً وأَبًّا * مَتَاعًا لكم ولأنعامِكُمْ ﴾ ومعنى قولـه تبارك وتعالى : ﴿ذٰلكم الله فأنى تُؤْفكـون ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : وأمـا قوله : ﴿ذٰلكم الله﴾ فإنه يقول : فاعلُ ذلك كلّه اللّهُ جل جلاله ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ يقول : فأي وجـوه الصَّدِّ عن الحق أيها الجاهلـون تُصَدُّونَ عن الصـواب وتُصْرَفُونَ ،

أفـلا تتدبـرون فتعلمـون أنـه لا ينبغي أن يُجْعَلَ لمن أنعم عليكم بفلق الحب والنوى ، فأخـرج لكم من يابس الحب والنـوى زروعا وحُرُوثًـا وثمارا تتغذون بِبَعضِهِ وتتفكهون ببعضه شريكٌ في عبادته ما لا يضر ولا ينفع ولا يسمع ولا يبصر. اهــ وقـولـه تبارك وتعـالى : ﴿ فَـالِقُ الإصْبَـاحِ وجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًـا والشمسَ والقمرَ حسبانا ﴾ أي هو سبحانه هو الذى يشق عمود الصبح عن ظلمة الليـل ويفلق ظلام الليل عن غـرة الصباح ، فيضيء الـوجود ويستنير الأفق ويذهب الليل بظـلام رواقه ، ويجيء النهار بضيـائه وإشراقه ، فينتشر أهل الحاجـات لطلب حاجـاتهم بعـد أن سكنوا بـالليل ، واستراحوا ، وقـد جعل تبارك وتعالى الشمس والقمر يجريان في منازلهما بحساب مُقَدَّرٍ مُقَنَّنٍ لا يتغير ولا يضطرب لحظة واحدة منذ خلق الله السموات والأرض ، وكلٌّ واحد منهما يسلك منـازلـه في الصيف والشتـاء ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تـدرك القمـر ولا الليل سـابق النهـار وكـل في فَلَكٍ يسبحـون﴾ ويترتب على ذلك مصالح العبـاد والبلاد ، وتتـواجد بـذلك الفصول الأربعـة واختلافُ الليل والنهار طولا وقصرا ، ويعرف الناس السنين والشهور والأيام والحساب ، وقد نبه الله تبارك وتعالى عباده بذلك ليكونوا على بصيرة فيما يحيط بهم ويشاهدونه من آياتـه الكونية التى تجري بمقـدار دقيق عجيب ، ولذلك ذيل هـذا المقام ونحوه بقوله عز وجل : ﴿ ذٰلك تقدير العزيز العليم ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وآيةٌ لهم الليلُ نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجري لمستقر لها ، ذٰلك تقدير العزيز العليم * والقمر قَـدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حتى عاد كالعُرْجُونِ القديم * لا الشَّمسُ ينبغي لها أن تـدرك القمر ولا الَّيْلُ سـابقُ النهار ، وكلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُون ﴾ . وكما قال عز وجل : ﴿ وزَيَّنَّـا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذٰلك تقـدير العزيـز العليم ﴾ وقد أشـار الله عز وجل إلى أن مجيء الليل والنهار هو من رحمة الله بعبـاده حيث يقول عز وجل : ﴿ قل أرأيتم إن

جعل الله عليكم الليْلَ سَرْمَدًا إلى يـوم القيامة مَنْ إلَـهٌ غَيْرُ الله يأتيكم بِضِياءٍ أفلا تسمعـون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سَرْمَدًا إلى يوم القيـامة مَنْ إلَـهٌ غَيْرُ الله يأتيكم بليلٍ تسكنون فيـه أفلا تُبْصِرُونَ * ومِن رحمتـه جعل لكم الليْلَ والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ ومعنى قولـه تبارك وتعالى : ﴿ وهـو الذى جعل لكم النُّجُـومَ لِتَهْتَدُوا بها فى ظُلُمات البر والبحـر، قد فَصَّلْنَـا الآياتِ لقـوم يعلمون ﴾ أى والله الـذى يفلق الحب والنوى ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي والذي يفلق الإصباح، وقـد جعل لكم الليل سكنا والشمس والقمـر حسبانـا هو الـذى خلق لكم الكـواكب وجعلها أدلـة لكم إذا ركبتم السفن فى البحار أو كنتم في الفيـافي والقفار وضللتم الطريق أو تحيرتم فيها ليلا فلم تهتدوا إلى الجهة التي تريدون فإنكم تستدلون بهذه النجوم إلى وجهتكم، وتعرفون بها سبيلكم فتسلكونه، وتنجـون بها من ظلمات البر أو البحر التى تحيـط بكم، كما قال عـز وجل : ﴿وعلاماتٍ، وبالنَّجم هم يهتدون ﴾ وقـد مَيَّزَ اللهُ تبارك وتعالى الأدلة لكم، وفرَّق الحجـج والبراهين فيكم، ليتدبـرها أولو العلـم بالله منكم، وليعـرفها العقـلاءُ فَيُنِيبُوا مِن غَيِّهم، وينـزجروا عـن ضلالهم وخطئهم، وقـولُه تبـارك وتعـالى : ﴿ وَهُوَ الَّـذِى أَنشَأَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِـدَةٍ فَمُسْتَقَـرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ، قَـدْ فَصَّلْنَـا الآيَـاتِ لِقَـوْمٍ يَفْقَهُـونَ ﴾ لفت انتباه النـاس إلى آيـات الله البـاهـرة وحججـه الظـاهـرة في إنشـاء جميع البشر مع اختـلاف ألـوانهم وألسنتهم وطبائعهـم من نفس واحدة وهي آدم عليـه السلام، وإنشـاء مستقر لهم فى الأرض التي جعلها لهم ذلولا، ومستـودعٍ لهم في البرزخ، كما قال عز وجل : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنهـا نخرجكم تارة أخرى ﴾ والمستقر : هو المكـان الـذى يحصل فيـه الاستقـرار والمستـودع : المكـان الـذى تجعل فيـه الوديعة، وقد قال تبارك وتعالى فى مطلع هذه السورة الكريمة : ﴿ هو الذى

خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجلٌ مُسَمًّى عنده ثم أنتم تمترون ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ﴾ وقد ذكر الإمام البغوي عن مجاهد أنه قال : مستقر على ظهر الأرض فى الدنيا ومستودع عند الله في الآخرة ا هـ وقال أبوالسعود العمادي في تفسيره : ﴿قد فصلنا الآيات﴾ المبينة لتفاصيل خلق البشر من هذه الآية ونظائرها ﴿لقوم يفقهون﴾ غوامضَ الدقائق باستعمال الفطنة وتدقيق النظر، فإن لطائف صنع الله عز وجل فى أطوار تخليق بنى آدم مما تحار في فهمه الألباب ، وهو السِّرُّ فى إيثار «يفقهون» على «يعلمون» كما ورد في شأن النجوم ا هـ وقولُهُ تبارك وتعالى : ﴿وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كلِّ شيء فأخرجنا منه خَضِرا نخرج منه حَبًّا مُتراكِبا ومن النخل من طَلْعِهَا قِنْوانٌ دَانِيةٌ وجناتٍ من أعناب والزيتون والرُّمَّان مُشْتَبِها وغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إنَّ فى ذٰلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ زيادة تنبيه العباد إلى جزيل نعم الله عليهم ، بأنه وهو الذي أنشأهم قد أوجد لهم من رزقه ما يحتاجونه في معاشهم من الغذاء والفاكهة ، وأبرز لهم فيها حجته البالغة الدالة على كمال قدرته وعلمه وحكمته ورحمته وجوده وإحسانه ، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على جملة كبيرة من البراهين الدالة على أن الله هو رب كل شيء وسيده ومليكه ، مع ما اشتملت عليه من تذكير العباد بأن هذه الأدلةَ هى نِعَمٌ لله عز وجل يجب على العباد أن يشكروا الله عليها ويخصوه بالعبادة ، ولا يتوجهوا بشيء من العبادة لسواه . ومعنى قوله عز وجل : ﴿وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء﴾ أي والله المستحق للعبادة وحده الذى يفلق الحب والنوى ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحي الذى فلق الإصباح وجعل الليل سكنا

والشمس والقمر حسبانا ، وجعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر، وأنشأكم من نفس واحدة هو وحده الذى أنزل عليكم المطر وجعل الماء أصلا لكل شيء حي ، وأخرج به من غذاء الأنعام والبهائم والطير والوحش وأرزاق بني آدم وأقواتهم وفاكهتهم ما يتغذون به فينبتون عليه وينمون مدة استقرارهم على الأرض ، وفى قوله : ﴿فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبًّا متراكبًا﴾ لفت انتباه إلى عظيم قدرة الله حيث أخرج من الحبة مادة خضراء لا وجود للحب فيها ثم يرتفع عودها وتحمل سنبلة بها حب متراكب بعضُه على بعض فى نظام دقيق عجيب . وقوله : ﴿ومن النخل من طلعها قنوانٌ دانيةٌ وجناتٍ من أعناب والزَّيتون والرُّمان مشتبها وغير مُتَشابِهٍ﴾ لفت انتباه الناس إلى النخل وما يخرج منها من الثمرة حيث تكون في أول ظهورها كنعلين مُطْبَقَيْنِ والحَمْلُ بينهما منضود والطَّرَف مُحَدَّدٌ ثم يتفتح ، وقشره يسمى الكُفُرَّى وهو وِعَاءُ الطَّلْع ، والقِنْوان جمع قِنْو وهو العِذْق ، أى ومن النخل ما قنوانها دانية أى قريبة التناول بسبب قصر النخلة ، ومنها ما قنوانها بعيدة لطول النخلة ، وقد حذف القسم الثاني لدلالة الأول عليه كما قال : ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾ أى وسرابيل تقيكم البرد ، كما يلفت انتباه الناس إلى أشجار الأعناب والزيتون والرمان وما تحمل من ثمار وما يوجد بينها من التشابه فى أشياء والاختلاف فى أخرى ثم دعاهم إلى النظر فى ثمره عند أول بُدُوِّه وعند نضجه ليشاهدوا عجائب صنع الله ولذلك قال : ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

قال تعالى : ﴿ وجعلـوا لله شركاءَ الجنَّ وخلقهم وخرقـوا له بنين وبنات بغير عِلْم، سبحانـه وتعالى عما يصفون * بـديع السمٰوات والأرض أنَّى يكـون له ولـدٌ ولم تكن له صـاحبـة وخلق كلَّ شيءٍ وهـو بكل شيء عليم * ذٰلكم الله ربكم لا إلٰه إلا هو خالق كـل شيء فاعبدوه، وهو على كل شيء وكيل * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ .

بعد أن ساق عز وجل جملة كبيرة من البراهين والحجج والأدلة الظاهرة الباهرة الدالَّةِ على أن الله عز وجل هو ربُّ كُـلِّ شيء وسيدُه ومليكُه مع تذكير العباد بأن هذه الأدلـةَ هي كذلك نِعمٌ لله عز وجل يجب على العبـاد أن يشكروا الله عليها ويخصوه بـالعبادة ولا يَتَوَجَّهُوا بشيء من العبادة لأحـد سواه، شرع هنا في التنديد بمن جعل لله شريكـا من خلقه وتوبيخ هؤلاء الـذين ما قدروا الله حَقَّ قَـدْرِه فجعلــوا الجنَّ شركـاءَ لله، واختلقـوا لــه بنين وبنـاتٍ بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون، ولله الأسماء الحسنى والصفاتُ العُلَى. وفي ذلك يقول: ﴿وجعلوا لله شركَاءَ الجنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَـاتٍ بغير علم، سُبْحَـانَهُ وَتَعـالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿ لا تُدْرِكُه الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصَـار وهُـوَ اللطيفُ الخَبِيرُ﴾ ومعنى قوله عز وجـل: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَـاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ أي وقـد اتخذوا الجنَّ أندادا لله عـز وجل فعبـدوهم واستعـاذوا بهم واعتقـدوا أنهم يـدفعــون عنهم الشر، مع أن الجنَّ خلقٌ من خلق الله وعبيـدٌ من عبيده نـواصيهم بيده يتصرف فيهم كيف يشـاء ويحكم فيهم بما يـريـد، وقد خلق الله عـز وجل الجنَّ من النـار وخلق الملائكـة من النـور وخلق آدم من الطين، وقد قـال تبـارك وتعالى: ﴿خلق الإنسـان من صلصـال كالفَخَّـار * وخلق الجانَّ من مـارج من نار﴾ وقـد روى مسلم في صحيحـه من حديث عـائشـة رضي الله عنها قـالت: قال رسـول الله ﷺ :

خُلِقَتِ الملائكـة من نـور، وخُلِقَ الجانُّ من مارج من نـار، ، وخُلِقَ آدم مما وُصِفَ لكم. وقـد أشار الله تبـارك وتعالى في مواضع مـن كتابه الكـريم إلى الذين ضلـوا فعبدوا الجن حيث يقـول: ﴿وإذ قلنا للملائكـة اسجدوا لآدم فسجـدوا إلا إبليس كان من الجن فَفَسَقَ عن أمـر ربه، أفتتخـذونه وذريتـه أوليـاءَ من دوني وهم لكم عَدُوٌّ، بئس للظـالمين بَـدَلاً﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿ويوم يحشرهم جميعا ثم يقـول للملائكة أهٰؤلاء إياكم كانـوا يَعْبُدُونَ * قالوا سبحانك أنت ولِيُّنَا من دونهم بل كانـوا يعبدون الجنَّ أَكْثَرُهُم بهم مؤمنون﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿وأنه كـان رجال من الإنـس يَعُوذُونَ برجـال من الجن فَزَادُوهُمْ رَهَقًـا﴾ ومعنى قولـه تبارك وتعالى: ﴿ وَخَـرَقُوا لـه بَنِينَ وَبَنَٰتٍ بغير علم﴾ أي وتخرصوا وكـذبوا واختلقوا لله عـز وجل بنين وبنات حيث زعمت اليهـود أن العــزيـر ابنُ الله، وزعمت النصــارى أن المسيح ابنُ الله، وزعم بعض مشركي العـرب أن الملائكـة بناتُ الله. قـال البخـاري في كتاب بـدء الخلق من صحيحه: قال مجاهد: ﴿وجعلوا بينه وبين الجِنة نَسَبًا﴾ قال كُفَّار قريش: الملائكة بناتُ الله، وأمهاتُهُنَّ بناتُ سَرَوَاتِ الجن، قال الله: ﴿ولقد علمت الجِنَّـةُ إنهم لَمُحْضَرُونَ﴾ سَتُحْضَرُ للحساب ا هـ كما بين عـز وجل أن الجن لا يعلمـون الغيب حيث قـال: ﴿فلما خرّ تبينت الجن أن لـو كـانـوا يعلمـون الغيب ما لبثـوا في العذاب المهين﴾ فهـؤلاء لم يقدُروا الله حق قـدره وهـذا ولا شك من جهلهم بصفـات الله تعـالى ولـذلك قـال عــز وجل ﴿سُبْحَـٰنَهُ وتَعَـٰلى عما يصِفون﴾ قال الـزجاج: أي بَرَاءَتَهُ من السُّوء، ومعنى سبحانه التبرئة عن كل سُوء، لا اختلاف بين أهل اللغة في معنى التسبيح أنه التبرئة لله جل وعـز ا هـ وقـال ابن جريـر رحمه الله: القـولُ فى تأويل قولـه: ﴿سُبْحَـٰنَهُ وَتَعَـٰلَى عما يصفون﴾ قال أبـوجعفر: يقول تعالى ذكره: تَنَزَّه اللَّهُ وَعَلاَ فارتفع عن الذي يصفه به هـؤلاء الجهلةُ من خلقه فى ادِّعائِهِمْ له شركاء

من الجن واختراقِهم له بنين وبنات، وذلك لا ينبغي أن يكون من صفته لأن ذلك من صفة خلقه الذين يكون منهم الجماع الذى يَحْدُثُ عنه الأولاد، والذين تضطرهم لضعفهم الشهواتُ إلى اتخاذ الصاحبة لقضاء اللذات، وليس اللهُ تعالى ذكره بالعاجز فيضطره شيء إلى شيء، ولا بالضعيف المحتاج فتدعوه حاجته إلى النساء إلى اتخاذ صاحبة لقضاء لذة، وقولُه ﴿تعالى﴾ تفاعل من العُلُوِّ والارتفاع ا هـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿بَدِيعُ السمٰوات والأرض أَنَّى يكونُ له ولدٌ ولم تكن له صاحبةٌ وخَلَقَ كُلَّ شيءٍ وهو بكل شيءٍ عليم﴾ بيانٌ لاستحالة ما نسبوه إليه تبارك وتعالى من الشريك والولد وتقريرُ تنزهه عن ذلك بالدليل القاطع والبرهان الساطع، قال ابن كثير رحمه الله: ﴿بديع السموات والأرض﴾ أي مُبْدِعُهُمَا وخالِقُهُمَا ومُنْشِئُهُمَا ومُحْدِثُهُمَا على غير مثال سبق كما قال مجاهد والسدي، ومنه سميت البِدْعَةُ بِدعةً لأنه لا نظير لها فيما سلف ﴿أَنَّى يكُونُ له وَلَدٌ﴾ أي كيف يكون له ولد ﴿ولم تكن له صاحبةٌ﴾ أي والولدُ إنما يكون متولدا بين شيئين متناسبين، والله تعالى لا يناسِبُهُ ولا يشابهه شيء من خلقه؛ لأنه خالقُ كلِّ شيء فلا صاحبة له ولا ولد، كما قال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمنُ ولدا * لقد جئتم شيئا إِدًّا﴾ إلى قوله ﴿وكُلُّهُمْ آتِيهِ يومَ القيامة فَرْدًا﴾، ﴿وخَلَقَ كُلَّ شيء وهو بكل شيء عليمٌ﴾ فَبَيَّنَ تعالى أنه الذى خلق كل شيء وأنه بكل شيء عليم فكيف يكون له صاحبةٌ من خلقه تناسبه وهو الذي لا نظير له، فأَنَّى يكون له ولد؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ا هـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شيء فَاعْبُدُوهُ، وهو على كل شيء وَكِيلٌ * لَا تُدْرِكُهُ الأبصَارُ وهو يُدْرِكُ الأبصَارَ وهو اللطيفُ الخَبير﴾ تقرير لأنواع التوحيد الثلاثة وهي توحيد الله عز وجل في ربوبيته، وتوحيده فى ألوهيته، وتوحيده فى أسمائه الحسنى وصفاته العلى، ولا نجاة للعبد إلا بتحقيق توحيد الله في ربوبيته

وتوحيده في إلّهيته وتوحيده في أسمائه الحسنى وصفاته العلى . والمشركون لا ينازعون في توحيد الربوبية فإنهم كانوا يقرون بأن الله هو خالق كل شيء حتى آلهتهم ولذلك كانوا يقولون في تلبيتهم في الحج : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هُوَ لَكَ ، تَمْلِكُهُ وما مَلَكَ ، لكنّ هؤلاء المشركين كانوا ينازعون في توحيد الألوهية المقتضي لوجوب إخلاص العبادة لله وحده ويقولون : أجعل الآلهةَ إلَها واحدا إنَّ هـذا لشيء عُجَابٌ ، وقد كانت أعظم وظائف المرسلين هي دعوةُ الناس إلى توحيد الله في ألوهيته وتعريفهم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى حتى لا يشركوا به شيئا على أن توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية ، وأن توحيد الربوبية لا يتضمن توحيد الألوهية ، وقد اشتملت هاتان الآيتان الكريمتان على أنواع التوحيد الثلاثة ، فَعَرَّفَتِ الناسَ بأن الله هو ربُّ كل شيء وسيده ومليكه ومصلح شأنه ومدبر أمره وأنه وحده هو المستحِقُّ لأن يُعْبَدَ فلا يُشْرَكَ به شيء فلا إلّه إلا هو، وأنه تعالى هو خالق كل شـيء ، فالواجب على العباد أن يبذلوا له أقصى غاية الحب مع أقصى غاية الذُّل ، ويكون إخباتُهم وإنابتُهم إليه وتوكلُهم عليه وطاعتُهم له في أمره ونهيه واتباع رسله وتصديق كتبه فإنه تبارك وتعالى على كل شيء وكيل أي حفيظ رقيب يقوم بتدبير خلقه وأرزاقهم وأقواتهم يكلؤهم بالليل والنهار، وقد وصف عز وجل نفسه المقدسة بأنه لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، ومعنى ﴿لا تدركه الأبصار﴾ أي لا تحيط به أبصار خلقه لجلاله وعظمته ﴿وهو يدرك الأبصار﴾ أي وهو يحيط بِكُنْه الأبصار وحقيقتها وكيفية إبصارها على الوجه الذي لا يشاركه فيه أحد من خلقه .

قال الشيخُ ابنُ أبي العز شارحُ العقيدة الطحاوية رحمه الله : فقولُه ﴿لا تُدْرِكُهُ الأبصارُ﴾ يدل على كمال عظمته ، وأنه أكبر من كل شيء ، وأنه لكمال عظمته لا يُدْرَكُ بحيث يُحَاطُ به ، فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء ، وهو قَدْر

زائدٌ على الرؤية، كما قال تعالى: ﴿فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لَمُدْرَكُونَ * قال كَلا﴾ فلم يَنْفِ موسى الرؤية وإنما نَفَى الإدراك، فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالربُّ تعالى يُرَى ولا يُدْرَكُ، كما يُعْلَمُ ولا يحاط به علما، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية، كما ذكرت أقوالهم في تفسير الآية، بل هذه الشمس المخلوقة لا يتمكن رائيها من إدراكها على ما هي عليه، وأما الأحاديث عن النبي ﷺ وأصحابه الدالة على الرؤية فمتواترة، رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن، فمنها حديث أبي هريرة أن ناسًا قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا: قال: فإنكم ترونه كذلك، الحديث أخرجاه في الصحيحين بطوله، وحديث أبي سعيد الخدري أيضا في الصحيحين نظيره، وحديث جرير بن عبدالله البجلي قال: كنا جلوسا مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة فقال: إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا، لا تضامون في رؤيته. الحديث. أخرجاه في الصحيحين وحديث صهيب المتقدم رواه مسلم وغيره، وحديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال: جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتُهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن يروا ربهم تبارك وتعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن. أخرجاه في الصحيحين. ومن حديث عدي بن حاتم: وَلَيَلْقَيَنَّ اللهَ أحدُكُم يوم يلقاه، وليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له، فيقول: ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك؟ فيقول: بلى يا رب، فيقول: ألم أعطك مالا وأفضل عليك؟ فيقول: بلى يا رب. أخرجه البخاري في صحيحه. وقد روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابيا، ومن أحاط بها معرفة يقطع بأن الرسول قالها، ولولا

أني التزمت الاختصـار لسقت ما في الباب من الأحاديث ا هــ ولفظ حديث صهيب الذي أشار إليه ابن أبي العز قد ساقه بلفظ : قال : قرأ رسول الله ﷺ ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادةٌ﴾ قال : إذا دخل أهل الجنـةِ الجنةَ ، وأهلُ النـارِ النارَ، نـادَى مُنَـادٍ: يـا أهل الجنة إن لكم عنـد الله مـوعـدا يريـد أن يُنْجِزَكُمُـوهُ، فيقولون: مـا هو؟ ألم يُثْقِلْ موازينَنَـا ويُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ويـدخلْنا الجنة ويُجِرْنَا مـن النار؟ فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطـاهم شيئا أحبَّ إليهم من النظـر إليه، وهـي الزيـادة. وقولُـه تبـارك وتعالى : ﴿وهـو اللطيف الخبير﴾ أي والله عز وجل هـو الذي لا تخفى عليه خافيـة من خلقه سواء كانت في السموات أو في الأرض وهو الـرفيق بعباده كما قال عز وجل : ﴿إنها إن تك مثقـالَ حبة من خـردلٍ فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير﴾ وكما قال عـز وجل : ﴿الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز﴾ .

قال الله تعالى : ﴿قد جاءكم بصآئر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عَمِي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ * وكذلك نصرّف الآيات وليقولوا دَرَسْتَ ولنبينه لقوم يعلمون * اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إلّه إلا هو وأعرض عن المشركين * ولو شاء الله ما أشركوا، وما جعلناك عليهم حفيظًا وما أنت عليهم بوكيل * ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم، كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئُهم بما كانوا يعملون﴾.

بعد أن نَدَّدَ اللهُ عز وجل بمن جعل لله شريكا من خلقه وَوَبَّخَ هؤلاء الذين ما قَدَرُوا الله حقَّ قَدْرِهِ فجعلوا الجنَّ شركاء لله، واختلقوا له بنين وبنات بغير علم، ونَزَّهَ نفسه المقدسة عما يصفه به هؤلاء الجاهلون، وعَرَّفَ عباده ببعض أسمائه الحسنى وصفاته العُلَى، شرع هنا في تأكيد رسالة رسوله محمد ﷺ وبيان ما اشتمل عليه القرآنُ الكريم والحكمةُ التي جاء بها رسولُ الله ﷺ من الهُدَى والنور الذي يضيء لمن تمسك به سبيلَ الرشاد، ويهدي إلى الصراط المستقيم، ويُبَيِّن للناس منهج سعادتهم وعزهم في الدنيا والآخرة، لا يدع شيئا من الخير إلا دَلَّ الناس عليه ورغبهم فيه، ولا يدع شيئا من الشر إلا نهى الناس عنه وحذَّرَهم منه، وجعلهم على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك، وعرفهم أن من اهتدى فلنفسه ومن ضل فلا يضر إلا نفسه، وأن رسول الله ﷺ ليس عليه إلا البلاغ، ونَبَّهَهُم إلى أنه صَرَّفَ الآيات وفصَّلها ليهتدي بها من يشاء الله هدايته، ولتستبين سبيل المجرمين الذين لا يؤمنون بالكتاب ولا يصدقون بالرسالة، ولِيَعْرِفَهُ الذين يعلمون، وحضَّ رسولَه ﷺ على الاستمساك بالذي أُوحِيَ إليه، والإعراض عن المشركين وواساه بأنه غير مسيطر على قلوب العباد وليس بمسئول عن معصية

العصاة، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿قد جاءكم بصآئر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عَمِيَ فعليها وما أنا عليكم بحفيظ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم﴾ أي قد جاءكم القرآن الذي يضيء لكم معالم معاشكم ومعادكم، وينير لكم طريق سعادتكم، وتدركون به ما ينفعكم وما يضركم، والبصائر جمع بصيرة، وهي النور الذي به يهتدي الإنسان إلى الصراط المستقيم، ومعنى قوله عز وجل: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ أي فمن استنارت بصيرته وانشرح صدره للإسلام واتبع هُدَى الله الذي جاء به محمد ﷺ فقد جلب الخير لنفسه وأنقذ نفسه من النار، ومن انطمست بصيرتُه، وعَمِيَ قَلْبُهُ فكذَّبَ بالحق لما جاءه فإنه يضر نفسه ولا يضر الله شيئا، ووبالُ عمله السيئ لا يتحمله أحد سواه. وقد بين الله تبارك وتعالى في محكم كتابه الكريم أن عَمَى العين لا يضر صاحبه عند الله عز وجل وإنما الذي يضر صَاحِبَهُ هو عَمَى القلب حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿فإنها لا تَعْمى الأبصار ولكن تَعْمَى القُلُوبُ التي في الصدور﴾ فالعَمَى الحقيقي هو عَمَى القلب لا عَمَى العين، إذ رُبَّ إنسان عميت عينه هو أعظم بصيرةً من كثير من المبصرين، كما أن المراد من قوله تبارك وتعالى: ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأَضَلُّ سبيلا﴾ هو عَمَى البصيرة لا عَمَى البصر، ولذلك قال عز وجل: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشةً ضنكا ونَحْشُرُهُ يوم القيامة أعمى * قال ربِّ لم حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيرا * قال كذلك أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وكذلك اليوم تُنسى﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وما أنا عليكم بِحَفِيظٍ﴾ أي ولستُ عليكم بمسيطر، فلا سلطان على قلوبكم إلا لله وحده، وما على الرسول إلا البلاغ، وهذا تنبيه من الله لرسوله محمد ﷺ أن يقول لهم ذلك، مواساةً له، وإرغاما لهم، وقولُه تبارك وتعالى:

﴿وكذلك نُصرِّف الآيات وليقولوا دَرَسْتَ ولِنُبَيِّنَـهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ به شَبَهٌ من قـوله تبـارك وتعالى : ﴿وكـذلك نُفَصِّل الآيات وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المجـرِمِينَ﴾ ومعنى ﴿دَرَسْتَ﴾ أي عَلَّمَكَ القـرآن بَشَرٌ، كما حكى الله تعـالى عنهم ذلك حيث يقول : ﴿وقـالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تُمْلَى عليـه بكرة وأصيلا﴾ وكما قال عـز وجل : ﴿ولقد نعلم أنهم يقـولون إنما يُعَلِّمُهُ بشَرٌ، لِسـانُ الذي يُلْحِدُونَ إليـه أَعْجَمِيٌّ وهٰذا لِسَـانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ وكما قـال عز وجل : ﴿أنَّى لهم الذكـرى وقد جـاءهم رسول مبين * ثم تَـوَلَّوْا عنـه وقالـوا مُعَلَّمٌ مجنون﴾ والواو في قـوله تعـالى : ﴿وليقولـوا دَرَسْتَ﴾ للعطف على محذوف يـدل عليه السيـاق أي لتلزمهم الحجـة وليقـولوا درست ولنبينـه لقـوم يعلمون ، وقـال أبوحيان في البحر المحيط : ولا يتعين ما ذكره المُعْرِبُونَ والمفسرون من أن اللام في ﴿وليقـولـوا﴾ لام كي أو لام الصيرورة، بل الظاهـر أنها لام الأمـر والفعل مجزومٌ بها لا منصـوبٌ بإضمار أن ، ويـؤيده قـراءةُ من سكَّنَ الـلام ، والمعنى عليه متمكن ، كأنـه قيل : ومثل ذلك نُصَرِّفُ الآياتِ وليقولوا هم مـا يقولون من كونك دَرَسْتَهَا وتَعَلَّمْتَهَـا أو دَرَسَتْ هي أي بَلِيَتْ وقَدُمَتْ ، فإنه لا يُحْفَلُ بهم ، ولا يُلْتَفَتُ إلى قولهم ، وهو أمرٌ معناه الـوعيدُ والتهديدُ وعدمُ الاكتراث بهم وبما يقولـون في الآيات ، أي نُصَرِّفُهَا وَلْيَدَّعُـوا فيها ما شـاءوا فلا اكتراث بـدعواهم ا هــ وضمير الغـائب في قولـه عـز وجل : ﴿ولنبينه﴾ للقـرآن أو الكتاب لأنه المقصود من قوله عز وجل : ﴿وكذلك نصرف الآيات﴾ ومعني قوله تبارك وتعالى : ﴿اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إليك من ربك لا إلَه إلا هو وأعرض عن المشركين﴾ أي استمسك بالـذي أُوحِيَ إليك من سيدك ومالكك ومصلح أمـرك ومدبـر شأنك الذي لا معبـود بحق سواه ، ولا تعبأ ولا تلتفت إلى مـا يقوله المشركـون الذين يقولون : دَرَسْتَ ، ولا ينتفعـون بما أنزله الله عليك من القرآن العظيم والـذكر الحكيم ، فإنهم سيعلمـون أنك على الحق ، وأنهم على

ضلالـة، فاثبت أنت ومن معك من المؤمنين على الحق الـذى أُوحِيَ إليك، ولا تكترث بأذى المشركين، فإنَّ العاقبة للمتقين، وقولـه تبارك وتعالى: ﴿ولو شـاء اللهُ ما أشركـوا﴾ أي ولو أراد الله عـز وجل إرادة كَوْنيـةً أن لا يشركوا مـا أشركوا، فإنـه ما شاء الله كان ومـا لم يشأ لم يكن، وقلوبُ عباده بيـده وحده يهدي من يشـاء فضلا، ويضل من يشـاء عدلا، ومـا ربك بظلام للعبيـد، فمن علم الله فيه خيرا هـداه ومن علم انتكاس قلبه وارتكاس نفسـه أضله، وليس ذلك إلا لله وحده، ولذلك قال بعدها: ﴿وما جعلناك عليهم حفيظا ومـا أنت عليهم بـوكيل﴾ أي وما أرسلنـاك عليهم حفيظـا ومـا أنت عليهم بجَبَّارٍ تَقْهَرُهُمْ على مـا تريـد، وتُكْـرِهُهُم على ما تحب، ومـا أنت بمهيمن عليهم، ولستَ عليهم بمسيطر، إنْ أنـت إلا نذير، ومـا عليك إلا البلاغ، وفي هذا مـواساةٌ لرسول الله ﷺ وتثبيـتٌ لفؤاده، وقوله تبـارك وتعالى: ﴿ولا تَسُبُّوا الذين يَدْعُونَ من دون الله فَيَسُبُّوا الله عَدْوًا بغير علم، كذلك زَيَّنَّا لكل أمـة عَمَلَهُمْ ثم إلى ربهم مَرْجِعُهُـمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بما كانـوا يَعْمَلُـونَ﴾. هذه الآيـة الكريمة ترشـد إلى قاعدة جليلة من قواعد وأصـول السياسة الشرعية التي لا غنى عنها للـراعي والرعيـة، وهي تمثل صورةً من صـور الحكمة التي ينبغي لدعـاة الهدى أن يَتَحَلَّوْا بها المشـار إليها في قـوله عـز وجل: ﴿ادْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ وكما قال عز وجل لموسى وهارون عليهما السـلام لما بعثهما إلى فـرعون: ﴿فَقُـولا لـه قـولا لينـا لعله يتـذكـر أو يخشى﴾ وقـد نَبَّهَتْ هذه الآيـة الكـريمة إلى أن الشيء قـد يكون مشروعـا في الأصل لكن فعله في بعض الحالات قد يكون وسيلة إلى ارتكاب محظور يفوق مصلحته ويـؤدي إلى مفسدة أكبر وأخطـر، والمعلوم من هَـذي الديـن سَدُّ ذرائع الشر والفسـاد، وأن درء المفاسـد مقدم على جلب المصـالح وأن أكبر

الشَّرَّين يُدْفَعُ بأخفهما فلو تساوت المصلحة مع المفسدة ترك الفعل لدرء المفسدة فما بالُك لو كانت المفسدة التي تترتب على الفعل أكبر؟ ولذلك نهى الله عز وجل المسلمين في هذا المقام الكريم من كتابه العظيم عن سب أصنام المشركين مع أن هذه الأصنام مستحقة للسب والشتم، لكن إذا كان سبُّها يؤدي إلى اندفاع أوليائها حتى يفقدُوا شعورهم فيسبوا الله عز وجل عَدْوًا بغير علم مع أنهم كانوا يعتقدون أن الله أكبر من آلهتهم لكنهم يعمهون عن ذلك بسبب ما استثارهم من سب آلهتهم، فيحملهم جَهْلُهُم وتَسَرُّعُهم وحماقتهم على سب الله عز وجل. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تعليل النهي عن الصلاة في وقت طلوع الشمس وغروبها: إن النهي إنما كان لسد الذريعة وما كان لسد الذريعة فإنه يُفْعَلُ للمصلحة الراجحة، وذلك أن الصلاة في نفسها من أفضل الأعمال وأعظم العبادات كما قال النبي ﷺ: استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة. فليس فيها نفسها مفسدة تقتضي النهي، ولكن وقت الطلوع والغروب الشيطانُ يقارن الشمس وحينئذ يسجد لها الكفار، فالمصلي حينئذ يتشبه بهم في جنس الصلاة، فالسُّجُودُ وإن لم يكونوا يعبدون معبودهم ولا يقصدون مقصودهم لكن يشبههم في الصورة، فَنُهِي عن الصلاة في هذين الوقتين سَدًّا للذريعة حتى ينقطع التشبه بالكفار، ولا يتشبه بهم المسلم في شركهم، كما نُهِي عن الخلوة بالأجنبية، والسفر معها، والنظر إليها لما يُفْضِي إليه من الفساد، ونهاها أن تسافر إلا مع زوج أو ذي محرم، وكما نهى عن سب آلهة المشركين لئلا يسبوا الله بغير علم، وكما نهى عن أكل الخبائث لما يفضي إليه من حيث التغذية الذي يقتضي الأعمال المنهي عنها، وأمثال ذلك. ثم إن ما نهى عنه لسد الذريعة يباح للمصلحة الراجحة، كما يباح النظر إلى المخطوبة، والسفر بها إذا خيف ضياعها كسفرها من دار الحرب مثل سفر أم كلثوم وكسفر عائشة

لما تخلفت مع صفوان بن المعطل فإنـه لم يُنْهَ عنه إلا لأنـه يفضي إلى المفسدة، فإذا كان مقتضيـا للمصلحة الراجحـة لم يكن مفضيا إلى المفسدة ا هـ. وقد ساق شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله في إعـلام الموقعين تسعة وتسعين وجها في الاستدلال لإثبـات قاعدة سد الـذرائع فَلْيَضَعْ دعاةُ الهُدَى نُصْبَ أعينهم أن الله عز وجل منع المسلم أن يعمل عمـلا جائزا يؤدي إلى محظـور، وأنه نهاه عن كل عمل فيـه مصلحـة إذا كـان يترتب عليـه مفسـدة أكبر مـن هـذه المصلحة، وأن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحـة وجب تركها لأن ما يؤدي إلى الشر شر، فلو رأيت إنسانا على مفسدة وعلمت أنك لو نهيته عنها ارتكب مفسـدة أكبر منهـا لحماقته فإنك تكف عنـه حتى تعلم أنـه على حـال يتقبل منك، فالأمر بالمعروف قد يقبح إذا أدى إلى ارتكاب منكر، والنهي عن المنكر قـد يقبح إذا أدَّى إلى زيـادة المنكر، وغلبـة الظن قـائمة مقـام العلم في هـذا البـاب. قـال شيخ الإسـلام ابن تيميـة رحمه الله: وقولـه: ﴿زينـا لكل أمـة عملهم﴾ هـو بتـوسيط تـزيين الملائكـة والأنبيـاء والمؤمنين للخير، وتـزيين شيـاطين الجن والإنس للشر قال تعـالى: ﴿وكـذلك زَيَّنَ لكثير من المشركين قتلَ أوْلَادِهِم شُركاؤُهُم ليُرْدُوهُمْ وليَلْبِسُوا عليهم دينهم﴾ ا هـ ومعنى ﴿ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كـانوا يعملون﴾ أي ثم مـرجع الجميع ومعادهم إلى الله فيجازيهم بالخير خيرا وبالشر شرا ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾.

قال تعالى : ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جآءتهم آيةٌ ليؤمننَّ بها ، قل إنَّما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أوَّل مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ .

بعد أن أكَّدَ الله تبارك وتعالى رسالة رسوله ونبيه محمد ﷺ وبَيَّنَ ما اشتمل عليه القرآن الكريم والحكمة التي جاء بها رسولُ الله ﷺ من الهُدَى والنور الذي يضيء لمن تمسك به سبيل الرشاد ويبين للناس منهج سعادتهم في الدنيا والآخرة ، ويجعلهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، شرع في تأكيد عناد المكذبين ومكابرتهم وسوء سلوكهم حيث لم يكتفوا بالآية الكبرى والبينة العظمى التي أيَّد الله عز وجل بها رسوله محمدا ﷺ وهي القرآن العظيم الذي تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله ، فعاندوا وكابروا وتخبطوا وراوغوا وَلَجَؤُوا إلى التحكم على رسول الله ﷺ فطلبوا منه ﷺ أن يأتيهم بآية يقترحونها ، وبذلوا أقصى ما عندهم من تأكيدات الأيمان بالله لئن جاءتهم آيةٌ من هذه الآيات التي يقترحونها ليؤمِنُنَّ بها ، وقد اقترحوا أن يفجر لهم أرض مكة أنهارا وينابيع أو يكون له جنة من نخيل وعنب أو يكون له بيت من ذهب أو يصعد إلى السماء ويرونه بأعينهم مؤكدين أنهم لن يكتفوا بمشاهدتهم لِرُقِيِّه حتى يأتيهم بكتاب من السماء يقرؤونه كما اقترحوا أن يكلمهم بعض موتاهم بأن محمدا هو رسول الله ، وقد جهل هؤلاء أن الآيات بيد الله وحده ، وتناسَوْا ما أكدَّه الله عز وجل في مواضع من كتابه الكريم بأن الآيات لا يأتي بها إلا الله عز وجل وأن رسول الله ﷺ ليس بيده المجيء بالآيات ، كما أنه ليس بيده هداية قلوب قومه ، وإنما هدايتهم بيد الله وحده ، وأن المجيء بالآيات المقترحة قد يكون سببا في إهلاكهم إذا كفروا بها بعد مجيئها ، كما قال عز وجل : ﴿قال الله إني مُنَزِّلُهَا عليكم فمن يكفر بعدُ

منكم فإني أعذبـه عذابا لا أعـذبه أحداً من العَالَمِينَ﴾ وكما قـال عز وجل : ﴿وقالـوا لولا نـزِّل عليه آية من ربـه ، قل إن الله قادر على أن يُنَـزِّل آية ولَكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾ وكما قـال عز وجل : ﴿وقالوا لن نـؤمن لك حتى تَفْجُرَ لنـا من الأرض ينبوعـا * أو تكـون لك جنة من نخيل وعنب فَتُفَجِّـر الأنهار خِـلاَلَهَا تفجيرا * أو تُسْقِطَ السماء كما زعمت علينـا كِسَفًـا أو تأتي بـالله والملائكة قبيـلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو تـرقى في السماء ولن نؤمن لـرقيك حتى تنـزل علينـا كتابـا نقـرؤه ، قل سبحـان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا﴾ وكما قـال عز وجل : ﴿وما مَنَعنَـا أن نرسل بالآيـات إلا أن كذَّب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات إلا تخويفا﴾ وقال عز وجل في هذا المقام من سورة الأنعام : ﴿ولو أننا نزَّلنا إليهم الملائكة وكلَّمهم الموتى وحَشَرْنا عليهم كلَّ شيء قُبُلاً ما كـانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولَكنَّ أكثـرهم يجهلـون﴾ ومعنى قـولـه عـز وجل : ﴿وأقسمـوا بـالله جَهْـدَ أيمانهم﴾ أي وحَلَفُوا بالله مؤكدين أيمانهم بكل مـا يستطيعون من أنواع توكيد الأيمان ، وفي هذا إشـارة إلى أنهم مع شركهم بالله فإنهم يعظمـون الله ولكنهم لحماقتهم وعدم صبرهم على سماع سب أصنامهم قـد يندفعون لسب الله عز وجل عَـدْوًا بغير علم ، ومعنى قولـه عز وجل : ﴿لئن جـاءتهم آيةٌ ليـؤمِنُنَّ بها﴾ أي قالوا نقسم بـالله لئن أتتنا آية خارقة مما نقترحهـا على محمد لَنُصَدِّقَنَّ بمجيئها أنه رسول الله ، وأنَّ ما جاءهم به حقٌّ من عند الله ، وقد أشار الله عز وجل إلى أن المسارعة إلى تأكيد الأيمان كذبا وفجورا هو دأب هؤلاء المشركين إذ كانوا يعيبون على بعض السلوك المعـوج الذي يقترفه اليهود والنصارى فيقسم هـؤلاء المشركون بـالله جهـد أيمانهم أنهم لـو جاءهـم نذيـر أدنى من مـوسى وعيسى ليكـونن أهدى من اليهـود والنصـارى فلما جاءهم أعظم المنـذرين وشيخ المرسلين محمد ﷺ ما زادهم إلا نفـورا ، كما قال عز وجل : ﴿وأقسموا

بـالله جهد أيمانهم لئن جـاءهم نـذيـر ليكونُنَّ أهـدى من إحـدى الأمم فلما جـاءهم نذيـر مازادهم إلا نفـورا * استكبارا في الأرض ومكـر السَّيِّىء ، ولا يَحِيقُ المكر السَّيِّىء إلا بأهله﴾ ومعنى قولـه عز وجل : ﴿قل إنما الآياتُ عند الله﴾ أي قل يا محمـد لهؤلاء المقترحين للآيات : إن الله هو وحـده القادر على الإتيان بالآيات . ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿وما يُشْعِرُكُمْ أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ التفـات للفت الانتباه بأن هؤلاء الذين يقترحـون الآيات ويقسمون بـالله أنهم يصدقـون بها إذا جـاءتهم قـد لعب الشيطـان بهم وانقادُوا لَـهُ فما يُدْرِيكُم أنها إذا جـاءتهم آمنوا بها ، فإنَّ من طبع الله على قلبـه لن يؤمن مهما رأى من الآيات ، ولو كـان هؤلاء صادقين لكفاهم ما جـاءهم من آية القرآن البينة وحجته الظـاهرة ومعجزته القاهرة . ومعنى قـوله عز وجل : ﴿ ونُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أَوَّل مرة ونَذَرُهُمْ في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي ونحول قلوبهم وأعينهم فلا يفقهون بقلوبهم ولا يبصرون بأعينهم ما يرونه من الأدلة والبراهين فيستمرون على ما كانوا عليـه من العناد والمكابرة ولا ينتفعون بما اقترحوا من الآيات إذا جاءتهم فلا يؤمنـون بها كما أنهم لم يؤمنوا بما أيدنا به رسولنـا محمدا ﷺ من الحجة العظمى وهي القـرآن الكريم وما شـاهدوه من انشقاق القمر، حيث كـانوا كُلَّما شاهدوا آيـة أعرضوا وقالـوا سحر مستمر، وكذبوا واتبعوا أهواءهم فَخَذَلْنَاهُم وتركناهم في ضلالهم يتحيرون ويترددون ، عقوبةً لهم على عنـادهم ومكابرتهم ، فإنَّ السيئة تجلـب السيئة كما أن الحسنة تجلب الحسنـة . قال شيخ الإسـلام ابن تيميـة رحمه الله : فمن عمل بما علم أورثه الله عِلْمَ ما لم يعلم كما قال تعالى : ﴿والذين اهتدَوْا زادهم هُدًى وآتاهم تقواهم﴾ وقال تعـالى : ﴿ولو أنهم فعلوا ما يُوعَظُونَ بـه لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا * وإذًا لآتينـاهم من لدنـا أجرا عظيما * ولهدينـاهم صراطا مستقيما﴾ وقال تعالى ﴿ياأيها الذين آمنوا اتَّقُوا الله وآمِنُـوا برسوله يؤتكم كِفْلَيْنِ من رحمته

ويجعلْ لكم نُوراً تَمْشُونَ به ويغفرْ لكم ، واللهُ غفورٌ رحيم﴾ وقال تعالى : ﴿اللهُ وَلِيُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ وقال تعالى : ﴿قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين * يَهْدِي به اللهُ من اتَّبَعَ رضوانَه سُبُلَ السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ وشواهدُ هذا كثيرةٌ في الكتاب والسنة ، وكذلك مَن أعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه تبعًا لهواه فإن ذلك يُورثُهُ الجهلَ والضلالَ ، حتى يَعْمَى قلبُه عن الحق الواضح ، كما قال تعالى : ﴿فلما زاغُوا أزاغ الله قُلُوبَهُم ، والله لا يَهْدِي القومَ الفاسقين﴾ وقال تعالى : ﴿في قلوبهم مرضٌ فزادهم اللهُ مَرَضًا﴾ وقال تعالى : ﴿وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم لئن جاءتهم آيةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ، قل إنما الآيات عند الله وما يُشْعِرُكُمْ أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونُقَلِّبُ أفئدتَهُمْ وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أَوَّلَ مَرَّةٍ ونَذَرُهُمْ في طغيانهم يَعْمَهُونَ﴾ وهذا استفهام نفي وإنكار، أي وما يدريكم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ، وأنا نقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة . وعلى قراءة من قرأ «إنها» بالكسر تكون جزما بأنها إذا جاءت لا يؤمنون ، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أَوَّلَ مرة ، ولهذا قال مَن قال من السلف كسعيد بن جُبَيْر : إنَّ مِن ثواب الحسنة الحسنة بعدها وإنَّ مِن عقوبة السيئةِ السيئةَ بعدها ، وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : عليكم بالصدق فإن الصدق يَهْدِي إلى البر ، وإن البِرَّ يَهْدِي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يَصْدُق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقًا ، وإياكم والكذبَ ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولايزال الرجل يَكْذِبُ ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كَذَّابا . فأخبر النبيُّ ﷺ أن الصدقَ أصلٌ يستلزم البِرَّ ، وأن الكذب يستلزم الفجور اهـ . وقال ابن تيمية رحمه الله أيضا : ومما ذكر فيه العقوبة على عدم الإيمان قولُه تعالى : ﴿ونُقَلِّبُ

أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ وهذا من تمام قوله: ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونُقَلِّبُ أفئدتهم وأبصارهم﴾ الآية، فذكر أن هذا التقليب إنما حصل لقلوبهم لَـمَّا لم يؤمنوا به أول مرة، وهذا عدم الإيمان ا هـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في موضع آخر: هذه تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ، منها قولُه: ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ والآية بعدها أشكلت قراءة الفتح على كثير بسبب أنهم ظنوا أن الآية بعدها جملة مبتدأة، وليس كذلك لكنها داخلة في خبر أن. والمعنى: إذا كنتم لا تشعرون أنها إذا جاءت لا يؤمنون وأنا أفعل بهم هذا لم يكن قَسَمُهُمْ صدقا بل قد يكون كذبا، وهو ظاهر الكلام المعروف أنها أنَّ المصدرية ولو كان «ونُقَلِّبُ» الخ كلاما مبتدأ لزم أن كل من جاءته آيةٌ قُلِّبَ فؤادُهُ، وليس كذلك، بل قد يؤمن كثير منهم ا هـ وقد قلتُ في تفسير قوله تبارك وتعالى في الآية الخامسة عشرة من سورة البقرة: ﴿وَيَمُدُّهُمْ في طغيانهم يَعْمَهُونَ﴾ أي يزيدهم على وجه الإملاء والتركِ لهم في عُتُوِّهم وتمرُّدِهم كما فعل بنظرائهم في قوله عز وجل: ﴿ونُقَلِّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ يعني نذرهم ونتركهم فيه ونُمْلِي لهم ليزدادوا إثما على إثمهم وضلالا فوق ضلالهم وعُتُوا على عُتُوِّهِمْ، والطغيان مجاوزة الحد والغُلُوُّ في الكفر، والإسرافُ في المعاصي والظلم، ومعنى «يعمهون» أي يتيهون في الضلالة ويتحيرون ويتردَّدُونَ ولا يهتدون سبيلا، قال في القاموس المحيط العَمَهُ التحيُّرُ والتردُّدُ، وقد عَمِهَ بالكسر فهو عَمِهٌ وعَامِهٌ، والجمع عُمَّهٌ قال رؤبة:

ومَهْمَهٍ أطرافُه في مَهْمَهِ — أعمى الهُدَى بالجاهلين العُمَّهِ

وأرض عَمْهَاءُ: لا أعْلاَمَ بها، وذهبت إبِلُهُ العُمَّهَي إذا لم يدر أين

ذَهَبَت اهـ وقـال ابن منظـور في لسان العـرب : قـال ابن الأثير: العَمَـهُ في البصيرة كـالعمى في البصر اهـ هذا وقـد أرشـد الله تبـارك وتعالى العبـاد إلى أسباب فوزهم ونجـاتهم بالالتجاء إليه والاعتماد عليه والانتهـاء عن معاصيه فقـال : ﴿ومن يتوكل على الله فهـو حسبه، إن الله بـالغ أمره، قـد جعل الله لكل شيء قَـدْرًا﴾ وقال عـز وجل : ﴿فليحـذر الـذين يخالفون عن أمـره أن تصيبهم فتنةٌ أو يصيبهم عذاب أليم﴾ وقال عـز وجل : ﴿ وإما يَنزَغَنَّكَ من الشيطـان نـزغ فـاستعذ بـالله إنـه هـو السميع العليم﴾ . وقـال عـز وجل : ﴿والذين إذا فعلـوا فاحشة أو ظلموا أنفسهـم ذكروا الله فاسْتَغْفَرُوا لـذنوبهم ومن يغفـر الـذنـوب إلا الله ولم يصروا على مـا فعلـوا وهـم يعلمـون * أولَئك جزاؤهم مغفـرةٌ من ربهم وجناتٌ تجري من تحتهـا الأنهار خالـدين فيها ونعم أجر العاملين﴾ وعلى العبـد أن يكثر من سؤال الله عز وجل أن يُثَبِّتَـهُ بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة وأن يقول : يا حي يا قيوم يا بديع السمٰوات والأرض يـا ذا الجلال والإكـرام بـرحمتك أستغيـث فأصلح لي شأني كلَّـه ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين. ولله در القائل :

إذا كـان عـون الله للعبـد مسعفـا ۝ تأتـى لـــه من كـل شيء مـــراده

وإن لم يكن عـــونٌ مـن الله للفتى ۝ فأول مـــا يقضي عليـــه اجتهـــاده

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال تعالى : ﴿ ولو أنّنا نـزّلنا إليهم الملائكة وكلّمهم الموتىٰ وحشرنا عليهم كلَّ شيءٍ قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولٰكن أكثرهم يجهلون * وكذٰلك جعلنا لكل نبي عدوًّا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غـرورا ، ولو شـاء ربك ما فعلوه فـذرهم وما يفترون * ولتصغـىٰ إليه أفئـدة الذين لا يؤمنون بـالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون * أفغير الله أبتغي حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزلٌ من ربك بالحق فلا تكوننَّ من الممترين * وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً ، لا مبدّل لكلماته ، وهو السميع العليم﴾

بعد أن أكد الله عز وجل ما وقع فيه المكـذبون المشركون من العناد والمكابرة والمراوغـة حيث لم يكتفوا بـالآية العظمى والحجـة الكبرى ولَجَؤوا إلى التحكم على رسول الله ﷺ حيث طلبوا منه أن يأتيهم بآيـة يقترحونها وبذلوا أقصى ما عندهم من تأكيد الأيمان بالله لئن جاءتهم آيةٌ من هذه الآيات المقترحة ليؤمنن بها ، وأمـر نبيـه ﷺ أن يقول لهم : إنما الآيـات عنـد الله ، وبَينَّ عـز وجل أن قلوب العباد بيده يُصَرِّفُها كيف يشاء فيهدي من يشاء فضلا ويضل من يشاء عـدلا ، شرع هنا في بيـان الحكمة الـداعية إلى تـرك الإجابـة إلى ما اقترحـوه ، وتأكيد كذبهم في أيمانهم الفـاجرة على أبلغ وجه وآكده وأنه تعـالى لو أعطاهم مـا طلبـوه من إنـزال الملائكة وإحيـاء الموتى حتى يكلمـوهم ويبينـوا لهم أن محمـدا هو رسـول الله حقا وصـدقا بل لـو زاد على ذلك بأن يحشر عليهم كلَّ شيء مما طلبـوه ومما لم يطلبوه قُبُلاً أي مـواجهة وعيانـا ما كانوا ليـؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ثم واسَى رسوله محمدا ﷺ على ما يـلاقيه من أذى قومه وتكذيبهم وعنادهم وبَيَّنَ له أن إخـوانه من الأنبياء والمرسلين قد لاَقوا مثل الـذي يلاقيه من أذى الشياطين المتمـردين من الإنس والجن ، وأن الله عـز وجل ناصره كما

نصرهم، وأن أهل الكتاب موقنون بأن محمدا هو رسول الله حقا وصدقا، وأكّد الله عز وجل أن كلمته نافذة، وأن شريعته تامة لا محالة، حيث يقول عز وجل: ﴿ولو أننا نَزَّلْنَا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قُبُلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿وتمت كلمةُ ربك صدقا وعدلا، لا مبدل لكلماته، وهو السميع العليم﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ولو أننا نَزَّلْنَا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحَشَرْنَا عليهم كل شيء قُبُلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾ أي ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آيةٌ ليؤمِنُنَّ بها بل لو أننا لم نقتصر على إيتائهم ما اقترحوه ههنا من آية واحدة من الآيات بل نَزَّلْنَا إليهم الملائكة وشهدوا لهم بأن محمدًا هو رسول الله حقا وصدقا، وأحيينا لهم الموتى فخاطبوهم وأخبروهم بأن محمدًا هو رسول الله حقا وصدقا، وجَمَعْنَا لهم كل الخوارق والمعجزات وشاهدوها عيانا، وشهِدَتْ لهم بأن محمدًا هو رسول الله حقا وصدقا ما كانوا ليؤمنوا ويصدقوا بأن محمدا هو رسول الله حقا وصدقا إلا من هدى الله عز وجل منهم وشرح صدره للإسلام وانتفع بما جاء به محمد ﷺ، فأما من سبقت شقوته وحقت عليه كلمة العذاب، فإنه لن يؤمن مهما رأى من الآيات كما قال عز وجل: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمةُ ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كلُّ آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿ولكن أكثرهم يجهلون﴾ إشارة إلى أن هؤلاء المشركين ليسوا سواء، فأكثرهم قد غلبه الجهل وانطمست بصيرته فانسدت طرق الخير عن قلبه وسمعه وبصره، ومنهم من لم يغلق الجهل قلبه وسمعه وبصره فلا يمنع أن يزول غطاء الغفلة الذي على قلبه وسمعه وبصره فَيُصَدِّق بالحق الذي جاء به محمد ﷺ ويتغير حاله، ويقبل هُدَى الله إذا شاء الله عز وجل ذلك، وقولُه عز وجل ﴿وكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عَدُوًّا شياطين الإنس والجِنِّ يُوحِي

بعضهم إلى بعض زُخْـرُفَ الْقَوْلِ غرورًا ولـو شاء ربك مـا فَعَلُوه فـذرهم وما يفترون﴾ مَسُوقٌ لمواساة رسـول الله ولحضه على الصبر على ما يلاقيـه ببيان أن عداوة صناديد المشركين له ﷺ ليست بدعا بل هي سنة الله التي قد خلت مع جميع النبيين والمرسلين حيث جعل الله عـز وجل لكل نبي عـدوا شيـاطين الإنس والجن يـوحي بعضهم إلى بعض زخـرف القـول غـرورا مع أن الله عـز وجل قـادر على ردع هؤلاء المشركين ومنعهم من أذى الأنبيـاء والمرسلين لكنه يبتلي عبـاده الصـالحين ليرفع درجـاتهم بصبرهم على أذى المكـذبين بهم من أقوامهم، كما قـال عز وجل: ﴿ولقد كُـذِّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كُذِّبُـوا وأُوذوا حتى أتاهم نصرنا، ولا مبدل لكلمات الله، ولقـد جاءك من نبأ المرسلين﴾ وكما قـال عـز وجل: ﴿ما يقـال لك إلا مـا قـد قيل للـرسل من قبلك، إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليـم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فاصبر كما صبر أوْلـواْ العـزم من الـرسل ولا تستعجل لهم﴾ وكما قـال عـز وجل: ﴿ذٰلك ولـو يشاء الله لانتصر منهم ولٰكن ليبلـواْ بعضكم ببعض﴾ قـال ابن جرير رحمه الله: قال أبوجعفر: يقول تعـالى ذكره لنبيه محمد ﷺ مُسَلِّيَهُ بذلك عما لَقِيَ من كَفَـرَة قومـه في ذات الله وَحَـاثًا لَـهُ على الصبر على مـا نال فيـه: ﴿وكذٰلك جعلنـا لكل نبي عدوًّا﴾ يقـول: وكما ابتليناك يا محمـد بأن جعلنا لك من مشركي قومك أعداءً شيـاطينَ يُوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول ليصدوهم بمجـادلتهم إياك بـذلك عن اتّباعك والإيمان بـك وبما جئتهم به من عند ربـك، كذلك ابتلينا مَن قبلَـكَ من الأنبياء والرسـل بأن جعلنا لهم أعـداءً من قـومهم يـؤذُونهم بـالجدال والخصـومـات، يقـول: فهـذا الـذي امتحنتك بـه لم تُخَصَّصْ به من بينهم وحـدك، بل قد عَمَمْتُهُم بـذلك معك لأبتليهم وأختبرهم مع قـدرتي على منع مَنْ أذاهم من إيـذائهم، فلم أفعل ذلك إلا لأعـرف أولي العزم منهم مـن غيرهم، يقول: فـاصبر أنت كما صبر

أوْلواْ العزم من الرسل ا هـ. وقد ذكرت في تفسير الآية الرابعة عشرة من سورة البقرة ﴿وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خَلوْا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزِئونَ﴾ أن الشيطان هو المتمرد من الإنس والجن والدواب. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فإنَّ الله تعالى قد أخبر أنه جعل لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يُوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، وإيحاؤهم هو وسوستُهم وليس من شرط الموسوس أن يكون مستترا عن البصر بل قد يشاهد، قال تعالى: ﴿فوسوس لهما الشيطانُ ليبديَ لهما ما وُورِيَ عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إني لكما لَمِنَ الناصحين﴾ وهذا كلام مَن يعرف قائله، ليس شيئا يُلْقَى في القلب لا يُدْرَى ممن هو، وإبليس قد أُمِرَ بالسجود لآدم فأبى واستكبر، فلم يكن ممن لا يعرفه آدم، وهو ونَسْلُهُ يَرَوْنَ بني آدم من حيث لا يرونهم، وأما آدمُ فقد رآه، وقد يرى الشياطين والجنَّ كثيرٌ من الإنس لكن لهم من الاجتنان والاستتار ما ليس للإنس. وقد قال تعالى: ﴿وإذ زيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جارٌ لكم فلما تراءت الفئتانِ نكَصَ على عَقِبَيْهِ وقال إني بريء منكم﴾ وفي التفسير والسيرة أن الشيطان جاءهم في صورة بعض الناس وكذلك قوله: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكْفُر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله ربَّ العالمين﴾ اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿يوحي بعضهم إلى بعض زُخْرف القول غُرُورا﴾ أي يوسوس بعضهم إلى بعض ويُزَيِّنُون لهم الأعمال القبيحة المعادية لدين الله بالأقوال المزخرفة المموهة المزينة التي لا طائل تحتها سوى محاربة الله ورسله ليَغْتَرَّ بها من سمعها فيضل عن سبيل الله فظاهرها ترياق وباطنها سم زُعاف زُعَاقٌ، وقولُه تبارك وتعالى: ﴿ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾ تأكيد على

أن كل شيء بقضاء الله وقدره ومشيئته، وأن الله عز وجل لو شاء لَهَدَى الناس جميعا، وحضّ لرسول الله ﷺ على الصبر على ما يصيبه منهم، ولذلك قال عز وجل: ﴿فذرهم وما يفترون﴾ أي دع أذاهم وتوكل على الله الذي بيده ملكوت كل شيء واصفح عنهم وأعرض عن الجاهلين. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ولِيَرْضَوْهُ وليقترفوا ما هم مقترفونَ﴾ عطف على غرورا المفعول لأجله أي لِيَغُرُّوا ولتصغى، وما بينهما اعتراض، كأنه قيل: يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول لِيَغُروهُم به ولتميل إليه أفئدتهم وليرضوه لأنفسهم بعدَ ما مَالَتْ إليه أفئدتهم وليقترفوا أي وليكتسبوا بموجب ارتضائهم له ما هم مقترفون له من القبائح، قال أبوحيان رحمه الله: ترتيب هذه المفاعيل في غاية الفصاحة لأنه أوَّلاً يكون الخداع فيكون الميل، فيكون الرضا فيكون الفعل أي الاقتراف، فكُلٌّ واحد مُسَبَّبٌ عما قبله اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿أفغير الله أبتغي حَكَمًا وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مُفَصَّلاً، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه مُنَزَّلٌ من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين﴾ قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى لنبيه ﷺ: قل لهؤلاء المشركين بالله غَيْرَهُ، الذين يعبدون غيره ﴿أفغير الله أبتغي حَكَمًا﴾ أي بيني وبينكم ﴿وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مُفَصَّلاً﴾ أي مُبَيِّنًا ﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾ أي من اليهود والنصارى ﴿يعلمون أنه مُنَزَّلٌ من ربك بالحق﴾ أي بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ كقوله: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ وهذا شرط، والشرط لا يقتضي وقوعه، ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: لا أشك ولا أسأل اهـ وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وتمت كَلِمتُ ربك صدقا وعدلا، لا مُبَدِّلَ لكلماته، وهو السميع العليم﴾ بشارةٌ لرسول

الله ﷺ وللمؤمنين بكمال الدين وانتصار الإسلام وبيانٌ بأن هذا الكتاب المنزل على محمد ﷺ كامل من حيث ذاتُه كما هو كاملٌ من حيث إنه مُنَزَّل من عند الله بالحق، وإشارةٌ إلى أنه محفوظ من التغيير والتبديل ولن يستطيع أحد الزيادة فيه أو النقصان منه، كما قال عز وجل: ﴿إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ والمراد بكلمة الله عز وجل هنا القرآن الكريم إذ قد تطلق الكلمة ويراد بها الكلام كما قال ابن مالك في ألفيته: وكلمة بها كلام قد يُؤَم. ومعني قوله عز وجل ﴿صدقا وعدلا﴾ أي صدقا في الأخبار وعدلا في الأحكام فكلّ ما أخبر به القرآن الكريم فهو حق لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل والميزانُ القسط وكلُّ ما نهى عنه فهو الباطل، وهو لا يأمر إلا بالمصلحة ولا ينهى إلا عن المفسدة. ومعنى ﴿لا مبدل لكلماته﴾ أي لا رادّ لقضائه، ولا مُغَيِّر لحكمه، ولا خُلْفَ لوعده، وكل ما أخبر به فهو كائن وواقع في حينه وأجله الذي أخبر الله أنه واقع فيه. وقوله تبارك وتعالى ﴿وهو السميع العليم﴾ قال ابن جرير رحمه الله: فإن معناه: والله السميع لما يقول هؤلاء العادلون بالله، المقسمون بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آيةٌ ليؤمنُنَّ بها، وغير ذلك من كلام خلقه، العليم بما تؤول إليه أيمانهم من بِر وصدق وكذب وحنث وغير ذلك من أمور عبادِهِ. اهـ

قـال تعالى : ﴿ وإن تُطع أكثـرَ من في الأرض يضلُّـوك عن سبيل الله، إن يتَّبعـون إلا الظن وإن هـم إلاَّ يخرصـون * إن ربك هـو أعلـم من يضلُّ عن سبيلـه وهو أعلم بـالمهتدين * فكلـوا مما ذكـر اسم الله عليه إن كنتم بـآياتـه مؤمنين * ومـا لكم ألا تأكلوا مما ذكـر اسم الله عليه وقد فصل لكم مـا حرَّم عليكم إلا مـا اضطـررتم إليـه، وإن كثيرا ليضلُّـون بأهـوائهم بغير علم، إن ربَّك هو أعلم بـالمعتدين * وذروا ظاهـر الإثم وباطنه، إن الـذين يكسبون الإثم سيجزون بما كـانوا يقترفون * ولا تأكلـوا مما لم يذكر اسم الله عليـه وإنه لفسق، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ .

بعـد أن أرشد الله العبـاد إلى وجوب الاحتكـام إلى الله وحده وأنـه لا يجوز لأحد أن يحتكم إلى غير الله عز وجل وقد تفضل الله تبارك وتعالى فأنزل القرآن العظيم مُفَصَّلا واضحا، وَاضِعًا للعباد أكمل المنـاهج وأصولَ الدين وقواعدَ الأحكـام التي لا غنـى للبشر عنهـا، مـرشـدًا لهم إلى مـا يحل لهم ومـا يحرم عليهم، صالحا لكل جيل وقبيل وزمان ومكـان حتى تقوم الساعة، لا يتغير ولا يتبـدل، شرع هنا في بيـان أن الناس مهما كـانـوا لا يستطيعون أن يضعـوا لأنفسهم قانونًا ونظامًا يُصْلِحُ دنياهم وآخِرتهم، وأنهم لو وضعوا نظاما لكان مبنـاه على الظنّ والخَرْص، فـإنهم يخضعـون لشهـواتهم المتنـاقضـة وآرائهم القـاصرة، فمن اتَّبَعَهُـمْ ضَلَّ وحـاد عن الصراط المستقيـم، مع أن هـذه الشريعة الكـافية الشافيـة التي جاءت من عند الله قـد بعث الله عز وجل بها النبي الأمي محمـدا ﷺ ليُحِلَّ للناس الطيبات ويُحَرِّمَ عليهـم الخبائث ويَضَعَ عنه إِصْرَهُمْ والأغلالَ التي كـانت عليهم، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿وإن تُطِعْ أكثر مَن في الأرْضِ يُضِلُّوك عَن سَبِيلِ اللهِ، إن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وإنْ هُمْ

إلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ تحذيرٌ من سلوك منهج لم يشرعه الله عز وجل وبيانُ أنَّ الهُدَى هو في اتباع تعاليم الإسلام مهما قَلَّ سالكوها، وأن الضلال والضياع هو في اتباع آراء الناس وأهوائهم مهما كثر سالكوها ولو كانوا أكثر أهل الأرض، أي وإن تَتَّبِعْ أكثر من في الأرض ممن لم يهتدوا بشريعة الله يحيروك ويُضَيِّعُوكَ عن الصراط المستقيم، لأنهم يخضعون في أحكامهم وقوانينهم وأنظمتهم لشهواتهم المتناقضة وما تُؤَثِّرهُ بيئتُهم فيهم، ولا يبنون أحكامهم إلا على الظن والخرص والرجم بالغيب، ولذلك رأينا أن الأنظمة التي لا تهتدي بنور الإسلام لا تلبث أن تتكشف عوراتها وتحتاج إلى تعديل وتبديل وتغيير، والإنسانُ قد يرى الشيء حسنا ثم لا يلبث أن يراه سيئا ولله در الشاعر إذ يقول:

يُقْضَى على المرء فى أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إن ربك هو أعْلَمُ مَن يَضِلُّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ وعيد لمن ينحرف عن شريعة الله ويتبع هواه أو هوى غيره من المنحرفين عن دين الله، ووَعْدٌ لمن ينقاد إلى كتابِ الله وهَدْيِ رسوله محمد ﷺ وتقريرٌ لمضمون الآية السابقة وتأكيدٌ لما أفادته من التحذير، ومَن في قوله عز وجل: ﴿هو أعلم من يَضِلُّ عن سبيله﴾ للاستفهام وهي مبتدأ ويضل هو الخبر والجملة في موضع نصب بيعلم المقدرة ومثله قوله تعالى: ﴿لنعلم أيُّ الحزبين أحصى لما لَبِثُوا أَمَدًا﴾ قال الزجاج: وقولُه: ﴿إن ربك هو أعلم مَن يَضِلُّ عن سبيله﴾ موضع مَنْ رفعٌ بالابتداء ولفظها لفظ استفهام. المعنى: إن ربك هو أعلم أيُّ الناس يَضِلُّ عن سبيله، وهذا مثل قوله: ﴿لِنَعْلَمَ أيُّ الحزبَيْنِ أحصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ بآياتِهِ مؤمِنِينَ﴾ شروع في تفصيل بعض الأحكام المُنَزَّلة في الكتاب المُفَصَّل، المُبَيِّنَةِ لنعمة الله على المؤمنين بما أَحَلَّ لهم من الطيبات وما

حـرَّم عليهم من الخبائث المقتضيـةِ لجلب المصـالح لهم ودفع الضرر عنهم، المؤْذِنَةِ بـأن المؤمنين يسلكون صراط الله المستقيم، الفـاضحةِ لما عليـه أعداءُ رسول الله ﷺ من السفاهـة والجهالة والضلالة واتّباع أهـواء الذين يضلونهم بغير علم، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا. والفاء في قوله عز وجل: ﴿فكلوا﴾ هي الفصيحة كأنه قيل: إذا علمتم أن الحلال هو ما أحل الله، وأن الحرام هـو مـا حـرَّم الله، وأن الجاهلين يحرمــون ويحللـون انقيـادا لأهوائهـم وشهواتهم، فكلـوا يا من تنقـادون لأمر الله وأمـر رسولـه محمد ﷺ الذبيحة التي ذُكِـرَ اسمُ الله عليها عند تذكيتها، ولا تأكلـوا الميتة التي ماتت حتف أنفها ولا ما لم يُـذْكَر اسمُ الله عليه عند ذبحـه، ما دمتم قد أيقنتم بأن حكم الله هو خير الأحكام وأن خبره هو أصدق الأخبار، وأن الجاهلين الذين يأكلـون الميتاتِ ليسـوا على شيء، وإنما يتبعـون أهـواء الذين يضلـونهم بغير علم. وقولـه تبارك وتعالى: ﴿وما لكم أَلَّا تـأكُلُوا مما ذُكر اسم الله عليـه وقد فَصَّلَ لكم ما حَرَّمَ عليكم إلا ما اضطررتـم إليه﴾ تحريضٌ للأكل مما ذكر اسم الله عليـه، وإنكارٌ لأن يكـون هناك سَبَبٌ يحملهم على تـركِ الأكل مما ذكـر اسم الله عليـه أي وأيُّ سبب حـاصل لكم في أن لا تأكلوا ممـا ذكـر اسم الله عليـه أو وأيُّ غرض لكم يحملكم على أن لا تأكلـوا ممـا ذكر اسم الله عليـه، والحال أن الله عز وجل قـد بين لكم ما حرَّمه عليكم من أكل الميتـات والدم المسفوح ولحم الخنزير، ومـا أهل به لغير الله فإنه لا يحل لمسلم أن يأكل شيئا من هذه المحرمات إلا أن يكون مضطرا لبقـاء رمقه فإنه يجوز له أن يتناول من ذلك بقدر ضرورته، وقد كان من فضل الله أن جَعَلَ الطيباتِ المباحاتِ كثيرةً جدا، وحَصَرَ المحرمـاتِ وفَصَّلها في مواضع كثيرة من كتابـه في الآيات المكية والمدنية، حيث قال في هذه السورة المكية: ﴿قل لا أجد فيما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا على طاعم يَطْعَمُهُ إلا أن يكون ميتةً أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رِجْسٌ

أوْ فِسْقًا أُهِلَّ لغير الله بـه، فمن اضْطُـرَّ غير بـاغ ولا عـادٍ فإنَّ ربك غفـور رحيم﴾ وقـال عز وجل في سورة النحـل وهي مكية: ﴿فكلوا ممـا رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نِعْمَتَ الله إن كنتم إيـاه تعبدون * إنما حَرَّم عليكم الميتة والدَّمَ ولحم الخنزيرِ وما أُهِلَّ لغير الله بـه فمن اضْطُرَّ غير باغ ولا عادٍ فإن الله غفور رحيم * ولا تقـولوا لما تصف أَلْسِنَتُكُمُ الكَـذِبَ هذا حلال وهـذا حَرَام لِتَفْتَرُوا على اللهِ الكذبَ، إنَّ الذين يفترون على الله الكذبَ لا يفلحون﴾ وقال في سورة البقرة وهي مـدنية: ﴿ياأيها الذين آمَنُوا كلوا من طيبـات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون * إنما حرَّمَ عليكـم الميتة والدمَ ولحمَ الخنزير وما أُهِلَّ به لغير الله فمن اضْطُرَّ غيرَ بـاغ ولا عادٍ فلا إثم عليه، إن الله غفور رحيم﴾ وقـال عـز وجل في سـورة المائدة وهي مـدنيـة: ﴿حُـرِّمَتْ عليكم الـمَيْتَةُ والـدم ولحم الخنزير ومـا أهلَّ لغير الله به والمنخنقةُ والموقـوذَة والمتردِّية والنطيحـةُ وما أكَلَ السَّبُعُ إلا مـا ذكيتم وما ذُبِحَ على النُّصُبِ وأن تَسْتَقْسمـوا بـالأزلام، ذٰلكم فِسْقٌ، اليـومَ يئسَ الـذيـن كفـروا من دينكم فـلا تَخْشَـوْهُم واخْشَـوْنِ، اليومَ أكملت لكـم دينكم وأتْمَمْتُ عليكم نعمتي وَرَضِيتُ لكم الإسـلام دينـا، فمن اضطـر في مخْمَصَـةٍ غيرَ متجـانف لإثم فإن الله غفـور رحيم﴾. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن الكتـاب والسنة قد عَلَّقَا الحِل بـذكـر اسم الله في غير مـوضع، كقولـه: ﴿فكلـوا ممـا أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه﴾ ﴿فكلوا مما ذكر اسمُ الله عليه﴾ ﴿وما لكم ألاَّ تأكلوا ممـا ذكـر اسـم الله عليـه﴾ ﴿ولا تأكلـوا ممـا لم يُـذكَـرِ اسمُ الله عليـه﴾ وفي الصحيحين أنه قال: ما أنهر الـدمَ وذكِرَ اسم الله عليه فكلوا. وفي الصحيح أنه قـال لعَدِيٍّ: إذا أرسلت كلبك الْمُعَلَّمَ وذكـرت اسم الله فقتل فكُلْ، وإن خالط كَلْبَك كلابُ آخَر فـلا تأكل، فإنك إنما سَمَّيْتَ على كلبك، ولم تُسَمِّ على غيره، وثبت في الصحيح أن الجن سألوه الـزاد لهم ولدَوَابِّهم فقال: لكم

كُلُّ عظم ذُكِرَ اسم الله عليـه أوفر مـا يكون لحما، وكلُّ بعرة علفـا لدوابكم. قال النبي ﷺ: فـلا تَسْتَنْجُوا بهما، فإنهما زادُ إخـوانكم من الجن، فهو ﷺ لم يُبِحْ للجن المؤمنين إلا مـا ذكر اسم الله عليـه، فكيف بالإنس ا هـ. وقولـه تبـارك وتعـالى: ﴿وإنَّ كثيرا لَيُضِلُّونَ بـأهوائهم بغير علم﴾ تـأكيدٌ للتنـديـد بالجاهلين الذين يُحَرِّمُونَ ويُحَلِّلُون من عند أنفسهم انقيادا لشهواتهم واتباعا لما يوحيـه إليهم شياطينهم، وقـد كان المشركـون يجادلون المسلمين في شأن أكل الميتة ويزعمون أنها أفضل من المذكاة، ويزخـرفون كلامهـم بأن الميتة قتلها الله والمذكـاة قتلها النـاس وما قتلـه الله أفضل ممـا قتله النـاس، يحاولون بـذلك إضلال المسلمين والتغرير بهم فَنَدَّدَ الله تبارك وتعالى بهؤلاء المشركين الجاهلين مُبَيِّنًا أنهم إنما يتبعون الهوى والشهوة بلا بصيرة ولا علم ثم تَوَعَّدَهُم على ذلك فقال عز وجل: ﴿إنّ ربك هو أعلم بالمعتدين﴾ أي إن ربك هو أعلم بهؤلاء الضالين المضلين الـذين يتجاوزون حـدود الله ويعتدون بتحـريم ما أحل الله وتحليل ما حرَّم الله، وسيجزيهم على ذلك بما يستحقون، وقولُه تبارك وتعالى: ﴿وذَرُوا ظـاهر الإثم وبَـاطِنَـه، إن الذين يكسِبُـون الإثم سَيُجْـزَوْن بما كانـوا يقترفـون﴾ أمـر من الله عـز وجل بترك المعـاصي ظـاهرهـا وبـاطنهـا وسرهـا وعـلانيتها سـواء كانت في المطـاعم كالميتـة وما لم يـذكر اسم الله عليـه أو في المشارب كالخمر أو في المناكح كالزنا والطواف عراة، كما قال عز وجل: ﴿ولا تقربوا الفـواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿قل إنما حرَّمَ رَبِّيَ الفواحش ما ظهـر منها وما بطن﴾ وقد توعد من يكتسب الإثم بـالوعيد الشديد فقال: ﴿إن الذين يَكْسِبُونَ الإثـم سَيُجْزَوْن بما كانوا يقترفون﴾. قال ابن جريـر رحمه الله: قال أبوجعفر: يقـول تعالى ذكره: إن الـذين يعملون بما نهاهم الله عنه ويركبـون معاصي الله ويأتون ما حَـرَّم الله ﴿سَيُجْزَوْن﴾ يقول: سَيُثِيبُهُمُ الله يوم القيـامة بما كانـوا في الدنيا يعملون من معـاصيه اهـ. وقـوله

تبارك وتعالى: ﴿ولا تأكلوا مما لم يُذكر اسم الله عليه وإنه لَفِسْقٌ﴾ أي ولا تأكلوا أيها المؤمنون مِمَّا مات حتف أنفه أو لم يذكر اسم الله عليه عند ذبحه، وما أهل به لغير الله فإنَّ أكل ذلك فسق وانقيادٌ للشيطان وخروجٌ عن طاعة الرحمن، وقوله عز وجل: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ قال الترمذي: حدثنا محمد بن موسى البصري الحَرَشِيُّ حدثنا زياد بن عبد الله البكَّائي حدثنا عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس قال: أَتى أُناس النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله أنأكل ما نقتل ولا نأكل ما يقتل الله؟ فأنزل الله: ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين﴾ إلى قوله ﴿وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ قال أبوعيسى: هذا حديث حسن غريب. قال ابن كثير: وقال الطبراني: حدثنا علي بن المبارك حدثنا زيد بن المبارك حدثنا موسى بن عبد العزيز حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ أرسلت فارس إلى قريش أن خَاصِمُوا محمدا وقولوا له: فما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال وما ذبح الله عز وجل بشمشير من ذهب يعني الميتة فهو حرام! فنزلت هذه الآية: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ أي وإن الشياطين من فارس ليوحون إلى أوليائهم من قريش. وقال أبو داود: حدثنا محمد بن كثير أخبرنا إسرائيل حدثنا سماك عن عكرمة عن ابن عباس في قوله ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾ يقولون ما ذبح الله فلا تأكلوه وما ذبحتم أنتم فكلوه فأنزل الله: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ ورواه ابن ماجه وابن أبي حاتم عن عمرو بن عبد الله عن وكيع عن إسرائيل به، وهذا إسناد صحيح اهـ.

قال تعالى : ﴿ أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشي به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارجٍ منها ، كذلك زُيِّنَ للكافرين ما كانوا يعملون * وكذلك جعلنا في كل قريةٍ أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون * وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نُؤْتَى مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته ، سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون * فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون * وهذا صراط ربك مستقيمًا ، قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون﴾ .

بعد أن بَيَّنَ الله تبارك وتعالى أن الناس لا يستطيعون أن يضعوا لأنفسهم نظاما وقانونا يُصْلِحُ دنياهم وآخرتهم ، وأنهم لو وضعوا نظاما لكان مبناه الظن والخرص واتباع أهوائهم وشهواتهم ، وأن من اتبعهم على ذلك ضل عن سواء السبيل ، وأن الصراط المستقيم هو ما شرعه العليم الخبير ، وأرسل به رسله وبعث به النبي الأمي محمدا ﷺ الذي جاء بالشريعة الكاملة الشاملة التامة الصالحة لكل زمان ومكان وجيل وقَبيل ، وأن الحلال هو ما أحله الله وأن الحرام ما حرَّم الله ، وحضَّ عباد الله على الأكل من المباحات الطيبات وحذرهم من المعاصي عموما ومن أكل الميتات وما لم يذكر اسم الله عليه خصوصا ونَدَّدَ بالمشركين الذين يجادلون المسلمين في المَيْتَاتِ وما لم يذكر اسم الله عليه ، شرع هنا في بيان أن المسلمين هم الأحياء حقيقة وأنهم يسلكون منهجهم على نور وبصيرة ، وأن المشركين وسائر الكافرين أموات ، صُمٌّ وبكم في الظلمات ، قد ضلوا سواء السبيل ، بسبب ما زينته لهم شياطين الإنس والجن ، ثم واسى رسوله محمدًا ﷺ وبين له أنه كما جعل في قريته مكة

أكابـر ورؤساء من المجـرمين يدعـون إلى الكفر ويصـدون عن سبيل الله كأبي جهل وأبي لهب وعتبـة وشيبـة ابني ربيعـة والوليـد بن عتبـة وأميـة بن خلف وأمثالهم، كذلك جعل لكل نبي عـدوا من المجرمين هم كبراء قومهم وهم لا يضرون إلا أنفسهم ثم تـوعَّدَهم بـالصغار عنـد الله والعذاب الشديـد حيث يقول عز وجل: ﴿أَوَمَن كان مَيْتًا فأَحْيَيْنـاهُ وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مَثَلُهُ في الظلمات ليس بخارج منها﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿وهٰذا صراط ربك مستقيما، قد فَصَّلْنـا الآيٰـتِ لقـوم يَذَّكرون﴾ والمقصـود من قولـه تبارك وتعالى: ﴿أَوَمَن كـان مَيْتًا فأَحْيَيْنـاهُ وجعلنا لـه نورا يمشي بـه في الناس كمن مَثَلُـهُ في الظلمات ليس بخـارج منهـا﴾ تنفيرُ المسلمين عن طـاعـة المشركين بـالإشـارة إلى أن المسلمين مستضيئـون بأنـوار الـوحي الإلٰهي وأن المشركين مستغرقون في ظلمات الكفر والجهل، فكيف يتأتى من مسلم أن ينقاد لكافر؟ والهمزة لـلاستفهام المقصـودِ منه الإنكـار والنفي، والمراد وجـوبُ الاعتصام بالـرسالة والعض عليهـا بالنواجذ، وعـدم الالتفات إلى ما يلقيـه الكفار من الشُّبَه تبعا لما يوحيه إليهم شياطينهم من زخرف القول غرورا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «قاعـدة نافعة في وجوب الاعتصام بالـرسالة» وبيـان أن السعادة والهدى في متـابعة الرسـول ﷺ، وأن الضلال والشقاء في مخالفته، وأن كل خير في الوجود إمـا عام وإما خاص فمنشؤه من جهة متابعة الرسول وأن كل شَرٍّ في العالم مختـص بالعبد فَسببُهُ مخالفة الرسول أو الجهل بما جاء به، وأن سعادة العباد في معاشهم ومعادهم باتباع الرسالة، والرسالةُ ضرورية للعباد، لا بُـدَّ لهم منها، وحاجتُهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والـرسالـةُ رُوحُ العالَمَ ونورُه وحيـاتُه، فـأيُّ صلاح للعـالم إذا عَدِمَ الـروحَ والحياة والنـور، والـدنيا مُظْلِمَـةٌ ملعـونةٌ إلا مـا طلعت عليـه شمسُ الرسالة، وكذلك العبد ما لم تُشْرِقْ في قلبه شمسُ الرسالة، ويناله من حياتها

ورُوحِهَا فهو في ظلمـة، وهو من الأموات، قال الله تعـالى: ﴿أَوَمَن كان مَيْتًا فأَحْيَيْنـاهُ وجعلنـا لـه نورا يمشي بـه في النـاس كمن مَثَلُـهُ في الظلمات ليس بخارج منها﴾ فهذا وصف للمؤمن كان مَيْتًا في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالـة ونور الإيمان، وجعل له نورا يمشي به في الناس، وأمـا الكافر فميت القلب في الظلمات، وسَمَّى الله تعـالى رسالتـه رُوحًا، والـروح إذا عُدِمَ فَقَـدْ فُقِدَت الحيـاة، قال الله تعـالى: ﴿وكذٰلك أوحينا إليك رُوحًـا من أمرنـا، ما كنت تدري مـا الكتابُ ولا الإيمانُ ولَكِنْ جعلناه نورا نَهْدِي بـه من نشاء من عِبَادِنَا﴾ فذكـر هنا الأصلين وهما الروح والنور، فالروحُ الحيـاة، والنورُ النُّورُ اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿كذٰلك زُيِّنَ للكـافرين ما كانوا يعملون﴾ تأكيد لما تقرر من أن الهدى هـدى الله، فمن هداه الله زين في قلبه الإيمان وحببـه إليه وكرَّه إليه الكفر والفسوق والعصيـان ووفقه للخيرات، ومن لم يهده الله خذله فاستهـوته الشياطين وأوحت إليـه زخرف القول غـرورا، وانتكس، وَزُيِّنَ له سُوءُ عمله فرآه حسنا، وانصرف عن آيات الله كما قال عز وجل: ﴿سأصرف عن آيـاتيَ الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يَـرَوْا كلَّ آية لا يـؤمنوا بها وإن يَرَوْا سبيلَ الرُّشْدِ لا يتخذوه سبيلا وإن يَرَوْا سبيل الْغَيِّ يتخذوه سبيلا، ذٰلك بأنهم كذَّبـوا بآياتنـا وكانوا عنها غـافلين﴾ وقولُه عـز وجل: ﴿وكذٰلك جعلنا في كل قريـة أكابر مجرميها ليمكروا فيها ومـا يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون﴾ مواسـاةٌ لرسول الله ﷺ ببيان أنه عز وجل كما جعل في قـريته مكة أكابر ورؤساء من المجرمين يصـدون عن سبيل الله ويُدَبِّرُون الشر ضد رسول الله ﷺ والمؤمنين كـذلك جعلنا لكل نبي عَـدُوا من المجرمين يصـدون عن سبيل الله ويُدَبرون الشر ضـد رسل الله عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين بهم فَرَجَعَ سـوء مكرهم عليهم ونصر الله رسله وأهلك عدوهم. كما أشـار تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله: ﴿وقد مكـر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا يعلم

ما تكسب كلُّ نفس، وسيعلم الكُفَّارُ لمن عقبى الدار﴾ وكما قال عز وجل في قوم صالح عليه السلام: ﴿وكان في المدينة تسعةُ رهط يفسدون في الأرض ولا يُصْلحون * قالوا تقاسموا بالله لَنُبَيِّتَنَّهُ وأهلَه ثم لنقولَنَّ لِوَلِيِّه ما شهدنا مَهْلِكَ أهله وإنا لصادقون * ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبةُ مكرهم أنَّا دمَّرناهم وقومَهُم أجمعين * فتلك بيوتُهم خَاويةً بما ظلموا، إن في ذٰلك لآيةً لقوم يعلمون﴾ وقَولُه تبارك وتعالى: ﴿وإذا جاءتهم آيةٌ قالوا لن نؤمن حتى نُؤْتَى مِثْلَ ما أوتِيَ رُسُلُ اللهِ، الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ تنبيه وتأكيد على أن هؤلاء الأكابر المجرمين المجادلين بالباطل المغرورين الماكرين المكر السيء المقترحين للآيات قد بلغ بهم الجهل والحسد والغرور أنهم لو جاءتهم آية من الآيات التي يقترحونها فإنهم لن يؤمنوا بالرسول بل يتحكمون في رحمة الله ويطلبون أن يجيء الْوَحْيُ بالرسالة لهم كما جاء الوحي إلى رسل الله عليهم الصلاة والسلام، وجهل هؤلاء الحاقدون الحاسدون المغرورون أن الرسالة ليست منصبا يحصل عليه من يشتهيه بلِ هي منصب يختار الله عز وجل له صفوةَ عباده الصالحين وكملةَ خلقه الْمُطَهَّرِينَ الطاهرين المصطفين الأخيار، الذين رباهم الله عز وجل على عينه وهيَّأهم لهذا المنصب الجليل، ولذلك قال هنا: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ أي هو أعلم حيث يضع رسالته، ومن يصلح لها من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس، إن الله سميع بصير﴾ وقد روى مسلم في صحيحه من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم. ولا شك أن الرسل كانت تبعث في نسب قومها. وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذا التعنت في غير موضع من كتابه الكريم حيث يقول:

﴿بل يـريد كُلُّ امـرئ منهم أن يُؤْتَى صُحُفًـا مُنَشَّرَةً﴾ وقولُـه تبارك وتعـالى: ﴿سَيُصِيبُ الذين أجرمـوا صَغَارٌ عند الله وعذابٌ شديد بما كـانوا يمكرون﴾ وعيد لهؤلاء المجرمين بالخزي العظيم والعذاب الشديد الأليم يوم القيامة بين يَدَيْ ربِّ العالمين وأحكم الحاكمين بسبب تعنتهم وتكبرهم ومكرهم السيء، والصَّغَـارُ هـو الذُّل والضيـم والهوان، قال أبـواسحـاق إبـراهيمُ بنُ السَّرِيِّ الزجاجُ: ﴿سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله﴾ أي هم وإن كانوا أكابر في الدنيا سيصيبهم صَغارٌ عند الله أي مَذَلَّـةٌ اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿فمن يُرِدِ اللهُ أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسـلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضَيِّقًا حَـرَجًـا كـأنما يصَّعَّـدُ في السماء، كـذلك يجعل الله الـرجسَ على الـذين لا يـؤمنـون﴾ المقصـود من الإرادة في هـذا المقـام الكـريم هي الإرادة الكـونيـة القدريـة، والمراد من الهداية هنـا هو التوفيق والإعـانة والتسـديد، ومعنى: ﴿يشرح صدره للإسلام﴾ أي يفسح قلبه ويـوسعه لقبول الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ ويُهَوِّنه عليه ويسهلـه له ويزينه فيه ويفرحه بـه بلطفه ومعونته حتى يستنير الإسـلام في قلبـه فيضيء لـه ويحسّ بحلاوتـه ولـذتـه، وتخالط بشاشته شغاف قلبه فلا يُقَدِّم عليـه نفسا ولا والدا ولا ولدا ولا بلدا ولا شيئا من متاع الحياة الدنيا مهما كان. ومعنى قوله عز وجل: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَـرَجًا كأنما يَصَّعَّـدُ في السَّمَاءِ﴾ أي يجعل قلبـه ضيقا أشـد الضيق لا يتسع لشيء من الهدى، ولا يخلص إليه شيء من الإيمان ولا ينفـذ فيه، كأنه كُلِّف بالصعـود إلى السماء، حيث يعجز وينقطع تَنَفُّسُهُ. قال الـزجاج: الحَرَجُ في اللغة أضْيَـقُ الضيق. وقال ابن منظـور في لسان العرب: وتَصعَّـدَ النَّفَسُ: صَعُبَ مَخْرَجُهُ، وهـو الصُّعَدَاءُ وقيل الصُّعَداء النَّفَس إلى فـوق ممدود، وقيل هو النَّفَسَ بتَـوَجُّع وهو يتنفس الصعداء ويتنفس صُعُـدًا، والصُّعداء: هي المشقة أيضا اهـ ولا شك أن من خذلـه الله عز وجل يصير صدره ضيقا أشد

الضيق إذا سمع دلائل التوحيد والرسالة والبعث بعد الموت فيثقل عليه ذلك وتضعف إرادته عن ترك ما هو عليه من الباطل الذي زُخْرِفَ في قلبه ولم ينشرح صدره إلا للكفر والضلال ويكون مَثَلُهُ مَثَلَ من صعد في طبقات الجو العليا حيث يشعر بضيق شديد في التنفس، وكلما صعد في جو السماء أكثر شعر بضيق أشد، والعربُ يعرفون أن الإنسان إذا طلع جبلا فإنه كلما ازداد في الصعود ضاق تنفسه. وقد أدرك العلماء في عصرنا أن في هذه الآية معجزة من معجزات القرآن بعد أن تمكن البشر من الصعود إلى طبقات الجو العليا بالطائرات و(الصواريخ) وأدركوا يقينا أن طبقات الجو العليا أقل كثافة في الهواء من الطبقات التي هي أسفل منها، وأنه كلما صعد الإنسان إلى طبقة أعلى شعر بضيق التنفس والحرج الشديد في الصدر. وقوله عز وجل: ﴿كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ أي كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقا حرجا كأنما يَصَّعَّدُ في السماء فإنه يخذل الذين علم أنهم لن يؤمنوا فتثقل عليهم أدناسُ أوزارهم، ويُطْبِقُ الرانُ على قلوبهم، فلا ينفكون عن أسباب عذابهم وشقوتهم، ويَضِيقُون بالحق، ولا تنشرح صدورهم للإسلام. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿وهٰذا صراطُ ربك مستقيما، قد فَصَّلْنَا الآيٰتِ لقوم يذكرون﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبوجعفر: يقول تعالى ذكره: وهذا الذي بَيَّنَّا لك يا محمد في هذه السورة وغيرها من سور القرآن هُوَ ﴿صراط ربك﴾ يقول: هو طريق ربك ودينه الذي ارتضاه لنفسه دينا، وجعله مستقيما لا اعوجاج فيه، فاثْبُتْ عليه، وحَرِّمْ ما حرمته عليك، وأحلل ما أحللته لك فقد بينا الآيات والْحُجَجَ على حقيقة ذلك وصحته ﴿لقوم يذكرون﴾ يقول: لمن يتذكر ما احتج الله به عليه من الآيات والعبر فيعتبر بها، وخص بها الذين يتذكرون لأنهم هم أهل التمييز والفهم، وأولوا الحجى والفضل اهـ.

قال تعـالى : ﴿لهم دار السَّلام عنـد ربهم وهو وليهـم بما كانـوا يعملون * ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنـا ببعضٍ وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنـا ، قال النار مثواكم خـالدين فيها إلا مـا شاء الله ، إن ربَّك حكيم عليم * وكـذٰلك نولِّي بعض الظـالمين بعضا بما كـانـوا يكسبون * يـا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينـذرونكم لقاء يومكم هٰذا ، قالـوا شهدنا على أنفسنا وغـرَّتهم الحياة الدنيا وشهـدوا على أنفسهم أنهم كانوا كـافرين * ذٰلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون * ولكل درجات مما عملوا ، وما ربك بغافل عما يعملون﴾ .

بعد أن بَيَّنَ اللهُ تبارك وتعـالى أن دين الإسلام هو صراط الله المستقيم ، وأن أهل الفهم والـوعـي والعقل هم الـذين يعقلـون عن الله ورســولـه وتنفعهم الذكـرى شرع هنا في بيان مآل من تمسك بصراط الله المستقيم ومـآل من انقاد لشيـاطين الجن والإنس ، وجعل الله على قلـوبهم الرجس ، حيـث يقول عـز وجل في مـآل السعـداء : ﴿لهم دار السـلام عند ربهم وهـو وليهم بما كـانـوا يعملون﴾ ثم يقول في مآل الأشقياء : ﴿ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثـرتم من الإنس وقال أوليـاؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضُنَـا ببعض وبَلَغْنَا أجَلَنَا الذي أَجَّلْتَ لنا ، قال النارُ مثـواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم﴾ إلى قـوله عـز وجل : ﴿ولكل درجاتٌ ممـا عملوا ومـا ربك بغافل عما يعملون﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كـانوا يعملون﴾ أي للمتبعين دينَ الإسـلام ، السالكين صراطَ الله المستقيمَ دارُ السـلام وهي الجنـةُ المُعَدَّةُ لهم عنـد ربهم جـزاءً لهم بما كانـوا يعملون من طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله ﷺ التماسا لرضوان الله ورحمته ،

والله عز وجل وَلِيُّ هؤلاء الصالحين في الدنيا والآخرة، يثبتهم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والذين يتولاهم الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، فهم في رعاية الله وعنايته وتأييده ونصره كما قال عز وجل: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البُشْرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لا تبديل لكلمات الله، ذلك هو الفوز العظيم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿اللهُ وليُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوتُ يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ وإنما سميت الجنة دار السلام لسلامة أهلها من العاهات والآفات والأمراض والأوصاب، كما روى مسلم من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ ينادي منادٍ: إن لكم أن تَحْيَوْا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تَصِحُّوا فَلاَ تَسْقَمُوا أبدا، وإن لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهْرَمُوا أبدا، وإن لكم أن تَنْعَمُوا فلا تبأسوا أبدا. وجميع حالاتها مقرونة بالسلام، حيث يقول عز وجل: ﴿ادخلوها بسلام آمنين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلامٌ عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار﴾ وكما قال عز وجل: ﴿سلام قولا من رب رحيم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما * إلا قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا﴾ وقد امتَنَّ الله تبارك وتعالى على عباده بأنه يدعوهم إلى الجنة دار السلام حيث يقول: ﴿واللهُ يَدْعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ ومعنى قوله: ﴿ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾ أي ويوم يحشر هؤلاء المشركين المغرورين مع أوليائهم من شياطين الجن والإنس الذين كانوا يوحون إليهم زخرف القول غرورا ليجادلوا به المؤمنين فيما حرمه الله من الميتة، فيجمعهم

جميعا في موقف القيامة ويقول لشياطين الجن موبخا لهم : يا معشر الجن قد أضللتم كثيرا من الإنس واستكثرتم من إضلالهم وإغوائهم، كما قال عز وجل: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدوني، هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جِبِلاً كثيرا أَفَلَمْ تكونوا تعقلون﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أَجَلَنَا الذي أَجَّلت لَنَا﴾ أي وقال أولياء شياطين الجن الذين أطاعوهم من الإنس في التكذيب بدين الله واتَّبَعُوهم في مجادلة المؤمنين ومحاولة صدهم عن سبيل الله معتذرين إلى الله عز وجل يوم القيامة حين لا تنفع الظالمين معذرتهم نادمين حين لا ينفع الندم: ﴿ربنا استمتع بعضُنَا ببعض وبَلَغْنَا أجلنا الذى أَجَّلْتَ لنا﴾ أي اندفعنا في التمتع بما يوحيه كلٌّ واحد منا إلى صاحبه مغترين بذلك حتى صرنا نتلذذ بطاعة بعضنا لبعض، ونسارع إلى هواه غير ناظرين إلى عواقب ما نحن عليه من المتاع الزائل القليل وعِشْنَا على ذلك مدة حياتنا الدنيا التى قدَّرْتَ أجَلَنَا فيها، حتى فارقنا ذلك بالموت، قال ابن منظور في لسان العرب المحيط : وقد ذكر الله تعالى المتاع والتمتع والاستمتاع والتمتيع في مواضع من كتابه، ومعانيها و إن اختلفت راجعةٌ إلى أصل واحد، قال الأزهري: فأما المتاع في الأصل فكل شيء يُنْتَفَعُ به، ويُتَبَلَّغُ به ويُتَزَوَّدُ والْفَنَاءُ يأتي عليه اهـ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى حرص الجاهلين على الاستمتاع بحظوظهم الخسيسة من الشهوات الفانية والتِهَائِهِم بها عن النظر في العواقب الحقة حيث يقول عز وجل: ﴿كالذين من قبلكم كانوا أشدَّ منكم قوة وأكثر أموالا وأولادًا فاسْتَمْتَعُوا بخلاقهم فاسْتَمتعْتُم بخَلاَقكم كما استمتع الذين من قبلكم بِخَلاقهم وخضتم كالذى خَاضُوا، أولَئك حَبِطَتْ أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولَئك هم الخاسرون﴾ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿قال النارُ مثواكم خالدين فيها

إلا ما شـاء الله﴾ هذا خبر من الله تبـارك وتعالى عما هو قـائل لشياطين الجن وأوليائهم من الإنس يوم القيامـة، وأخرج الخبر عما هو كائن مُخْرَجَ الخبر عما كان لتقدم الكـلام قبله بمعناه ولتحقق وقوعـه، أي قال الله لأولياء الجن من الإنس ولشياطينهم من الجن الذين تقـدم خبره عنهم: ﴿النار مثواكم﴾ أي نار جهنم هي مقر إقامتكم الذي تثوُون فيه أي تُقِيمون فيه ﴿خالدين فيها﴾ أي لابثين فيها غير مخرجين منها، وقـوله عز وجل: ﴿إلا مـا شاء الله﴾ تنبيه إلى أنه ليس كل من يـدخل جهنم يخلد فيهـا لأنه لا يخلد فيهـا إلا من مات على الشرك الأكبر، ولا شك أن طاعة شيـاطين الجن والإنس تكون في الشرك بالله عز وجل وفيما دون الشرك من المعاصي كالزنا والسرقة وشرب الخمر وغير ذلك من الفواحـش وكبائر السيئات، ولما كـان الخلود الأبـدي السرمدي في النار إنما يكون لمن مات على الشرك الأكبر، أما من مات من أهل الكبائر على الإيمان وأوبقته سيئاته في نار جهنم فإنـه لا يخلد فيها وإنما يخرج منها بعد أن تمتحشه النار، ويقبـل الله عز وجل فيه شفاعة الشـافعين أو يخرجه بمحض فضله فقد روى البخاري من حديث عمران بن حُصَيْن قال: قال رسول الله ﷺ: يخرج أقـوام من النـار بشفاعـة محمـد ﷺ فيـدخلون الجنـة ويُسَمَّـوْنَ الجهنميين. كما روى البخـاري ومسلم من حديث أبي سعيـد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إذا دخل أهـل الجنةِ الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ يقول الله تعـالى: من كان في قلبه مثقـالُ حبة من خردل من إيمان فأخـرجوه فيخرجـون قد امتحشوا وعَـادُوا حمما فَيُلْقَوْنَ في نهر الحيـاة، فينبتون كما تَنْبُتُ الحِبَّةُ في حَمِيـلِ السَّيْل، ألم تَرَوْا أنها تخرج صفـراء ملتويـة. وقولُه عـز وجل: ﴿إن ربك حكيم عليم﴾ تأكيـد على أنـه عـز وجل يهدي من يشـاء فضـلا ويضل من يشـاء عـدلا وأن كل شيء يجري بمشيئته وحكمتـه وعلمـه ومن ذلك إحلالُه المؤمنين دارَ السـلام وعقابُه للمجرمين بالعذاب الغـرام، وقولُه

تبارك وتعالى: ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون﴾ إلى قوله: ﴿ولكل درجات مما عملوا، وما ربك بغافل عما يعملون﴾ ترهيبٌ من الظلم العظيم وهو الشرك بالله الذي لا يغفره الله إلا بتوبة منه، وقد حرَّم الله الجنة على من مات مشركا، وإشارةٌ إلى أن الإصرار على المعصية يجلب المزيد من المعاصي، وتأكيدٌ على أنَّ من يشاقق الرسول ويتبع غير سبيل المؤمنين يخذله الله ويوليه ما تولى، وتنبيهٌ على عموم مشيئة الله وحكمته وعلمه وعدله ورحمته، ولذلك أرسل الرسل، وأنزل الكتب، ليقطع عذر الكافرين حتى لا يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، وتقريرٌ بأن الله عز وجل لا تخفى عليه خافية من عمل عباده مهما كان، وأنه يجزي كل عامل بما عمل، ولا يظلم ربك أحدا، ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وكذلك نُوَلي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون﴾ أي وهكذا نكِلُ بعض الظالمين إلى بعض خذلانا مِنا لهم، جزاء وعقوبة على إصرارهم على المعاصي حتى صار بعضهم يوحي إلى بعض زخرف القول غرورا، ويستمتع بعضهم ببعض، حتى جعل الله مأواهم جهنم وساءت مصيرا، وقولُه عز وجل: ﴿يا معشر الجنِّ والإنس ألم يأتكم رسلٌ منكم يَقُصُّونَ عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا، قالوا شَهِدْنا على أنفسنا وغرتهم الحياةُ الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ تقرير للجن والإنس الذين كفروا يعلنونه في عرصات القيامة، يقرون فيه بأن الله عز وجل أرسل إليهم الرسل وأنزل الكتب المشتملة على الترغيب والترهيب، وبيان الحق من الباطل، والمعاد والحشر، ومآل المؤمنين والكافرين يوم القيامة، كما يعلنون في هذا الموقف العصيب الرهيب أنهم غرتهم الحياة الدنيا بشهواتها الفانية وشياطينها الذين زخرفوا لهم القول غرورا حتى كفروا بالله وكذبوا المرسلين. والاستفهام في قوله عز وجل: ﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾ للتقرير، وقولُه عز وجل: ﴿رسل منكم﴾ أي منذرون تعرفون

لسانهم وتفهمون كلامهم كما قال عز وجل: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾ وقد أشار القرآن الكريم في غير موضع إلى أن الجن كانوا ملزمين بالإيمان بالأنبياء والرسل الذين بعثهم الله عز وجل إلى الإنس حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وإذ صَرَفْنَا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حَضَرُوه قالوا أنصتوا فلما قُضِيَ وَلَّوْا إلى قومهم مُنذرِينَ * قالوا يا قَوْمَنَا إنا سَمِعْنَا كتابا أُنزِلَ من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يَهْدِي إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أَجِيبُوا دَاعِيَ الله وآمِنُوا به يَغْفِرْ لكم من ذنوبكم ويُجِرْكُم من عذاب أليم * ومَن لا يُجِبْ دَاعِيَ الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياءُ، أولَئك في ضلال مبين﴾ وقال عز وجل: ﴿قل أُوحِيَ إلَيَّ أنه استمع نَفَرٌ من الجن فقالوا إنا سَمِعْنَا قرآنا عَجَبًا * يَهْدِي إلى الرُّشْدِ فَآمَنَّا به ولَن نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا وأنه تعالى جَدُّ رَبِّنَا ما اتخذ صاحبةً ولا ولدًا﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ذلك أن لَمْ يكن ربُّك مُهْلِكَ القُرَى بظلم وأهلها غافلون﴾ أي إنما أرسلنا الرسل وأنزلنا الكتب ليهلك من هلك عن بينة ويَحْيَى من حَيَّ عن بينة فمن انحرف عن الصراط المستقيم وأخذناه بذنوبه لم نكن ظالمين له وإنما هو الذي ظلم نفسه، وما عَذَّبْنا أحدا إلا بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب للتنبيه والتذكير وإزالة الغفلة، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ ولكل دَرَجاتٌ مما عَمِلُوا، وما ربك بغافل عما يعملون﴾ أي ولكل عامل من الجن أو من الإنس منازل في الآخرة يُنْزِلُهُ الله عز وجل فيها بحسب عمله من الطاعة أو المعصية وليس الله عز وجل بغافلٍ ولا ساهٍ ولا لاهٍ عما يعمله عباده، كما قال عز وجل في وصف منكري البعث: ﴿أولَئك الذين حَقَّ عليهم القولُ في أمم قد خَلَتْ من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين * ولكلٍّ درجاتٌ مما عملوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أعمالهم وهم لا يظلمون﴾.

قال تعـالى : ﴿وربُّك الغني ذو الرحمة ، إن يشأ يـذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء ، كما أنشأكم من ذريَّة قوم آخرين * إن ما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين * قل يـا قوم اعملوا على مكانتكم إني عـاملٌ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدَّار، إنه لا يفلح الظالمون﴾ .

بعد الترغيب في الإيمان ببيـان مآل السعداء ، والترهيب من الكفـر ببيان مآل الأشقياء ، شرع الله عز وجل هنا في تأكيد غِناهُ عز وجل عن عباده ، وأنه من أجل اتصافه عز وجل بالـرحمة أرسل الرسل وأنزل الكتب وأمهل العصاة فلم يعاجلهم بـالعقوبة مع قدرته على إبـادتهم والمجيء بغيرهم ، كما أكَّد أن القيامـة حقٌّ ، وأن الله عز وجل لا يعجـزه شيء في السموات ولا في الأرض ، ومهما تفـرقت أجزاء النـاس في الأرض بعد مـوتهم فإن جمعهم وبعثهم سهل عليه يسير، ثم أمر نبيه ﷺ أن يواجه الكفار بتشـديد التهديد وتكرير الوعيد بأنهم إذا استمـروا على ما هم عليه مـن الكفر فلن يفلحـوا ، وسيرون ما يحل بهم من الخزي في الحياة الدنياوفي الآخرة ، وأنـه ﷺ سيستمر على ما هو عليه من دين الإسلام والدعوة إلى الإيمان بالله ورسلـه وكتبه وملائكته واليوم الآخر والقـدر خيره وشره ، وستكـون له وللمـؤمنين عقبى الـدار وفي ذلك يقـول : ﴿وربك الغني ذو الرحمة ، إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء ، كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين * إنَّ ما تُوعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين * قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسـوف تعلمون من تكون له عاقبة الـدار، إنـه لا يفلح الظالمون﴾ ومعنى قـولـه عـز وجل : ﴿وربك الغَنِيُّ ذو الرحمة﴾ أي وربُّكَ يا محمد الذى ربَّاكَ على عينه واصطفاك لرسالته هو الغني عن جميع خلقه من جميع الـوجوه لا تنفعه طاعـة الطائعين ولا تضره معصية العاصين وهم الفقراءُ إليه في جميع أحـوالهم لأنه بيده حياتُهم ومماتُهم وضرهم

ونفعهم وأرزاقُهم وأقواتهم وهو مع ذلك رحيم بهم، يثيبهم على إحسانهم إن أحسنوا، ويجزيهم على العمل الصالح القليل بالأجر العظيم الجليل، ومعنى قـولـه عز وجل: ﴿إن يشـأ يُذهبْكم ويستخلفْ مـن بعدكم مـا يشـاء، كما أنشأكم من ذرية قـوم آخرين﴾ أي هـو عز وجل قادر على إهـلاك المكذبين واستبدالهم بقوم صالحين يخلفونهم في الأرض يعملون بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وهـذا سهل على الله يسير كما أهلك القـرون الأولى المكـذبين، ونَجَّى المؤمنين الصالحين، وجاء بالمعاصرين من سـلالة هؤلاء الناجين، وهذا شبيه بقوله تبارك وتعالى؛ ﴿يـاأيها الناس أنتم الفقراءُ إلى الله والله هو الغني الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جـديد * ومـا ذٰلك على الله بعزيز﴾ وبقـولـه عز وجل: ﴿والله الغني وأنتم الفقراءُ، وإن تتولـوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ وبقوله عز وجل: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بآخرين، وكان الله على ذٰلك قـديرا﴾ وقـوله تبارك وتعـالى: ﴿إنَّ ما تـوعدون لآتٍ ومـا أنتم بمعجـزين﴾ أي إنَّ الـذي تُـوعَدُونَـه من اضمحـلال الكفـر وإذلال أهلـه وانتصـار الإسلام وإعـزاز أهله، ومن القيـامة والحسـاب والعقاب والثـواب وتفاوت درجات المؤمنين ودركات الكافرين لواقع لا محالة، ولا ريب فيه ولا شك ولن يستطيع أحدٌ مَهْمَا كان أن يُعْجزَ الله ولن يتمكن كافرٌ أبدا أن يفلت من عقاب الله، ولن يضيع عملُ عاملٍ مهما كان كما قال عز وجل: ﴿إنها إن تكُ مثقالَ حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السمٰوات أو في الأرض يأت بها الله، إن الله لطيف خبير﴾ فإن الله عـــز وجل قـــادر على إعـــادة الخلق ومجازاتهم وإن صاروا تـرابا ورفاتا، وهـو سهل عليه كما قال عـز وجل: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحـــدة، إن الله سميع بصير﴾ وكما قـــال عـز وجل: ﴿ولله غَيْبُ السمٰوات والأرض، وما أمـر الساعة إلا كَلَمْحِ البصر أو هو أقرب، إنَّ الله على كل شيء قدير﴾ وكما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أولم يَرَوْا

كيف يُبدئ اللهُ الخلقَ ثم يعيده، إن ذلك على الله يسير * قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بَدَأ الخلقَ، ثم اللهُ ينشئ النَّشْأَةَ الآخرة، إن الله على كل شيء قدير* يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تُقْلَبُونَ * وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير * والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآتٍ، وهو السميع العليم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ إنما توعدون لصادق * وإن الدين لواقع﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون مَن تكونُ له عاقبةُ الدار، إنه لا يفلح الظالمون ﴾ تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ، وتَحَدٍّ لهؤلاء المكذبين وإبرازٌ لعدم المبالاة بهم، بالإعلان لهم بأنه ﷺ ثابتٌ على الحق الذي جاء به من عند الله، وأنه ﷺ في غاية الوثوق بانتصار الإسلام واضمحلال الكفر. وهذا شبيه بموقف شعيب عليه السلام فيما ذكره الله عز وجل عنه حيث يقول: ﴿ويا قومِ اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون مَن يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذبٌ وارتقبوا إني معكم رقيب﴾ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن المؤمنين واثقون في نصر الله مطمئنون لما وعد الله عز وجل به رسوله ﷺ حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون * وانتظروا إنا منتظرون﴾ والمقصودُ من الأمر في قوله: ﴿اعْمَلوا على مكانتكم﴾ التهديد، ومعنى ﴿على مكانتكم﴾ أي على غاية تمكنكم واستطاعتكم في بذل كلِّ ما تستطيعون، فالمكانة مصدر مكن إذا تمكن أبلغ التمكن، وهذا غايةٌ في عدم المبالاة بهم وبكيدهم، ولا يُرادُ من مثل هذا الأمر طلبُ الفعل لأن الأمر قد يرد لطلب الفعل نحو قوله عز وجل: ﴿وأقيموا الصلاة وآتُوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ وكقوله عز وجل: ﴿فكاتبوهم إن علمتم فيهم

خيرا﴾ وقد يكون الأمر للإباحة كقوله عز وجل: ﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾ وتأتي هذه الصيغة لـلإكرام نحو قوله عز وجل: ﴿ ادخلـوها بسلام آمنين﴾ كما تـرد صيغـة الأمر لـلإهـانـة كقـوله عـز وجل: ﴿ذُقْ إنك أنت العـزيـز الكريم﴾ وتأتي للتهـديد كقولـه عز وجل: ﴿اعمـلـوا ما شئتم﴾ وكقولـه عز وجل: ﴿فمن شـاء فليـؤمن ومن شـاء فليكفـر﴾ وكقولـه عـز وجل هنـا: ﴿اعملوا على مكـانتكم﴾ وتأتي صيغـة الأمر أيضـا للتعجيز نحـو قولـه عز وجل: ﴿قل كونوا حجارة أو حديدا * أو خلقا مما يكبر في صدوركم﴾ وتأتي للتسخير كقوله عز وجل: ﴿كونوا قـردة خاسئين﴾ وتأتي للتكوين كقوله عز وجل: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكـون﴾ وتأتي للتسوية كقوله عز وجل: ﴿اصبروا أو لا تصبروا﴾ وتأتي للتمني كقول الشاعر:

أَلا أيها الليل الطـــويل ألا انجلي بصبح ومـا الإصبـــاح منك بأمثل

وتأتي للاحتقار كقـوله عز وجل: ﴿قال لهم موسى أَلْقُـوا ما أنتم مُلْقُونَ﴾ وتأتي بمعنى الخبر الماضي كقول رسول الله ﷺ: إذا لم تستح فاصنع ما شئت أي صنعت ما شئت وكقوله عـز وجل: ﴿أَسْمِعْ بهم وأَبْصِر يوم يأتوننا﴾ أي ما أسمعهم ومـا أبصرهم، وتأتي للتعجيب كقـوله عز وجل: ﴿انظـر كيف ضربوا لك الأمثال فَضَلُّـوا فلا يستطيعون سبيلا﴾ وتأتي للتكذيب كقـوله عز وجل: ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾، وتأتي للاعتبار كقوله عز وجل ﴿انظروا إلى ثمـره إذا أثمر وينعه﴾ وتأتي للمشورة كقولـه: ﴿فانظر ماذا ترى﴾ وبهذا يتضح أن صيغة الأمر قـد ترد لغير طلب الفعل كما في قوله عز وجل هنا: ﴿اعملـوا على مكانتكم﴾ فليس لأحد أن يَدَّعي أن قـوله عز وجل: ﴿اعملـوا على مكـانتكم﴾ دليل على جـواز الثبات على الكفـر قـال الزجاج رحمه الله: فإن قال قائل: فكيف يجوز أن يأمرهـم النبي ﷺ أن يقيموا على الكفر فيقول لهم: ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ فإنما معنى هذا الأمر المبالغة

في الوعيد، لأن قوله لهم: ﴿ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون﴾ قد أعلمهم أن من عمل بعملهم فإلى النار مَصِيرُه، فقال لهم: أقيموا على ما أنتم عليه إن رضيتم العذاب بالنار اهـ. وقال ابن جرير الطبري رحمه الله: وقولُه تعالى ذكره لنبيه: قل لقومك: ﴿يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ أمر منه له بوعيدهم وتهدّدهم لا إطلاقٌ لهم في عمل ما أرادوا من معاصي الله اهـ والمخاطبون يعلمون علم اليقين أن قوله لهم: ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ ليس إذنا لهم بالاستمرار على الكفر وأنهم موقنون بأن هذا الأمر للتهديد كما قال لهم في سورة الكهف: ﴿فمن شاء فَلْيُؤمِنْ ومن شاء فليكفر﴾ لأنه قال لهم بعدها مباشرة: ﴿إنا أعتدنا للظالمين نارًا أحاط بهم سُرَادِقُها، وإن يَستغيثوا يُغَاثوا بماء كالمُهْل يَشْوِي الوُجُوهَ، بئس الشرابُ وساءت مرتفقا﴾ فلا يخطر ببال عاقل أن قوله ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ إذْنٌ وتخييرٌ بين الإيمان والكفر، وقولُه تبارك وتعالى: ﴿فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون﴾ تنبيهٌ على كمال وثوق رسول الله ﷺ من نصر الله عز وجل له وللمؤمنين وأن الكافرين سيصيبهم الخزي والذلة والهوان في الدنيا والآخرة، وأنهم لن يفلحوا لأنهم قد ارتكبوا أفحش الظلم حيث أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وسيعلمون أن محمدا هو الحق وأن الجنة حق وأن النار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور، كما قال عز وجل: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله عز وجل: ﴿فَسَوْفَ تعلمون من تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون﴾ أي أتكون لي أو لكم، وقد أنجز الله موعوده لرسوله ﷺ أي فإنه تعالى مَكَّنَهُ في البلاد، وحَكَّمَهُ في نواصي مخالفيه من العباد، وفَتَحَ له مكة، وأظهره على من كذَّبه من قومه وعاداه وناوأه، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب وكذلك اليمن

والبحرين وكلٌّ ذلك في حياته، ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته في أيام خلفائه رضي الله عنهم أجمعين كما قال الله تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلى، إن الله قوي عزيز﴾ وقال: ﴿إنا لننصر رسلَنَا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سُوءُ الدار﴾. وقال تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عباديَ الصالحون﴾ وقال تعالى إخبارا عن رسله: ﴿فأوحى إليهم ربهم لنُهْلِكَنَّ الظالمين * ولَنُسْكِنَنَّكُم الأرض من بعدهم، ذْلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾ وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ولَيُمَكِّنَنَّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم ولَيُبَدِّلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدونني لا يشركون بي شيئا﴾ الآية. وقد فعل الله ذلك بهذه الأمة المحمدية، وله الحمد والمنة أوّلاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا اهـ.

قال تعالى : ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا فقالوا هٰذا لله بزعمهم وهٰذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصلُ إلى شركائِهم، ساء ما يحكمون * وكذٰلك زَيَّنَ لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون * وقالوا هٰذه أنعامٌ وحرثٌ حِجْرٌ لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراءً عليه، سيجزيهم بما كانوا يفترون * وقالوا ما في بطون هٰذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء، سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم * قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علمٍ وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله، قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾ .

بعد أن أكد تبارك وتعالى غناه عز وجل عن عباده، وأنه من أجل اتصافه عز وجل بالرحمة أرسل الرسل وأنزل الكتب وأمهل العصاة فلم يعاجلهم بالعقوبة مع قدرته على إبادتهم والمجيء بغيرهم وأكد أن القيامة حق وأمر نبيَّه ﷺ أن يواجه الكفار بتشديد التهديد وتكرير الوعيد بأنهم إذا استمروا على كفرهم فلن يفلحوا وسيرون ما يحل بهم من الخزي في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة ستكون لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، شرع هنا في بيان ضلال المشركين من قريش وجهلهم وسفاهتهم فذكر عز وجل صورا من أفعالهم وأقوالهم تبرهن على أنهم لم يرضَوْا أن عدلوا بمن خلقهم ورزقهم وأنعم عليهم بالنعم التي لا تحصى حيث عبدوا أوثانا وأصناما لا تضرهم ولا تنفعهم وجعلوهم شركاء لله حتى فَضَّلُوا هذه الأصنام على خالقهم ورازقهم رب العالمين وحتى أطاعوا شركاءهم وشياطينهم في قتل أولادهم وتحريم ما أحل الله وتحليل ما حرَّم الله، وفي ذلك يقول عز

وجل : ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهٰذا لشركائنا﴾ إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿قد ضَلُّوا وما كانوا مهتدين﴾ وقد أشار ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن رضي الله عنهما إلى أن المؤمن إذا أراد أن يعرف ما كان عليه أهل الجاهلية من الجهل والسفاهة والضلالة ليشكر الله الذي أخرجه من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام فليقرأ هذه الآيات .
فقد قال البخاري في صحيحه حدثنا أبوالنعمان حدثنا أبوعَوَانَةَ عن أبي بِشْرٍ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا سَرَّكَ أن تَعْلَمَ جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام : ﴿قد خَسِرَ الذين قتلوا أولادهم سَفَهًا بغير علم﴾ إلى قوله : ﴿قد ضَلُّوا وما كانوا مهتدين﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿وجَعَلُوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نَصِيبًا﴾ أي وعَيَّنُوا لله عز وجل قسما ونصيبا مما خلقه وحده لهم وبرأه من الزروع والثمار ومن المواشي ، وعَيَّنُوا لأصنامهم وأوثانهم نصيبا من هذا الذي خلقه الله وذرأه وبرأه لهم ، وقد دلَّ على هذا المحذوف قولُه عز وجل : ﴿فقالوا هٰذا لله بزعمهم وهٰذا لشركائنا﴾ والإشارة في قوله : ﴿هٰذا لله﴾ للنصيب الذي عينوه لله من الحرث والأنعام والإشارة في قوله : ﴿وهٰذا لشركائنا﴾ للنصيب الذي عينوه لأصنامهم وأوثانهم الذين جعلوهم شركاء لله عز وجل ، ومعنى ﴿بزعمهم﴾ أي بدعواهم التي زعموها بلا بينة ولا برهان وبقولهم الذي لا حقيقة له . ومعنى قوله عز وجل : ﴿فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون﴾ قال ابن جرير رحمه الله : حدثني إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد قال : حدثنا عتاب بن بشير عن خَصيف عن عكرمة عن ابن عباس : ﴿فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله﴾ الآية . قال : كانوا إذا أدخلوا الطعام فجعلوه حُزَمًا جعلوا منها لله سَهْمًا ، وسهما لآلهتهم ، وكان إذا هبت الريحُ من نحو

الذي جعلوه لآلهتهم إلى الذي جعلوه لله رَدُّوهُ إلى الذي جعلوه لآلهتهم، وإذا هبت الريح من نحو الذي جعلوه لله إلى الذي جعلوه لآلهتهم أَقَرُّوهُ ولم يَرُدُّوهُ، فذلك قولُه: ﴿ساء ما يحكمون﴾ اهـ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وكذٰلك زَيَّنَ لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِم دِينَهُمْ ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يَفْتَرُون﴾ أي وكما لعبت الشياطين بعقول هؤلاء الجاهلين فظهر من سخافة عقولهم وسفاهة آرائهم أَنْ جعلوا لأصنامهم نصيبا من الحرث والأنعام التي خلقها الله عز وجل وحده لا شريك له وجعلوا لله عز وجل منها نصيبا وحَرَصُوا على صيانة نصيب أصنامهم ولم يَحْرِصُوا على صيانة النصيب الذي جعلوه لله، كذلك لعبت الشياطين بعقولهم فَحَسَّنَتْ لهم قتلَ أولادهم من الفقر أو خشية الفقر وَوَأْدَ بناتهم خشية العار، وقد جهل هؤلاء أن الشياطين فعلت بهم ذلك القبيح وأوقعتهم في هذه الجريمة المناقضة للفطرة ليهلكوهم ولِيَخْلِطُوا عليهم دينهم، وقد خذلهم الله عز وجل ولو أراد إرادة كونية عدم هذا الفعل منهم ما فعلوه، فَدَعهم يا محمد فسيحكم الله عز وجل بينك وبينهم وسيجزيهم على ما يفترونه ويختلقونه من الكذب على الله تبارك وتعالى، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: يقول تعالى: وكما زينت الشياطينُ لِهؤلاء أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق ووأدَ البناتِ خشية العار اهـ وقد حذَّر الله تبارك وتعالى من هذه الجريمة في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول عز وجل في الوصايا العشر الواردة في هذه السورة المباركة: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾ ويقول في سورة الإسراء: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خِطْئًا كبيرا﴾ وقال عز وجل: ﴿وإذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى ظل وجه مُسْوَدًّا وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء

ما بُشِّرَ بـه، أَيُمْسِكُهُ على هُـونٍ أم يَدُسُّـهُ في التراب، أَلاَ سَاءَ مـا يحكمون﴾ وقال عـز وجل: ﴿وإذا الموءودة سُئِلَتْ * بأي ذنب قُتِلَتْ﴾ ووصف رسولُ الله ﷺ جـريمة قتل الـولـد التي كـان يرتكبهـا أهل الجاهليـة بأنها من أكبر الكبـائر فقد روى البخـاري ومسلم واللفظ للبخاري من حـديث عبد اللـه يعني ابن مسعـود رضي الله عنه قـال: سألت النبي ﷺ: أَيُّ الـذنب أعظم عنـد الله؟ قـال: أن تجعل لله نِـدًّا وهـو خلقـك، قلتُ: إن ذلك لعظيم، قلتُ: ثم أيّ؟ قال: وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك، قلت: ثم أيّ؟ قال: أن تُزَانِيَ حليلة جارك. وقوله تبـارك وتعالى: ﴿وقالوا هٰذه أنعامٌ وحرثٌ حِجْـرٌ لا يَطْعَمُهَا إلا من نشـاء بـزعمهم وأنعام حُـرِّمت ظهـورُها وأنعـام لا يـذكـرون اسم الله عليهـا افتراء عليـه، سيجـزيهم بما كـانـوا يفترون﴾بيـانٌ لقبيحةثـالثة من قبائح وجهـالة وسفاهـة مشركي قريش ومن سلك سبيلهم من الكفـار، حيث كـانـوا ينقادون لشيـاطينهم في لعبهـا بعقـولهم ويفترون الكـذب على الله عـز وجل فيـزعمـون أن الله عـز وجل حـرَّم وحَجَـر بعض الأنعـام وبعض الزروع فـلا يحل لأحـد أن يطعم منها شيئـا إلا بإذنهم، كما افتروا على الله عز وجـل فزعموا أنـه تبارك وتعـالى حرَّم عليهم ركـوب بعض الأنعـام كذِبًـا على الله وتحكما فاسـدا كما حرَّمـوا ذكر اسم الله عـز وجل على بعض أنعامهم لا إن أوْلَدُوها ولا إن ركبوها ولا إن حلبوها ولا إن حَمَلُوا عليها ولا إن نحروهـا انقيادا لشيـاطينهم واتباعـا لأهوائهم مع دعـواهم أن الله هو الـذي أمـرهم بـذلك، وهم يفترون على الله، ولذلـك قال تبـارك وتعـالى: ﴿سيجزيهم بما كـانوا يفترون﴾ أي سيعاقبهم الله عز وجل بسبب مـا اقترفوه من الافتراء على الله والكـذب عليـه، وقـد وبَّخَ الله تبـارك وتعـالى المشركين الجاهلين في غير موضـع من كتابه الكـريم على جرأتهم على الله في التحـريم والتحليل انقيادا لشيـاطينهم وانغماسا في جهلهم حيث يقول تبـارك وتعالى:

﴿قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منـه حراما وحلالا قل آلله أَذِنَ لكم أم على الله تفترون﴾ وكما قـال عـز وجل : ﴿مـا جعل الله من بحيرة ولا سـائبـة ولا وصيلـة ولا حـام ولٰكـنَّ الـذين كفـروا يفترون على الله الكـذبَ وأكثرُهُم لا يعقلون﴾ وقـولُه تبارك وتعالى : ﴿وقالوا مـا في بطون هٰذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا ومُحَرَّمٌ على أزواجنا وإن يكن ميتةً فهم فيه شركاء ، سيجزيهم وصفهم إنـه حكيم عليم﴾ بيانٌ لمزيـد من قبائح المشركين بـافترائهم على الله حيث تحكموا بآرائهم الفاسدة ومذاهبهم الكاسدة فحرموا ما في بطون بعض الأنعام على النساء وأبـاحوه للرجال إن خـرج حيا ، أما إذا خرج ميتـا فيباح أكله للرجـال والنساء ، وهذا دينٌ ما أنزل الله بـه من سلطان ، وقولٌ على الله بغير حق ولذلك قال عز وجل : ﴿سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم﴾ قال ابن جـريـر رحمه الله : قـال أبوجعفـر: يقـول جل ثنـاؤه : ﴿سيجـزي﴾ أي سيثيب ويكـافئ هـؤلاء المفترين عليـه الكـذبَ في تحريمهم مـا لم يحرمـه الله وتحليلهم مـا لم يحللـه الله وإضافتِهـم كَـذِبَهُم في ذلـك إلى الله ، وقـولـه ﴿وَصْفَهُمْ﴾ يعني بـوصفهم الكـذبَ على الله وذلك كما قـال جل ثنـاؤه في مـوضع آخر من كتـابه ﴿وتصف أَلْسِنَتُهُم الكـذِبَ﴾ والوصف والصفـة في كلام العـرب واحد ، وهما مصدران مثل الـوزن والزنـة اهـ وقولـه عز وجل : ﴿قد خَسِرَ الذين قتَلُوا أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًا بغير علم وحَرَّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله ، قـد ضَلُّـوا وما كـانـوا مهتـدين﴾ قـال ابن جريـر رحمه الله : قـال أبـوجعفر: يقـول تعالى ذكـره : قـد هلك هؤلاء المفترون على ربهم الكـذبَ ، العادلون به الأوثانَ والأصنامَ ، الذين زَيَّنَ لهم شركاؤهم قَتْلَ أولادهم وتحريمَ ما أنعمتُ به عليهم من أموالهم ، فَقَتَلُوا طاعةً لها أولادهم وحرَّموا ما أحل الله لهم وجَعَلَهُ لهم رزقا من أنعامهم ﴿سَفَهًا﴾ منهـم . يقول : فعلوا ما فعلوا من ذلك جَهـالَـةً منهم بِمَا لَهُمْ وعليهم ، ونَقْصَ عقـولٍ وضعفَ أحـلامٍ منهم ،

وقِلَّةَ فهم بعاجل ضُرِّه وآجل مكـروهه من عظيم عقاب الله عليه لهم ﴿افتراء على الله﴾ يقول: تكَذُّبًا على الله وتَخَرُّصًا عليه الباطل ﴿قد ضَلُّوا﴾ يقول: قد تـركـوا مَحَجَّـةَ الحق في فعلهم ذلك وَزَالُـوا عـن سـواء السبيل ﴿ومـا كـانـوا مهتدين﴾ يقول: ولم يكـن فَاعِلُوا ذلك على هُدًى واستقامـةٍ في أفعالهم التي كانـوا يفعلون قبل ذلك، ولا كـانوا مهتدين للصـواب فيها ولا مُـوَفَّقِينَ له، ونزلت هذه الآية في الذين ذكر الله خَبَرَهُمْ في هذه الآيات من قوله: ﴿وجعلوا لله ممـا ذرأ من الحرث والأنعـام نصيبـا﴾ الـذين كـانوا يَبْحـرُونَ البحـائر ويُسَيِّبُونَ السـوائب ويئـدون البنـات اهـ.

قال تعالى : ﴿وهو الذي أنشأ جناتٍ معروشاتٍ وغير معروشات والنخل والزَّرع مختلفا أكله والزيتون والرُّمان متشابها وغير متشابه، كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين * ومن الأنعام حمولة وفرشًا، كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان، إنه لكم عدو مبين﴾.

بعد أن ساق عز وجل صورا من قبائح أفعال المشركين وأقوالهم التي تبرهن على أنهم لا يعقلون، وأنهم يفترون على الله الكذب، وأنهم خسروا أنفسهم وضلوا وما كانوا مهتدين شرع هنا في بيان أنه عز وجل هو الخالق لكل شيء من الزروع والثمار والأنعام التي اجترأ هؤلاء المشركون فحرموا منها ما شاءوا وأحَلُّوا ما شاءوا بآرائهم الفاسدة مع العلم بأنهم لو سألتهم لأقروا بأن الله هو وحده الخالق المنشئ لها، لكنهم اتبعوا خطوات الشيطان وانقادوا له، فألقى بهم في مهامه الضلال والضَّياع، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشاتٍ والنخل والزرع مختلفا أكُلُه والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿ولا تتبعوا خُطُوَاتِ الشيطان، إنه لكم عدو مبين﴾ قال الفخر الرازي في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات﴾ الآية: اعلم أنه تعالى جعل مدار هذا الكتاب الشريف على تقرير التوحيد والنبوة والمعاد وإثبات القضاء والقدر، وأنه تعالى بَالَغَ في تقرير هذه الأصول، وانتهى الكلام إلى شرح أحوال السعداء والأشقياء، ثم انتقل منه إلى تهجين طريقة من أنكر البعث والقيامة، ثم أتبعه بحكاية أقوالهم الركيكة، وكلماتهم الفاسدة، في مسائل أربعة، والمقصودُ التنبيهُ على ضعف عقولهم، وقلة محصولهم، وتنفير الناس عن الالتفات إلى قولهم، والاغترار بشبهاتهم، فلما

تَمَّمَ هذه الأشياء عاد بعـدها إلى ما هو المقصود الأصلي، وهو إقـامة الدلائل على تقرير التوحيد، فقال: ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات﴾ واعلم أنه قد سَبَقَ ذكرُ هـذا الدليل في هذه السورة، وهو قولُه: ﴿وهـو الذي أنزل من السماء ماءً فأخـرجنا به نبـاتَ كل شيء فأخرجنـا منه خَضِرا نخرج منـه حَبًّا متراكبـا ومن النخل من طلعهـا قِنْوانٌ دانيـةٌ وجنـاتٍ من أعنـاب والزيتـون والرمان مشتبها وغيرَ متشابه، انظـروا إلى ثمره إذا أثمر ويَنْعِهِ، إن في ذٰلكم لآياتٍ لقوم يؤمنون﴾ فالآية المتقدمـةُ ذكر تعالى فيها خمسة أنواع، وهي الزرع والنخل وجنات من أعنـاب والزيتون والـرمان، وفي هـذه الآية التي نحن في تفسيرها ذكر هذه الخمسة بأعيانها، لكن على خلاف ذلك الترتيب لأنه ذكر العنب ثم النخل ثم الـزرع ثم الـزيتون ثم الـرمان، وذكـر في الآيـة المتقدمـة ﴿مشتبها وغير متشابـه﴾ وفي هذه الآية ﴿متشابها وغير متشـابه﴾ ثم ذكر في الآية المتقدمـة ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر ويَنْعِـهِ﴾ فأمر تعالى هنـاك بالنظر في أحوالها والاستدلال بها على وجود الصانع الحكيم، وذكر في هذه الآية ﴿كُلُوا من ثمره إذا أثمر وآتُوا حقه يـوم حصاده﴾ فأذن في الانتفاع بها، وأَمَرَ بصرف جزء منها إلى الفقـراء، فالـذي حصل به الامتيـاز بين الآيتين أنَّ هناك أمـرا بـالاستدلال بها على الصـانع الحكيم، وهـاهنا أذن في الانتفـاع بها، وذلك تنبيـه على أن الأمر بـالاستـدلال بها على الصانع الحكيم مُقَـدَّمٌ على الإذن في الانتفـاع بها، لأن الحاصل من الاستـدلال بها سعـــادةٌ روحـانيـةٌ أبـديـةٌ، والحاصل من الانتفاع بهذه سعـادةٌ جسمانيةٌ سريعـةُ الانقضاء، والأولُ أولى بـالتقديـم، فلهذا السبب قـدَّم الله تعـالى الأمـرَ بالاستـدلال بها على الإذن بالانتفاع بها اهـ.

والمعروشات هي الأعنـاب وغيرها من الأشجار المرفوعـات على ما يحملها من عـريش ونحـوه، وغير المعـروشـات هي مـا لم تـرفع على عـريش لعـدم

حـاجتها لـه وفي هذا لفت انتبـاه الناس إلى كمال قـدرة الله وعلمه وحكمتـه حيث أخرج للنـاس من ا لمعروشات وغير المعـروشات الثمار التي تفضل الله عـز وجل فأنعـم بها على عبـاده لغـذائهـم وفـاكهتهم وأدويتهم وسـائر حـاجـاتهم، ومن عجـائب آيات الله في أغصـان شجـرة العنب وهي تنمـو وتتمدد فوق عريشها أنه يخرج منهـا خيوط دقيقة، ذات قرون تلتف في منظر عجيب دقيق حول أعواد العريش ليستمسك بها الغصن حتى لا يسقط على الأرض، فسبحان الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هَـدَى. ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿والنخل والزرع مختلفـا أُكُلُه﴾ أي وأنشأ النخل والزرع وخلق لكم في النخل والزرع ثمرا مختلفـا في هيئته وكيفيته ولونه وطعمه وفـائدته ومنها ما يُدَّخَرُ ومنها ما لا يَصلُحُ للادخار، والأُكُلُ هو الثمر الذي يؤكل، وقولُه عز وجل: ﴿والزيتونَ والـرمانَ متشابها وغير متشابه) أي وأنشأ الزيتـون والرمان وقد أودع هـذه المُنْشَآتِ من الطبائع مـا يشهد بأنها من آيات الله الـدالة على بديع صنعه وجليل حكمته حيث يكون منها ما هو متشابه في اللون والشكل وهو مختلف في الطعم واللـذة، وقد تتشابه أوراقـه ولا يتشابه ثمره كـالزيتون والرمان، ومن المعلوم أنك قد تأخـذ عنقودين من عنب أو رمانتين متشابهين في الصـورة واللـون والشكل ثم تجدهما مختلفين في الحلاوة والحمـوضـة، فبعضها حلو وبعضها حامض وبعضهـا مُزٌّ أي بين الحامض والحُلْو. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿كُلُوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين﴾ هذا تنبيه من الله تبارك وتعـالى لعباده أن يُحِلُّوا ما أحل الله تعالى لهم وأن يحرموا ما حرَّم الله عليهم، وفي قوله عز وجل ﴿إذا أثمر﴾ إباحةٌ لأصحـاب الزروع والأشجـار أن يأكلـوا من ثمر مـزارعهم وبسـاتينهم متى أثمرت هذه البساتين، ولا حظر عليهم في ذلك حتى لا يخطر على بال واحد منهم أنه لا يجوز الأكل منهـا قبل إعطاء المساكين، لأنـه إنما يجب التصدق

على المساكين منهـا بعد حصـادها ولـذلك قال عـز وجل : ﴿وآتوا حقـه يوم حصاده﴾ والظـاهر أن هـذا الحق كان شيئـا قد فـرضه الله عـز وجل في أول الإسلام على أهل الثمار لمن حضرهم يوم الحصـاد من المساكين والفقراء وذوي القـربى ، ولم يكن مُقَـدَّرًا بمقدار معين . والمقصـود منـه تطييبُ نفـوس من حضرهم يوم الحصاد من المحتاجين ، وتدريبٌ قبل فرض الزكاة المقدرة المعينة التي جعلها الله عـز وجل ركنا من أركـان الإسلام وحـدَّد الإسلام أنصبـاءها ومصارفها ، والظاهر كذلـك أن إعطاء المساكين يوم الحصاد والصرام شريعة سـابقـة كما أشار الله تبـارك وتعـالى حيث يقـول : ﴿إنـا بَلَـوْناهم كما بَلَـوْنَـا أصحاب الجنـة إذ أقسموا لَيَصْرِمُنَّهَـا مُصْبحين * ولا يَسْتَثْنُونَ فطـاف عليها طائف من ربك وهم نـائمون * فأصبحت كـالصَّرِيم * فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أن اغْدُوا على حـرثكم إن كنتم صارمين * فـانْطَلَقُوا وهم يتخـافتون * أن لا يَـدْخُلَنَّهَا اليـوم عليكم مسكين * وَغَدَوْا على حَـرْدٍ قادرين﴾ . إلى قـوله عـز وجل : ﴿عَسَى ربُّنَا أن يُبْدِلَنَـا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون﴾ قـال ابن جرير رحمه الله في تفسير قولـه تعالى : ﴿وآتـوا حَقَّهُ يـوم حصاده﴾ كـان ذلك فـرضا فرضـه الله على المؤمنين في طعامهم وثمارهم التي تُخْرِجُهـا زروعُهم وغُروسُهُم ثم نسخه الله بالصدقة المفروضة والوظيفة المعلومة من العُشْر ونصف العُشر، وذلك أن الجميع مجمعـون لا خِلاَفَ بينهم : أن صـدقة الحرث لا تـؤخذ إلا بعد الدِّياس والتنقيـة والتذرية ، وأن صدقة التمر لا تـؤخذ إلا بعد الإجزاز، فإذا كان ذلك كـذلك ، وكان قـولُه جل ثناؤه : ﴿وآتُـوا حقه يـوم حصاده﴾ يُنْبِئ عن أنه أمرٌ من الله جل ثناؤه بإيتاء حقه يوم حصاده ، وكان يومُ حصاده هو يوم جَدِّه وقطعه ، والْحَبُّ لا شك أنه في ذلك اليوم في سنبله ، والتمر وإن كان ثمـر نخل أو كَرْمٍ غيرُ مُسْتَحْكَمٍ جُفُـوفُهُ وَيُبْسُـهُ ، وكانت الصـدقة من الحَبِّ إنما تؤخذ بعد دِيـاسه وتذريته وتنقيته كَيْلاً ، والتمر إنما تـؤخذ صدقته

بعد استحكام يُبْسِهِ وجفـافه كَيْلاً عُلِم أن ما يؤخذ صـدقة بعد حين حصده غيرُ الذي يجب إيتـاؤه المساكين يـوم حصاده، فإن قـال قائل: ومـا تنكر أن يكون ذلك إيجابا من الله في المال حقا سوى الصدقة المفروضة؟ قيل: لأنه لا يخلو أن يكون ذلك فرضا واجبا أو نفلا، فإن يكن فرضا واجبا فقد وجب أن يكون سبيلُـه سبيل الصدقات المفـروضات التي من فرَّط في أدائهـا إلى أهلها كان بربه آثما ولأمره مخالفا، وفي قيام الحجة بأن لا فرض لله في المال بعد الزكاة يجب وجوب الزكاة سوى ما يجب من النفقة لمن يلزم المَرْءَ نفقته ما ينبئ عن أن ذلك ليس كذلك، أو يكون ذلك نَفْلاً، فإن يكن ذلك كذلك فقد وجب أن يكـون الخيـارُ في إعطـاء ذلك إلى رب الحرث والثمـر، وفي إيجاب القـائلين بوجـوب ذلك ما ينبئ عن أن ذلك ليـس كذلك، وإذا خرجـت الآيةُ من أن يكون مرادا بها الندب وكان غير جائز أن يكون لها مَخْرَجٌ في وجوب الفرض بها في هذا الوقت عُلِمَ أنها منسوخة اهـ وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين﴾ تحذيـر من التبـذيـر في الأموال بـإنفاقهـا في غير الـوجـوه المشروعة ومنعها من مستحقيها، وتنبيهٌ على رعاية الاقتصاد في السلوك، قال ابن الأعرابي: السرف تجاوز ما حُدَّ لك اهـ وقد كان رسول الله ﷺ يحض على الاقتصـاد لأنـه أيسر طـرق الوصـول إلى المأمـول من الخير والبر، فقـد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: إن الدين يُسْرٌ، ولن يُشَـادَّ الدِّينَ أحـد إلا غلبه، فَسَدِّدُوا وقـاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغُـدْوَة والرَّوْحَة وشيء من الدُّلْجَة. وفي رواية له: سَـدِّدُوا وقاربوا واغْـدوا ورُوحُـوا، وشيء من الـدلجة، ، الْقَصْدَ، القَصْـدَ تَبْلغُـوا. كما روى مسلم من حديث جابـر بن سَمُرَةَ رضي الله عنهما قال: كنت أصلي مع النبي ﷺ الصلوات، فكـانت صلاته قَصْـدًا، وخُطْبَتُهُ قَصْدًا. وقد نَبَّـهَ الله تبارك وتعالى إلى الاقتصـاد في الأكل والشرب وحذَّر من الإسراف في غير هـذه الآية

كذلك حيث يقول في سورة الأعراف : ﴿يا بني آدم خُـذُوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشرَبُوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين﴾ وكما قال في سورة الإسراء : ﴿وآتِ ذا القربى حقه والمسكين وابنَ السبيل ولا تُبَـذِّرْ تَبْذِيرا * إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا﴾ إلى أن يقول : ﴿ولا تجعل يَـدَكَ مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلَّ البَسْـطِ فتقعد ملوما محسورا﴾ . وكما قال في وصف عباده الصالحين : ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذٰلك قَوَاما﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ومن الأنعام حمولة وفرشا ، كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين﴾ أي وأنشأ من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم حمولةً أي قويةً تستطيع حمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بِشِق الأنفس ، وفرشا أي ضعيفة لا تستطيع حمل الأثقال لكنكم تنتفعون بلحمها وألبان ذوات اللبن منها وتتخذون من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين ، فَتَمَتَّعُوا بالأكل منها واشكروا الله الذي رزقكموها ، ولا تنقادوا للشيطان فتحرموا أو تحللوا تبعا لما يزخرفه لكم لأنه عدو ظاهر العداوة لكم .

قـال تعـالى : ﴿ثمانية أزواج من الضـأن اثنين ومن المعـز اثنين، قـل ءآلذَّكـرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحـام الأنثيين نبئوني بعلم إن كنتم صـادقين * ومن الإبل اثنين ومن البقـر اثنين، قل ءآلذَّكـرين حـرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهٰذا، فمن أظلم ممن افترى على الله كـذبـا ليضـل النـاس بغير علم، إن الله لا يهـدي القـوم الظالمين * قل لا أجد في مـا أوحي إلى مُحَرَّمًا على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾.

بعد أن بَيَّنَ عـز وجل أنه هو الخالق لكل شيء من الـزروع والثمار والأنعام التي اجترأ هؤلاء الجاهلـون المشركون فَحَرَّمُوا منهـا ما شاءوا وأحلوا مـا شاءوا بآرائهم الفاسدة زاعمين أن الله تعالى هـو الذي حرَّمها عليهم افتراءً على الله، وانقيـادًا للشيطان، شرع هنـا في إفحـام هؤلاء الجاهلين المشركين وتقـريعهم بتحرير المواد التي تَقَوَّلُوا فيها على الله عز وجل وبيان أنه لا سند لهم في تحريم مـا حـرَّموا إلا الافتراء على الله، ونفى أن يكـون للمشركين علم أو مشـاهـدة بتحـريم شيء منها، فقـد ذكر في الآيـة السـابقة أنـه خلق من الأنعام حمولـة وفرشـا، وفَصَّل هنا الحمولـة والفرش إلى ثمانية أزواج أي أنـواع وهي لا تخلو عن أن تكون في بطون أمهاتها أو انفصلت عنها حية أو ميتة، وأمر نبيه محمدا ﷺ بتقريع المشركين وإفحـامهم على طريقـة الاستفهام الإنكـاري التوبيخي بتوجيـه السؤال لهم عن كل مادة من مـواد افترائهم حيث كانوا يحرمـون ذكور الأنعام تارة وإنـاثها تارة أخرى كما كـانوا يحرمون ما في بطـون الأنعام في حال ويحلـونها في حالـة أخـرى، كما كانـوا يخصون ببعضهـا الـرجال دون النسـاء ويبيحـونها للنساء مع الـرجال تـارة أخرى، وكـرر الأمر بـذلك للمبالغـة في

التبكيت والتقريع والإلزام والإفحام حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ثمانية أزواج﴾ إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ ومعنى ﴿ثمانية أزواج﴾ أي ثمانية أفراد أي أنواع. قال ابن سيده: الزوج: الفردُ الذي له قرين اهـ فيطلق لفظ الزوج على المفرد إذا كان معه آخر من جنسه لا ينفك عنه ويحصل منهما النسل، وكذا يطلق على الاثنين، والمراد هنا: الإطلاق الأول. وقوله ﴿من الضأن اثنين ومن المعز اثنين﴾ إلى قوله ﴿ومن البقر اثنين﴾ بدل تفصيلي من ﴿ثمانية أزواج﴾ والضأنُ: ذوات الصوف من الغنم. والمراد بقوله: ﴿من الضأن اثنين﴾ الكبش والنعجة يعني الذكر والأنثى والمعز: ذوات الشَّعر من الغنم. والمراد بقوله: ﴿ومن المعز اثنين﴾ التيس والعنز يعني الذكر والأنثى، والضأن اسم جمع وكذلك المعز، وقدم هذه الأربعة في التفصيل مع تأخر أصلها وهو الفرش في الإجمال لكونها عرضة للأكل الذي هو مُعْظَمُ ما يتعلق به الحل والحرمة وهو السر في الاقتصار على الأمر بالأكل من غير تعرض للمنافع الأخرى كالحمل والركوب التي حرَّمُوها في السائبة والوصيلة والبحيرة والحامي. والهمزة في قوله: ﴿قل ءَ الذَّكرين حرَّمَ أم الانثيين﴾ للإنكار، والمقصودُ إنكار التحريم لكنه أورده في صورة إنكار المفعول ليطابق ما كانوا يدَّعونه من التفصيل في المفعول، فإذا أنكر المفعول كان إنكارا للفعل بطريق برهاني، والمراد بالذكرين: الكبش والتيس، والمراد بالأنثيين: النعجة والعنز، وانتصاب الذكرين بِحَرَّمَ، وقد عطف عليه الأنثيين، وأمَّا في قوله تعالى: ﴿أمَّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ عبارة عن أم العاطفة، وما الموصولة، وقد حصل الإدغام بسبب التقاء ميم أم ساكنة مع ما بعدها، ومعنى: ﴿اشتملت﴾ أي احتوت، وأرحام جمع رحم وهو محل الجنين. ومعنى: ﴿أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ أي أم حرَّم الذي اشتملت عليه أرحام

أنثى الضأن وأنثى المعـز من الأجنـة، ومعنى: ﴿نبئـوني بعلم إن كنتم صادقين﴾ أي أخبروني بأمر تستيقنونه عن سبب التحريم، والأمر للتعجيز، أي قل يا محمد لمن حـرَّم بعض الذكور تارة وبعض الإنـاث تارةً أخرى: من أين جاء التحـريم؟ فإن كان من جهـة الذكـورة فجميع الذكـور إذَنْ حرام، وإن كان التحريم لعلة الأنوثة فجميع الإناث إِذَنْ حَرَامٌ، وإن كان التحريم بسبب اشتمال الـرحم فجميع الـذكـور والإنـاث إذن حـرام فمِنْ أين جـاء التخصيص؟ ومعنى قـوله عـز وجل: ﴿ومن الإبل اثنين ومن البقـر اثنين﴾ أي وأنشأ من الإبل اثنين هما الذكر والأنثى أي الجمل والناقة وأنشأ من البقر اثنين هما الذكر والأنثى أي الثَّوْر وأنثاه، وأم في قوله تبارك وتعالى: ﴿أم كنتم شُهَـدَاءَ إذ وصـاكم الله بهٰذا﴾ هي أم المنقطعـة التي تَـرِدُ بمعنى بل التي لـلإضراب والهمـزة التي للإنكـار، والإضراب في بل إضرابٌ لـلانتقـال من تـوبيخهم بنفي العلم عنهم إلى تـوبيخهـم بنفي حضـورهم وقت الإيصـاء بالتحـريم المزعوم، ومعنى ﴿شهـداء﴾ أي حاضرين، ومعنى: ﴿وصـاكم الله﴾ أي عهـد إليكم. والإشارة في قـولـه عز وجل: ﴿بهٰذا﴾ لما زعمـوه من تحريم ما حرموه وادَّعَوْا أن الله هو الـذي حرَّمه عليهم، وقد سيق هذا الكلام الكريم لتبكيتهم وإفحامهم وقطع كل شبهـة لديهم وإلزامهم بما لا فرار لهم من الإقرار على أنفسهم بأنهم مفترون كاذبـون، ولما كان الكذب على الله عز وجل هو أقبح الكذب وأفحشه أردف تبارك وتعالى هذا البيان بقوله: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كَذِبًا لِيُضِلَّ الناسَ بغير علم، إن الله لا يهدي القوم الظـالمين﴾ والفـاء في قـولـه تعـالى: ﴿فمن أظلم﴾ هـي الفصيحـة، ومَنْ استفهام إنكـاري أي فلا أحـد أظلم ممن افترى على الله كذبـا ليضل الناس بغير علم. ولم يقل: فمن أظلم منكم، وقـال: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم﴾ ليثبـت لهم هذه الأوصاف القبيحةَ، وهي

أنهم ظالمون مفترون كـاذبون ضالـون مضلون جـاهلون، ولِيَعُمَّهُمْ ومن على شاكلتهم كذلك أيضا ومعنى قولـه هنا: ﴿افترى على الله كذبا﴾ أي حرَّم ما لم يحرمـه الله ونَسَبَ ذلك التحريمَ إلى الله افتراءً عليـه. والهدايةُ في قـوله عـز وجل: ﴿إن الله لا يهدي القـوم الظـالمين﴾ هي هـداية التـوفيق والإعـانـة والتسديد، لا هداية البيان. قـال ابن جرير رحمه الله: وأما قولُه: ﴿أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كـذبا ليضل الناس بغير علم﴾ فإنـه أمرٌ من الله جل ثنـاؤه نَبِيَّهُ ﷺ أن يقـول لهؤلاء الجهلـة من المشركين الـذين قَصَّ قصصهم في هـذه الآيـات التي مضت، يقول لـه عـزَّ ذكره: قل لهم يا محمد: أيَّ هـذه سألتكم عن تحريمه حرَّم ربُّكم عليكم من هذه الأزواج الثمانيـة؟ فإن أجابوك عن شيء مما سألتهم عنه من ذلك، فقل لهم: أَخَبَرًا قلتم: «إن الله حرَّم هذا عليكم»، أَخْبَرَكم به رسول عن ربكم أم شَهِدْتُم ربَّكم فرأيتمـوه، فوَصَّاكم بهذا الذي تقـولون وتُزَوِّرُونَ على الله؟ فإن هذا الذي تقولون من أخباركم عن الله أنـه حرام بما تزعمون على ما تزعمون، لا يُعْلَمُ إلا بوحي من عنده مع رسول يـرسله إلى خلقه، أو بسماع منه، فَبِأَيِّ هـٰـذين الـوجهين علمتم أن الله حرَّم ذلك كـذلك، بـرسول أرسلـه إليكم فأنبئوني بعلـم إن كنتم صادقين؟ أم شهدتم ربكـم فأوصاكم بـذلك، وقال لكم: حَـرَّمْتُ ذلك عليكم، فسمعتم تحريمه منـه، وعَهْدَهُ إليكم بـذلك؟ فإنـه لم يكن واحدٌ من هـذين الأمـرَيْنِ، يقول جل ثنـاؤه: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كـذبـا﴾ يقـول: فمن أشـدُّ ظلما لنفسـه وأبعـدُ عن الحق ممن تَخَرَّصَ على الله قِيلَ الكذب، وأضاف إليه تحريم ما لم يُحَرِّمْ وتحليل ما لم يُحَلِّلْ ﴿لِيُضِلَّ النـاسَ بغير علم﴾ يقول: ليصـدهم عن سبيلـه ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ يقول: لا يُوَفِّقُ اللهُ للرشد من افترى على الله وقال عليه الزُّورَ والكذب وأضاف إليه تحريم ما لم يُحَرِّمْ، كُفْـرًا بالله، وجحودًا لنبوة نبيه محمد

ﷺ اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿قل لا أجد فيما أوحي إليَّ مُحَرَّمًا على طاعم يطعمه﴾ الآية رَدٌّ على المشركين الذين حرَّمُوا بعض الأنعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، وبيانٌ لما حرَّمه الله عز وجل لتأكيد افتراء المشركين على الله عز وجل وأنهم حرَّموا ما لم يحرمه الله، والتعبير بقوله: ﴿قل لا أجد﴾ وبقوله: ﴿فيما أوُحِيَ إليَّ﴾ للإيذان بأن مناط الحل والحرمة هو الوحي، ومعنى ﴿طاعم﴾ أي آكل وهو يشمل الذكر والأنثى ففيه ردٌّ على قولهم: ﴿ومحرَّمٌ على أزواجنا﴾ والتقييد بقوله: يَطْعَمُهُ لزيادة التقرير، وقولُه ﴿إلا أن يكون ميتة﴾ الاستثناء من موصوف ﴿مُحَرَّمًا﴾ المحذوف والتقدير: لا أجد حيوانا من الأزواج الثمانية محرما إلا حيوانا متصفا بالموت و إلا الدَّمَ المسفوحَ ولحمَ الخنزير وما ذبح لغير الله. والمراد بالمسفوح هو الدم السائل من الذبيحة، والتقييد باللحم في قوله عز وجل: ﴿أو لحم خنزير﴾ للإشارة إلى أنه نجس العين لا تحله التذكية، والضمير في قوله عز وجل: ﴿فإنه رجس﴾ للحم الخنزير، والجملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب قد سيقت لتعليل تحريم لحم الخنزير، والرجس: الخبيث النجس، ولا شك أن الخنزير خبيث لذاته، وضرره وأكله النجاسات. وقد أثبت التحليل أنه أكبر أسباب الإصابة بالدودة «الشريطية» لآكليه. وقوله: ﴿أو فسقا﴾ عطف على ﴿لحم خنزير﴾ وقوله: ﴿أُهِلَّ لغير الله به﴾ صفة لقوله: ﴿فسقا﴾ والمراد به ما ذبح لغير الله من القرابين، وسميَ فسقا لتوغله في الخروج عن طاعة الله، وقد تقدم في تفسير الآية الثالثة والسبعين بعد المائة من سورة البقرة ما يبين المراد من ألفاظ هذه الآية الكريمة، كما سقت في تفسير الآية التاسعة عشرة بعد المائة من سورة الأنعام ما يشبه هذه الآية الكريمة من القرآن العظيم، والحصر في المحرمات الأربع المذكورة في هذه الآية وشبيهاتها من الآيات الكريمة المباركة هو حصرٌ نِسْبِيٌّ لا ينافي أن يرد بعده تحريم شيء سواه. وقد

نهى رسـول الله ﷺ عن أكل كل ذي نـاب من السبـاع وذي مخلب من الطير وعن أكل الحمر الأهلية فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي ثعلبة الخُشَنِي رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ نهى عن أكل كـل ذي ناب من السباع، كما روى مسلم من حديـث ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ نهى عن كل ذي ناب من السبـاع وعن كل ذي مخلب من الطير. كما روى البخاري ومسلم من أحـاديث علي وابن عمر وجابر بن عبـدالله والبراء وابن أبي أوفى وأبي ثعلبة وأنس بن مالك رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ نهى عن الحمر الأهلية.

قال تعـالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حرَّمنا كل ذي ظفـر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا مـا حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظمٍ، ذلك جـزينـاهم ببغيهم وإنـا لصادقـون * فإن كـذَّبـوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يردُّ بأسه عن القوم المجرمين * سيقـول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون * قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ .

بعد أن أفحم الله تبارك وتعـالى المشركين الجاهلين فيما تَقَوَّلُوا على الله تبارك وتعـالى وبيَّن أنه لا سنـد لهم في تحريم مـا حرَّمـوا إلا الافتراء على الله ونَفَى أن يكون للمشركين علم أو مشاهدة بتحريم شيء منها، وحَصَر المحرماتِ التي ثبت تحريمها على النـاس كافة، شرع هنا في ذكـر ما حرَّمـه الله عز وجل على اليهود خاصة عقوبة لهم بسبب بغيهم وظلمهم، ثم واسى رسوله ﷺ ورغَّب في الاستجابـة له، ورهَّب من الإعراض عنـه، ثم ذكر عز وجل فَنًّـا آخر من فنـون كفر أهل الجاهليـة وأخبر عنه قبل وقـوعه منهم فـوقع كما أخبر به عـز وجل حيث حكى عنهم أنهم سيعتذرون عن كفريـاتهم وافتراءاتهم فيقولون : لو شـاء الله ما أشركْنـا ولا آباؤنا ولا حـرَّمنا من شيء، وبيَّن تبـارك وتعالى أن حجتهم داحضة وأن حجة الله هي البالغة حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿وعلى الذين هادُوا حـرَّمنا كل ذي ظُفُرٍ﴾ إلى قوله تبارك وتعـالى : ﴿قل فلله الحجة البالغة فلـو شاء لهداكم أجمعين﴾ والمراد بالذين هـادوا : اليهود، وقدم الجار والمجرور للدلالـة على الحصر، والجملة معطوفة على مضمون الآيـة السابقة، أي لا أجد محرما إلا هذا وإلا ما حـرَّمه الله على اليهود خاصة بسبب ظلمهم وبغيهم. والمراد بـذي الظفـر: مـا له إصبع غير مشقـوق من دابـة أو طـائر

كالبعير والنعامة والوَزِّ والبط. وقوله عز وجل: ﴿ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شُحُومَهُمَا إلا ما حَمَلَتْ ظهورُهُما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم﴾ أي وحرمنا على اليهود شحوم البقر والغنم إلا ثلاثة أنواع من هذه الشحوم فالأول هو الشحم الذي حملته ظهور البقر والغنم وعلق بها. والثاني هو شحم الحوايا وهي الأمعاء والمصارين والثالث هو الشحم المختلط بعظم البقر أو الغنم، وما عدا هذه الأنواع الثلاثة فقد حرمه الله على اليهود عقوبة لهم كشحم البطن، وشحم الكُلَى، وهذا الذي حرَّمه الله عز وجل على اليهود بسبب بغيهم هو غير الذي حرَّمه إسرائيلُ على نفسه، المذكور في قوله تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ الطعام كان حِلاًّ لبني إسرائيلَ إلا ما حرَّم إسرائيلُ على نفسه من قبل أن تُنَزَّلَ التوراة﴾ والإشارة في قوله عز وجل: ﴿ ذٰلك جزيناهم ببغيهم﴾ للتحريم الذي ألزم الله عز وجل به بني إسرائيل عقوبة لهم، أي هذا الذي حرمنا على الذين هادوا من الأنعام والطير ذوات الأظافير غير المنفرجة ومن شحوم البقر والغنم قد حرمناه عليهم عقوبة مِنَّا لهم وجزاء عاجلا على أعمالهم السيئة من الظلم والبغي، كما قال عز وجل: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا * وأخذهم الربا وقد نُهُوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل، وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وإنا لصادقون﴾ قال ابن جرير رحمه الله: يقول: وإنا لصادقون في خبرنا هذا عن هؤلاء اليهود عما حرمنا عليهم من الشحوم ولحوم الأنعام والطير التي ذكرنا أنَّا حرمنا عليهم، وفي غير ذلك من أخبارنا، وهم الكاذبون في زعمهم أن ذلك إنما حرَّمه إسرائيل على نفسه وأنهم إنما حرموه لتحريم إسرائيل إياه على نفسه اهـ وقد أخبر رسول الله ﷺ أن بني إسرائيل لما حرَّم الله عليهم الشحوم احتالوا فَجَمَلُوهَا ثم باعوها وأكلوا ثمنها، فقد روى البخاري من حديث عمر رضي

الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال : قاتل الله اليهـود ، حُرِّمَتْ عليهم الشحـوم فَجَمَلُوهَـا فباعوها . كما أخـرج البخـاري من حـديث جابـر بن عبـد الله رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قـال : قـاتل الله اليهـود ، إن الله لما حـرَّم شحومها جملـوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه ، وفي لفظ للبخاري من حـديث جابر ابن عبد اللـه رضي الله عنهما : سمعت النبي ﷺ قال : قـاتل الله اليهود ، لما حرَّم الله عليهم شحـومها جملـوها ثم باعـوها فأكلـوها . ومعنى جملـوها أي أَذَابُوهَا ، وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قـال : قاتل الله اليهـود ، إن الله عـز وجل لما حـرَّم عليهم شحومهـا أجملوه ثم باعوه فأكلوا ثَمَنَـهُ ، وفي رواية لمسلم من حديث عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال : لعن الله اليهود ، حُـرِّمت عليهم الشحوم فجملـوها فباعوها ، كما روى مسلم من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : قاتل الله اليهود حرَّمَ الله عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها . وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هـريرة قال : قـال رسول الله ﷺ : قاتل الله اليهـود ، حُرِّمَ عليهم الشحم ، فباعوه وأكلوا ثمنه . وقولُـه تبارك وتعالى : ﴿فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يُـرَدُّ بأسُهُ عـن القوم المجرمين﴾ قـال ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى : فإن كـذبك يا محمد مخالفوك من المشركين واليهـود ومن شَابَهَهُمْ فقل : ﴿ربكم ذو رحمة واسعة﴾ وهذا تـرغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة واتباع رسـوله ﴿ولا يُـرَدُّ بأسه عن القـوم المجرمين﴾ تـرهيب لهم في مخالفتهم الـرسول خـاتم النبيين ، وكثيرا مـا يقرن الله تعـالى بين الترغيب والترهيب في القرآن كما قـال تعالى في آخـر هذه السـورة : ﴿إن ربك سريعُ العقـاب وإنه لغفور رحيم﴾ وقال : ﴿وإن ربك لـذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديـدُ العقاب﴾ وقـال تعالى : ﴿نَبِّئْ عبـادِي أني أنا الغفـور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ وقال تعالى : ﴿غافـر الذنب وقابل التَّوْب شديد

العقاب﴾ وقال: ﴿إن بَطْش ربك لَشَدِيد * إنه هو يُبْدِئُ ويعيد * وهو الغفور الوَدُودُ﴾ والآيات في هذا كثيرةٌ جدا. اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أَشْرَكْنَا ولا آباؤنا ولا حَرَّمْنَا من شيء، كذلك كذَّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأْسَنَا، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تَخْرُصُونَ﴾ بيانٌ لجهل المشركين وأنهم لم يعرفوا الله عز وجل إذ ظَنُّوا أن مُجَرَّدَ صدور الشرك منهم وتحريم ما حرَّموا يكفيهم في الدلالة على مشروعية ما صنعوا زعما منهم أن مشيئة الله بصدور الفعل منهم تقتضي رِضَى اللهِ عن عملهم، وخلطوا بين مشيئة الله ورضاه، وحسبوا أَنَّ ما شاءه هو راض عنه، والحال ليس كذلك فإن المشيئة هي الإرادة الكونية القدرية وليست ملازمة للإرادة الشرعية التي تدل على رضى الله ومحبته، وهو لا يأمر إلا بما يحب ويرضى، وهو لا يرضى لعباده الكفر، والواقع الصحيح أن الاحتجاج بقدر الله ومشيئته ينبغي أن يلاحظ فيه أمران: فالقَدَرُ إما أن يقترن بمصائب أو أن يقترن بمعايب، إذ قد يرتكب الإنسان جريمة كالشرك أو الزنا أو السرقة أو القتل أو شرب الخمر، فإذا قيل له: لِمَ فعلتَ ذلك؟ قال: قَدَرُ اللهِ أو مشيئةُ الله أو قضاء الله، ونسب جريمته إلى القدر والمشيئة. وهذا خطأ فإنه لا يصح الاحتجاج بالقَدَر على ارتكاب المعايب، لأن الله لم يبين له القَدَرَ قبل ارتكابه الجريمة ولم يأذن له في ارتكابها، أما إذا أصيب إنسان بمصيبة من المصائب التي لم يقع فيها بإرادته واختياره كالمرض أو الفقر أو كأن ينقلب وهو نائم على شخص فيقتله أو تنفلت منه حصاة أو نحوها على شخص بدون قصد فتصيبه أو تغلبه عينه رغم أنفه فينام عن الصلاة فإن له أن يحتج في كل هذه المصائب بالقدر ويقول: قدَّر اللهُ وما شاء فعل، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَّرَ الله وما شاء فعل، فإن لَوْ تفتح عمل الشيطان. وهؤلاء المشركون لم يذكروا المشيئة على جهة التوحيد وإنما ذكروها على جهة التكذيب للرسول ﷺ لما نهاهم عن الشرك وأخبرهم أن الله منع من الشرك وأنه لم يحرم ما حرموه ولذلك ردَّ الله عز وجل عليهم بقوله: ﴿كذلك كذَّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا﴾ أي كذلك كذبت الأمم السابقة الرسل حتى حلت بالمكذبين عقوبة الله، كما قال عز وجل: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرَّمنا من دونه من شيء، كذلك فعل الذين من قبلهم، فهل على الرسل إلا البلاغ المبين * ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أنِ اعبدوا اللهَ واجتنبوا الطاغوت فمنهم مَن هَدَى الله ومنهم مَن حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبةُ المكذبين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم، ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يَخْرُصُونَ * أم آتيناهم كتابا من قَبْله فَهُمْ به مستمسكون﴾ ولذلك قال هنا: ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾ أي هل عندكم من كتاب عن الله عز وجل بأنه راض عن شرككم وتحريم ما تحرمون فإن كان عندكم علم فأبرزوه لنا وأظهروه وبينوه، والواقع أنكم لا علم عندكم بما تقولون وتفعلون فأنتم لا تتبعون في شرككم وتحريم ما تحرمون إلا الوهم والخيال والرأي الفاسد، وما أنتم إلا تفترون على الله فيما ادعيتموه. قال ابن كثير رحمه الله: وقولُه تعالى: ﴿قل فلله الحجةُ البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿قل﴾ لهم يا محمد ﴿فلله الحجة البالغة﴾ أي له الحكمة التامة والحجة البالغة في هداية من هدى

وإضلال من ضل ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ فكُلٌّ ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ وقال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمَنَ مَن في الأرض﴾ وقوله ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأَمْلأَنَّ جهنم من الجِنَّةِ والناسِ أجمعين﴾اهـ.

قال تعالى : ﴿قل هلمَّ شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هـٰذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواءَ الذين كذَّبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدِلون * قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق ، ذالكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسًا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ، ذالكم وصاكم به لعلكم تذكرون * وأن هـٰذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذالكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ .

بعد أن قطع الله جميع شبه الكفار الذين افتروا على الله وأفحمهم حيث أثبت أن الله عز وجل لم يرسل إليهم وحيا بما زعموا ، ولم يكلمهم مشافهة ، طَالَبَهُمْ هنا بإحضار شهودهم على ما زعموا إن كان لديهم شهود ، ليبين أنهم ليس لديهم شهود ألبتة حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿قُلْ هَلُمَّ شهدآءكم الذين يشهدون أن الله حرَّم هـٰذا فإن شَهِدُوا فلا تَشْهَدْ معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كَذَّبُوا بـآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بـربهم يَعْدِلُون﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء السفهاء الجاهلين المشركين الذين جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ولأوثانهم نصيبا وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ، وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ، وقد انقطعوا عن أن يُثْبِتوا أن الله أوحى إليهم أو شافههم بذلك التحريم والتحليل ، قل لهم : هاتوا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرَّم

عليكم مـا تزعمـون أنه حـرَّم عليكم ما حـرمتموه من الحرث والأنعـام، فإن اجترءوا وجاءوك بشهود يشهدون أن الله هو الذي حرَّم عليهم فلا تكترث لهم ولا تبال بشهادتهم فإنهم يكونون شهـودا كذبةً فجرة لا تقبل لهم شهادة. ولا تتأثر بهم فإنَّ أمورهم مبنية على الكذب والهوى وهم لا يؤمنون بقدرة الله على بعث الموتى وهم يعدلون بربهم الأوثـان والأصنام، وليس في قوله عز وجل: ﴿فـلا تشهد معهم﴾ مـا يدل على أن رسـول الله ﷺ قـد تتأتى منه الشهـادةُ معهم، فإنه ﷺ معصوم من ذلك، بل المراد تحذير أمته من أن يتأثروا بشهادة هؤلاء وأمثالهم لو شهدوا بالباطل المقطـوع ببطلانه. قال ابن جرير رحمه الله: قال الله لنبيه: ﴿فإن شهـدوا﴾ يقول: يا محمد فإن جـاءوك بشهداء يشهدون أن الله حرَّم ما يـزعمون أن الله حرَّمه عليهم ﴿فلا تشهـد معهم﴾ فإنهم كذبةٌ وشهودُ زور في شهادتهم بما شهدوا به من ذلك على الله، وخَاطَبَ بذلك جل ثناؤه نَبِيَّـهُ ﷺ، والمرادُ به أصحابُه والمؤمنـون به ﴿ولا تَتَّبِعْ أهواء الذين كـذبوا بآياتنا﴾ يقول: ولا تُتابِعْهُم على مـا هم عليه من التكذيب بوحي الله وتنزيله في تحريم ما حـرَّم وتحليل ما أحل لهم، ولكنِ اتبع مـا أُوحي إليك من كتاب ربك الذي لا يأتيـه الباطل من بين يـديه ولا من خلفـه ﴿والذين لا يـؤمنون بالآخـرة﴾ يقول: ولا تتبع أهواء الذين لا يـؤمنون بالآخرة فَتكَـذِّبَ بما هم به مكذبون من إحيـاء الله خلقه بعد مماتهم، ونَشْرِهِ إيـاهم بعد فنائهم، ﴿وهم بربهم يعدلـون﴾ يقول: وهم مع تكذيبهم بالبعـث بعد المهات، وجُحُودِهم قيام الساعة، بالله يعدلون الأوثانَ والأصنام، فيجعلونها له عِدْلاً، ويتخذونها له نِدًّا، يعبدونها من دونه اهـ.

وقـال القاضي أبـوبكر ابن العـربي: وليس في الآيـة الرضـا بالشهـادة ثم الإنكار، إنما فيها طلبُ الدليل واستدعـاءُ البرهان على الدعوى، فإن العرب تَحَكَّمَتْ بالتحريم والتحليل، فقال الله لنبيـه: قل لهم: هاتُوا شهداءكم بأن

هذا من عند الله أي حجتكم حتى نسمعها وننظر فيها. فإن قيل: فما فائدة قوله: ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾؟ قلنا: هذا تحذيرٌ من الله لنبيه لِتَعْلَمَ أُمَّتُهُ المعنى، فإن قال شهداؤهم مثلَ ما يقولون فلا تقله معهم، فهذا دليل على أن الشاهد إذا قال ما قام الدليل على بطلانه فلا تقبل شهادته اهـ وبعد أن أظهر عجزهم عن إخراج شيء يمكن أن يستدلوا به على تحريم ما حرَّموا، وبعد أن بَيَّنَ ما حرَّمه الله عز وجل من الأطعمة على الناس عموما وعلى اليهود خصوصا شرع هنا في بيان ما حرَّمه الله عز وجل من محرمات العقائد والسلوك بأسلوب حكيم حيث أَمَرَ نبيَّهُ ﷺ أن يقول لهم: تَعَالَوْا أَتْلُ ما حرَّم ربكم عليكم، وَذَكَرَ الوصايا العشر التى أطبق جميع النبيين والمرسلين على وصية أممهم بمراعاتها والقيام بحقها، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ما حرَّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذٰلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ وهذه الوصايا العشر التي وصت بها هذه الآيات الثلاث قد وصى بها جميع النبيين والمرسلين، وقد ذكر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن من سره أن ينظر إلى صحيفة رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هذه الآيات مشيرا بذلك إلى أنها محكمات لم ينسخ منها شيء وهن محرمات على بني آدم كلهم، فقد قال الترمذي في التفسير من جامعه: حدثنا الفضل بن الصبَّاح البغدادي حدثنا محمد بن فضيل عن داود الأودي عن الشعبي عن علقمة عن عبد الله قال: من سَرَّهُ أن ينظر إلى الصحيفة التي عليها خاتم محمد ﷺ فليقرأ هذه الآيات: ﴿قل تعالَوْا أَتْلُ ما حرَّم ربُّكم عليكم﴾ الآية إلى قوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ قال أبوعيسى: هذا حديث حسن غريب اهـ.

وهذه الوصايا العشر هي تحريم الشرك بالله، وتحريم الإساءة إلى الوالدين وتحريم قتل الأولاد من إملاق، وتحريم الفواحش الظاهرة والباطنة، وتحريم

قتل النفس التي حرم الله إلا بـالحق، وتحريـم أكل مال اليتيم، وتحريم بخس الكيل والميزان، وتحريم قول الزور، وتحريـم نقض العهد، وتحريـم الخروج عن صراط الله المستقيم، وقـد أورد الله تبارك وتعـالى خمس وصـايـا منها بصيغـة النهي عنهـا وأورد أربع وصايـا منها بصيغة الأمـر المراد به النهي عـن ضده، وجمع في الـوصيـة العـاشرة بين الأمـر والنهـي حيث قـال فيهـا : ﴿وأن هٰذا صراطي مستقيما فـاتبعـوه ولا تتبعـوا السبل فتفـرق بكم عن سبيلـه﴾ وقـد اشتملت هـذه الصيغ على ألـوان من الفصاحـة والبـلاغـة والبيان ومـراعـاة مقتضيـات الأحوال مـا يعجـز عن التعبير عنه أربـاب الفصـاحة وأسـاطين البيان، وقد بـدأ هذه الوصايـا بتحريم الشرك لأنه من مـات وهو يشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة، وقد ثَنَّى بالـوصية بالوالدين لعظيم حقهما، ولذلك قـرن الله عز وجل الـوصية بهما بـالوصيـة بتوحيـده في غير موضع من القـرآن الكريم حيث يقول : ﴿واعبـدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالـدين إحسانا﴾ وقـال : ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إيـاه وبالـوالـدين إحسانـا﴾ وقال عـز وجل : ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظـه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم * ووصينا الإنسان بوالديه حملتـه أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أَنِ اشكر لي ولـوالديك إليَّ المصير﴾ وكـان مقتضى سياق الـوصية الثـانية أن يقال : «ولا تُسِيئُوا إلى الوالدين» لكن لما كـان النهي عن الإساءة إلى الوالدين لا يتحتم منه وجـوب الإحسان إليهما عـدل عن مقتضى السياق إلى مقتضى الحال فقـال : ﴿وبـالـوالـدين إحسـانـا﴾ ليشمل تحريم الإسـاءة ووجـوب الإحســان إليهما . أي وأحسنوا بـالوالـدين إحسانـا، وكذلك الحال في سـائر الأوامر الواردة في هذه الآيات الثلاث حيث كان السياق يقتضي مجيئها بصورة النواهـي فعدل بها إلى صيغة الأوامـر لإفادة تأكيـد النهي عن أضدادهـا مع زيـادة مـا يفيـده لفظ الأمـر، ولا شك في ظهـور المراد من ذٰلك، لأن هـذه

الأوامـر لما وردت مع النـواهي وتقـدمهـن جميعـا فِعْلُ التحـريم واشتركن في الدخـول تحت حكمه عُلِمَ أن التحـريم راجع إلى أضدادهـا وهي الإساءة إلى الـوالدين وبخس الكيل والميـزان وتـرك العدل في القـول ونكث العهد، أمـا الـوصية الثـالثـة فهي قولـه: ﴿ولا تقتلوا أولادكـم من إملاق نحن نـرزقكم وإياهم﴾ أي ولا تقتلوا أولادكم بسبب الفقر فرزقكم ورزقهم على الله وحده، أما الوصية الرابعة فهي قولُه: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ أي ولا تأتـوا فـاحشـة من الفـواحش بحـال من الأحـوال سرا أو علنـا، والفواحش جمع فـاحشة وهي مـا يشتد قبحـه من الذنوب والمعـاصي كالـزنا وعمل قوم لـوط وكشف العورة أو وصفهـا أو النظر إليها، وتتنـاول أيضا كل قبيح مستبشع. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وفي قـوله: ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ عموم لأنواع كثيرة من الأقوال والأفعال اهـ والوصية الخامسة هي قولـه تعالى: ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بـالحق﴾ أي ولا تقتلوا النفس التي لم يبح الله قتلها لكـونها نفس مسلم أو معاهـد إلا إذا ارتكبت ما يبيح قتلها من أن تقتل نفسا فَتُقْتَلَ قَوَدًا بها، أو تزني وهي محصنة فترجم، أو ترتد عن دينها الحق فتقتل. وقد جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إلّه إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثـلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لـدينه المفارق للجماعـة. كما روى البخاري من حديث عبـد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قـال: من قتل معاهدا لم يرح رائحـة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامـا. ومعنى قوله: ﴿ذٰلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ أي هذه الوصايا الخمس وصاكم الله بها وعهد إليكم بذلك لتعقلوا وتحبسـوا أنفسكم عن ارتكاب القبائح المذكـورة، والوصية السـادسة هي قـولُـه تعالى: ﴿ولا تقـربـوا مـال اليتيم إلا بـالتي هي أحسنُ حتى يبلغ

أشـده﴾ أي ولا تأكلـوا مـال اليتيم ظلما ولا تتنـاولـوا منـه شيئـا حتى يحتلم فتجتمع قوته ، فإن آنستم منه رشدا فليدفـع وليه له ماله ، وعلى وليه قبل دفع المال له أن يكون تصرفه فيه بما فيه صلاحه ، وإن كان الولي فقيرا فله أن يأكل منه بالمعـروف كما قال عز وجل : ﴿ومن كان غنيـا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بـالمعـروف ، فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهـدوا عليهم ، وكفى بـالله حسيبا﴾ والوصيـة السابعة هي تحريم بخس الكيل والميـزان ووجوب إيفائهما بالعدل المستطاع ، وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها﴾ . والـوصية الثامنة هي قـوله تعالى : ﴿وإذا قلتم فاعدلـوا ولو كان ذا قربى﴾ أي ولا تتكلموا إلا بـالحق ولا تشهدوا الزور مهما كان المشهـود له أو عليـه ، والوصية التـاسعة هي قـوله تعـالى : ﴿وبعهد الله أَوْفُوا﴾ أي ولا تنقضـوا العهود والمواثيـق وأتموها لمن عاهـدتموه ، ومعنى قـوله تبارك وتعالى : ﴿ذٰلكم وصـاكم به لعلكم تذكرون﴾ أي هذه الـوصايا الأربع المذكورة في هذه الآية قد وصـاكم الله بها لتتعظوا وتتفكروا في عواقب أموركم ، فتسلكـوا الصراط المستقيم . أما الـوصية العـاشرة فهي قولـه تبارك وتعـالى : ﴿وأن هٰذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعـوا السبل فَتَفَرَّقَ بكم عن سبيله﴾ أي وأن هـذا الـذي وصاكم بـه ربكم هـو المنهج القـويم والصراط المستقيم الذي يـدعو إليـه محمد ﷺ فاعملـوا به ولا تسلكوا طـريقا سـواه ولا تتخذوا منهجا غيره فإنكم إن التزمتم بهذا المنهج الذي ارتضاه الله لعباده أوصلكم إلى الجنة ، وإن انحـرفتم عنه واتبعتم سُبُل الشيطـان صرتم إلى النار كما قـال عز وجل : ﴿ومن يشـاقق الـرسول مـن بعد مـا تبين لـه الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نُوَلِّه مـا تولى ونُصْلِهِ جهنم وسـاءت مصيرا﴾ فاستمسكوا بصراط الله المستقيم لتكونوا في عداد المتقين .

قال تعـالى : ﴿ثم آتينا مـوسى الكتـاب تمامًا على الذي أحسـن وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون * وهٰذا كتابٌ أنزلناه مبارك فاتبعـوه واتقوا لعلكم ترحمون * أن تقـولوا إنما أنزل الكتـاب على طائفتين من قبلنا و إن كنا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينـةٌ من ربكم وهدى ورحمة ، فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ، سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون﴾ .

بعد أن ذكر تبارك وتعـالى الوصايا العشر أشار هنا إلى أن هذه الـوصايا قد وصى الله تبارك وتعالى بها بني آدم مذ أوجـدهم وكلفهم ، وأنه عز وجل كان يبعث في كل أمــة رسـولا يُفَصِّلُ لقـومـه الحلال والحرام مـع التـزامهم بهذه الوصايا العشر ، وأنه قد آتى موسـى عليه السلام الكتاب وهو التوراة مشتملا على أحسن المناهج التي لا غنى لقومـه عنها وفيه تفصيل كل شيء يهدي إلى الصراط المستقيم ، كما أنزل على محمد ﷺ الكتاب الكريم وهو القرآن العظيم والذكـر الحكيم الكثير البركات والخيرات ليرحم الله عـز وجل من استمسك بهديه ، وليقطع عـذر الكافرين حتـى لا يقولوا مـا جاءنا من بشير ولا نـذير وذلك لتقرير الرسالة ولتأكيد أن محمدا ﷺ ليس بدعا من الرسل ، وقد توعد الله عـز وجل المكـذبين به المعـرضين عنـه بـالعقـاب الذي يستحقـونـه على تكذيبهم و إعـراضهم ، وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿ثم آتينا مـوسى الكتاب تمامـا على الذي أحسن وتفصيـلا لكل شيء وهُدًى ورحمةً لعلهم بلقـاء ربهم يؤمنون * وهٰذا كتـابٌ أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقـوا لعلكم تُرْحَمُونَ﴾ إلى قوله : ﴿سنجـزي الذين يصـدفون عن آيـاتنـا سُوءَ العـذاب بما كانـوا يصدفـون﴾ و﴿ثُم﴾ في قـوله تبـارك وتعـالى : ﴿ثم آتينـا موسى الكتـاب﴾ لترتيب إيتـاء

موسى الكتاب وتراخيه على ما تقدمه من إيحاء الله لأنبيائه ورسله السابقين بالوصايا العشر التي حَرَّمَهَا الله عز وجل قبل إيتاء موسى الكتاب، وجعلها محرمةً في جميع شرائع الأنبياء والمرسلين من أولهم إلى خاتمهم وسيدهم محمد ﷺ وعليهم أجمعين. ومعنى قوله عز وجل: ﴿تَمَامًا على الذى أَحْسَنَ وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقآء ربهم يؤمنون﴾ أي لتتم نعمتنا على الذي أحسن أي على كل من كان محسنا صالحا من أتباع موسى عليه السلام مع وفاء هذا الكتاب بسائر الأحكام على المنهج الذي أحسن رعاية مصالح قوم موسى عليه السلام، وجاء ملائما لزمانهم وأحوالهم، كما أن هذا الكتاب قد جاء فيه تفصيل كل شيء من العقائد وسائر الأمور الدنيوية والأخروية التي لا غنى لبني إسرائيل عنها في جميع ما يتعلق بمعاشهم ومعادهم، كما أنه قد اشتمل على الهدى والرشاد والرحمة والرأفة التي يستنير بها من يؤمن بهذا الكتاب ليصدق بلقاء الله والحشر والنشر والثواب والعقاب. كما قال عز وجل: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأْخذُوا بأحسنها﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هُدًى ونُورٌ﴾. والإشارة في قوله تعالى: ﴿وهٰذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون﴾ للقرآن العظيم والذكر الحكيم المنزل على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد صلوات الله وسلامه وتحياته وبركاته عليه وعليهم أجمعين. وفي ذكر القرآن بعد ذكر التوراة مباشرة لفت انتباه مشركي العرب واليهود الذين كانوا ينكرون القرآن والرسالة وتقريعهم على قولهم: ما أنزل الله على بشر من شيء كما قال عز وجل: ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعُلِّمْتُم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم

يلعبون * وهٰذا كتاب أنزلناه مبارك﴾ الآية . كما أن في هذا الاقتران بين التوراة والقرآن تقريعا وتوبيخا للعرب الجاهلين المكذبين الذين كانوا يعيبون على أهل الكتاب من اليهود والنصارى عدم الاستمساك بهدي كتابهم ويُقْسمون بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم أدنى نذير ليكونن أهدى من اليهود والنصارى فلما جاءهم أعظم المنذرين مازادهم إلا نفورا . كما قال عز وجل : ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانم لئن جاءهم نذير ليكُونُنَّ أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا﴾ ولم يذكر الله عز وجل الإنجيل هنا لأن التوراة كانت أشهر منه في جزيرة العرب كما أنه كان مُتَمِّماً لها فهي كالأصل بالنسبة له، مع أنه أشار إلى الإنجيل في الآية التالية حيث قال : ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم﴾ الآية . ولذلك قال عز وجل مخبرا عن الجن أنهم لما سمعوا القرآن قالوا : إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى حيث يقول عز وجل : ﴿وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصِتُوا فلما قُضِيَ ولَّوْا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أُنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم﴾ وفي قوله عز وجل في وصف القرآن ﴿كتاب أنزلناه مبارك﴾ إشارة إلى أن هذا القرآن المنزل من الله كتاب مبارك كامل شامل لجميع مصالح العباد لا ينسخ حتى ينسخ الليل والنهار والشمس والقمر، فالمبارك هو ما يأتي من قِبَلِهِ الخير الكثير المتتابع النامي، والبركة الكثرة في كل خير. ومعنى قوله عز وجل : ﴿فاتبِعوه واتقوا لعلكم ترحمون﴾ أي انقادوا لهذا القرآن فاجعلوه إماما تتبعونه وتعملون بما فيه وتحلون حلاله وتحرمون حرامه وتنهجون منهجه فإنه الصراط المستقيم، واحذروا أن تضيعوه أو تتعدوا حدوده أو تستحلوا محارمه، واحرصوا أشد الحرص على صيانته من التحريف لترحموا فتنجوا من عذاب الله

وأليم عقابه وتفوزوا بجنات النعيم، وتخلدوا في رحمة الله، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا﴾ الآيتين بيان بأن الله تبارك وتعالى قد أنزل القرآن العظيم المبارك على نبيه محمد ﷺ رحمة بالناس وقطعا لعذر المشركين الجاهلين حتى لا يعتذروا يوم القيامة بأنهم ما جاءهم بشير ولا نذير فلا يتأتى منهم أن يقولوا: إنما أنزل الكتاب على طائفتين أي جماعتين من قبلنا ويعنون بهما اليهود والنصارى، قال ابن جرير رحمه الله: وأما: ﴿وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾ فإنه يعني: أن تقولوا: وقد كنا عن تلاوة الطائفتين الكتابَ الذي أُنزلت عليهم «غافلين» لا ندري ما هي ولا نعلم ما يقرءون، وما يقولون، وما أنزل إليهم في كتابهم، لأنهم كانوا أهله دوننا، ولم نُعْنَ به ولم نؤمر بما فيه، ولا هو بلساننا، فيتخذوا ذلك حجة، فقطع الله بإنزاله القرآن على نبيه محمد ﷺ حجتهم تلك اهـ. وقد وصف رسول الله ﷺ ربنا تبارك وتعالى بأنه لا أحدَ أحب إليه العذر من الله فقد جاء في لفظ للبخاري في صحيحه من حديث المغيرة قال: قال سعد بن عُبَادة: لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مُصْفَحٍ، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: تَعْجَبُونَ من غَيرة سعد؟ والله لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحبُّ إليه العُذْرُ من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين، ولا أحد أحَبُّ إليه المِدْحَةُ من الله، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة. كما أشار عز وجل إلى قطع عذر المشركين بإرسال الرسل في قوله تبارك وتعالى: ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبةٌ بما قدَّمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أَرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكونَ من المؤمنين * فلما جاءهم الحقُّ من عندنا قالوا لولا أُوتِيَ مثلَ ما أُوتِيَ موسى، أو لم يَكْفروا بما أُوتِيَ موسى من قبلُ قالوا سِحْرانِ تظاهرا وقالوا إنَّا بكلٍّ كافرون * قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أَتَّبِعْهُ إن كنتم

صادقين * فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يَتَّبِعُون أهواءهم، ومن أَضَلُّ ممن اتَّبَعَ هواه بغير هدى من الله، إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿أو تقولوا لو أنا أُنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾ لتقريع المشركين أيضا وقطع العلة التي كانوا يَعْتَلُّونَ بها ويعلنونها، فبعد أن بَيَّنَ أن مجيء القرآن العظيم يقطع اعتذارهم فلا يُمْكِنُهُم أن يدَّعُوا عند حلول العقاب بهم أنهم ما جاءهم من بشير ولا نذير حيث كان الكتاب المنزل من الله قد نزل على بني إسرائيل ولم ينزل عليهم، ثم قطع العلة التي كانوا يعتلون بها مُدَّعين أنهم أسرع لطاعة الله من أهل الكتاب متباهين بقوة أذهانهم، متفاخرين بحسن أفهامهم، حيث كانوا يُقْسِمُون بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم يعني اليهود والنصارى، فقطع علتهم هذه أيضا حيث قال: ﴿فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمةٌ﴾ وقد فصَّل الله تبارك وتعالى ذلك في سورة فاطر وبَيَّنَ علة استمرارهم على الكفر والعناد بعد أن جاءهم أعظم المنذرين محمد ﷺ فقال: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونُنَّ أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا * استكبارا في الأرض ومكر السيىء، ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله، فهل ينظرون إلا سنت الأولين، فلن تجد لسنت الله تبديلا ولن تجد لسنت الله تحويلا﴾. ومعنى قوله: ﴿فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة﴾ أي فقد أتاكم كتاب من ربكم هو حجة واضحة بلسان عربي، فيه البيانُ وقطعُ الشبهات عنكم، وتفصيلُ الحلال والحرام يهدي القلوب إلى طريق ربها وباريها ويرشد النفوس إلى أسباب عزها وسعادتها، وهو رحمة من الله لعباده الذين يتبعونه ويعملون بما فيه. وقوله تبارك وتعالى:

﴿فمن أظلم ممن كذَّب بآيـات الله وصَدَفَ عنها، سنجزي الـذين يَصْدِفُون عن آياتنا سُوءَ العـذاب بما كانوا يصدفون﴾ بيان للوعيد الشـديد الذي توعد الله بـه من كذَّب بـآيـات الله التي بعث بها رسولـه ﷺ وأعـرض عنها وصـدَّ الناس عنها، قـال في القاموس: وصَدَفَ عنـه يَصْدِفُ أعرض وفلانـا صرفه كأصدفه اهـ. أي لا أحد أعظم جرما وأكبر إثما ممن كذب بآيات الله وأعرض عنهـا ونهى النـاس عن الإيمان بها فلم يكتـف بكـونـه ضـالا بل أضل غيره كذلك، وسيعـاقبه الله عـز وجل العقاب الـذي يستحقه على هـذه الجريمة التي اقترفهـا، ويُحَمِّلُـهُ وزر جريمتـه، وكما قـال عز وجل: ﴿الـذين كفـروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾.

قال تعالى : ﴿هل ينظرون إلاّ أن تأتيهم الملائكة أو يأتيَ ربك أو يأتي بعض آيات ربك ، يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا ، قل انتظروا إنّا منتظرون * إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا لست منهم في شيء ، إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون * من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون﴾ .

بعد أن أشار تبارك وتعالى إلى أنه قد أنزل القرآن العظيم على رسوله محمد ﷺ رحمة بالناس وقطعا لعذر المشركين الجاهلين حتى لا يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، شرع هنا في بيان ألوان من تعنت الكفار الذين لم يكفهم ما أنزل الله من البينات والهدى فذكر عز وجل أنهم لا يَرْعَوُون عن التمادي في المكابرة واقتراح ما ينافي الحكمة في التشريع وَوَبَّخَهُم على استغراقهم في السفاهة والضلال حيث كانوا يطلبون من رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالملائكة أو أن يجيء الله إليهم أو يَخْرِقَ لهم نظام الكون ، كما قال عز وجل : ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فَتُفَجِّرَ الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كِسَفًا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا﴾ إلى قوله : ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وقال الذين لا يَرْجُونَ لقاءنا لولا أُنزِلَ علينا الملائكة أو نرى رَبَّنَا ، لقد استكبروا في أنفسهم وَعَتَوْا عُتُوًّا كبيرا﴾ ثم وَبَّخَ اليهود والنصارى الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ، ثم رغَّب عز وجل في الحسنات ورهَّب من السيئات . وفي ذلك يقول : ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتيَ ربك أو يأتِيَ بعض آياتِ ربك﴾ إلى

قوله تعالى: ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مِثْلَهَا وهم لا يُظْلَمُون﴾ وقولُه تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتِيَ بعضُ آيات ربك﴾ الآية، شبيهٌ بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظُلَلٍ من الغمام والملائكةُ وقُضِيَ الأمر، وإلى الله تُرْجَعُ الأمور﴾ كما أن به شَبَهًا من قوله تبارك وتعالى في سورة النحل؛ ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكةُ أو يأتي أمرُ ربك﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك، يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا﴾ أي لماذا لم يسارع هؤلاء إلى الدخول في الإسلام، وقد كشفت لهم كل شبهة من الشبهات التي يتعللون بها؟ وماذا ينتظرون؟ هل ينتظرون أن يعاينوا عقابا من الله ينزل بهم في الدنيا فإذا رأوه آمنوا؟ أو ينتظرون عقاب الله لهم في الدار الآخرة؟ هل يرغبون في تقليد بني إسرائيل الذين قالوا لموسى عليه السلام: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون؟ إن الإيمان عند نزول عذاب الله بالمكذبين لاينفعهم، كما قال عز وجل: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخِزْيِ في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فهل ينتظرون إلا مِثْلَ أيام الذين خَلَوْا من قبلهم، قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين * ثمُّ نُنَجِّي رسلَنا والذين آمنوا، كذلك حقًّا علينا نُنْجِ المؤمنين﴾ كما أنَّ الإيمان عند مجيء الله لفصل القضاء بين العباد يوم القيامة لا ينفع من مات على الكفر، كما قال عز وجل: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموتُ قال إنى تبتُ الآن ولا الذين يموتون وهم كفار، أولَئك أعتدنا لهم عذابا أليما﴾ وقد فسر رسولُ الله ﷺ المراد من بعض الآيات التي إذا جاءت لا ينفع نفسا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو

كسبت في إيمانها خيرًا بأنه طلوع الشمس من مغـربها، فقد روى البخاري في تفسير هذه الآية من صحيحـه من طريق أبي زُرْعةَ حدثنا أبـوهريرة رضي الله عنـه قـال: قال رسـول الله ﷺ: لا تقـوم السـاعـةُ حتى تَطْلُعَ الشمسُ من مغربها، فإذا رآهـا الناسُ آمن مَنْ عليها، فـذاكَ حين لا ينفع نفسا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل. ثم قال البخـاري: حدثني إسحاق أخبرنا عبـد الرزاق أخبرنا معمر عن همام عن أبي هريـرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا تقوم السـاعة حتى تطلع الشمس مـن مغربها، فإذا طلعت ورآهـا الناس آمنـوا أجمعـون، وذلك حين لا ينفع نفسـا إيمانها، ثم قـرأ الآيـة. وسـاق البخاري في كتاب الـرقاق من صحيحه من طريق أبي الزنـاد عن عبد الرحمن عن أبي هـريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال: لا تقـوم الساعـة حتى تطلع الشمس من مغـربها، فإذا طلعت فرآهـا الناس آمنـوا أجمعون فـذلك حين لا ينفع نفســا إيمانها لم تكن آمنت مـن قبل أو كسبت في إيمانها خيرا. الحديث. وفي لفظ لمسلم في صحيحه من طريق العلاء وهو ابن عبد الرحمن عن أبيـه عن أبي هريـرة أن رسول الله ﷺ قال: لا تقـوم الساعـة حتى تطلع الشمس من مغـربها، فإذا طلعت من مغـربها آمن النـاس كلهم أجمعـون، فيومئـذ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا. ومعنى قـولـه عـز وجل: ﴿لا ينفع نفسـا إيمانها لم تكـن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا﴾ أي لا ينفع كافـرا لم يكن آمن قبل طلوع الشمس من مغـربها إيمانٌ بعـد هذا الطلـوع، ولا ينفع مـؤمنـا لم يكن عمل صـالحا قبل الطلوع عمـلٌ صالح بعد الطلـوع لأن حكم الإيمان والعمل الصالـح حينئذ حكم من آمن أو عمل عند الغـرغرة وذلك لا يفيد شيئا كما قـال عز وجل: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنـا﴾ قـال ابن جريـر الطبري رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿قل انتظروا إنا منتظـرون﴾ قال أبوجعفر: يقول تعالى

لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء العـادلين بربهم الأوثانَ والأصنامَ: انتظروا أن تأتيكـم الملائكـة بـالموت فتقبض أرواحكم، أو أن يأتي ربكـم لفصل القضـاء بيننـا وبينكم في موقف القيـامـة، أو أن يأتيكم طلـوع الشمس من مغربها فَتُطْـوَى صحف الأعمال، ولا ينفعكم إيمانكم حينئذ إن آمنتم، حتى تعلمـوا حينئـذ المحقَّ منـا من المبطل، والمسيءَ من المحسن، والصـادق من الكاذب، وتتبينـوا عند ذلك بمن يحيق عذابُ الله وأليمُ نكالـه. ومَن الناجي منا ومنكم ومَن الهالك، إنـا منتظرو ذلك، ليجزل الله لنـا ثوابه على طـاعتنا إياه وإخلاصِنا العبـادةَ له، وإفرادِناه بالربوبيـة دون ما سواه، ويفصلَ بيننا وبينكم بـالحق، وهو خير الفـاصلين اهـ والمراد بالـذين فرقـوا دينهم وكـانوا شِيَعًـا هم اليهـود والنصارى كما قـال عـز وجل: ﴿ومـا تفرق الـذين أُوتـوا الكتاب إلا من بعد مـا جاءتهم البينة﴾ ولئن كان اليهود والنصـارى يدخلون في ذلك دخولا أوَّليًا فإن لفظ الآية يَعُمُّ كلَّ من كان على شاكلتهم ممن يُفَرِّقون دينَ الله ويشتتون شمل المسلمين ويمـزقون وَحْدَتَهُمْ من أهل الأهـواء والبدع إلى يوم القيامة، قال الزجاج: ومعنـى: ﴿وكانوا شِيَعًا﴾ أي كانوا متفرقين في دينهم، يعني بـه اليهـود والنصارى، لأن النصـارى بعضهـا يكَفِّر بعضـا، وكذلك اليهود، وهـم أيضا أهل التـوراة، وبعضهم يكفر بعضا أعني اليهود تكفر النصـارى والنصارى تكفر اليهـود، وفي هذه الآيـة حَثٌّ على أن تكون كلمةُ المسلمين واحـدة، وأن لا يتفرقـوا في الدين، وأن لا يبتـدعوا البِـدَعَ ما استطاعـوا. اهـ وقال ابن كثير رحمه الله: والظـاهر أن الآية عـامة في كل من فـارق دين الله، وكـان مُخَالِفًـا له، فإن الله بعث رسـولـه بـالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق فمن اختلف فيه ﴿وكانوا شِيَعًا﴾ أي فِرَقًا كأهل الملل والنِّحَل والأهواء والضلالات فإن الله تعالى قـد بَرَّأ رسـولَه ﷺ ممـا هم فيـه. اهـ وقـد روى أبوداود والترمـذي وقال

حديث حسن صحيح عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وَجِلَت منها القلوب وذَرِفَت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مُوَدِّع فأوصنا، قال: أُوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تَأَمَّر عليكم عبد حبشي، وإنه مَن يَعِشْ منكم فَسَيَرَى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومُحْدثَاتِ الأمور، فإن كلَّ بدعة ضلالة. ومعنى قوله عز وجل: ﴿لست منهم فى شيء﴾ أي أنت بريء منهم كما أنهم بـرآءُ منك، والعرب تقول: لست مني ولستُ منك في شيء أي كل واحد منا بريء من صاحبه، ومن هذا ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: فمن رغب عن سنتي فليس مني. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون * مَن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يُظْلَمُون﴾ أي إنما مردُّ أمورهم إلى الله فهو وحده المالك لهم المتصرف فيهم، نواصيهم بيده يفعل بهم ما يشاء فيهدي من أراد هدايته فضلا ويخذل من لم يرد الله هدايته عدلا، وسيجازي كل عامل بما عمل، فمن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ولم يفعل ما يحبط هذه الحسنة حتى لقي الله عز وجل بها كافأه الله عز وجل بعشر أمثالها، ومن ارتكب معصية ولم يغفرها الله عز وجل له حتى لقي الله عز وجل بها جازاه بمثلها، ولا يظلم ربك أحدا. والمراد بالحسنة هنا فعل المأمور والمراد بالسيئة هنا ارتكاب المحظور، وأصل لفظ الحسنة يطلق على النعمة كما يطلق على العمل الصالح، كما أن لفظ السيئة قد يطلق على المصيبة كما يطلق على العمل المحظور. ومثال الإطلاق الأول للحسنات والسيئات قولُه عز وجل: ﴿إن تمسسكم حسنةٌ تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾ وقولُه عز وجل: ﴿إن تصبك حسنةٌ تسؤهم وإن

تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنـا من قبل ويتولوا وهم فرحون﴾ وقولُه عز وجل: ﴿وبلوناهم بـالحسنات والسيئات لعلهم يرجعـون﴾ ومثال الإطلاق الثاني الآية التي هنا وكذلك قوله عز وجل: ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملـوا السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾ وقد روى البخـاري ومسلم واللفظ للبخـاري مـن حـديث ابن عبـاس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يَـرْوِي عن ربـه عز وجل قـال: إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بَيَّن ذلك فمن هَمَّ بحسنـة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كا ملة، فإن هو هَمَّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضِعف إلى أضعاف كثيرة، ومـن هَمَّ بسيئة فلم يعملهـا كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هَمَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة. وقد أشار رسـول الله ﷺ إلى أن من هم بسيئة فلم يعملها إنما تكتب لـه حسنة إذا كان تـرك السيئة خوفا من الله فقـد جاء في لفظ لمسلم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: قالت الملائكة: رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهـو أبصر به فقال: ارقُبُوه فإن عملها فـاكتبوها لـه بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جَرَّائي.

قال تعـالى : ﴿قل إنَّني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملـة إبراهيم حنيفا، وما كان من المشركين * قـل إنَّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين * لا شريك له وبـذلك أمرت وأنا أول المسلمين * قل أغير الله أبغي ربًّـا وهو رب كل شيء، ولا تكسب كـل نفس إلا عليها، ولا تـزر وازرة وزر أخـرى، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتـم فيه تختلفـون * وهو الـذى جعلكم خـلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجـات ليبلوكم في مـا آتاكم، إن ربك سريع العقاب و إنه لغفور رحيم﴾ .

هذه خواتيم المسك من سورة الأنعام يأمر الله تبارك وتعالى فيها رسوله ﷺ أن يبين للناس أن الهداية بيـد الله وحده، وأن الدين الحق هو مـا عليه رسول الله محمد ﷺ، وأنه الصراط المستقيم وهو الدِّين القيم الذي لا اعوجاج فيه، وهو ملة إبـراهيم إمام الحنفاء وأبي الأنبياء، الـذي لم يشرك بالله شيئا ولم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّـا، كما يأمر الله تبارك وتعـالى رسولـه محمدا ﷺ أن يعلن أن صلاته ونُسُكَه ومَحْيَاهُ ومَمَاتَه لله رب العالمين لا شريك له، وأن الله تبارك وتعالى قد أمره بإخـلاص التوحيد لله عز وجل، وأنـه ﷺ أولُ المسارعين إلى الامتثال والانقيـاد إلى مـا أمـره الله عـز وجل بـه من أمـة الإسـلام التي هي خير أمـة أخـرجت للناس، كما أمـره عز وجل أن ينكـر ويُنَدِّدَ بمن يتخـذ إلَها غير الله الـذي هو رب كل شيء وسيـده ومليكه ولا شريك لـه في ربوبيتـه وألوهيتـه وأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وأن كلَّ إنسان مسئول أمام الله عز وجل عن عمله ولن تتحمل نفسٌ آثمةٌ إثم نفس آثمة أخرى، وأن مرجع جميع العباد إلى الله ليجـزي كل نفس بما كسبت من خير أو شر، فـإنـه عـز وجل هـو الـربُّ الجليلُ المالكُ وحـده لأرواح عبـاده وأرزاقهـم، وقـد جعلهم يخلف بعضهم بعضا ويعلم الحيُّ منهـم أنه قد هلك من كـان قبله، وأنـه صار خلفـا له في

الأرض بعد هـلاكه، وأنه لا بقاء لـه على هذه الأرض بعده إلا بـالأجل الذي أَجَّله الله لـه، كما قال تعـالى: ﴿تبارك الـذي بيده المُلْكُ وهـو على كل شيء قديـــر* الذي خلق الموت والحياة ليبلـوكم أيكم أحسنُ عملا، وهو العزيز الغفور﴾ وكما قـدَّر آجال عبـاده قدَّرَ كـذلك أرزاقهم وفاوت بينهـم في الرزق حتى يتخـذ بعضهم بعضـا سُخْـرِيًّـا ليختبرهم فيما خـوَّلهم فيـه من فضلـه وَمَنَحَهُم من رزقه، ليتميز الشـاكرون من الكافرين، وهـو عز وجل عالمٌ بهم وبما يكـون منهم قبل وجودهم، وهـو مجازيهم بأعمالهم وهو سريع العقـاب لأعدائه، وهـو الغفور الرحيم لأوليـائه. وفي هذا يقول تبـارك وتعالى: ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينـًا قيماً ملة إبراهيم حنيفًا، ومـا كان من المشركين﴾ إلى آخـر السـورة الكريمـة. ومعنى ﴿إنني هـداني ربي إلى صراط مستقيم﴾ أي إنني أرشدني ربي ووفقني إلى المنهـج المعتدل الذي لا اعـوجاج فيه، والمقصود به دين الإسلام الـذي هو صراط الذين أنعم الله عليهم الذي أوصى الله تبارك وتعـالى أمة محمد ﷺ أن يسألوا الله في كل ركعـة من ركعات صلـواتهم أن يهديهم لسلوكـه حيث يقول عـز وجل في سورة الفـاتحة التي لا صـلاة لمن لم يقـرأ بها: ﴿اهـدنـا الصراط المستقيم * صراط الـذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضَّالين﴾ وقـد وصف الله تبارك وتعالى دينه الذي بعث به محمدا ﷺ بأنـه صراط مستقيم وأكد ذلك في مواضع كثيرة من القرآن العظيم وذكر ذلك في هـذه السورة مرات حيث قال في الآيـة السادسة والعشرين بعـد المائة من هـذه السـورة: ﴿ وهـٰذا صراط ربك مستقيما، قـد فصلنا الآيات لقوم يذَّكَّرون﴾ وقال في الآية الثالثة والخمسين بعد المائة: ﴿وأن هـٰذا صراطي مستقيما فاتَّبِعُوه ولا تَتَبِعُـوا السبل فَتَفَرَّقَ بكم عن سبيله، ذٰلكم وصـاكم بــه لعلكم تتقـون﴾ وقـال هنـا: ﴿قـل إننى هـداني ربي إلى صراط مستقيم دِينا قيماً ملة إبراهيم حنيفا، وما كان من المشركين﴾ وهَدَى قد وَرَدَ في

القرآن الكـريم متعديا بنفسه كقـوله عز وجل : ﴿اهـدنا الصراط المستقيم﴾ وكقـولـه تعالى : ﴿ويَهْدِيَكَ صراطـا مستقيما﴾ وكقـولـه تعالى : ﴿وهـديناه النجدين﴾ وَوَرَدَ متعديـا باللام كقوله تعالى : ﴿الحمـد لله الذي هدانا لهٰذا﴾ وكقولـه تعالى : ﴿قل الله يهدي للحق﴾ وورد متعديـا بإلى كقوله تعـالي هنا : ﴿هـداني ربي إلى صراط مستقيـم﴾ وكقـولـه تعـالى : ﴿واهـدنـا إلى سـواء الصراط﴾ وهو يتعدى إلى مفعـولين بنفسه كقوله تعـالى : ﴿ويَهْدِيَكَ صراطا مستقيما﴾ وقد يتعدى إلى أحد المفعولين بنفسه و إلى الثاني بواسطة حرف الجر كما في هذه الآية ، وقـولُه عز وجل : ﴿دِينًا﴾ قـد انتصب على البدل من محل ﴿إلى صراط﴾ لأن محلـه النصب على أنـه المفعـول الثـاني لِهَدَي قـال الزجاج : وأمـا نصب ﴿دينا قيمًا ملة إبراهيم﴾ فمحمـولٌ على المعنى ، لأنه لما قال : هـداني إلى صراط مستقيم ، دلَّ على عرَّفني دينـا قيما ، ويجوز أن يكون علي البـدل من معنى : هـداني إلى صراط مستقيم ، المعنى : هـداني صراطـا مستقيما دينـا قيما ، كما قـال جل وعز: ﴿ويهديَك صراطـا مستقيما﴾ ﴿ملةَ إبراهيم﴾ بدل من ﴿دينا قيما﴾ و﴿حنيفا﴾ منصوب على الحال من إبراهيم ، المعنى : هـداني وعرفني ملـة إبراهيم في حـال حنيفيتـه اهـ وقـد قرأ عـاصم وعبدالله بن عـامر وحمزة والكسائي ﴿قِيَمًا﴾ بكسر القاف وتخفيف اليـاء وقرأ ابن كثير ونافع وأبـوعمرو ﴿قَيِّمًا﴾ بفتح القـاف وتشديـد الياء ، وهما بمعنى واحـد ، والمراد به القـائم الثابت المعتـدل الـذي لا اعوجـاج فيه بحـال من الأحوال ، المقيمُ لمن استمسـك به ، ومن لزمـه نجا من الانحـراف وسَلِمَ من الضياع في مهـامه الضلال ، وعرف سبيل الـرشاد . وفي قوله تبـارك وتعالى : ﴿وما كان من المشركين﴾ تنديد بمن يدَّعي أنه يحب إبراهيم عليه السلام من اليهود والنصاري والمشركين ، وهـم يسلكون منهجا منـاقضًا لملة إبراهيم عليه السلام ، ويشركـون بالله ما لم ينـزل به سلطـانا ، حيث عبد العـرب الأصنامَ

والأوثانَ، وقالت اليهود: عزيرٌ ابنُ الله. وقالت النصارى: المسيحُ ابنُ الله، وقد نبَّـه الله تبارك وتعالي إلى هذه الحقيقـة في مقامات كثيرة من كتابـه الكريم حيث يقـول: ﴿إن إبراهيم كـان أمـة قـانتا لله حنيفـا ولم يك من المشركين﴾ وقال عـز وجل: ﴿قل صَدَقَ اللهُ، فـاتَّبِعُوا ملة إبـراهيم حنيفا ومـا كان من المشركين﴾ وقال عـز وجل: ﴿ما كـان إبراهيـم يهوديا ولا نصرانيا ولَكـن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين﴾ وفي قولـه تبارك وتعالى: ﴿قل إنَّ صلاتي ونُسُكِي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أُمِرْتُ وأنا أول المسلمين﴾ تجريـدٌ لتـوحيد الله تبـارك وتعـالى في ألـوهيته وربـوبيتـه وأسمائه الحسني وصفـاته العُلَى، ففي قـولـه: ﴿صلاتي ونسكي﴾ إشـارة إلى توحيـد الإلَهية لله وحده، وفي قوله: ﴿ومحياي ومماتي﴾ إشـارة إلى توحيد الربوبية وفي قـولـه: ﴿رب العالمين﴾ إشـارة إلى تـوحيـد الله عـز وجل في أسمائه الحسني وصفاته العُلَى، قال ابن جرير الطبري رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿قل إنَّ صـلاتي ونُسُكي ومحيـاي ومماتي لله رب العـالمين * لا شريك لـه وبـذلك أُمِرْتُ وأنـا أول المسلمين﴾ قال أبوجعفر: يقـول تعالى ذكره لنبيـه محمد ﷺ: ﴿قل﴾ يا محمـد لهؤلاء العادلين بربهم الأوثـان والأصنام الـذين يسألونك أن تتبع أهـواءهم على الباطل من عبـادة الآلهة والأوثان ﴿إنَّ صـلاتي ونُسُكي﴾ يقول: وذبحي ﴿ومحياي﴾ يقول: وحياتي ﴿ومماتي﴾ يقول: ووفاتي ﴿لله رب العالمين﴾ يعني أن ذلك كلَّـه له خالصـا دون ما أشركتم بـه أيها المشركون من الأوثـان ﴿لا شريك له﴾ في شيء من ذلـك من خلقه، ولا لشيء منهم فيـه نصيب، لأنـه لا ينبغي أن يكـون ذلك إلاَّ لَـهُ خالصـا ﴿وبـذلك أُمِرْتُ﴾ يقـول: وبـذلك أمـرني ربي ﴿وأنا أول المسلمين﴾ يقـول: وأنـا أَوَّلُ من أَقَـرَّ وأذْعَنَ وخضع من هذه الأمة لربه بأن ذلك كذلك اهـ وقولُه عز وجل: ﴿قل أغيرَ الله أَبْغِي ربًّا وهـو ربُّ كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليهـا ولا تَزِرُ

وَازِرَةٌ وِزْرَ أخري ثم إلى ربكم مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بما كنتم فيه تختلفون﴾ قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه، ﴿أَغَيْرَ الله أبْغي ربا﴾ أي أطلب ربا سواه ﴿وهو رب كل شيء﴾ يُرَبِّيني ويحفظني ويَكْلَؤني ويُدَبِّر أمري، أي لا أتوكل إلا عليه، ولا أُنِيبُ إلا إليه، لأنه ربُّ كل شيء ومليكه وله الخلق والأمر، ففي هذه الآية الأمر بإخلاص التوكل كما تضمنت التي قبلها إخلاصَ العبادة لله وحده لا شريك له، وهذا المعنى يُقْرَنُ بالآخر كثيرا في القرآن، كقوله تعالى مُرْشِدًا لعباده أن يقولوا له: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وقوله: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ وقوله: ﴿قل هو الرحمن آمَنَّا به وعليه توكلنا﴾ وقولِهِ: ﴿ربُّ المشرق والمغرب لا إلَه إلا هو فاتخذه وكيلا﴾ وأشباهِ ذلك من الآيات. وقولُه تعالى: ﴿ولا تكسب كلُّ نفس إلا عليها، ولا تزر وازرةٌ وِزْرَ أخرى﴾ إخبارٌ عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله أن النفوس إنما تُجَازَى بأعمالها إن خيرا فخيرا، وإن شرا فَشَرًّا، وأنه لا يُحَمَلُ من خطيئة أحد علي أحد، وهذا من عدله تعالى كما قال: ﴿وإن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ اهـ ولا معارضة بين هذا وبين قوله ﷺ: ومَن سَنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن يَنْقُصَ من أوزارهم شيء. الذي رواه مسلم من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه. وكذلك ما رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ليس من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها لأنه كان أول من سنَّ القتل. لأن الداعي إلى الضلالة إنما يحمل مثل أوزار من أضلهم وذلك من عمله، ولم تسقط عن الضالين أوزارهم. وقولُه عز وجل: ﴿ثُمَّ إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنت فيه تختلفون﴾ لتأكيد البعث بعد الموت وأن

العباد مسئولون عن أعمالهم ومجزيون بها. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم، إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ أي جعلكم تعمرونها جيلاً بعد جيل، وقرنًا بعد قرن، وخَلَفًا بعد سلف، قاله ابن زيد وغيره، كقوله تعالى: ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون﴾ وكقوله تعالى: ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ وقولِهِ: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ وقولِهِ: ﴿عسى ربكم أن يُهْلِكَ عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ وقولُهُ: ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ أي فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوئ والمناظر والأشكال والألوان، وله الحكمة في ذلك، كقوله تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا﴾ وقوله: ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾ اهـ ومعنى قوله ﴿ليبلوكم في ما آتاكم﴾ أي ليختبركم فيما منحكم، ومعنى قوله: ﴿إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ أي إن الله سريع العقاب لأعدائه وهو الغفور الرحيم لأوليائه.

وقد اتضح سبيل الرُّشد المبشَّرُ سالكوه بمغفرة الله ورحمته، وتعرت سُبُلُ الغي المنذَرُ سالكوها بسخط الله وعقوبته، وجاء البيان بذلك على أكمل وجه وأتمه، فليختر الإنسان لنفسه ما يحب لها، كما قال الشاعر:

أمامك فانظر أيَّ نهجيك تنهج طريقان شتى مستقيم وأعوج

والحمد لله رب العالمين، وبهذا تم تفسير سورة الأنعام وما توفيقي إلا بالله



تفسير سورة الأعراف



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓصٓ * كتابٌ أُنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين * اتبعوا ماأُنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أوْليآء، قليلا ما تذكرون * وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون * فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ .

هذه سورةُ الأعراف، وهي مكية، وإنما سميت سورة الأعراف لأن الله تبارك وتعالى ذكر فيها الأعراف حيث قال: ﴿وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجالٌ﴾ وحيث قال: ﴿ونَادَى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بِسِيمَاهُمْ﴾ والأعراف مكانٌ مُشْرِفٌ بين الجنة والنار كما سيأتي تحقيق القول فيه إن شاء الله تعالى، والمناسبة بين سورة الأعراف وسورة الأنعام أن السورتين تتحدثان عن تقرير التوحيد والرسالة والبعث بعد الموت كما أن السورتين تتحدثان عن افتراء المشركين واليهود والنصارى على الله عز وجل وتحريم ما لم يحرمه وتحليل ما حرمه كما حكاه الله عز وجل عنهم في سورة الأنعام، وكما حكى عنهم في سورة الأعراف حيث ذكر عن المشركين أنهم كانوا إذا فعلوا فاحشة قالوا: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، وكانوا يطوفون بالبيت الحرام عراة ـ الرجال والنساء ـ زاعمين أن الله أمرهم بهذا، وفي هذا يقول عز وجل عنهم: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا واللهُ أمرنا بها، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ إلى أن يقول: ﴿يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين * قل من حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هى للذين آمنوا

في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل إنما حرَّم رَبِّيَ الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾. وكما حكى عن أهل الكتاب: ﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هٰذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم، سَنَزِيد المحسنين * فبدَّلَ الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون﴾ أما المناسبة بين آخر سورة الأنعام وأول سورة الأعراف فإنه عز وجل أشار في آخر سورة الأنعام إلى أنه أهلك القرون والأمم الخالية، وجعل الحاضرين خلائف الغابرين، وجعل آجال عباده وأرزاقهم بيده وحده لابتلائهم واختبارهم ليظهر المطيع من العاصي، ثم أشار في صدر سورة الأعراف إلى أن وظيفة رسول الله ﷺ هي تبليغ الرسالة وأن الله عز وجل قد أنزل عليه الكتاب لينذر به وذكرى للمؤمنين، فمن أطاعه سعد ومن عصاه شقي، وأن الله عز وجل قد أهلك الكثير من الأمم الماضية لما عَتَوْا عن أمر ربهم وعَصَوْا رسله فجاءهم بأسُ الله بياتا أو هم قائلون. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿الٓمٓصٓ﴾ هو من الحروف المفرقة في أوائل بعض السُّور، وقد أطنبت في الحديث عليها في تفسير أول سورة البقرة في قوله تبارك وتعالى: ﴿الٓمٓ﴾ ونبَّهْتُ هناك إلى أنه مما يؤيد أن المقصود من ذكر هذه الحروف المفرقة في أوائل السور هو الإعجاز والتحدي وإثبات أنه من عند الله أن الله تبارك وتعالى يذكر عَقِبَ هذه الحروف في افتتاحيات السور القرآن صراحة أو ضمنا ثم يذكر اختلاف الناس بين مؤمنٍ به أو مُكَذِّبٍ له، وأن المؤمنين يحصل لهم عِزُّ الدنيا وسعادة الآخرة وأن المكذبين يرجعون بخزي الدنيا وعذاب الآخرة، ثم يختم السورة بمثل ما بدأها به من مدح القرآن والمؤمنين به وذم المكذبين وبيان سوء عاقبتهم، ومن أمثلة ما ذكرتُ قولُه

تبارك وتعالى هنا بعد ذكر قوله: ﴿الٓمٓصٓ﴾ ﴿كتٰبٌ أنزل إليك فلا يكن في صدرك حَرَجٌ منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾ وفي خواتيم المسك من سورة الأعراف هذه قال: ﴿هٰذا بصآئر من ربكم وهدى ورحمةٌ لقوم يؤمنون * وإذا قرئ القرآن فاستمعوا لـه وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾ إلى آخر السورة. ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿كتابٌ أُنْزِلَ إليك فلا يكن في صدرك حَرَجٌ منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾ أي هذا القرآن يا محمد كتابٌ أنزله الله إليك فَلْيَتَّسِعْ صدرك له، ولا تضق بحمله وحفظه، ولا تخش تَفَلُّتَهُ من قلبك فقد تكَفَّلْنَا بجمعه في صدرك، ولا تخف من تبليغه لأمتك، لأن ربك يعصمك من الناس، فأنذر به الكافرين والمنحرفين، وذكِّر به المؤمنين، فما عليك إلا البلاغ المبين، فلا تَبْخَعْ نفسك إن لم يصدقوك، ولا تجزع لإعراضهم عنك، واصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن رسول الله ﷺ كان شديد الحرص على إيمان قومه وإسلامهم وأنه كان يضيق صدره ويشتد حَرَجُه لما يراه من إصرار قومه على الكفر حيث يقول عز وجل: ﴿فلعلك باخع نَفْسَكَ على آثارهم إن لم يؤمنوا بهٰذا الحديث أَسَفًا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ كما أشار رسول الله ﷺ إلى نحو ما أشرتُ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمار المُجَاشعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: أَلَا إن ربي أمرني أن أُعَلِّمَكُمْ ما جَهِلْتم مما علمني يومي هذا: كلُّ مالٍ نَحَلْتُهُ عبدا حَلَالٌ، وإني خلقت عبادي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وإنهم أَتَتْهُمُ الشياطينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أَحْلَلْتُ لهم، وأَمَرَتْهُمْ أن يشركوا بي ما لم أُنزِلْ به سلطانا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وعَجَمَهُمْ إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأَبْتَلِيَكَ وأَبْتَلِيَ بك، وأنزلت عليك كتابا لا يَغْسِلُهُ الماءُ، تَقْرَؤُهُ نائما وَيَقْظَانَ، وإن الله

أمرني أن أُحَرِّقَ قريشا، فقلت: رَبِّ إذًا يَثْلَغُوا رأسي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً. الحديث

ولا شك أن نزول القرآن العظيم على النبي الأمي محمد ﷺ وضَبْطَـهُ له وقيامَهُ به هـو الآية العظمى والمعجـزة الكبرى، ويكفي في الإشارة إلى هـذا العبء العظيم قولُه تبارك وتعالى: ﴿إنا سَنُلْقي عليك قولا ثقيلا﴾ وقولُه عز وجل: ﴿لو أنزلنا هٰذا القرآن على جبل لرأيْتَـهُ خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثـال نضربها للناس لعلهم يتفكـرون﴾ وقـد كـان رسولُ الله ﷺ يَتَفَصَّـدُ جَبِينُـهُ عَرَقًـا حين ينزل عليـه الوحيُ، فقـد روى البخاري في صحيحـه من حديث عائشة رضي الله عنهـا أن الحارث بنَ هشام رضي الله عنه سأل رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الْوَحْيُ؟ فقال رسول الله ﷺ: أحيانا يأتيني مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ وهو أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيَفْصِمُ عني وقد وَعَيْتُ عنه ما قال، وأحيانـا يتمثل لي المَلَكُ رجلا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي ما يقول، قـالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيتُـه يَنْزِلُ عليه الوحيُ في اليـوم الشديدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عنه وإن جبينه لَيَتَفَصَّدُ عرَقًا. وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونـه أولياء، قليلا مـا تذَكَّرُون﴾ التفات من تـوجيه الخطـاب إلى رسـول الله ﷺ إلى تـوجيـه الخطـاب إلى جميع المكلفين. قـال أبوالسعـود العماديُّ في قولـه تبارك وتعـالى: ﴿اتَّبِعُوا مـا أُنْزِلَ إليكـم﴾ كلامٌ مستأنفٌ خُـوطِب به كافـة المكلفين بطريق التلـوين، وأُمِرُوا بـاتباع مـا أُمِرَ النبيُّ ﷺ قبله بتبليغه بطـريق الإنذار والتذكير، وجَعْلُهُ مُنَـزَّلاً إليهم بواسطة إنزاله إليه ﷺ إثر ذِكْرِ ما يصححه من الإنذار والتذكير لتأكيد وجوب اتباعه اهـ وقال القـاضي أبوبكر ابن العربي في أحكام القرآن في تفسير قـوله تعالى: ﴿اتبعـوا مـا أنـزل إليكم من ربكـم ولا تتبعـوا من دونـه أوليـاء، قليـلا مـا تذكرون﴾ قال علماؤنا: معناه: أحِلُّوا حَلاَلَهُ، وحَرِّمُوا حَرَامَهُ، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيـه، واستبيحوا مُبَاحه، وَازجُـروا وَعْدَهُ، وخافوا وعيـده، واقتضوا

حكمـه، وانشروا من عِلْمِـه علمَـه، واسْتَجِسُّـوا خبـايـاه، وَلِجُوا زوايـاه، واستثيروا جاثمه، وفُضُّوا خاتمه، وألحقوا به مُلاَئِمَهُ اهـ. وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: ثم قـال تعالى مخاطبا للعالَم: ﴿اتَّبِعُـوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾ أي اقْتَفُوا آثـار النبي الأمي الذي جاءكم بكتـاب أنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه ﴿ولا تتبعوا من دونـه أولياء﴾ أي لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره فتكونـوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره ﴿قليلا ما تذكرون﴾ كقـوله ﴿وما أَكْثَرُ النـاس ولو حرصتَ بمـؤمنين﴾ وقولِهِ: ﴿وإن تطع أكثر مَن في الأرض يضلـوك عن سبيل الله﴾ الآية. وقولِه: ﴿ومـا يؤمن أكثـرهم بـالله إلا وهـم مشركـون﴾ اهـ وقولُـه عـز وجل: ﴿وكم من قـريـة أهلكناهـا فجاءها بأسُنَـا بَيَاتا أو هم قـائلون * فما كان دعـواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قـالوا إنا كنا ظـالمين﴾ إنذار للكفار بما جـرى على الأمم الماضية التي كـذبت رسلها وأصرت على الكفـر، وكم للتكثير أي قُـرًى كثيرة ومعنى ﴿أهلكناهـا﴾ أي قضينا بتدميرها لما أصرت على تكـذيب رسلها، ومعنى: ﴿فجاءها بأسنـا بياتا أو هم قائلون﴾ أي فَحَلَّ بها عـذابُنَا ليلاً أو ضُحًى في وقت نومهم، أو غفلتهم ولهوهم، حيث اغتروا بما هم فيه من الأمن والراحة فجاءهم العذاب ونـزل بهم ما يكرهون في وقت الأمن والراحـة، كما قال عز وجل: ﴿أفَأَمِنَ أهل القرى أن يأتيهم بأسنـا بياتا وهم نـائمون * أَوَأَمِنَ أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضُحًى وهم يلعبون﴾. قال الزجاج: ومعنى ﴿بياتا﴾ ليـلا، يقال: بـات بياتـا حَسَنًـا، وبَيْتَةً حسنـة، والمصدر في الأصل بَيْتًـا، والبَيتُ بَيْتُ الشعـر وكذلك بيـتُ المَدَر، وإنما أصل تسميته من أنـه يصلح للمبيت، ويقـال لفلان بيتةٌ وليلـةٌ وبَيْتُ ليلـة، أي ما يكفيه مـن القوت في ليلة. ومعنى ﴿أو هم قـائلون﴾ أي أوجـاءهم بأسنا نهارا في وقت القـائلة، يقـال: قِلْتُ، من القائلـة، فالمعنى: إنهم جـاءهم بأسنا غفلـة، وهم غير

متوقعين له، إما ليلا وهم نائمون، أو نهارا وهم قائلون كأنهم غافلون. اهـ.
ومعنى قوله عز وجل: ﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسُنَا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ أي فما كان دعاؤهُم وقولُهم وتضرعُهُم عند نزول العذاب بهم إلا الاعترافُ بجنايتهم والإقرارُ بجريمتهم نادمين على تكذيبهم لرسلهم حين لا ينفعهم نَدَمُهُم كما قال عز وجل في خواتيم المسك من السورة السابقة: ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا، قل انتظروا إنا منتظرون﴾ والدعوى في لسان العرب تأتي بمعنى الادعاء والدعاء. قال سيبويه: تقول العرب: اللهم أشركنا في صالح دعوى المسلمين أي في دعائهم اهـ والمراد بالدعوى هنا هو الدعاء كما قال عز وجل في سورة الأنبياء ﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين * فلما أَحَسُّوا بأسنا إذا هم منها يركضون * لا تركُضُوا وارجِعُوا إلى ما أُتْرِفْتُم فيه ومساكنكم لعلكم تُسْئَلُون * قالوا يا ويلنا إنَّا كنَّا ظالمين * فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين﴾.

قال تعالى : ﴿فلنسئلن الذين أُرسل إليهم ولنسئلن المرسلين * فلنقصنَّ عليهم بعلمٍ وما كنَّا غآئبين * والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فأولَٓئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولَٓئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ .

بعد أن أثنى الله تبارك وتعالى على القرآن العظيم وَوَصَّى رسولَه محمدا ﷺ بأن يوسع صدره لما يُلْقَى إليه من الوحي وأن ينذر به الكافرين ويعظ به المؤمنين ، وأمر جميع المكلفين باتباع القرآن والوقوف عند حدوده ونهاهم عن عبادة غير الله ، وحذرهم من أن يقعوا في مثل ما وقعت فيه الأمم التي كذبت رسلها فأنزل الله بهم بأسه الشديد وعقابه المبيد ، ولم ينفعهم إيمانُهم لما رأوا بأس الله ، شرع هنا في تأكيد الرسالة والبعث بعد الموت والحساب ووزن الأعمال وفلاح المؤمنين وخسران الظالمين حيث يقول عز وجل : ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إليهم وَلَنَسْئَلَنَّ المرسلين﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ومن خفت موازينه فأولَٓئِكَ الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بـآيَاتِنَا يظلمون﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الذين أُرسِلَ إليهم وَلَنَسْئَلَنَّ المرسلين * فَلَنَقُصَّنَّ عليهم بعلم وما كُنَّا غآئبينَ﴾ أي فَلَنَسْأَلَنَّ الأمم يوم القيامة عما أجابت به رسل الله الذين أرسلهم إليهم سؤال تقريع وتوبيخ لا سؤال استفهام واستعلام ، وَلَنَسْأَلَنَّ رُسُلَ الله عما أجابتهم به أممهم لتأكيد توبيخ المكذبين ، وتقرير تكريم المرسلين ، فَلَنُخْبِرَنَّ كلَّ عامل بما عمل من خير أو شر ولنحاسبنه على ما قدم وأخَّر ، ولم يغب عنا ولم يَخْفَ علينا شيء من أعمالهم حين عملوا ما عملوا لأنه لا يغيب علينا شيء في السموات ولا في الأرض وإن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها اللهُ اللطيفُ الخبير الشهيد على عباده ، الرقيب عليهم المهيمن على

حركاتهم وسكناتهم، وهٰذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يومَ يَجْمَعُ الله الرسلَ فيقولُ ماذا أُجِبْتُمْ قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾ . وكما روى البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يُدْعَى نوحٌ يوم القيامة فيقول: لبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ يا رب، فيقول: هل بَلَّغْتَ؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلَّغَكُمْ؟ فيقولون ما أتانا من نذير، فيقول: مَن يشهدُ لَكَ؟ فيقُولُ: محمدٌ وأُمَّتُهُ، فيشهدون أنه قد بلَّغَ، ﴿ويكونَ الرسولُ عليكم شهيدا﴾ فذلك قولُه جل ذكره: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ قال ابن جرير رحمه الله: القولُ في تأويل قوله ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إليهم وَلَنَسْئَلَنَّ المرسلين﴾ قال أبوجعفر: يقول تعالى ذكره: لَنَسْأَلَنَّ الأمم الذين أرسلتُ إليهم رسلي ماذا عَمِلَتْ فيما جاءتهم به الرسل مِن عندي مِنْ أمري ونهيي؟ هل عملوا بما أَمَرْتُهُم به، وانتهَوْا عما نهيتهم عنه، وأطاعوا أمري، أم عَصَوْنِي فَخَالَفُوا ذلك ﴿وَلَنَسْئَلَنَّ المرسلين﴾ يقول: ولنسألن الرسل الذين أرسلْتُهُم إلى الأمم، هل بَلَّغَتْهُمْ رسالاتي وَأَدَّتْ إليهم ما أمرتُهُم بأدائه إليهم، أم قَصَّرُوا في ذلك فَفَرَّطُوا ولم يُبَلِّغُوهُمْ؟ ثم قال ابن جرير رحمه الله: فإن قال قائل: وكيف يَسْأَلُ الرسلَ والْمُرْسَلَ إليهم وهو يخبر أنه يقص عليهم بِعِلْمٍ بأعمالهم وأفعالهم في ذلك؟ قيل: إن ذلك منه تعالى ذكره ليس بمسألة استرشاد، ولا مسألة تَعَرُّفٍ منهم ما هو به غير عالم، وإنما هو مسألة توبيخ وتقرير معناها الخَبَرُ، كما يقول الرجلُ للرجل: ألم أُحْسِنْ إليك فأسأتَ؟ وألم أَصِلْكَ فَقَطَعْتَ؟؟ فكذلك مسألةُ اللهِ المرسلَ إليهم بأن يقول لهم: ألم يأتكم رسلي بالبينات؟ ألم أبعث إليكم النُّذُرَ فتنذركم عذابي وعقابي في هذا اليوم مَن كَفَرَ بِي وعَبَدَ غيري؟ كما أخبر جل ثناؤه أنه قائل لهم يومئذ:

﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطانَ إنه لكم عَدُوٌّ مبينٌ * وأَنِ اعْبُدُونِي هٰذا صراط مستقيم﴾ ونحو ذلك من القول الذي ظَاهِرُهُ ظاهرُ مسألةٍ، ومعناه الخبرُ والقصصُ وهو بعدُ توبيخٌ وتقريرٌ، وأما مسألةُ الرسل الذي هو قصص وخبر، فإن الأمم المشركة لما سئلت في القيامة قيل لها: ﴿ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم﴾؟ أنكر ذلك كثير منهم وقالوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقيل للرسل: هل بَلَّغْتُمْ ما أُرْسِلْتُمْ به؟ أو قيل لهم: ألم تُبَلِّغُوا إلى هؤلاء ما أُرْسِلْتُمْ به؟ كما جاء الخبر عن رسول الله ﷺ، وكما قال جل ثناؤه لأمة نبينا محمد ﷺ: ﴿وكذالك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكونَ الرسولُ عليكم شهيدا﴾ فكُلُّ ذلك من الله مسألةٌ للرسل على وجه الاستشهاد لهم على من أُرْسِلوا إليه من الأمم، ولِلمُرْسَلِ إليهم على وجه التقرير والتوبيخ، وكلُّ ذلك بمعنى القصص والخبر اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿والْوَزْنُ يومئذ الْحَقُّ، فمن ثَقُلَتْ مَوَازِينُه فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُه فَأُولَـٰئِكَ الذين خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بما كانوا بآيَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ بعد أن أثبت الله عز وجل أنه يسأل الأمم والرسل ويحاسبهم على ما عملوا أثبت هنا أنه يزن أعمال عباده الوزن الحق إظهارا لعدله لينكشف للعباد ما قدَّموا من الأعمال في دنياهم وتظهر جميع الأشياء بحقائقها وبأوصافها وأحوالها على ما هي عليه في أنفسها من الحُسْن أو القبح، وقد آمن أهل السنة والجماعة بما جاء عن الله، وبما جاء عن رسول الله ﷺ من أن الله تبارك وتعالى يضع الموازين القسط ليوم القيامة وأن أعمال العباد توزن فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل، كما قال عز وجل: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ وقال عز وجل: ﴿فأما من ثقلت موازينه * فهو في عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فأُمُّهُ هاوية

* وما أدراك مَاهِيهْ * نارٌ حـامية﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فإذا نُفِخَ في الصُّور فلا أنسـاب بينهم يومئـذ ولا يَتَسَاءَلُـون * فمن ثَقُلَتْ موازينُـه فأولَـئِكَ هم المفلحـون * ومن خفت مـوازينـه فأولَـئِك الـذين خَسِرُوا أنفسهم في جهنم خالـدون﴾ وقد روى أحمد في مسنده والترمـذي وابن ماجـه كلهم من طريق الليث بن سعـد حـدثني عـامـر بن يحيى عن أبي عبـدالـرحمن الحُبُلِيِّ قـال: سمعت عبدالله بن عمـرو بن العاص يقول ـ وهذا لفظ الترمـذي قال رسول الله ﷺ: إن الله سَيُخَلِّصُ رجـلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيـامة، فَيَنْشُرُ عليـه تسعة وتسعين سِجِـلا، كلُّ سِجِلٍّ مثل مَـدِّ البصر، ثم يقـول: أَتُنْكِرُ مِن هذا شيئا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحافظـون؟ فيقول: لا يا ربِّ، فيقول: أَفَلَكَ عُـذْر؟ فيقول: لا يا ربِّ. فيقـول: بَلَى إنَّ لك عنـدنا حسنةً، فـإنه لا ظُلْم عليك اليـومَ، فَتَخْرُجُ بِطَـاقَـةٌ فيها: أشهـد أن لا إلّه إلا الله وأشهـد أن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: احْضَرْ وَزْنَكَ، فيقـول: يا ربِّ ما هذه البطاقةُ مع هـذه السِّجِلاَّتِ، فقـال: إنك لا تُظْلَمُ، قـال: فَتُوضَعُ السجـلاتُ في كفة، والبطاقـة في كفة، فطاشت السجلاتُ، وثَقُلَتِ البِطـاقةُ فلا يثقل مع اسم الله شيء. قال أبوعيسى: هذا حـديث حسن غريب، وقد رواه الحاكم في المستدرك من طريق الليث بن سعد عن عـامر بن يحيى عن أبي عبدالرحمن المُعَافِرِي الحُبُلِيِّ أيضا وقال: هذا حديث صحيح لم يُخَرِّجْ في الصحيحين وهو صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي على ذلك. وقد أشار القرآن العظيم والسنـة النبويـة إلى أن من مات على الكفـر يحبط الله عز وجل مـا قد يكـون عمله من أعمال الخير، فلا يثبت في ميزانه شيء من الحسنات حيث يقول عز وجل: ﴿أولَـئِك الـذين كفروا بآيات ربهم ولقـائه فَحَبِطَتْ أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيـامة وزنا﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿وقدمنا إلى مـا عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ كما روى البخـاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه

عن النبي ﷺ أنه قال: إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وَزْنًا﴾ كما أشار رسول الله ﷺ إلى أن بعض الكلمات الصالحة وبعض الأفعال الصالحة يكون لها ثِقَلٌ عظيم في الميزان عند الله يوم القيامة فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم. وقد ختم البخاري رحمه الله صحيحه بهذا الحديث العظيم. كما روى أبوداود والترمذي واللفظ له من طريق أم الدرداء من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ما شَيْءٌ أثقلُ في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُق حَسَنٍ. قال أبوعيسى: وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة وأنسٍ وأسامةَ بن شَريكٍ وهذا حديث حسن صحيح. وقد أنكر بعض أهل الأهواء الميزان ووزن الأعمال يوم القيامة بدعوى أن الأعمال أعراضٌ لا تقبل الوزن وإنما يقبل الوزنَ الأجسام. وقد جهل هؤلاء أن الله قادر على قلب الأعراض أجساما كما صح الخبر عن رسول الله ﷺ أنه يؤتى بالموت كبشا فيوقف بين الجنة والنار فَيُذْبَحُ ويقال: خلود لا موت. قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره هذه الآية: فإن أنكر ذلك جاهل بتوجيه معنى خبر الله عن الميزان وخبر رسوله ﷺ عنه وِجْهَتَهُ وقال: أَوَ بالله حاجة إلى وزن الأشياء وهو العالم بمقدار كل شيء قبل خلقه إياه وبعده وفي كل حال؟ أَوْ قال: وكيف تُوزَن الأعمالُ والأعمالُ ليست بأجسام توصف بالثقل والخفة وإنما توزن الأشياء لِيُعْرَفَ ثِقَلُهَا من خفتها، وكثرتها من قِلَّتها، وذلك لا يجوز إلا على الأشياء التي توصف بالثقل والخفة والكثرة والقِلة؟ قيل له في قوله: وما وجه

وزن الله الأعمالَ وهو العالم بمقاديرها قبل كونها : وزنُ ذلك نظيرُ إثباته إياه في أم الكتاب واستنساخه ذلك في الكتب من غير حاجة به إليه ومن غير خوف من نسيانه وهـو العالم بذلك في كل حالٍ وَوَقتٍ قبل كونـه وبعد وجوده، بل ليكون ذلك حجة على خلقه كما قال جل ثناؤه في تنزيلـه : ﴿كلُّ أمة تُدعَى إلى كتابها اليـوم تجزون ما كنتم تعملـون * هٰذا كتـابنا ينطق عليكـم بالحق﴾ فكذلك وزنُه تعالى أعمال خلقه بالميزان، حجةً عليهم ولهم، إما بالتقصير في طاعته والتضييع، وإما بالتكميل والتتميـم اهـ. فمن ثقلت موازينه بالإيمان والأعمال الصالحة فاز وأفلح وصار في عيشة راضية في جنة عالية، ومن خفت موازينه لخلوها من الخير فقد خاب وخسر لكفره بالله ولجحوده لآياته وتعديه على الحق، فأُمُّه هاوية ، وما أدراك ما هِيهْ ، نار حامية . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال تعالى : ﴿ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايشَ، قليلاً ما تشكرون * ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين * قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أناخيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين * قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين * قال أَنظرنِي إلى يوم يبعثون * قال إنك من المنظرين * قال فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين * قال اخرج منها مذءُوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ .

بعد أن أكَّد الله تبارك وتعالى الرِّسالةَ والبعثَ بعد الموت والحسابَ ووزنَ الأعمالِ، وفَلاَح المؤمنين، وخُسْرَانَ الظالمين الجاحدين الكافرين شرع هنا في تذكير الناس بما أفاض عليهم من النعم، وفي تحذيرهم من الانقياد لإبليس عدو الله وعدوهم، الذي جعل أكبر همه إغْوَاءَ الناس وصرفَهم عن شكر الله، وضَرَبَ عز وجل لهم أمثلة من صُوَر العداوة المتمكنة في نفس إبليس لآدم وذريته، حيث يقول عز وجل : ﴿ولقد مَكَّنَّاكم في الأرض وجعلنا لكم فيها مَعَايِشَ، قليلا ما تشكرون﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿قال اخرج منها مذءُوما مدحورا لَمَن تَبِعَكَ منهم لأملأنَّ جهنم منكم أجمعين﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ولقد مَكَّنَّاكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش﴾ أي ولقد أقدرناكم وَوَطَّأنا لكم وسَهَّلْنَا عليكم التصرف في الأرض وجعلناها لكم قرارا تستقرون فيها، ومهادا تمتهدونها، وفراشا تفترشونها وهديناكم إلى وسائل معايشكم من الغذاء والكساء والدواء، وصيرناها لكم ذلولا تمشون في مناكبها وتأكلون من رزق الله الذي يَسَّرَهُ لكم فيها من أنواع المطاعم النافعة

لأجسامكم، وتشربون من الماء الذي أنزله لكم من السماء فسلكه ينابيع في الأرض، منه شراب ومنه شجر فيه تُسِيمُون، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، فعليكم أن تشكروا نِعَمَ الله عليكم، وقليل من عبادي الشكور، إن الإنسان لظلوم كَفَّار، وقد اتفق القراءُ السبعة فيما تواتر من قراءاتهم على قراءة ﴿معايش﴾ بالياء قال ابن كثير رحمه الله: وقد قرأ الجميع ﴿معايش﴾ بلا همز إلا عبدالرحمن بن هرمز الأعرج فإنه همزها والصواب الذي عليه الأكثرون بلا همز. اهـ وقال ابن جرير رحمه الله: قرأ ذلك عامة قرأة الأمصار ﴿معايش﴾ بغير همز، وقرأه عبدالرحمن الأعرج: ﴿معائشَ﴾ بالهمز، قال أبوجعفر: والصواب من القراءة في ذلك عندنا: ﴿معايش﴾ بغير همز، لأنها «مَفَاعِل» من قول القائل: عِشْتَ تعيش، فالميم فيها زائدة، والياء في الحكم متحركة، لأن واحدها مَفْعَلَة «مَعْيَشَة» متحركة الياء، نقلت حركة الياء منها إلى العين في واحدها، فلما جمِعَتْ رُدَّت حركتها إليها لسكون ما قبلها وتحرُّكِها، وكذلك تفعل العرب بالياء والواو إذا سكن ما قبلهما وتحركتا، في نظائر ما وصفنا من الجمع الذي يأتي على مثال «مفاعل» وذلك مخالف لما جاء من الجمع على مثال «فعائل» التي تكون الياء فيها زائدة ليست بأصل، فإن ما جاء من الجمع على هذا المثال فالعرب تهمزهُ كقولهم: هذه مدائن، وصحائف ونظائرهما، لأن مدائن جمع مدينة والمدينة فَعِيلَة من قولهم: مدنت المدينة، وكذلك صحائف جمع صحيفة والصحيفة فعيلة من قولك: صحفت الصحيفة، فالياء في واحدها زائدة ساكنة فإذا جُمِعَتْ هُمِزَت، لخلافها في الجمع الياءَ التي كانت في واحدها، وذلك أنها كانت في واحدها ساكنة، وهي في الجمع متحركة اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾ إلى قوله: ﴿قال اخرج منها مذءوما مدحورا

لَمَن تَبِعَكَ منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ تذكيرٌ بنعم عظيمة فائضة من الله تبارك وتعالى على آدم وذريته تُوجبُ على جميع الناس شكر الله عز وجل عليها، وتحذيرٌ لهم من طاعة إبليسَ الذي أظهر العداوة لأبيهم آدم عليه السلامُ وتَعَهَّد بإفساد ذريته وصرفهم عن طاعة الله، وفي قوله عز وجل: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ تنبيهٌ على عظيم قدرة الله عز وجل حيث قدَّرَ إيجاد آدم وذريته فأوجده من طين غير مصور ثم سواه وصوَّره في هذه الصورة البشرية الكريمة حيث خطَّطَهَ وشقَّ حواسه، ونفخ فيه من روحه ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين وصوَّرهم على صورته الآدمية، وقد روى أحمد وأبوداود والترمذي وقال الترمذي: حسن صحيح من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك، كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته. ولهذا نسب الخلق والتصوير في هذا المقام إلى المخاطبين مع أن المقصود الأصلي هو خلق آدم وتصويره بدليل قوله عز وجل: ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ إشارة إلى أن لهم حظًا من خلقه وتصويره لأن الخلق والتصوير قد سَرَى إلى ذريته، قال ابن جرير رحمه الله: ﴿ولقد خلقناكم﴾ ولقدخلقنا آدم ﴿ثم صورناكم﴾ بتصويرنا آدمَ، كما قد بينا فيما مضى من خطاب العرب الرجلَ بالأفعال تُضيفها إليه، والمَعْنِيُّ في ذلك سَلَفُهُ، وكما قال جل ثناؤه لمن بين أَظْهُر المؤمنين من اليهود على عهد رسول الله ﷺ: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ وما أشبه ذلك من الخطاب

المُوَجَّه إلى الحي الموجود، والمرادُ به السلفُ المعدومُ فكذلك ذلك في قوله: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ معناه: ولقد خلقنا أباكم آدم ثم صورناه اهـ. ومما يؤكد أن هذا هو المراد قولُه عز وجل بعدها مباشرة: ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ وقد ذكر الله عز وجل قصة خلق آدم وأمر الملائكة بالسجود له وامتناع إبليس أبي الجان من السجود لآدم في سبع سور من القرآن الكريم، وهي سورة البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه وص. وقد سقت نصوصها في تفسيرها من سورة البقرة، وقلت هناك: وفي تكرير هذه القصة في هذه السور وفي تصريفها هذا التصريف البلاغيَّ المعجزَ حجةٌ قاهرة، وآية باهرة، شاهدة ناطقة بأن القرآن من عند الله، وفيه تنبيهٌ أيُّ تنبيه وتحذير أشدُّ التحذير من إبليس عَدُوِّ أبينا آدم وعدوِّنا، إذ المقصود من تصريف هذه القصة تأكيد العداوة بين إبليس وذرية آدم وأن كل فساد في الأرض إنما هو من عمل إبليس وجنوده، وفي ذلك ذكر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وقد نَقَلْتُ هناك قول القرطبي رحمه الله في تفسيره: واختلف الناس في كيفية سجود الملائكة لآدم بعد اتفاقهم على أنه لم يكن سجودَ عبادة. كما ذكرت هناك أن إبليس لم يكن من الملائكة وإنما كان من الجن، وكان له ذرية وليس للملائكة ذرية فهم لا يتناسلون. وقد نص القرآن الكريم على أن إبليس كان من الجن حيث يقول عز وجل في سورة الكهف: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بَدَلاً﴾ ومما لا شك فيه عند العلماء بلغة العرب أنهم كانوا يستثنون من الجنس ومن غير الجنس، كما في هذا المقام ويسمى الاستثناء المنقطع، ومن التصريف البلاغي اللافت للانتباه أنه عز وجل قال هنا: ﴿قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك﴾ وقال في سورة ص: ﴿قال يا إبليس ما

منعك أن تسجد لما خلقت بيدَيَّ﴾ ولا شك عند أهل العلم بالتفسير والتأويل أن المراد في الموضعين هو توبيخ إبليس على عدم السجود، وقد ذكرت في تفسير الآية الرابعة والثمانين بعد المائة من سورة البقرة في قوله عز وجل: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ أن العرب قد تحذف الحرف وهو مراد أو قد تذكره وهو غير مراد لعلم السامع بالمراد كقوله تبارك وتعالى: ﴿قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف﴾ أي قالوا تالله لا تفتأ تذكر يوسف. وكذلك قوله تعالى: ﴿ولا يأتل أوْلواْ الفضل منكم والسعة أن يؤتُوا أولى القربى﴾ أي ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن لا يؤتوا أولي القربى ومنه قول امرئ القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعدا وإن قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أي لا أبرح قاعدا لأن العرب لا يستعملون فَتِئ وبرح إلا منفية، فإذا جاءت بغير حرف النفي عُلِمَ قطعا أنه مراد، ومثال زيادة لا وهي غير مرادة قوله تعالى: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله﴾ أي ليعلم أهل الكتاب. ويكون الحذف أو زيادة الحرف لقصد بلاغي يقتضيه فقه اللغة وفصاحة العبارة ومقتضى الحال والمقام. وقال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله عز وجل: ﴿ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك﴾: إن في الكلام محذوفا قد كفى دليل الظاهر منه وهو أن معناه: ما منعك من السجود، فأحوجك أن لا تسجد ــ فتَرَكَ ذكر «أحوجك» استغناء بمعرفة السامعين قوله: ﴿إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾ أن ذلك معنى الكلام، مِن ذِكْرِه، ثم عمل قولُه ﴿ما منعك﴾ في ﴿أَنْ﴾ ما كان عاملا فيه قبل «أحوجك» لو ظهر، إذ كان قد ناب عنه اهـ. وقوله عز وجل: ﴿قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقتَه من طين﴾ أي منعني من السجود أني أفضل من آدم لأني مخلوق من نار وآدم مخلوق من طين والنار خير من الطين، قال ابن جرير رحمه الله: جهل عدوُّ الله وجه الحق وأخطأ سبيل الصواب، إذ

كان معلوما أن من جوهر النار الخفة والطيشَ والاضطراب والارتفاعَ عُلُوًّا، والذي في جوهرها من ذلك هو الذي حمل الخبيث بعد الشقاء الذي سبق له من الله في الكتاب السابق على الاستكبار عن السجود لآدم، والاستخفاف بأمر ربه فأورثه العطَب والهلاكَ، وكان معلوما أن من جوهر الطين الرزانة والأناة والحِلْم والحياء والتثبُّت، وذلك الذي هو في جوهره من ذلك كان الداعي لآدم بعد السعادة التي كانت سبقت له من ربه في الكتاب السابق إلى التوبة من خطيئته ومَسْأَلتِه ربَّه العفوَ والمغفرة اهـ.

وعلى فرض أن النار خير من الطين فلا يتحتم أن يكون المخلوقُ من الأفضل أفضلَ فإن الفرع قد يختص بما لا يكون في أصله، فالتِّبْرُ من التراب، ومن قصر به عمله لم يبلغ به نسبه، والضمير في قوله عز وجل: ﴿فاهبط منها﴾ راجع إلى المنزلة والرحمة التي كان فيها في الملكوت الأعلى مع الملائكة، والأمر بهبوط إبليس وخروجه من هذه الرحمة أمر كوني قدري، وهو غير الهبوط الذي أنزل به إلى الأرض مع آدم وحواء في قوله: ﴿اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾ ومعنى: ﴿إنك من الصاغرين﴾ أي من الذليلين الحقيرين، ومعنى ﴿أنظرني إلى يوم يبعثون﴾ أي أمهلني ولا تُمِتْني إلى يوم البعث والنشور، ومعنى: ﴿إنك من المنظرين﴾ أي من الذين أُجِّل موتهم فلا يموتون إلا عند النفخة الأولى التي يصعق بها من في السموات والأرض وهو الوقت المعلوم لموت من لم يمت من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله، ومعنى: ﴿قال فبما أغويتني﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ أي كما أضللتني لأَصُدَّنَّ ذرية آدم عن طريق الحق ولأغوينهم من جميع جهاتهم ليكفر أكثرهم فأكد الله عز وجل طرد إبليس من رحمته مقيتا مذموما أبشع الذم موصوما بالذلة والصَّغار، مأبونا بالخزي والعار، وتوعد عز وجل كل من انقاد للشيطان وكفر بالرحمن أن يجعله فيمن تمتلئ بهم جهنم وبئس القرار.

قال تعالى : ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هٰذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هٰذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين * فدلّٰهما بغرور، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين * قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين * قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين * قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ .

بعد أن ذكَّر الله عز وجل الناسَ بما أفاض عليهم من النعم وحذَّرهم من الانقياد لإبليس عدو الله وعدوهم الذي جعل أكبر همه إغواءَ الناس وصَرْفَهم عن شكر الله ، وذكر المثَلَ الأول من صُوَر العداوة المتمكنة في نفس إبليس لآدم وذريته ، شرع هنا في ذكر المَثَلِ الثاني من صُور عداوة إبليس لآدم وذريته ، الذي يبرز فيه ما قام به إبليس لإخراج آدم من الجنة ، وما بذل في سبيل ذلك من اليمين الفاجرة والتغرير، حتى تمكن من مراده ، وما تفضل الله عز وجل به من توفيق آدم وزوجته للمسارعة إلى التوبة من أكلهما من الشجرة وما كان من أمر الله الكوني القدري لآدم وحواء وإبليس بالهبوط إلى الأرض لتكون لهم مستقرا ومتاعا إلى حين . وأشار إلى أنه قضى وقدَّر أن تكون حياة آدم وذريته وإبليس وذريته على الأرض مدة الحياة الدنيا التي قضى الله عز وجل لكل واحد منهم أجله فيها ، وفي ذلك يقول : ﴿ويا آدَمُ اسْكُنْ أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هٰذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿قال فيها تَحْيَوْنَ وفيها تموتون ومنها تُخْرَجُون﴾

ومما يلفت الانتباه في التصريف البلاغي في سياق هذه القصة في مقاماتها من القرآن الكريم أنه قد يحذف من مقام ما ذكره في المقام الآخر ليكون المذكور دليلا على المحذوف كقوله في سورة البقرة: ﴿وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ وقال هنا: ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ وقال في سورة البقرة: ﴿وكلا منها رغدا حيث شئتما﴾ وقال هنا: ﴿فكلا من حيث شئتما﴾ وقال في سورة البقرة: ﴿فأزَلَّهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه﴾ وقال هنا: ﴿فوسوس لهما الشيطان لِيُبْدِيَ لهما ما وُوري عنهما من سَوْآتِهِمَا وقال ما نهاكما ربكما عن هٰذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين * فدلاهما بغرور، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربُّهما ألم أَنْهَكُمَا عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾. وقال في سورة البقرة: ﴿فتلقى آدمُ من ربه كلماتٍ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾ وقال هنا: ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ وقال في سورة البقرة: ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ وقال هنا: ﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ وقد تقدم الكلام في تفسير هذه القصة في سورة البقرة، وقد بينت فيها أن الله عز وجل أذن لآدم أن يسكن هو وزوجه حواء الجنة وأباح لهما ما في الجنة يأكلان منه رغدا حيث شاءا، ونهاهما عن الأكل من شجرة معينة، وحذَّرهما من إبليس، غير أن حكمة الله البالغة اقتضت أن ينسى آدم هذا التحذير وأن يعمل إبليس بما يستطيعه من وسوسة ومن أيمان كاذبة بأنه ناصح لآدم ولزوجه حتى أكل آدم وزوجُه من الشجرة من غير قصد وإنما عن نسيان كما قال عز وجل: ﴿ولقد عَهِدْنَا إلى آدم من قبل فنَسِيَ ولم نجد له عزما﴾ وليس في القرآن أو في السنة النبوية ما يدل على

أن هـذه الوسـوسة كـانت في الجنـة ، وظاهـر القرآن أن إبليس وسـوس لآدم وحواء قبل دخول الجنة لاقتران الوسوسة بقوله : ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منهـا رغدا حيـث شئتما ولا تقربا هـٰذه الشجرة فتكـونا مـن الظالمين * فأزلهما الشيطـان عنها﴾ والمقصـود أن الله تبارك وتعالى لحكمتـه البالغـة مكَّنَ إبليس من الـوسوسـة لآدم ليعرف بنوه أن إبليس حـريص على حرمـانهم من دخول الجنـة كما قال عز وجل : ﴿إن الشيطـان لكم عدو فـاتخذوه عدوًّا إنما يدعـو حزبه ليكونـوا من أصحاب السعير﴾ وقد شرحت هنـاك معنى الزوج ومعنى : ﴿حيث شئتما﴾ ومعنى : ﴿ولا تقـربا هـٰذه الشجرة﴾ وأنـه لم يصح عن رسول الله ﷺ خبر في تعيين الشجرة التي نهى الله آدم عن الأكل منها فلا حاجـة إلى تكلف تعيينها ولا إلى معرفـة نوعهـا ، ومعنى قوله تبـارك وتعالى : ﴿فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما مـا ووري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هـٰذه الشجـرة إلا أن تكـونـا مَلَكين أو تكـونـا من الخالـدين * وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين * فدلاهما بغرور﴾ أي فحدث الشيطانُ آدم وحـواء وألقى في نفسيهما وزين لهما الأكل مـن الشجـرة التي نهاهما الله عنهـا ليخـرجهما من الجنة وليـزيل ستر الله الـذي قضى أن يستر بـه عورتيهما مـا لم يأكـلا من الشجرة ، وقـد استعمل الشيطـان معهما طرق التغـرير والخديعـة والمكر حيث زعم لهما أن الأكل من هـذه الشجرة يورثهما صفـات الملائكة أو الخلود الأبدي كما أكثر لهما من الأيمان الكاذبة الفاجرة بأنه ناصح لهما ولا يريد بهما إلا الخير، والظاهر أن آدم عليه السلام لم ينقد لإبليس إنما أصابه النسيان فنسي كما قـال عز وجل : ﴿ولقـد عهـدنا إلى آدم مـن قبل فَنَسِيَ ولم نجد لـه عزمـا﴾ وقد عَلِمَ إبليـس لعنه الله عنـدما رأى آدم مُصَوَّرًا مـن الطين أجوفَ وعرف أنه لا يتمالك ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لما صَوَّر الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه ،

فجعل إبليس يُطِيفُ به، يَنْظُر ما هو؟ فلما رآه أجوف عرف أنه خُلِقَ خَلْقًا لا يَتَمَالَكُ، فمازال إبليس يخدعهما ويحلف لهما بأنه لهما من الناصحين، ويزخرف لهما الأكل من الشجرة حتى نسيا النصيحة والعهد الذي عهد الله عز وجل لآدم ألا يأكل هو وزوجه من الشجرة، فلما ذاقا الشجرة أي تَنَاوَلاَ شيئا يسيرا منها قصدًا إلى معرفة طعمها، ظهر لكل واحد منهما ما كان قد ستره الله عز وجل من عورتيهما التي يسوء انكشافها، وأخذا يلزقانِ وَيخْرِزَان عليهما من ورق الجنة ليستترا به، وقد اقتضت حكمة الله أن يأكل آدم من الشجرة، والله يعلم أنه آكل منها لا محالة، لأنه لابد وأن يُسْكِنَهُ الأرض ويَعْمُرَها هو وذريتُه من بعده، ويجعل فيهم خيرا كثيرا وعبادا صالحين وأنبياءَ ومرسلين، وقد أعلم الله عز وجل الملائكة قبل خلق آدم أنه جاعل في الأرض خليفة وإن كان لابد من الابتلاء والاختبار والامتحان والأمر والنهي، وقد نسِيَ آدم وأكل من الشجرة، فعاد إلى الأرض، كما قال عز وجل: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ وكما قال عز وجل هنا: ﴿فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تُخْرَجُونَ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين * قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ إشعارٌ بأنه ينبغي تنبيهُ الغافلين وتذكيرُ الناسين إلى ما وقعوا فيه، وأن المؤمن إذا وقع في مخالفة سارع إلى التوبة والإنابة، وبيانُ فضل الله عز وجل بتوبته على التائبين، وتنديدٌ بِعَدُوِّ الله إبليسَ ومن يدور في فلكه من الذين إذا وقعوا في معصية أصروا واستكبروا استكبارا، قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿وناداهما ربُّهما ألم أَنْهَكُمَا عن تِلكُمَا الشجرة وأَقُلْ لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ونَادَى آدَمَ وحَوَّاءَ ربُّهما: ألم أنهكما عن أكل ثمرة الشجرة التي أكلتما ثمرها، وأُعَلِّمْكُماَ أن إبليس لكما عدو

مبين، يقول: قد أبان عداوتـه لكما بترك السجود لآدم حسدًا وبغيًا، ثم قال رحمه الله: القول في تأويـل قوله: ﴿قـالا ربنا ظلمنـا أنفسنا وإن لم تغفـر لنا وترحمنـا لنكونن من الخاسرين﴾ قـال أبوجعفر: وهـذا خبر من الله جل ثناؤه عن آدم وحواءَ فيما أجاباه به، واعترافِهما على أنفسهما بالذنب، ومسألتِهما إياه المغفرةَ منـه والرحمةَ خلافَ جـوابِ اللعينِ إبليس إياه، ومعنى قولـه: ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ قال آدمُ وحواءُ لربهما: يا ربنا، فَعَلْنَا بأنفسنا من الإساءة إليها بمعصيتك وخلافِ أمرك من أكـل الشجرة التي نهيتنا عن أكلها ﴿وإن لم تغفـر لنـا﴾ يقـول: وإن أنت لم تستر علينـا ذنبنـا فتغطيــه علينـا وتترك فضيحتنا به بعقوبتـك إيانا عليه ﴿وترحمنا﴾ بتعطفك علينا، وتَـرْكِكَ أَخْذَنا بـه ﴿لنكونن من الخاسرين﴾ يعني: لنكـونن من الهالكين اهـ وقـولُه تبـارك وتعالى: ﴿قال اهبطوا بعضكم لبعـض عدو ولكم في الأرض مستقر وَمتاعٌ إلى حين﴾ أمرٌ مـن الله عز وجل لآدم وحـواء وإبليس بالهبـوط إلى الأرض، وهو أمر كوني قدري أراده الله وقضاه، ولا رادَّ لقضائه وقدره، والعمدة في العداوة آدم وإبليس، ولهذا قـال عز وجل في سـورة طـه: ﴿ قال اهبطـا منها جميعـا بعضكم لبعض عَـدُوٌّ﴾ وهو أمر لآدم وإبليس، ولا شـك أن حواءَ تبعٌ لآدمَ عليهما السـلام، ومعنى قولـه عز وجل: ﴿ بعضكم لبعض عَـدُوٌّ﴾ يعني أن العداوة ثابتة مستقرة دائمة بين آدم وإبليس وذريتيهما لا تزول ألبتة، وقولُه عز وجل: ﴿ولكم في الأرض مستقـر ومتاع إلى حين﴾ قـد تقدم تفسيره في سـورة البقرة، وقولُه عز وجل: ﴿قال فيهـا تَحْيَوْنَ وفيها تموتون ومنها تُخْرَجُونَ﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله: قال أبوجعفر: يقـول تعالى ذكره: قال الله للذين أهبطهم من سماواتـه إلى أرضـه: ﴿فيهـا تَحْيَوْنَ﴾ يقـول: في الأرض تَحْيَـوْنَ، يقول: تكـونون فيهـا أيام حياتكم ﴿وفيهـا تموتون﴾ يقـول: في الأرض تكون وفاتكم ﴿ومنهـا تخرجون﴾ يقول: ومـن الأرض يخرجكم ربكم ويحشركم إليه

لبعث القيامة أحياء اهـ وهذا قضاء الله عز وجل أن يجعل الأرض مستقرا لآدم ولذريته من بعده إلى يوم القيامة ، وقد قدَّر ذلك وقضاه قبل خلق السماوات والأرض ، كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء . وقد ذكر الله تبارك وتعالى أنه خلق الإنسان من الأرض يعيش عليها ويموت فيها ومنها يبعث في غير موضع من كتابه الكريم كما في هذا المقام ، وكما في قوله تبارك وتعالى : ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ألم نجعل الأرض كِفَاتا * أحياء وأمواتا﴾ .

قال تعالى : ﴿ يـا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسًا يـواري سوءاتكم وريشًا ولباس التقوى ذٰلك خير، ذٰلك من آيات الله لعلهم يذكرون * يا بني آدم لا يفتننكم الشيطـان كما أخـرج أبـويكم من الجنـة ينـزع عنهما لبـاسهما ليريهما سـوءاتهما ، إنه يـراكم هو وقبيلـه من حيث لا ترونهم ، إنـا جعلنا الشيـاطين أولياء للـذين لا يؤمنون * وإذا فعلوا فـاحشة قالـوا وجدنا عليها آبـاءَنا والله أمرنـا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشـاء أتقولون على الله مـا لا تعلمون * قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تعـودون * فريقًا هـدى وفريقا حق عليهم الضـلالة ، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾ .

بعد أن بَيَّنَ المَثَـلَ الثاني من صُـوَر عداوة إبليس لآدم وذريتـه وأشار إلى أنَّ من أهم مقـاصـد إبليس هـو أن تنكشف سـوآتُ بنـي آدم وعـوراتُهم وأن انكشاف العورة هو أَوَّلُ سوء أصاب الإنسان مِن قِبَلِ الشيطان ، ومن المعلوم أنَّ انكشاف عورات الرجال والنساء من أكبر أسباب فساد الأخلاق وانحلال المجتمعـات ، وقد حَـرِصَ إبليس على ذلك أشد الحرص حتى لعب بعقـول أهل الجاهلية فصاروا يطوفون بـالبيت الحرام عراة رجالا ونساء ويعتقدون أن ذلك يقربهم إلى الله ، وأنـه عز وجل قد أمرهـم بذلك ، كما أننا لازلنا نشـاهد حرص المفسدين في الأرض على دعوة النساء إلى التبرج والتكشف ليسهل لهم ما يريـدون من تفسخ الأمة والوصول إلى مـا يشتهون من التفكك والانحلال والانغماس في الشهوات ، فلما نبـه الله عز وجل النـاس إلى حرص إبليس على انكشـاف عوراتهم شرع هنـا يبين لبني آدم أنـه عز وجل لم يتركهم سُـدًى بل تفضل عليهم وأنـزل إليهم كل ما يحتـاجون إليـه في دينهم ودنياهم ليسلكـوا الصراط المستقيم ، وأنه لا نجاة ولا سعادة لهم إلا بطـاعة الله ورسله والانقياد

لأمره والوقوف عند حدوده، ومخالفة الشيطان الرجيم وفي ذلك يقول: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباسُ التقوى ذٰلك خير﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿فريقا هَدَى وفريقا حقَّ عليهم الضلالة، إنهم اتخذوا الشياطينَ أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾ و معنى قوله عز وجل: ﴿قد أنزلنَا عليكم لباسا يُوَاري سَوْآتِكُمْ ورِيشًا﴾ أي قد يسرنا لكم اللباس والرياش الذي تسترون به عورتكم وتحصلون عليه من ظهور الأنعام ومن النباتات التي نبتت بسبب ما أنزله الله من الأمطار. قال ابن جرير رحمه الله: قال أبوجعفر: يقول جل ثناؤه للجهلة من العرب الذين كانوا يَتَعَرَّوْنَ للطواف، اتِّباعا منهم أَمْرَ الشيطان، وتركًا منهم طاعةَ الله فعرَّفهم انخداعهم بغروره لهم، حتى تمكن منهم فسلبهم من ستر الله الذي أنعَمَ به عليهم، حتى أبدى سوآتهم وأظهرها من بعضهم لبعض مع تفضل الله عليهم بتمكينهم مما يسترونها به، وأنهم قد سار بهم سيرته في أبويهم آدم وحواء اللذين دَلاَّهُما بغرور حتى سلبهما ستر الله الذي كان قد أنعم به عليهما، حتى أبدى لهما سوآتهما فَعَرَّاهُمَا منه ﴿يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا﴾ يعني بإنزاله عليهم ذلك خَلْقَهُ لهم ورزقَهُ إياهم، واللباس: ما يلبسون من الثياب، ﴿يوارى سوآتكم﴾ يقول: يستر عوراتكم عن أعينكم، وكنى بالسوآت عن العورات، واحدتها سوأة وهي فَعلة من السوء وإنما سميت سوأة لأنه يسوء صاحِبَها انكشافُها من جسده اهـ. وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش، فاللباس ستر العورات وهي السوآت، والرياشُ والريشُ ما يتجمل به ظاهرا، فالأول من الضروريات، والريش من التكملات والزيادات اهـ. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: لفظ الإنزال في القرآن يَرِدُ «مُقَيَّدًا» بأنه منه كالقرآن، وبالإنزال من السماء ويُرادُ به العُلو كالمطر

و«مطلقا» فـلا يختص بنوع، بل يتناول إنـزال الحديد من الجبـال والإنزال من ظهور الحيوان وغير ذلك. وقال في موضع آخر: النزول في كتاب الله عز وجل ثلاثـة أنواع: نـزولٌ مقيد بأنـه منه، ونـزولٌ مقيد بأنـه من السماء، ونزولٌ غير مقيـد لا بهذا ولا بهذا، فالأول لم يـرد إلا في القرآن كما قـال تعالى: ﴿والـذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه مُنَزَّلٌ مـن ربك بالحق﴾ وقال تعالى: ﴿نَزَّلَه رُوحُ القُـدُس من ربك بـالحق﴾ وقال تعـالى: ﴿تنـزيل الكتاب مـن الله العزيـز الحكيم﴾ ثم قـال رحمه الله: وأما النزول المقَيَّـدُ بالسماء فقـولُه: ﴿وأنـزلنا من السماء﴾ والسماء اسم جنس لكل ما علا فإذا قُيِّدَ بشيء معين تَقَيَّدَ به، فقولُه في غير مـوضع من السماء مطلق أي في العلـو، ثم قـد بينـه في مـوضع آخـر بقوله: ﴿أأنتم أنزلتموه من المْزْنِ﴾ وقـوله: ﴿فترى الْوَدْقَ يخرج من خلاله﴾ أي إنـه منزل من السحـاب، ثم قـال رحمه الله: وأما «المطلق» ففي مـواضع منها ما ذكـره من إنزال السكينة بقوله: ﴿فأنزل الله سَكِينَتَـهُ على رسوله وعلى المؤمنين﴾ وقـولـه: ﴿هـو الذي أنـزل السَّكِينـة في قلـوب المؤمنين﴾ إلى غير ذلك، ومن ذلك «إنزال الميزان» ذكـره مع الكتاب في موضعين، ثم قال رحمه الله: وذكر تعالى إنزال النعاس في قـوله: ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طـائفةً منكم﴾ هذا يومَ أحد، وقـال في يوم بدر: ﴿إذ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً منـه﴾ والنعاسُ ينزل في الرأس بسبب نـزول الأبخرة التي تدخل في الـدماغ، فتنعقـد فيحصل منهـا النعـاس، ثم قـال رحمه الله: وقد ذكـر سبحانه إنزال الحديد، والحديـدُ يُخْلَقُ في المعادن. ثم قال رحمه الله: ومما يبين هذا أنه لم يستعمل النزول فيما خلق من السفليات فلم يقل: أنزل النبات ولا أنزل المرعى، وإنما استعمل فيما يُخْلَقُ في محل عالٍ، وأنزله الله من ذلك المحل كالحديد والأنعـام، وقال تعالى: ﴿يا بني آدم قـد أنزلنا عليكم لبـاسا يواري سوآتكم وريشـا﴾ الآية. ثم قـال رحمه الله: والقرآن مقصـوده جنس اللباس

الـذي يُلْبَسُ على البَـدَن وفي البيـوت كما قـال تعـالى: ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سَكَنًـا﴾ الآية. فـامتن سبحانـه عليهم بما ينتفعون بـه من الأنعام في اللباس والأثـاث، وهذا ــ والله أعلم ـ معنى إنـزاله، فإنـه يُنْزِلُـه من ظهور الأنعام وهـو كسوة الأنعام من الأصـواف والأوبار والأشعار، وينتفع بـه بنو آدم من اللبـاس والـريـاش فقد أنـزلها عليهم. ثم قـال رحمه الله: فإذا كـان اللباس والرياش ينزل من ظهور الأنعام، وكسوة الأنعام منزلة من الأصلاب والبطون كما تقدم فهو منزل من الجهتين، فـإنه على ظهور الأنعام لا ينتفع به بَنُـو آدم حتى ينزل، فقـد تبين أنه ليس في القـرآن ولا في السنة لفظ نـزول إلا وفيه معنى النزول المعروف، وهذا هو اللائق بـالقرآن، فإنه نزل بلغة العرب، ولا تعرف العـربُ نزولا إلا بهذا المعنى اهـ. ولا شك أن الله تبارك وتعـالى قد تفضل على بني آدم بما يستر عـورتهم وبما يتجملون بـه في حياتهم، والعـرب تطلق الريش والـرياش على الفـاخر من اللباس ومـا يتزين بـه من الثياب، وقولُه تبارك وتعالى: ﴿ولبـاس التقوى ذٰلك خير﴾ تنبيه على وجوب التَّسَرْبُلِ بسربال تقوى الله عـز وجل والتحلي بها وملازمة خوف الله وخشيتـه والوقوف عند حدوده. قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قـوله عز وجل: ﴿وتزوَّدُوا فإن خير الزاد التقـوى﴾ لما أمرهـم بـالزاد للسفر في الـدنيا أرشـدهـم إلى زاد الآخرة وهو استصحاب التقوى إليها كما قال: ﴿وريشا ولباسُ التقوى ذٰلك خير﴾ لما ذكر اللبـاس الحِسِّيَ نَبَّهَ مرشـدا إلى اللباس المعنـوي وهو الخشوع والطـاعةُ والتقوى، وذكر أنه خير من هذا وأنفع اهـ ولا شك أن الإنسان مهما لبس من الثياب فإنه عارٍ إذا تجرد من تقوى الله كما قال الشاعر:

إذا المرء لم يلبس ثيـابـا من التقى ... تقلب عـريـانـا وإن كـان كـاسيـا

وخير لبـاس المرء طـاعـةُ ربـه ... ولا خير فيمن كـان لله عـاصيـا

وقد نهى رسول الله ﷺ عن لبس الحرير والديبـاج للرجال وعن جَرِّ الثوب

خيلاء، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا تَلْبَسُوا الحرير فإن من لبِسَه في الدنيا لم يَلْبَسْهُ في الآخرة. كما روى البخاري ومسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: نهانا النبي ﷺ أن نشرب في آنية الذهب والفضة وأن نأكل فيها وعن لُبْسِ الحرير والديباج وأن نجلس عليه. كما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جَرَّ إزاره بَطَرًا، كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: من جَرَّ ثوبه خُيَلَاءَ لم ينظر الله إليه يوم القيامة. وتذييل الآية الكريمة بقوله عز وجل: ﴿ذلك من آيات الله لعلهم يَذَّكَّرون﴾ للفت الانتباه إلى الاعتبار والادكار فيما تضمنه هذا المقام الكريم من الحجج والأدلة والبراهين الشاهدة بأن محمدا رسولُ الله وأن هذا القرآن من عند الله، وقولُه تبارك وتعالى: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ إلى آخر الآية. أي يا بني آدم لا يخدعنكم الشيطان بغروره فيزين لكم كشف عوراتكم، فقد علمتم ما فعل بأبويكم آدم وحواء حتى تسبب في إخراجهما من الجنة وكَشْفِ الستر الذي كان يستر سوآتهما، واحذروا من إبليس وذريته أشد الحذر لأنهم يرونكم ويجرون منكم مجرى الدم وأنتم لا ترونهم، فمن انقاد لوسوستهم ضل عن سواء السبيل كما قال عز وجل: ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو، بئس للظالمين بدلا﴾. وقد قضى الله عز وجل أن يكون الجن أجساما لطيفة نارية كما قضى أن تكون الملائكة أجساما لطيفة نورانية، وقد تتشكل الجن في صُوَر يراها بعض الناس أحيانا، كما في قصة أسير أبي هريرة الذي كان يأخذ من تمر الصدقة الذي كان يحرسه أبوهريرة عندما وكّله رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان كما رواه البخاري. وقوله عز وجل: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله

أمرنا بها﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾ تنديدٌ بالمشركين على سوء سلوكهم وقبح معتقداتهم ، وافترائهم على الله وإرشاد إلى السلوك الذي يرتضيه الله عز وجل ، فقد كانوا يطوفون بالبيت عراة ويزعمون أن الله أمرهم بذلك ، وأن هذا هو منهج آبائهم فردَّ الله تبارك وتعالى عليهم بأن فعلهم هذا هو فاحشة ـ وهي ما يشتد قبحه من المعاصي ـ والله لا يأمر بالفحشاء ، أتُسْنِدُون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته ، إنما يأمر الله عز وجل بالاستقامة في عبادته في مَحَالِّها ولا يتأتى لكم ذلك إلا باتباع المرسلين وإخلاص الدين لله فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه صوابا على منهج رسوله ﷺ ، وسيجزي الله كل عامل بما عمل حيث يحشركم يوم القيامة حفاة عراة غُرْلا ، فريقا قد علم الله فيهم الخير فهداهم ووفقهم وفريقا علم الله فيهم الشر فخذلهم وحقت عليهم الضلالة ، فانقادوا للشياطين وتركوا شريعة الله ويحسبون أنهم مهتدون . وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق هشام بن عروة ، قال عروةُ : كان الناس يطوفون في الجاهلية عراةً إلا الحُمْس والحُمْسُ قريش وما ولدت . الحديث . وفي قوله عز وجل : ﴿كما بدأكم تعودون﴾ شبيه بقوله عز وجل : ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : إنكم محشورون حفاة عراة غُرْلاً ، ثم قرأ : ﴿كما بدأنا أول خلق نُعِيدُهُ ، وعدًا علينا ، إنا كنا فاعلين﴾ .

قال تعالى: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين * قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون * ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾.

بعد أن نبَّه عز وجل على أن إبليس لعنه الله حريص أشدَّ الحرص على انكشاف عورات الرجال والنساء ونَدَّدَ بمن انقاد للشيطان في ذلك من أهل الجاهلية حتى جعلوا ذلك التعرى عند الطواف بالبيت الحرام دينًا ومعتقدًا وبيَّن عز وجل أنه لم يترك الناس سُدًى بل تفضل عليهم وأنزل لهم كل ما يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم ليسلكوا الصراط المستقيم، شرع هنا في تأكيد وجوب ستر العورة مطلقا وبخاصة عند الصلاة فإنها لا تصح إلا مع ستر العورة، مع التنديد بمن كانوا يحرمون الطيبات من الرزق فلا يتناولون في الحج طعامًا دسمًا، ونبه عز وجل إلى أنه تبارك وتعالى إنما خلق الطيبات من الرزق من أجل الذين آمنوا خاصة، وإنما ينتفع بها المشركون وسائر الكفرة في الدنيا على سبيل المشاركة والتبعية للذين آمنوا وأنها خالصةٌ للمؤمنين يوم القيامة لا يشاركهم فيها أحد من الكافرين، وأنه عز وجل إنما حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق والشركَ بالله والافتراء على الله، وفي ذلك يقول: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿ولكل أمة أجَلٌ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون﴾ وقد روى مسلم في

صحيحه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت المرأة تَطُوفُ بالبيت وهي عريانة فتقول: مَن يُعِيرني تطوافًا، تجعله على فرجها، وتقول

اليومَ يبدُو بعضُه أو كُلُّه   فما بَدَا منه فلا أُحِلُّهُ

فنزلت هذه الآية: ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ والمقصود من الزينة هنا المأمور بأخذها عند كل مسجد هي لبس ما يستر العورة للرجل وللمرأة، والتعبير بالزينة عن اللباس الساتر للعورة عند كل مسجد للإشارة إلى أنه ينبغي للمسلم أن يلبس ما يتجمل به عند الصلاة والاجتماع بالناس، كما حض رسول الله ﷺ على لبس الثياب النظيفة. قال ابن ماجه: باب ما جاء في الزينة يوم الجمعة: حدثنا حرملة بن يحيى ثنا عبدالله بن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن يزيد بن أبي حبيب عن موسى بن سعيد عن محمد بن يحيى بن حَبَّانَ عن عبدالله بن سَلَام أنه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر في يوم الجمعة: ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبِ مِهْنَتِهِ. قال في الزوائد: إسناده صحيح ورجالة ثقات اهـ. وقال أبوداود في سننه: حدثنا النُّفَيْلِيُّ ثنا مسكين عن الأوزاعي ح وثنا عثمانُ بن أبي شيبة عن وكيع عن الأوزاعي نحوَه عن حسان بن عطية عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: أتانا رسول الله ﷺ فرأى رجلا شعِثًا قد تفرق شعره فقال: أَما كان يجد هذا ما يُسَكِّنُ به شعره؟ ورأى رجلا آخر عليه ثيابٌ وَسِخَةٌ فقال؛ أَمَا كان هذا يجد ماءً يغسل به ثوبه؟ حدثنا النُّفَيْلِيُّ ثنا زُهَيْر ثنا أبو إسحاق عن أبي الأحوص عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ في ثوب دُونٍ: فقال: أَلَكَ مالٌ؟ قال: نعم، قال: من أيِّ المال؟ قال: قد أتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق، قال: فإذَا آتاك الله مالا فَلْيُرَ أَثَرُ نعمةِ الله عليك وكرامَتِهِ اهـ. وأخرج مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن

مسعود عن النبي ﷺ قال: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذَرَّةٍ من كِبْر، قال رجلٌ: إن الرجل يُحِبُّ أن يكون ثوبُه حَسَنًا ونعله حَسَنَةً؟ قال: إن الله جميل يحب الجَمَالَ، الكِبْر بَطَـرُ الحق وغَمْطُ الناس. قال الشيخ أحمد مصطفى المراغي في تفسيره: وهذا الأمر بالزينة عند كل مسجد أصلٌ من الأصول الدينية والمدنية عند المسلمين، وكان سببا في تعليم القبائل المتوحشة القاطنة في الكهوف والغابات أفرادًا وجماعاتٍ لُبْسَ الثياب عند دخولها في حظيرة الإسلام، وكانوا قبل ذلك يعيشون عراةَ الأجسام رجالا ونساء، حتى ذكر بعضُ المُنْصِفِينَ من الإفرنج أنَّ لانتشار الإسلام في أفريقية مِنَّةً على أوروبا بِنَشْرِهِ للمدنية بين أهلها، إذ ألزمهم بترك العُرْي، وأوجب لُبسَ الثياب، فكان ذلك سببا في رواج تجارة المنسوجات، وبهذا نقل الإسلام أمما وشعوبا كثيرة من الوحشية إلى الحضارة الراقية اهـ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ولا تُسْرِفوا، إِنَّـهُ لا يحب المسرفين﴾ أي وتَنَاوَلُوا ما يتيسر لكم من الأطعمة الطيبة والأشربة المباحة التي لا غنى لكم عنها في الحياة الدنيا لتقيم أصلابكم ولتتلذذوا بها من الضروريات والكماليات، والْزَمُوا حَدَّ الاعتدال لأن تجاوز حد الاعتدال إسراف يبغضه الله ويبغض مُقْتَرِفِيهِ، فمن أكل من الطيبات إذا أَحَسَّ بالجوع، وكفَّ عن الأكل إذا شعر بالشبع وإن كان يستلذ الزيادة لم يكن مسرفا في أكله، ومن شرب من الطيبات إذا أَحَسَّ بالعطش واكتفى بما يزيل عطشه لم يكن مسرفا في شربه، والمُعَوَّلُ عليه في الإنفاق عُـرْفُ المعتدلين على قَدْرِ يُسْرِهم وعُسْرهم، فمن تجاوز طاقته مباراة لمن هم أغنى منه كان مسرفا، يُعَرِّضُ نفسه لسخط الله، وتؤول حالُه إلى اللَّوم والحسرة كما قال عز وجل: ﴿ولا تجعل يَـدَكَ مغلولة إلى عنقك ولا تَبْسُطْهَا كلَّ البَسْطِ فتقعد مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿قل من حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الـرِّزْقِ﴾ تنديد وتوبيخ واستنكار وتقريع

لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يَتَعَرَّوْن عند طوافهم بالبيت الحرام ويحرمون على أنفسهم الطيبات من الرزق وتحذير لمن يحرم شيئا برأيه الفاسد، ولا يكتفي بجريمته في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرَّم الله بل يضيف إلى ذلك جريمة كبرى أخرى وهي أن يَدَّعِيَ أن الله هو الذي حرَّم ذلك الذي زعم تحريمه. قال ابن جرير رحمه الله: قال أبوجعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يَتَعَرَّوْنَ عند طوافهم بالبيت ويحرمون على أنفسهم ما أحللت لهم من طيبات الرزق: مَنْ حَرَّمَ - أيها القومُ - عليكم زينة الله التي خلقها لعباده أن تتزينوا بها وتتجملوا بلباسها، والحلال من رزق الله الذي رَزَق خلقه لمطاعمهم ومشاربهم اهـ.
وظاهر اللفظ الكريم يدل على أن جميع أنواع الزينة مباح إلا ما خصه الدليل ويدخل تحت هذا العموم نظافة الملبس والبدن وجمال المركب والمسكن كما يدخل تحت الطيبات من الرزق كل ما يُستلذ ويُشتهى من أنواع المأكولات والمشروبات ما دام في حدود الاعتدال وتجنب الإسراف والتبذير وكذلك الطِّيبُ والنساءُ التي أباح الله عز وجل، وقد حض رسول الله ﷺ المسلمين أن يكونوا كالشَّامَة في الناس، قال أبوداود: حدثنا هارون بن عبد الله ثنا أبو عامر يعنى عبد الملك بن عمرو ثنا هشام بن سعد عن قيس بن بشر التغلبي قال: أخبرني أبي وكان جليسا لأبي الدرداء، وساق قصة ابن الحنظلية رضي الله عنه وفيها: ثم مَرَّ بنا يوما آخر فقال له أبو الدرداء: كلمة تنفعنا ولا تضرك، فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: إنكم قادمون على إخوانكم فأصلحوا رحالكم، وأصلحوا لباسكم، حتى تكونوا كأنكم شامَة في الناس، فإن الله لا يحب الفُحشَ ولا التفحش. قال أبو داود: وكذلك قال أبو نعيم عن هشام قال: حتى تكونوا كالشامَة في الناس، وقد امتن الله تبارك وتعالى بما خلق من الزينة حيث يقول: ﴿والأنعامَ خلقها لكم فيها

دِفْءٌ ومنافعُ ومنها تأكلون * ولكم فيها جَمَالٌ حين تريحون وحين تَسْرَحُونَ * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بِشِقِّ الأنفس، إن ربكم لرءوف رحيم * والخيلَ والبِغال والحمير لتركبوها وزينةً، ويَخْلُقُ ما لا تعلمون﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يومَ القيامة﴾ تنبيه إلى أن الله تبارك وتعالى إنما أوجد هذه الزينة والطيبات من الرزق من أجل عباده المؤمنين، وإنما ينتفع بها الكفار على سبيل المشاركة والتبعية للمؤمنين مدة الحياة الدنيا، أما في الآخرة فهي خاصة بالمؤمنين خالصةٌ لهم لا يشاركهم فيها أحد من الكافرين، ولا ينبغي لعاقل أن يغتر بما قد يشاهد من توسعة في الرزق على بعض الكافرين وضيق في الرزق على بعض المؤمنين فإن الكافر يتمتع قليلا ثم يصير إلى النار والمؤمن يصبر قليلا إذا ضيق عليه في الرزق ثم يصير إلى الجنة كما قال عز وجل: ﴿ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ ولذلك وصف رسول الله ﷺ الدنيا بأنها سجن المؤمن وجنة الكافر فقد روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، ولما حرَّم رسول الله ﷺ الذهب والحرير على الرجال قال: هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة. كما جاء في البخاري ومسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه فإن المقصود أن الكفار يتمتعون بها متاعا قليلا ثم يصيرون إلى النار أما المؤمنون فإنهم يتمتعون بالطيبات التي أبيحت لهم في الدنيا ثم يتمتعون بالزينة والطيبات من الرزق التي لا تخطر على البال ولا تدور في الخيال مما لا عين رأت ولا أذن سمعت في جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأُتُوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون. وقولُه عز وجل: ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ قال الطبري رحمه الله: قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: كما بينت

لكم الـواجب عليكم في اللبـاس والـزينـة والحلال من المطـاعم والمشـارب والحرام منهـا وميــزت بين ذلك لكم أيها النـاس، كـذلك أبين جميعَ أدلتي وحججي، وأعـلام حلالي وحـرامي وأحكامي لقـوم يعلمون مـا يُبَيَّنُ لهم، ويفقهون ما يُمَيَّزُ لهم اهـ. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿قل إنما حَرَّمَ رَبِّيَ الفواحشَ ما ظهر منهـا وما بطن والإثم والبَغْيَ بغير الحق وأن تشركوا بالله مـا لم يُنَزِّلْ به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ ردع وزجر للذين يفعلون المعاصي كطوافهم بـالبيت عراة ويحرمون مـا أحل الله كامتنـاعهم عن أكل الدسم في الحج وتحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، ويشركون بالله ما لم ينزل به سلطانـا ويفترون على الله الكذب وينسبون جرائمهم وقبـائح أفعالهم إلى الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا، وقد تقدم تفسير الفـواحش ما ظهر منها وما بطن في سورة الأنعام في قولـه عز وجل: ﴿ولا تقربوا الفواحش مـا ظهر منها وما بطن﴾ في الآية الواحدة والخمسين بعـد المائة. والمراد بالإثم عموم المعاصي، فَعَطْفُهُ على الفـواحش من باب عطف العام على الخاص لتأكيد الـزجر عن الفـواحش ما ظهـر منها ومـا بطن، وعطف الثلاثـة التي تليه عليـه وهي: ﴿والْبَغْيَ بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمـون﴾ من بـاب عطف الخاص على العـام لمزيـة تأكيـد الـزجـر عن الخاص لِوُلُوغِهِمْ فيه مع شدة ضرره وكبير خطـره، وقولُه عز وجل: ﴿ولكل أمـة أجلٌ فإذا جـاء أَجَلُهُمْ لا يستأخـرون سـاعةً ولا يستقـدمـون﴾ تهديـدٌ للمشركين المكـذبين المفترين على الله المرتكبين للفـواحش ووعيــدٌ لهم على افترائهم على الله وإصرارِهم على الشرك والاستمـرار على الكفر، وإنـذارٌ لهم بأن ينزل بهم ما نزل بأمثـالهم من الأمم التي كذَّبت رسلَها قبلهم، أي ولكل جماعة اجتمعت على تكـذيب رسولها أجلٌ ووقتٌ لحلول العقوبـة بهم ونزولِ العذاب بساحتهم فـإذا جاء الوقت الذي وقَّته اللهُ لهلاكهـم لا يتأخرون عنه

لحظة ولا يتقـدمون لحظـة، ولا يُرَدُّ بأسُهُ عن القـوم المجرمين، وكما قـال عز وجل: ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذيـن خَلَوْا من قبلهم، قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين * ثم نُنَجِّي رسلَنَا والذين آمنـوا، كذلك حقا علينا نُنج المؤمنين﴾.

قال تعالى: ﴿يا بني آدم إما يأْتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كذَّبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولَئك أصحاب النار هم فيها خالدون * فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته أولَئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين * قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعًا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هٰؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكلٍ ضعف ولَكن لا تعلمون * وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ .

بعد أن قصَّ عز وجل قصة امتناع إبليس عن السجود لآدم وما وسوس به له ولزوجه حتى أخرجهما من الجنة وكان سببًا في أن يبدي لهما ما وُوري عنهما من عوراتهما مما يؤكد عداوة إبليس لآدم وذريته ووجه النداء لبني آدم يبين لهم منته عز وجل عليهم بما أنزل عليهم من لباس يستر عوراتهم، ثم ناداهم مرة ثانية لتحذيرهم من الشيطان ثم ناداهم مرة ثالثة وأمَرَهُم بأن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد وأن يسلكوا المنهج المعتدل والصراط المستقيم وبين أن لكل أمة أجلاً مُعَينًا لا يتقدم ولا يتأخر، ناداهم هنا للمرة الرابعة فبين لهم ما يحصل للمطيعين وللعاصين وذكَرَ بعضَ المشاهد التي تنال المفترين على الله أو المكذبين بآياته عند الموت وبعده في عرصات القيامة حيث يقول عز وجل: ﴿يا بني آدم إما يأْتينَّكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولَئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿فذوقوا

العذاب بما كنتم تكسبون﴾ وقولُهُ عز وجل: ﴿يا بني آدم إمَّا يأتينَّكم رسل منكم يَقُصُّون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون * والذين كذَّبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولَٰئك أصحابُ النار هم فيها خالدون﴾ بيانٌ لما عهد به عز وجل إلى جميع المكلفين من ذرية آدم منذ وجدوا على الأرض حيث عرَّفَهم بما أعده لأهل طاعته المتبعين لأنبيائه ورسله وما أعده لأعدائه المكذبين برسله المنقادين للشيطان والهوى المستكبرين في الأرض بغير الحق، أي يا ذريةَ آدم إن يأتكم رسولٌ من رسلي الذين أختارهم وأبعثهم إليكم بآياتي، وهم من أنفسكم وعشائركم وقبائلكم تعرفون صدقهم وسيرتهم قبل إرسالهم إليكم، يتلون عليكم آيات ربكم ويعرفونكم أسباب سعادتكم وطريق نجاتكم ويحذرونكم من الشيطان عدو أبيكم آدم وعدوكم ويقيمون لكم الأدلة والحجج على أن الله عز وجل أرسلهم إليكم وأيدهم بالمعجزات والبراهين، فمن آمن منكم بما جاءه به رسول الله وخشي اللهَ واتقاه ودخل في زمرة المصلحين فإن الله عز وجل يحييه حياةً طيبة ويبعثه يوم القيامة آمنًا ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكةُ هٰذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ وأما الذين كذبوا بآيات الله ولم يصدقوا المرسلين وتكبروا فى أنفسهم عن الانقياد لرسل الله، وكانوا إذا قيل لهم: لا إله إلا الله يستكبرون فجزاؤهم عند الله عز وجل أن يُخَلِّدَهم في نار جهنم، يحيط بهم سُرَادِقها، وإن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمُهْلِ يَشْوِي الوجوه بئس الشراب وساءت مُرْتَفَقًا.
ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذَّب بآياته أولَٰئك ينالهم نَصِيبُهُم من الكتاب﴾ أي فلا أحدَ أعظم ظلما وأشد جُرْما وأكبر إثما ممن اختلق على الله زُورًا من القول كالذين إذا فعلوا فاحشة قالوا: الله أمرنا بها، ولا أَحَدَ أعظمُ ظلما وأشدُّ جُرْما وأكبر إثما ممن ردَّ دعوة المرسلين وكذَّب بالآيات التي يبعث الله بها رسله الدالة على وحدانية الله

ونبوة أنبيـائه، هؤلاء المفترون على الله الكذب والمكـذبون بـآيات الله يصيبهم حظهم وما قضـاه الله عز وجل في كتابـه على المفترين على الله والمعرضين عن ذكره مـن ضنك المعيشة في الحياة الـدنيا ومـا يبتليهم به من المتـاع القليل ثم يضطرهم إلى العذاب الغليظ والخزي الأبدي السرمدي، كما قال عز وجل في كتابـه الكريم: ﴿ومن أعرض عن ذكـري فإن له معيشةً ضنكـا ونحشره يوم القيـامة أعمى * قـال ربِّ لِمَ حشرتني أعمى وقـد كنتُ بصيرا * قال كـذلك أتتك آياتنـا فَنَسِيتَهَـا وكذلك اليـوم تُنسَى * وكـذلك نجـزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه، ولعذاب الآخرة أَشَدُّ وأبقى﴾ وكما قال عز وجل: ﴿قل إن الذين يفترون على الله الكـذب لا يفلحون * متاعٌ فى الدنيا ثم إلينـا مرجعهم ثم نذيقُهم العـذابَ الشديد بما كـانوا يكفرون﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿ومن كفر فـلا يحزُنْكَ كُفْرُهُ، إلينـا مرجعهم فننبئهم بما عملـوا، إن الله عليم بذات الصدور * نمتعهم قليلا ثم نَضْطَرُّهُم إلى عذاب غليظ﴾ فما يصيب المفترين على الله والمكذبين بـآياته من متاع الحيـاة الدنيا هو متـاع قليل قضاه الحكيم الخبير وكتبـه في اللوح المحفـوظ ولن يصيبهم إلا مـا كتبه الله وقـدره عليهم، قـال ابن جـريـر رحمه الله في معنى ﴿أولَئك ينـالهم نصيبهم من الكتـاب﴾: معنى ذلك: أولَئك ينالهم نصيبهم من الكتاب مما كُتِبَ لهم من خير وشر في الدنيـا ورزق وعمل وأجل، وذلك أن الله جل ثناؤه أَتْبَعَ ذلك قـولَهُ: ﴿حتى إذا جـاءتهم رسلنا يتـوفونهم قـالوا أيـن ما كنتم تـدعون من دون الله﴾ فأبـان بإتباعه ذلك قوله: ﴿أولَئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ أنَّ الذي ينالهم من ذلك إنما هو ما كـان مَقْضِيًّا عليهم في الدنيا أن ينـالهم لأنه قد أخبر أنَّ ذلك ينـالهم إلى وقت مجيئهم رسله لتقبض أرواحهـم، ولو كـان ذلك نصيبهم من الكتاب أو ممـا قد أعد لهم في الآخرة لم يكن محدودا بأنـه ينالهم إلى مجيء رسل الله لوفاتهم، لأن رسل الله لا تجيئهم للوفـاة في الآخرة، وأن عذابهم في الآخرة

لا آخِرَ له ولا انقضاء، فإن الله قد قضى عليهم بالخلــود فيه اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلـوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾. قال ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنـا يتوفونهم﴾ الآية، يخبر تعالى أن الملائكة إذا تـوفت المشركين تفزعهم عنـد الموت وقبض أرواحهم إلى النار، يقولون لهم: أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله؟ ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه، قـالوا: ﴿ضَلُّوا عنا﴾ أي ذهبوا عنا فـلا نرجو نفعهم ولا خيرهم ﴿وشهدوا على أنفسهم﴾ أي أَقَرُّوا واعترفوا على أنفسهم ﴿أنهم كانوا كافرين﴾ اهــ. وقال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفـونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قـالـوا ضلوا عنـا وشهـدوا على أنفسهم أنهم كـانـوا كافـرين﴾ قـال أبوجعفر: يعني جل ثناؤه بقـوله: ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا﴾ إلى أن جاءتهم رسلُنا، يقول جل ثناؤه: وهؤلاء الذين افتروا على الله الكذب أو كذبوا بآيات ربهم ينالهم حظوظهم التى كتب الله لهم، وسبق في علمه لهم من رزق وعمل وأجل وخير وشر في الدنيا إلى أن تأتيهم رسلُنا لقبض أرواحهم، فإذا جاءتهم رسلنا يعني مَلَك الموت وجنده ﴿يتـوفونهم﴾ يقول: يستـوفون عـددهم من الـدنيا إلى الآخـرة ﴿قالـوا أين مـا كنتم تدعـون من دون الله﴾ يقول: قـالت الرسل: أين الذين كنتم تدعـونهم أولياء من دون الله وتعبدونهم، لا يدفعون عنكم ما قـد جاءكم من أمر الله الـذي هو خـالقكم وخالقهم، وما قـد نزل بساحتكم من عظيم البلاء؟ وهَلاَّ يغيثونكم من كَرْبِ ما أنتم فيه فينقذونكم منه؟ فأجـابهم الأشقياءُ فقالوا: ضلَّ عنا أوليـاؤنا الذين كنا نـدعو من دون الله، يعني بقوله: ﴿ضلُّوا﴾ جَارُوا وأخذوا غير طريقنا، وتركونا عند حاجتنا إليهم فلم ينفعونا، يقول الله جل ثناؤه: وشهد القوم حينئذ على أنفسهم أنهم

كانوا كافرين بالله، جاحدين وحدانيته اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿قال ادخلوا في أمم قد خَلَتْ من قبلكم من الجن والإنس في النار﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ ترهيب من موقف الحسرة والندامة في الدار الآخرة، وإبرازٌ لمشهد من مشاهد القيامة يتبارى فيه كل فوج من أهل الضلال في لعن الذين أضلوهم وكانوا سببا في قذفهم في جهنم حتى إذا اجتمعوا جميعا في النار صاروا يلعن بعضهم بعضا، وصار الأتباع يدعون الله أن يجعل عذاب قادتهم في الضلالة ضعف العذاب الذي يلاقونه، وقد ذكر الله تبارك وتعالى هذا المشهد في أكثر من موضع في كتابه الكريم حيث قال عز وجل: ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضُكم بعضا﴾ وقال عز وجل: ﴿يوم تُقَلَّبُ وجوهُهُم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا * وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا * ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا﴾ وكما قال تبارك وتعالى: ﴿هذا فوج مقتحم معكم لا مَرْحَبًا بهم، إنهم صَالوا النار * قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرارُ * قالوا ربنا مَن قدَّمَ لنا هذا فَزِدْهُ عذابا ضعفًا في النار﴾. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قوله عز وجل: ﴿ومن أوزار الذين يضلونهم﴾ هي الأوزارُ الحاصلةُ لِضَلَال الأتباع وهي حاصلة من جهة الآمر ومن جهة المأمور الممتثل، فالقدرتان مُشْتَرِكَتَانِ في حصول ذلك الضلال، فلهذا كان على هذا بعضه وعلى هذا بعضُهُ، إلا أن كل بَعْضٍ من هذين البَعْضَيْن هو مثل وزر عامل كامل، كما دلت عليه النصوص مثل قوله: مَنْ دعا إلى الضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة. ومن هذا الباب قولُه تعالى: ﴿قال ادخلوا في أمم قد خَلَتْ من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمةٌ لعنت أختها حتى إذا ادَّارَكُوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا

من النار قال لكل ضِعْف ولَكِن لا تعلمون﴾ فأخبر سبحانه أن الأَتْبَاعَ دَعَوْا على أئمة الضلال بتضعيف العذاب كما أخبر عنهم بـذلك في قوله: ﴿وقالوا ربنـا إنا أطَعْنَـا سـادتنا وكبراءنـا فأضلـونـا السبيلا * ربنـا آتهم ضعفين من العـذاب والعنهم لَعْنًـا كبيرا﴾ وأخبر سبحانـه أن لكل من المتَّبَعِينَ والأتبـاع تضعيفـا من العـذاب ولكن لا يعلم الأتبـاع التضعيف اهـ. ومعنى: ﴿ادخلوا في أمم قـد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النـار﴾ أي اذهبوا إلى جهنم في جماعـات وأفـواج هم أشبـاهكم ممن سبقـوكم في الضـلال والإضـلال من الجن والإنس. ومعنى: ﴿اداركوا فيهـا جميعا﴾ أي اجتمعـوا جميعا في النار. والمراد بأخراهم الذيـن انقادوا لدعاة الضلال. والمراد بأُولَاهم دعاة الضلال، ومعنى: ﴿عـذابا ضِعفا﴾ أي عذابا مضاعَفًـا قال الزجاج: لأن الضعف في كلام العـرب على ضربين: أحدهما المِثْل والآخـر أن يكون في معنى تضعيف الشيء اهـ. ومعنى قـوله: ﴿وقالت أولاهم لأخـراهم﴾ الآية أي وقال القـادة ودعاة الضلال لأتبـاعهم: نحن وأنتم في الكفر سـواءٌ فقد كفـرتم كما كفرنـا وانقدتم لنـا كما انقدنـا نحن للشياطين الـذين أضلونـا فما يصيبكم من عـذاب جهنم هو من كسبكم وجـزاء ضلالكم فـلا فضل لكم علينا، وهكذا تبرأ الذين اتُّبِعُـوا من الذين اتَّبَعُوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب، ولم يَفُز سوى أتباع المرسلين.

قال تعالى : ﴿ إن الـذين كذبوا بآياتنـا واستكبروا عنها لا تفتَّح لهم أبواب السماء ولا يدخلـون الجنة حتى يلج الجمـل فى سمِّ الخياط ، وكذلـك نجزي المجرمين * لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غـواشٍ ، وكذلك نجزي الظالمين * والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولَئك أصحاب الجنـة هم فيها خـالدون * ونـزعنـا ما فى صـدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا ومـا كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ .

بعـد أن ذكـر عز وجل أن المؤمنين لا خـوف عليهم ولا هم يحزنـون ، وأن الذين كذبـوا بآياته واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هـم فيها خالدون ، وشرح تبارك وتعـالى بعض ما ينـال المفترين على الله أو المكذبين بـآياتـه عند الموت وبعده فى عرصات القيـامة ، أكَّد هنا أن الذين كذبـوا بآياته واستكبروا عنهـا قد حـرَموا أنفسهم من مغفـرة الله ورحمته وجُـوده فلا تفتَّح لهم أبـواب السماء عنـد موتهم ولا يـدخلون الجنـة عند بعثهم وأن جـزاءهم عند الله عـز وجل أن يكـون لهم من جهنم مهـاد ومن فـوقهم غـواش ، وأن الـذين آمنـوا وعملوا الصالحات يعاملهم الله عز وجل بإحسانه وجوده ويدخلهم في رحمته ويسكنهم فسيح جنته ، قد نزع مـا في صدورهم من غل ، فهم في دار السلام متحابـون ، حامـدون شاكـرون ، حيث يقول عـز وجل : ﴿إن الذين كـذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفَتَّح لهم أبـواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يَلِجَ الجمَلُ في سَمِّ الخياط﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ونودوا أن تلكم الجنةُ أورثتموها بما كنتم تعملـــون﴾ ومعنى ﴿لاَ تُفَتَّـحُ لهم أبـــواب السماء﴾ أي لا تفتح لأرواحهم أبـواب السماء عنـد الموت . قـــال ابن جـريـر الطبري رحمه الله في تفسيره : حدثنـا أبوكُرَيْبٍ قال : حـدثنا أبوبكـر بن عياش عن الأعمش عن

المنهـال عن زاذان عن البراء أن رسول الله ﷺ ذكـر قبضَ رُوح الفـاجر، وأنـه يُصْعَدُ بها إلى السماء، قال: فيصعدون بها فلا يمرون على ملإ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقـولون: فلان، بأقبح أسمائه التي كان يُدْعَى بها في الدنيـا، حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون له، فـلا يُفْتَحُ له، ثم قرأ رسـول الله ﷺ: ﴿لا تُفَتَّحُ لهم أبواب السماء ولا يدخلـون الجنة حتى يلج الجمل فى سَمِّ الخِيَـاط﴾ اهـ والمراد بـالجمل البعير، وسَمُّ الخيـاط هـو ثقب الإبـرة، والخِياط والمِخْيَطُ بمعنى واحـد وهو الإبـرة، والمقصود من قـوله عـز وجل: ﴿ولا يدخلـون الجنة حتى يلج الجَمَلُ في سَمِّ الخِياط﴾ هو استحـالة دخـول الكفار الجنـة لأنـه علَّق دخـولهم الجنة على أمـر مستحيل ومـا عُلِّق وجـودُه على المستحيل فهـو مستحيل، لأن دخــول الجمل فى خـرق الإبـرة مستحيل، وقد قال عـز وجل: ﴿إنه من يشرك بالله فقد حَـرَّم الله عليه الجنة ومأواهُ النارُ﴾ قال ابن جـرير رحمه الله في قوله عز وجل: ﴿ولا يـدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط﴾ يقـول جل ثناؤه: ولا يدخل هـؤلاء الذين كذَّبوا بـآياتنا واستكبروا عنها الجنة التي أعدهـا الله لأوليائه المؤمنين أبدا، كما لا يلج الجمل في سَمِّ الخِياط أبـدا، وذلك ثَقْبُ الإبرة، وكلُّ ثَقب في عين أو أنف أو غير ذلك فإن العرب تسميـه سَماًّ، وتجمعه سُمُـوما، والسِّمامُ في جمع السَّم القاتل أشهر وأفصح من السمـوم، وهو في جمع السَّم الذي هو بمعنى الثقب أفصح، وكلاهما في العرب مستفيض. وقد يقـال لواحد السُّموم التي هي الثقـوب سَمٌّ وسُمٌّ بفتح السين وضمها، ومن السَّم الـذي بمعنى الثقب قولُ الفرزدق:

فَنَفَّسْتُ عَن سَمَّيْــهِ حَتَّى تَنَفَّسَــا وقلتُ لــه: لاَ تَخْشَ شَيئـا وَرَائِيَــا

يَعْنِى بِسَمَّيْهِ، ثقْبَـىْ أَنْفِهِ. وأما الخِيـاط فإنه المِخْيَطُ وهي الإبـرة قيل لها: خِيَاط ومِخْيَط كما قيل: قِنَاعٌ وَمِقْنَع وإزار ومئزر وقِرَام ومِقْرَم ولِحَاف ومِلْحَف

اهـ وقولـه عز وجل: ﴿وكـذٰلك نجـزي المجرمين﴾ تـذييل لتأكيد أن هـذا العذاب ليس خـاصا بمن كـانت جريمته التكـذيبَ بآيـات الله والاستكبار عنها بـل يشمل كلَّ الذين ارتكبـوا جريمـة الكفر بـالله وبرسله ويـدخل في زمرتهم المكذبون المستكبرون دخـولا أوّليًّا فإنهم أئمة المجرمين المرتكبين لأقبح الجرائم وأبشعها، كما ذيل الآيـة التاليـة بقولـه: ﴿وكذٰلك نجـزي الظالمين﴾ ليجمع لهم بين هـذين الـوصفين القبيحين، قال أبـوالسعـود العمادي: عبَّر عنهم بالمجرمين تارة وبالظالمين أخـرى إشعارا بأنهم بتكذيبهم الآيات اتصفوا بكل واحد من ذَيْنِكَ الوصفين القبيحين، وذكـر الجرم مع الحرمان من دخول الجنة والظلم مع التعـذيب بالنـار للتنبيه على أنـه أعظم الجرائم والجرائر اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿لهم من جهنـم مهاد ومن فوقهم غواشٍ﴾ أي لهؤلاء المكذبين بـآيات الله المستكبرين عنها المجـرمين الظالمين فُـرُشٌ من نار جهنم ولُحُفٌ منها فَهُم قد أحاطت بهم النار من تحتهم ومن فوقهم وغطتهم من كل نـواحيهم وجهاتهم نعـوذ بـالله أن نكون مـن أهلها، وقـولُـه تبارك وتعـالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولٰئك أصحاب الجنة هم فيها خـالدون﴾ بيان لما أَعَدَّ الله عـز وجل لأوليائه من النعيم المقيم بعـد بيان مـا توعـد به أعـداءه من عذاب الجحيم، وقـولُه عـز وجل: ﴿لا نكلف نفسا إلا وسعها﴾ جملة اعتراضية بين المبتدأ وهو قوله: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وبين الخبر وهو قوله: ﴿أولٰئك أصحاب الجنة هم فيها خـالـدون﴾ ومن بـلاغـة هذه الجملـة الاعتراضيـة لفت الانتبـاه إلى مِنَّـة الله العظيمة على المؤمنين الـذين عملوا الصـالحات بأن هـذه الأعمال الصـالحة لم يكن في التكليف بها حَـرَجٌ عليهم بل هي في وُسْعِهِم ولم تخرج عـن قـدرتهم وطاقتهم كما قال عز وجل في خواتيم المسك من سورة البقرة: ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نفسـا إلا وُسْعَهَا﴾ وكما قـال في سورة الطـلاق: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا مـا

آتاها﴾ وكما قال عز وجل في سورة الحج: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حَرَج﴾ كما أنَّ من فوائد هذه الجملة الاعتراضية أيضا تنبيه الكافرين بأن الجنة مع عظم قدرها يتوصل إليها بالعمل السهل اليسير الذي لا حرج فيه لعلهم يذكرون ويتوبون، قال ابن جرير الطبريُّ رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولَئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ قال أبوجعفر: يقول جل ثناؤه: والذين صدَّقوا الله ورسولَه وأقروا بما جاءهم به من وحي الله وتنزيله وشرائع دينه، وعملوا ما أمرهم الله به فأطاعوه وتَجَنَّبُوا ما نهاهم عنه ﴿لا نكلف نفسا إلا وسعها﴾ يقول: لا نكلف نفسا من الأعمال إلا ما يسعها فلا تُحْرَجُ فيه ﴿أولَئك﴾ يقول: هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿أصحاب الجنة﴾ يقول: هم أهل الجنة الذين هم أهلها دون غيرهم ممن كفر بالله وعمل بسيئاتهم ﴿هم فيها خالدون﴾ يقول: هم في الجنة ماكثون، دائمٌ فيها مُكْثُهم، لا يخرجون منها، ولا يُسْلَبُونَ نعيمها اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهٰذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونُودُوا أَن تِلْكُمُ الجنةُ أورِثْتُمُوها بما كنتم تعملون﴾ بيان لكمال نعيم أهل الجنة بعد بيان كمال شقاء أهل النار، وقد وصف الله تبارك وتعالى حال هؤلاء السعداء في هذه الآية بما يؤكد كمال سعادتهم حيث نُقِّيَتْ صدورُهُم من الغل والحقد والحسد والبغضاء فلا يحسد أحد منهم أحدا على علو منزلته ورفيع درجته، وهم جميعا تجري من تحتهم أنهار الجنة. وقد وصف الله عز وجل هذه الأنهار بأنها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مُصَفًّى، كما أنهم جميعا راضون شاكرون يلهجون بالثناء على الله عز وجل مقرون بأن ما عملوه من الصالحات

كان من توفيق الله لهم، ولولا توفيقُ الله لهم وجُودُه عليهم ما هُدُوا إلى الصراط المستقيم الذي سلكوه حتى أوصلهم إلى الجنة، وقالوا: لقد تحقق لنا عِيَانًا ما كُنَّا قد آمَنَّا به غيبا مما أخبرنا به رسلُ ربنا في الدنيا بأن المكذبين برسل الله يعذبون في جهنم، وأن المؤمنين ينعمون في الجنة، ومن كمال سعادتهم أن يُنَادَوْا بأن ما هم فيه من النعيم المقيم هو لهم ميراث أبدي سرمدي لا يُنْـزَعُ منهم بحال من الأحوال، لأنهم آمنوا برب العالمين وصدَّقُوا المرسلين. وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ما تضمنته هذه الآية في مواضع من كتابه الكريم حيث قال: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ أي ادخلوا الجنة بعملكم الصالحات وكما قال عز وجل: ﴿وقالوا الحمد لله الذي صَدَقَنَا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنِعم أجرُ العاملين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وتلك الجنةُ التي أُورِثتُمُوها بما كنتم تعملون﴾ وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن المؤمنين يُنْزَعُ ما في صدورهم من غل وهم على قنطرة بين الجنة والنار، فقد قال البخاري في الرقاق من صحيحه: حدثني الصَّلْتُ بن محمد حدثنا يزيد بن زُرَيْعٍ ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ قال: حدثنا سعيد عن قتادة عن أبي المُتَوَكِّل النَّاجيِّ أن أبا سعيدٍ الخُدريَّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يَخْلُصُ المؤمنون من النار، فَيُحْبَسُون على قنطرة بين الجنة والنار، فَيُقَصُّ لبعضهم من بعضٍ مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذبُوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة، فَوَالذي نَفْسُ محمدٍ بيده لأَحَدُهُمْ أَهْدَى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا. وفي إقرارهم بأنهم لولا أن الله وفقهم ما هُدُوا إلى سلوك الصراط المستقيم، وفي مناداتهم بأنهم أُورثوا الجنة بعملهم تأكيد على أهمية فضل العمل بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ مع التنبيه على كمال فضل الله

عليهم بتوفيقه لهم حيث أسكنهم الجنة على أعمال هو الذي وفقهم لها، ولولا هُدَاهُ ما اهْتَدَوْا، وهو شبيه بقوله تعالى: ﴿إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ الآية، فقد سمى الله ذلك بيعا مع أنه عَوَّضَهُم على نفوس هو خالقها وأموالٍ هو رازقها، وقد أشار إلى ذلك رسولُ الله ﷺ فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: سَدِّدُوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لا يُدْخِلُ أحدا الجنةَ عَمَلُهُ، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة. ولا يفهم من قوله عز وجل: ﴿ونُودُوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ أن يكون ما في الجنة كان لغيرهم ثم انتقل إليهم كما ينتقل الميراث من الميت إلى وارثه فلله عز وجل ميراث السموات والأرض، وهو خير الوارثين، وقد وصف الله عز وجل المؤمنين بأنهم ورثة الفردوس كما قال عز وجل: ﴿أولَئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ ودعا خليلُ الرحمن ربَّه عز وجل فقال: ﴿واجعلني من ورثة جنة النعيم﴾.

قال تعالى : ﴿ونادى أصحابُ الجنة أصحابَ النار أن قد وجدنا ما وَعَدَنَا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم، فأذن مؤذِّن بينهم أن لعنة الله على الظالمين * الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا وهم بالآخرة كافرون * وبينهما حجاب، وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاًّ بسيماهم، ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم، لم يدخلوها وهم يطمعون * وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين * ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون * أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة، ادخلوا الجنَّة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون * ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، قالوا إن الله حرمهما على الكافرين * الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا وغرتهم الحياة الدنيا، فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هٰذا وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾.

بعد أن أَكَّدَ عز وجل أن الذين كَذَّبُوا بآيات الله واستكبروا عنها قد حَرَمُوا أنفسهم من مغفرة الله ورحمته وجُودِه فلا تفتح لهم أبواب السماء عند موتهم ولا يدخلون الجنة عند بعثهم وأن جزاءهم عند الله أن يكون لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواشٍ، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يعاملهم الله بإحسانه وجوده، ويدخلهم في رحمته، ويسكنهم فسيح جنته، قد نَزَعَ ما في صدورهم من غل، فهم في دار السلام متحابون حامدون شاكرون، ذكر عز وجل هنا بعض مشاهد القيامة لتأكيد أن وعد الله حق وأن القيامة حق، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن المؤمنين يُمَكِّنُهم الله عز وجل وهم في منازلهم في الجنة من الاطلاع على أهل النار وهم في دركاتهم في جهنم فيُنَادِي أهلُ الجنة أهلَ النار بأن الله عز وجل قد حقق لهم ما وعدهم به على ألسنة رسله

من نعيم الجنة لمن صدَّق بالغيب، فهل تحقق لكم يا أهل النار ما أخبرتكم به رسلُ ربكم بأن الله قد أعَدَّ جهنم لمن كذَّب رسله ولم يؤمن بوعد الله فكذبتم رسلَ ربكم ولم تؤمنوا بالغيب. والمقصودُ من هذا النداء وهذه المحاورة هو تَحَدُّثُ المؤمنين بنعمة الله عليهم في جنات النعيم وفرحهم بما رأوه من الكرامة والسعادة مع مزيد من التوبيخ للكافرين وتقريعهم وتصغيرهم وتحقيرهم وإهانتهم وزيادةِ حسرتهم وندامتهم، وهذا شبيه بما ذكر الله عز وجل في سورة الصافات عن المؤمن وقرينه الكافر حيث قال عز وجل: ﴿أولَئك لهم رزق معلوم * فواكه وهم مكرمون * في جنات النعيم * على سرر متقابلين * يطاف عليهم بكأس من معين * بيضاء لذة للشاربين * لا فيها غَوْل ولا هم عنها يُنزَفُون * وعندهم قاصرات الطرف عِينٌ * كأنهنَّ بيض مكنون * فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قال قائل منهم إني كان لى قرين * يقول أَءِنَّكَ لمن المُصَدِّقين * أءِذا مِتْنَا وكنا ترابا وعظاما أَءِنَّا لمدينون * قال هل أنتم مُطَّلِعُون * فاطَّلَعَ فرآه في سواء الجحيم * قال تالله إن كِدْتَ لَتُرْدِينِ * ولولا نعمة ربي لكنتُ من المُحْضَرِينَ * أفما نحن بميِّتين * إلا موتَتَنَا الأولى وما نحن بمعَذبين * إن هٰذا لهو الفوز العظيم * لمثل هٰذا فليعمل العاملون﴾. ولقد قَرَّعَ رسولُ الله ﷺ صناديد المشركين الذين قُتِلُوا يوم بدر، بعد أن جَيَّفُوا، فناداهم بمثل هذا النداء الذي ينادي به أهلُ الجنة أهلَ النار، ففي لفظ للبخاري من طريق قتادة قال: ذَكَرَ لنا أنسُ ابن مالك عن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أَمَرَ يوم بدر بأربعةٍ وعشرين رجلا من صناديد قريش فَقُذِفُوا في طَوِيٍّ من أطواءِ بدر خبيثٍ مُخْبِثٍ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعَرْصَةِ ثلاث ليال، فلما كان ببدرٍ اليومْ الثالثَ أَمَرَ براحلته فَشُدَّ عليها رَحْلُها ثم مَشَى واتَّبَعَهُ أصحابه، وقالوا: ما نُرَى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شَفَةِ الرَّكِي، فَجَعَلَ يناديهم بأسمائهم

وأسماء آبائهم، يا فُلانُ بنَ فلان، ويا فلانُ بنَ فلانٍ أَيَسُرُّكُم أنكم أطعتم الله ورسولَه، فإنا قد وجدنا ما وعـدنا ربُّنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربُّكم حقًّا؟ قال: فقال عمرُ: يا رسـول الله ما تُكَلِّمُ من أجساد لا أرواحَ لها، فقال رسولُ الله ﷺ: والذي نفسُ محمـد بيده ما أنتم بأسمعَ لما أقولُ منهم. قـال قتادةُ: أحياهم الله حتى أسمعهم قـولَه توبيخا وتصغيرا ونقيمـةً وحسرةً ونَدَما، وفي لفظ لمسلم من طريق ثـابتٍ البُنَانيِّ عن أنس بن مالك أن رسـول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثـا ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: يا أبـا جهل بنَ هشام يا أميةُ بنَ خلف يـا عتبةُ بنَ ربيعة يا شيبـةُ بنَ ربيعة أليس قد وجدتم مـا وعد ربكم حقا فـإني قد وجدت مـا وعدني ربي حقـا. وفي هذا يقـول عز وجل: ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجـدنا ما وَعَدَنَا ربُّنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكـم حقا قالوا نعم﴾ إلى قوله عز وجـل: ﴿فاليوم ننساهم كما نَسُـوا لقاء يـومهم هـٰذا ومـا كانـوا بـآياتنـا يجحـدون﴾ ومعنى قـوله عـز وجل: ﴿ونادى أصحـابُ الجنة أصحابَ النار أن قـد وجدنا ما وعـدنا ربنا حقا﴾ إلى قـوله عـز وجل ﴿وهم بالآخرة كـافرون﴾ أي قـال أهل الجنة لأهل النـار: إنا قـد وجـدنا مـا وَعَـدَنَا بـه ربُّنـا من البعث والنشور والنعيم التـام للمؤمنين حقا فهل أيقنتم الآن أن ما وعد الله عز وجل الكافرين المكذبين من البعث والنشور والخزي الأبدي السرمدي والعذاب المقيم في نار جهنم حقا، فأجـاب أهل النار: نَعَم وجـدنا مـا وعدنا ربنـا على ألسنة رسلـه من البعث والنشور والعذاب المقيم في نار جهنم حقـا، فنادى منادٍ بين أهل الجنة وأهل النار يسمعـه الفريقان: أن لعنة الله أي غضبـه وسخطه وعقوبتـه على الذين كفروا بالله وصدوا عن سبيله وحـاولوا أن يُغَيِّرُوا دين الله وأن يبدلوه عما جعله الله له من استقامته، وهم كافرون بالساعة والبعث والنشور والثواب والعقاب والجنة والنار. وقولُهُ عـز وجل: ﴿وبينهما حجاب﴾ أي وبين أصحاب الجنة

وأصحاب النـار ساتر يحجب نعيم أهل الجنة عن أهل النـار حتى لا يتنعموا بمنظره، ويحجب عـذاب أهل النار عن أهل الجنة حتى لا يتأذوا وينـزعجوا من منظره مع تمكين الله عـز وجل أهلَ الجنة من مخاطبة أهل النـار والاطلاع عليهم لتوبيخهم وتصغيرهم وتحسيرهم وقولُهُ تبارك وتعالى: ﴿وعلى الأعراف رجال يعـرفون كـلا بسيماهم﴾ إلى قوله عـز وجل: ﴿ادخلوا الجنـة لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ الأعـرافُ في اللغة جمع عُرْف وهو كلُّ عـالٍ مرتفع، وأصحـاب الأعراف قـوم استـوت حسنـاتهم وسيئاتهم فلـم يستحقوا الجنـة بالحسنات ولا النار بالسيئات فكانـوا على مكان عالٍ بين الجنة والنار ينظرون إلى أهل الجنة تارة وإلى أهـل النار تارة أخرى فإذا نظروا إلى أهـل الجنة سلموا عليهم وضرعوا إلى الله أن يدخلهـم الجنة، وإذا نظروا إلى أهل النار ضرعوا إلى الله أن لا يدخلهـم النار. قال شيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله: فصـاحب الخشية لله ينيب إلى الله، كما قال: ﴿وأُزلفت الجنـةُ للمتقين غير بعيد * هٰذا ما توعدون لكل أواب حفيظ * من خَشِيَ الـرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب * ادخلوهـا بسلام ذٰلك يوم الخلـود﴾ وهذا يكـون مع تمام الخشية والخوف، فأما في مباديها فقد يحصل للإنسان خوف من العذاب والذنب الذي يقتضيه فيشتغل بطلب النجـاة والسـلام، ويعرض عـن طلب الرحمة والجنـة، وقـد يفعل مع سيئـاتـه حسنات تـوازيها وتقـابلهـا، فينجو بـذلك من النـار ولا يستحق الجنة، بل يكـون من أصحاب الأعراف، وإن كان مـآلهم إلى الجنة، فَلَيْسُـوا ممن أزلفت لهم الجنة، أي قـربت لهم، إذ كـانـوا لم يأتوا بخشيـة الله والإنـابة إليـه اهـ. ومعنى: ﴿يعـرفون كـلا بسيماهم﴾ أي يعرف أصحـاب الأعـراف أهل الجنـة بسيماهم وأهل النـار بسيماهم، فأهل الجنـة تعـرف في وجوههم نضرة النعيم، وأهل النار تعـرفهم بسواد وجوههم وزرقتها، والسِّيما والسِّيماءُ والسِّيمياءُ والسِّيمـةُ هي العلامة المميزة ومعنى: ﴿ونـادَوْا أصحابَ

الجنـة أن سـلام عليكم﴾ أي إذا نظـر أصحـابُ الأعـراف أصحـابَ الجنـة نادَوْهُمْ أن سلام عليكم أي حلت عليكم أمنةُ الله فلن تبأسوا أبدا، وقولُه عز وجل: ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ أي إن أصحاب الأعراف في هذا الحال الـذي يسلمـون فيه على أهل الجنـة لم يكـونـوا قـد دخلوا الجنـة بعـدُ، وهم يطمعون في دخولها طمعا في سعة رحمة الله الذي نجـاهم من النار. وقولُه عز وجل: ﴿وإذا صُرِفت أبصارهـم تلقاء أصحاب النـار﴾ إلى قولـه عز وجل: ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة، ادخلوا الجنة لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ أي وإذا حُوِّلَت أنظار أصحـاب الأعراف جِهَةَ أهل النار ورأوا ما هم فيه من شديد العقـاب وسوء العذاب ضرعوا إلى الله عز وجل قائلين: ربنا لا تجعلنـا مع هؤلاء الكافـرين في نار جهنم، ونادى أصحـاب الأعراف رجـالا من أهل النـار يعـرفـونهم بعــلامتهم قـائلين لهم على سبيل التقـريع والتـوبيخ: مـاذا أفـادكم تـألبكم وتكبركم في الأرض بغير الحق، ثم زادوهم تحسيرا وتقريعا فأشاروا إلى من تواضعوا لله عز وجل في الدنيا وانقادوا لأمر الله ولاسيما فقراء المؤمنين كصهيـب وعمار وبلال وسلمان وخباب الـذين رفع الله منـازلهم في جنـات النعيم، وكـان الكفـار يحتقـرونهم في الـدنيـا ويـزدرونهم ويسمـونهم الأشرار: أهـؤلاء الذين أقسمتم أنهم لا يستحقـون رحمة الله ظنـا منكم أن فقرهم دليل سُوء فهمهم حيث كنتم تعتقدون أنه لو كان هناك جنة ونـار لكنتم أحق بالجنـة منهم لغنـاكم وفقـرهم، وجهلتم أن المرء بأصغريـه قلبـه ولسـانـه، وأن الله عـز وجل إنما ينظـر إلى النـاس بأعمالهم وقلـوبهم لا بأجسامهم وأمـوالهم، ثم ختم مشهد أصحـاب الأعراف بقـول الله عز وجل لهم: ﴿ادخلـوا الجنـة لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنـون﴾ ثم ذكـر عـز وجل مشهدا آخـر من مشاهد القيـامة فقـال: ﴿ونادى أصحاب النـار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ إلى قـوله عز وجل: ﴿فاليوم

ننساهم كما نَسُوا لقاء يـومهم هٰذا وما كانوا بآيـاتنا يجحدون﴾ أي واستغاث أهل النار بأهل الجنـة قائلين لهم: أفرغوا علينـا من الماء أو مما رزقكم الله من الطعام وأنهار اللبن والعسل والفواكـه، فيجيب أهلُ الجنة أهل النار بأن الله حـرم شرابَ أهل الجنة وطعـامهـا على الكافـرين الـذين كفـروا بالله ورسلـه والذين اتخذوا دين الله الذي أرسل به رسله سخرية ولعبا وخدعهم عاجل ما كانوا فيـه من العيش والدَّعَة عن الأخذ بنصيبهم من الآخـرة حتى ماتوا على ضلالتهم، قـال تعالى: فاليوم نتركهـم في العذاب كما تركوا العمل في الـدنيا للقاء الله يـوم القيامـة، وكما كانوا بـآيات الله يجحـدون فيكذبـون الرسل ولا يصدقـون بلقاء الله عـز وجل ويرفضـون جميع حجج الله وآياتـه التي أيد بها رسله، وأقامها برهانـا على أن قولَه الصدقُ ووعدَه الحقُّ، وأن من يشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار.

قال تعالى : ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصَّلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون * هل ينظرون إلا تأويله ، يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعآء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل، قد خسروا أنفسهم وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون * إن ربكم الله الذي خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يُغْشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين﴾ .

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى بعض مشاهد القيامة لتأكيد أن وعد الله حق، وأن القيامة حق، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وذكر المناداةَ بين أهل الجنة وأهل النار بما يتضمن ما آلَ إليه المؤمنون من النعيم التام وما آلَ إليه أهل الكفر من الشقاء التام بَيَّنَ عز وجل هنا أنه قد أزاح علل هؤلاء الخاسرين الأشقياء في دار الدنيا ووقت التكليف فلم يترك عذرا لمعتذر حيث أنزل القرآن العظيم كما أنزل الكتب السابقة قد فَصَّل فيه جميع ما يحتاجه الناس في معاشهم ومعادهم وهو العليم الخبير. وقد شرح فيما أنزل من الكتاب طريقَ السعداء وطُرُقَ الأشقياء، لِيَهْلِكَ من هلك عن بينة ويحيى من حَيَّ عن بينة، وأشار عز وجل إلى أن الكافرين الذين انطمست بصائرهم قد كفروا بالغيب الذي أخبرت به الرسل وأنزل الله به الكتب فلا يصدقون إلا عندما يقع بهم عذاب الله في نار جهنم حيث لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا . كما أشار عز وجل هنا إلى أنه قد أقام البراهين بالآيات القرآنية والآيات الكونية الشاهدة بأن الله هو الحق وأن وعده الحق وأنه أحكم الحاكمين ورب العالمين حيث يقول عز وجل : ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾

إلى قوله عز وجل: ﴿تبارك اللهُ ربُّ العالمين﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿ولقد جئناهم بكتابٍ فصلناه على علم هدًى ورحمةً لقوم يؤمنون﴾ أي ولقد بعثنا إليهم مع رسولنا بكتاب أوضحنا فيه للعباد جميع ما يحتاجون إليه في معاشهم ومعادهم، وبَيَّنَّا فيه ما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويبغضه، وبشرنا فيه المطيعين بالجنة وكريم نعيمها، وحذرنا العاصين من النار وأليم عقابها، ونبهنا إلى أسرار الكون وغيوب الماضي والحاضر والمستقبل، وما يشتمل عليه من أسماء الله الحسنى وصفاته العُلى، ولا شك أن المتدبر لآيات هذا الكتاب وجُمَلِهِ وحروفه يوقن أنه تنزيل من حكيم عليم قد أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، يهدي الله به أصحاب الفطر السليمة والعقول المستقيمة فيدخلون في رحمة الله ويؤمنون بكتاب الله ورسول الله، ويسلكون الصراط المستقيم. وقد أثنى الله تبارك وتعالى على القرآن العظيم في مواضع من كتابه الكريم بأنه أنزله الله بعلمه، كما قال عز وجل: ﴿لَكِنِ الله يشهد بما أَنْزَلَ إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيدا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أُنزِلَ بعلم الله وأن لا إِلَه إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿قل أنزله الذى يعلم السر في السمٰوات والأرض، إنه كان غفورا رحيما﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿هل ينظرون إلا تأويلَه، يوم يأتي تأويلُه يقول الذين نَسُوهُ من قبل قد جاءت رُسُلُ ربنا بالحق فهل لنا من شُفَعَاءَ فَيَشفَعُوا لنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غيرَ الذى كنا نعمل، قد خَسِرُوا أنفسهم وَضَلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي هل ينتظر هؤلاء المكذبون فلا يؤمنون حتى يشاهدوا بأنفسهم الحقيقة التي توعد الله عز وجل بها المكذبين وما يؤول إليه أمرهم من مصيرهم إلى النار تحقيقا لما توعدهم الله به في كتابه الكريم، يَوْمَ يأتي تأويل هذا الوعيد ويقع ما توعدهم الله به يوقنون بأن إيمانهم حينئذ لا ينفعهم، فَيُقِرُّ هؤلاء بأن ما جاءت به إليهم رسل الله هو

الحق، ويتمنى هؤلاء الذين تركوا كتاب الله وكذبوا بما جاء به من الوعد والوعيد أن يجدوا شفيعا يشفع لهم أو أن يرجعوا إلى الدنيا ليؤمنوا فيها بما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب ويعملوا الصالحات، ويسلكوا الصراط المستقيم، وقد خابوا وخسروا وضيعوا أنفسهم وغاب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا ولي لهم ولا شفيع، ولا منقذ لهم من نار جهنم. وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا لعادوا إلى الكفر حيث يقول عز وجل: ﴿ولو ترى إذ وُقِفُوا على النار فقالوا يا ليتنا نُرَدُّ ولا نُكَذِّبَ بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بَدَا لَهُمْ ما كانوا يُخْفُونَ من قبل ولو رُدُّوا لَعَادوا لما نُهُوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ وبعد أن بين عز وجل أنه قد أزاح علل الكفار فلم يترك عذرا لمعتذر حيث أنزل الكتب وأرسل الرسل لتعريف العباد بربهم وأنه لا إله إلا هو وأن وعده الحق أشار عز وجل إلى أنه أقام الآياتِ الكونيةَ كذلك للدلالة على أنه لا إله إلا هو وأنه عز وجل له وحده الخلق والأمرُ تبارك اللهُ ربُّ العالمين حيث يقول هنا: ﴿إن ربكم الله الذى خلق السمٰوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يُغْشِي الليلَ النهارَ يطلبه حثيثا والشَّمسَ والقمرَ والنجومَ مسخراتٍ بأمره أَلَا لَـهُ الخَلْقُ والأمرُ، تبارك اللهُ ربُّ العالمين﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿إن ربكم الله الذى خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام﴾ أي إن سيدكم ومالككم ومُصلحَ شئونكم ومدبر أموركم ومن بيده نواصيكم المستحقَّ لأن يُعْبَدَ وحده لا شريك له هو الله الذي أوجد السموات والأرض وأبدعهما وأنشأهما وأحدثهما على غير مثال سبق وكوَّنَهما في ستة أيام أي في مقدار ستة أيام لأن اليوم من طلوع الشمس إلى غروبها ولم يكن يومئذ يوم ولا شمس ولا سماء. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن القرآن أخبر في غير موضع أنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وقد ثبت في الحديث الصحيح المتفق على صحته: أن آخر المخلوقات

كان آدم، خُلِقَ يومَ الجمعة، وإذا كان آخر الخلق كان يوم الجمعة دَلَّ على أن أوله كان يوم الأحد لأنها ستة، وأما الحديث الذي رواه مسلم في قوله: خلق الله التربة يوم السبت، فهو حديث معلول قَدَحَ فيه أئمة الحديث كالبخاري وغيره، قال البخاري: الصحيح أنه موقوف على كعب اهـ. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضا: وأهل الملل متفقون على أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، وخلق ذلك من مادة كانت موجودة قبل هذه السموات والأرض، وهو الدخان الذي هو البخار، كما قال تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾ وهذا الدخان هو بخار الماء الذي كان حينئذ موجودا، كما جاءت بذلك الآثار عن الصحابة والتابعين، وكما عليه أهل الكتاب، كما ذكر هذا كله في موضع آخر، وتلك الأيام لم تكن مقدار حركة هذه الشمس وهذا الفَلَك، فإن هذا مما خُلِقَ في تلك الأيام، بل تلك الأيام مقدرة بحركة أخرى. وكذلك إذا شَقَّ اللهُ هذه السموات وأقام القيامة وأدخل أهلَ الجنةِ الجنةَ قال تعالى: ﴿ولهم رزقهم فيها بُكرةً وعشيًّا﴾ وقد جاءت الآثار عن النبي ﷺ بأنه تبارك وتعالى يتجلى لعباده المؤمنين يوم الجمعة، وأن أعلاهم منزلة من يرى الله تعالى كل يوم مرتين، وليس في الجنة شمس ولا قمر، ولا هناك حركة فَلَك، بل ذلك الزمان مقدر بحركات، كما جاء في الآثار أنهم يعرفون ذلك بأنوار تظهر من جهة العرش اهـ. وقد ذكر الله تبارك وتعالى أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام في غير موضع من كتابه الكريم فقال في سورة يونس: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾ وقال في سورة هود: ﴿وهو الذى خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلُوَكم أيُّكم أحسنُ عَمَلاً﴾ وقال عز وجل في سورة الفرقان: ﴿الذي خلق السمٰوات والأرضَ وما بينهما في ستة

أيـام ثم استوى على العـرش﴾ وقـال في سـورة السجدة: ﴿الله الـذي خلق السمٰوات والأرض ومـا بينهما فى ستة أيام ثـم استوى على العرش﴾ وقـال عز وجل في سورة ق: ﴿ولقد خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مَسَّنَـا من لُغُـوبٍ﴾ وقـال في سورة الحديـد: ﴿هـو الـذي خلق السمٰوات والأرض فى ستة أيام ثـم استوى على العرش﴾ وقولُه عـز وجل: ﴿ثم استوى على العـرش﴾ قال الشيخ الإمـام محيي السنـة أبـو محمد الحسين بن مسعـود الفراء البغوي في تفسيره ﴿معـالم التنزيل﴾ أهل السنة يقـولون: الاستواء على العرش صفـة لله تعالى بلا كيف، يجب على الـرجل الإيمان به، ويكل العلم فيـه إلى الله عز وجل، وسأل رجل مـالك بن أنس عن قـوله: ﴿الـرحمن على العـرش استوى﴾ كيف استـوى؟ فأطرق رأسـه مليا، وعـلاه الرحضـاء، ثم قـال: الاستـواء غير مجهـول، والكيـف غير معقـول، والإيمان بـه واجب، والسؤال عنه بـدعة، وما أظنك إلا ضالا. ثم أمر به فَأُخْـرِجَ اهـ. وقال ابن كثير في تفسيره هذه الآية: إنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مـالك والأوزاعي والثـوري والليث بن سعد والشـافعي وأحمد وإسحـاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحـديثا، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهـه شيء من خلقـه وليس كمثله شيء وهـو السميع البصير بل الأمـر كما قال الأئمـة منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخـاري قال: من شَبَّهَ الله بخلقـه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسـه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسولُه تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبـار الصحيحة على الوجه الـذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿يُغْشِي الليلَ النهارَ يطلبه حثيثا) أي يأتي بالليل على النهار فيغطيه ويذهب

نور النهار، كما أنه يأتي بالنهـار على الليل فيغطيه ويذهب ظلام الليل، وقد حذفت إحـدى الجملتين لدلالـة الحال عليها ومعنى: ﴿يطلبـه حثيثا﴾ أي يطلب كل منهما الآخـر طلبا حثيثـا أي سريعـا، والمقصود أن تعـاقب الليل والنهار يحصل بحركـة هي أشد الحركات سرعة وأكملها شـدة وقد ذكر علماء الفلك أن الإنسـان المسرع جدا لا يكـاد يـرفع رجلـه ويضعها حتى يتحـرك الفلك الأعظم ثـلاثـة آلاف ميل، وقــولـه عـز وجل: ﴿والشمس والقمـر والنجوم مسخـراتٍ بأمره﴾ بـالنصب عطفـا على ﴿السموات والأرض﴾ أي وخلق الشمس والقمر والنجوم مذللاتٍ بقهره ومشيئته و إذنه وأمره الكوني، وكما قال عـز وجل في سورة النحل: ﴿وسخَّـر لكم الليلَ والنهار والشمسَ والقمرَ والنجـومُ مسخراتٌ بأمره، إن في ذلك لآياتٍ لقـوم يعقلون﴾ ومعنى قولـه: ﴿ألاَ لَهُ الخَلْقُ والأمر﴾ أي هـو وحده المُوجِـدُ للكائنات وهـو وحده الذي لـه الحكم والأمر والنهي والتشريع كما قـال عز وجل: ﴿إنِ الحكْمُ إلا لله أمر ألَّا تعبـدوا إلا إياه﴾ وقولـه عز وجل: ﴿تبـارك الله ربُّ العالمين﴾ أي تقــدس وتعـاظم وتنــزه وتعـالى وارتفع وتطهــر سيـدُ الخلائق ومــالكهم ومصلحهم، ولا تطلق صفة «تبارك» إلا على الله وحده فهي صفـة خاصة به عز وجل وهو الذي يُتبَـرَّكُ باسمه في كل أمر.

قال تعالى: ﴿ادعوا ربّكم تضرعًا وخُفية، إنه لا يحب المعتدين * ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفًا وطمعًا، إنَّ رحمت الله قريب من المحسنين * وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابًا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات، كذٰلك نخرج الموتى لعلكم تذكَّرون * والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا، كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون﴾.

بعد أن بَيَّنَ عز وجل أنه قد أزاح علل الخاسرين الأشقياء في دار التكليف فلم يترك عذرا لمعتذر حيث أنزل الآيات المتلوة وأقام الآيات الكونية، وأن الكافرين لم يصدقوا بوعد الله ووعيده إلى أن يَقَعَ بهم عذابُ الله وأليم عقابه في نار الجحيم، شرع هنا في تحريض عباده وحضهم على إخلاص العبادة لله وحده وألا يعتدوا على حقه عز وجل، وأن يجتنبوا الإفساد في الأرض وأن يعبدوه خوفا من غضبه وعقوبته وطمعا في رضاه ورحمته، ثم نَبَّهَهُم إلى بعض البراهين المحسوسة الدالة على آثار رحمته الشاهدة بقدرة الله عز وجل على إحياء الموتى كما أحيا الأرض الميتة بما أنزل عليها من الماء، كما نبههم إلى أن النفوس الطيبة تقبل الهدى كالأرض الطيبة التي تنتفع بالغيث، وأن النفوس الخبيثة لا تقبل الهدى كالأرض الخبيثة السبخة التى لا تنتفع بالغيث، حيث يقول عز وجل: ﴿ادعوا ربكم تضرعا وخُفْيَةً، إنه لا يحب المعتدين﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿والبلد الطيب يَخْرُجُ نباتُهُ بإذن ربه والذى خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلا نَكِدًا، كذٰلك نصرف الآيات لقوم يشكرون﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ادْعُوا ربَّكُمْ تضرعا وَخُفْيَةً﴾ أي اعبدوا الله سيدكم ومالككم ومصلح أموركم متذللين له، مستكينين مبتعدين عن الرياء وأفردوه بنوعي الدعاء وهو دعاء العبادة ودعاء المسألة. قال شيخ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله في قوله عز

وجل: ﴿ادعوا ربكم تضرعا وخُفْيَـةً، إنه لا يحب المعتدين * ولا تفسدوا في الأرض بعـد إصـلاحهـا وادعـوه خـوفـا وطمعـا، إن رحمت الله قـريب من المحسنين﴾ هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء: دعاء العبادة، ودعاء المسألـة، فإن الدعـاء في القرآن يراد بـه هذا تارة وهـذا تارة، ويـراد به مجموعهما، وهما متـلازمان، فإن دعـاء المسألة هـو طلب ما ينفع الـداعي، وطلبُ كشف ما يضره ودفعه، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود، لابد أن يكون مـالكا للنفع والضر، ولهذا أنكر تعالى على من عَبَـدَ مِن دونه ما لا يملك ضرا ولا نفعـا، وذلك كثير في القرآن كقـوله تعالى: ﴿ولا تـدع من دون الله مـا لا ينفعـك ولا يضرك﴾ وقـال: ﴿ويعبـدون مـن دون الله مـا لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ فَنَفَى سبحـانـه عن هـؤلاء المعبـودين الضر والنفع، القـاصر والمتعـدي، فـلا يملكـون لأنفسهم ولا لعـابـديهم، وهـذا كثير في القرآن، يُبَيِّنُ تعـالى أن المعبود لابدَّ أن يكون مـالكا للنفع والضر، فهو يـدعو للنفع والضر دعـاء المسألة، ويـدعو خـوفا ورجـاء دعاءَ العبـادة، فَعُلِمَ أن النـوعين متلازمـان، فكلُّ دعاءِ عبـادةٍ مستلـزمٌ لدعـاء المسألة، وكلُ دعـاءِ مسألةٍ متضمنٌ لدعاء العبادة. ثم قال رحمه الله: إذا عُرِفَ هذا فقوله تعالى: ﴿ادعوا ربكم تضرعـا وخُفيةً﴾ يتناول نـوعي الدعـاء، لكنه ظاهـر في دعاء المسألة، متضمن دعـاء العبادة، ولهذا أمر بإخفـائه وإسراره، قال الحسنُ: بَيْنَ دعوة السر ودعوة العـلانية سبعون ضعفا، ولقد كـان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسْمَعُ لهم صوتٌ، أي ما كانت إلا همسا بينهم وبين ربهم عز وجل، وذلك أن الله عز وجل يقول: ﴿ادعوا ربكم تضرعا وخفية﴾ وأنه ذكر عبدا صـالحا ورضي بفعله فقـال: ﴿إذ نادَى ربَّـه نداء خفيـا﴾ اهـ. ولما رفع أصحاب رسـول الله ﷺ أصواتهم بالتكبير وهم في طريق خيبر أمـرهم رسول الله ﷺ ألا يرفعـوا أصواتهم فقد روى البخـاري ومسلم واللفظ للبخاري من

حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: لما غزا رسولُ الله ﷺ خيبر أو قال: لما توجه رسول الله ﷺ أشرف الناس على وادٍ، فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ: اربَعُوا على أنفسكم، إنكم لا تَدْعُونَ أصم ولا غائبا، إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم، وأنا خَلْف دابة رسول الله ﷺ فسمعني وأنا أقول لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال لي: يا عبدالله بن قيس، قلتُ: لبيك رسول الله، قال: أَلاَ أدلك على كلمة من كنز من كنوز الجنة؟ قلت: بلى يا رسول الله، فداك أبي وأمي، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ أي إن الله عز وجل يبغض الذين يعتدون على حدوده ويتجاوزون شرعه، فمن دعا غير الله فهو معتد ومن عَبَدَ الله بغير شرعه فهو معتد، ومن عَبَدَ الله بشرعه رياء وسمعة فهو معتد، ولا نجاة إلا لمن عَبَدَ الله عز وجل بشرعه الذي بعث به رسوله وأنزل به كتابه وكان في عبادته مخلصا لله عز وجل، ولذلك أخبر رسول الله ﷺ أنه من أحدث في شرعه ما ليس منه فهو ردٌّ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ، وفي رواية لمسلم: من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ. ولا شك أن الله تبارك وتعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا صوابا، ومعنى كونه خالصا أن يكون لوجه الله، ومعنى كونه صوابا أن يكون على منهج رسول الله ﷺ. وقوله تعالى: ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ متضمن للنهي الشديد عن الاعتداء كأنه قيل: ادعوا ربكم تضرعا وخُفْيَة ولا تعتدوا. ولهذا قال بعدها: ﴿ولا تُفْسِدُوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ولا تُفسِدُوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ أي ولا تُعْرِضُوا عن شريعة الله ولا تتولوا عن دين محمد ﷺ فإنكم إن أعرضتم عن شريعة الله وتوليتم عن دين محمد ﷺ أفسدتم في الأرض

وعملتم على إبطـال أسباب صـلاحها وفـلاحهـا وسعادة أهلهـا، فإن مجيء رسول الله إليكم هو أهم أسباب فـلاحكم وصلاحكم إن أطعتموه فأخلصتم التـوحيد لله وأفـردتم ربكم بالعبـادة والدعـاء، وسلكتم صراط الله المستقيم الذي يحفظ لكم أنفسكم وأموالكم وأعـراضكم وعقولكم، وتجنبتم المعاصي فإن كل شر في العـالم وكل فتنـة وبـلاء وقحط وتسليط عـدو فسببـه مخالفـة المرسلين، وانتهاكُ حرمات الدين، كما قال عز وجل: ﴿ظهر الفساد في البر والبحـر بما كسبت أيـدي النـاس﴾ وكما قـال عـز وجل: ﴿فهل عسيتم إن تـوليتم أن تفسـدوا في الأرض وتقطعـوا أرحامكم﴾ فـلا صـلاح لـلأرض إلا بتحكيم شريعة الله والانقيـاد لأمره، قـال ابن جريـر الطبري رحمه الله: قال أبوجعفر: يعني تعـالى ذكره بقوله: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعـد إصلاحها﴾ لا تشركوا بـالله في الأرض ولا تعصوه فيها وذلـك هو الفساد فيها. اهـ وقال الإمـام البغـوي رحمه الله: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعـد إصـلاحهـا﴾ أي لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طـاعة الله بعد إصلاح الله إياها بِبَعْثِ الرسل وبيـان الشريعة والـدعاء إلى طـاعة الله، اهـ وقال ابن كثير رحمه الله: وقـولـه تعـالى: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعـد إصـلاحهـا﴾ ينهى تعـالى عن الإفساد في الأرض، وما أَضَرَّهُ بعد الإصلاح، فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد ثم وقع الإفسـاد بعد ذلك كـان أَضَرَّ ما يكون على العبـاد فَنَهى تعالى عن ذلك وأمر بعبادتـه ودعائه والتضرع إليه والتَّذَلُّلِ لديـه، فقال: ﴿وادعوه خوفـا وطمعا﴾ أي خـوفا ممـا عنده من وبيل العقـاب وطمعا فيما عنـده من جزيل الثواب. ثم قـال: ﴿إن رحمت الله قريب من المحسنين﴾ أي إن رحمته مرصـدة للمحسنين الذين يتبعـون أوامره ويتركـون زواجره، كما قـال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون﴾ الآيـة اهـ. وإنما قال عز وجل: ﴿قريب من المحسنين﴾ ولم يقل قـريبة من المحسنين لأن لفظ قريب

إذا كان بمعنى المسافة يستوى فيه المذكر والمؤنث. قال أبوعمرو بن العلاء: القريب في اللغة يكون بمعنى القُرْب يعني القرابة وبمعنى المسافة تقول العربُ: هذه امرأة قريبة منك إذا كانت بمعنى القرابة وقريبٌ منك إذا كانت بمعنى المسافة اهـ وقولُه تعالى: ﴿وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثِقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾ تنبيه إلى بعض الآيات الكونية التي يسوقها الله عز وجل للدلالة على أنه على كل شيء قدير، وأنه يحيي الموتى وأنه الرزاق ذو القوة المتين فبَيَّنَ عز وجل أنه هو وحده الذي يبعث الرياح ويرسلها إرسالا كونيا مبشراتٍ بمجيء المطر ونزول الغيث بعدها فهي تُثير السحاب ويسوقه الله إلى الأرض الجرز المرتفعة الشامخة، ويُشَاهَدُ هذا السحابُ الثقال الذي يزن آلافَ آلافِ القناطير وهو يجري في طبقات الجو حتى يُنَزِّلَهُ الله بقدر مقدر على ما يشاء من الأرض فَيُخْرِجَ الله به من كل الثمرات ويحيي به الأرض بعد موتها، إن الذي أحياها لمحيي الموتى، فعلى العقلاء أن يتذكروا نعمة الله عليهم وقدرته على التصرف فيهم بما يشاء والحكم فيهم بما يريد. كما قال عز وجل: ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفُلْكُ بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقًّا علينا نصرُ المؤمنين * الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السَّماء كيف يشاء ويجعله كِسَفًا فترى الودْق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون * وإن كانوا من قبلِ أن يُنَزَّلَ عليهم من قبله لَمُبْلِسِينَ * فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ وكما قال عز وجل: ﴿والذى نَزَّل من السماء ماء بِقَدَرٍ فأنشرنا به بلدة

مَيْتًـا ، كذٰلك تُخرَجُـون﴾ وكما قال عـز وجل : ﴿ أَوَ لم يَـرَوْا أنا نسـوق الماء إلى الأرض الجُرُزِ فنخرج به زرعًا تأكل منـه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون﴾ وقد روى مسلم في صحيحـه من حديث أبي هـريرة رضي الله عنـه عن النبي ﷺ قـال : بينا رجلٌ بفـلاة من الأرض فسمع صـوتا في سحـابـة : اسْقِ حديقـة فلان ، فَتَنَحَّى ذلك السحابُ فأفرغ مـاءه في حرة فإذا شَرْجَةٌ من تلك الشِّرَاج قد استوعبت ذلك الماءَ كلَّه ، فَتَتَبَّـع الماءَ فإذا رجلٌ قائم في حديقته يُحَوِّلُ الماءَ بِمِسحاته ، فقال له : يا عبدالله ما اسمك؟ قال : فلان للاسم الذي سمع في السحابة فقال له : يا عبدالله لِمَ تسألني عن اسمي؟ فقال : إني سمعت صوتا في السحاب الـذي هذا ماؤه يقـول : اسق حديقـة فلان لاسمك ، فما تصنع فيها؟ قال : أمَّا إذْ قلتَ هذا فإني أنظـر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه وآكل أنا وعيـالي ثُلُثًا وأَرُدُّ فيها ثُلُثَهُ . وقـوله تعالى : ﴿والبلد الطيب يَخْرُجُ نبـاتُه بإذن ربه﴾ الآيـة . قال ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير: قـال المفسرون : هذا مَثَلٌ ضربـه الله تعالى للمـؤمن والكافـر، فالمؤمنُ إذا سمع القـرآن وعقله انتفع بـه وبَانَ أثـره عليه فَشُبِّـهَ بالبلد الطيب الـذي يُمرع ويُخصب ويحسن أثـر المطر عليه، وعكْسُه الكافر اهـ. ومعنى : ﴿كذٰلك نصرف الآيات لقوم يشكرون﴾ أي كذلـك نبين الحجج ونصرف البراهين آية بعـد آية ونضرب مثلا بعـد مثل لقوم يستجيبون للحق ويعترفون بنعم الله .

قال تعالى: ﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم * قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين * قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من ربّ العالمين * أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون * أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون * فكذَّبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا، إنهم كانوا قوما عمين﴾.

بعد أن حرَّضَ الله تبارك وتعالى العباد على إخلاص العبادة لله وحده، وألا يَعْتَدُوا على حقه، وأن يجتنبوا الإفساد في الأرض، وأن يعبدوه خوفا من غضبه وعقوبته وطمعا في رضاه ورحمته، ونبههم إلى بعض البراهين المحسوسة الدالة على آثار رحمته الشاهدة بقدرة الله عز وجل على إحياء الموتى كما أحيا الأرض الميتة بما أنزل عليها من الماء، كما نبههم إلى أن النفوس الطيبة تقبل الهُدَى كالأرض الطيبة التي تنتفع بالغيث، وأن النفوس الخبيثة لا تقبل الهُدَى كالأرض السبخة التي لا تنتفع بالغيث، وفي هذا مواساةٌ لرسول الله ﷺ حتى لا ييئس بما يلقاه من المكذبين، شرع في ذكر بعض قصص الأنبياء مع أممهم وَمَا لاَقَوْه منهم لتثبيت فؤاده ﷺ وللعظة والذكرى وبشارة المؤمنين ونِذَارة المكذبين، وبدأ بقصة نوح عليه السلام لأنه أول رسول كذبه قومه ولم يؤمن به إلا قليل، فنجاه الله والذين معه، وأغرق المكذبين، حيث يقول هنا: ﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فَقَالَ يَا قَوْمِ اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عَمِينَ﴾ وفي قوله عز وجل: ﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ تقرير للرسالة والتوحيد والبعث وهي

الحقائق الثـلاث التي تدور في فلكها السُّوَرُ المكيـة، فهي أهم مهمات الدين التي لا سعـادة لأحـد إلا إذا استقـرت في نفســه وأيقن بها قلبُـه، ولن تفتح أبواب الجنة إلا لمن لقي الله عـز وجل مؤمنا بها، وكان نـوح عليه السلام أولَ أولي العزم من المرسلين، وأولَ رسول أرسله الله عز وجل يحذر من الشرك بالله عز وجل إذ كانت أمته هي أول الأمم المشركة على ظهر الأرض، وقد كان بين نـوح عليــه الســلام وبين آدم عشرة قـرون كلهم على الإســلام. فقـد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان بين آدم ونوح عشرة قـرون كلهـم على الإسـلام، كما روى البخـاري في صحيحــه عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قـوله عز وجل: ﴿وقالـوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تـذرن وَدًّا ولا سـواعـا ولا يغوث ويعـوق ونَسْرًا﴾ قـال ابن عبـاس رضي الله عنهما: هذه أسماء رجـال صالحين من قوم نوح، فلما هلكـوا أوحى الشيطان إلى قومهم أَنِ انْصِبُـوا إلى مجالسهم التي كانـوا يجلسون فيها أنصـابا وسَمُّـوهَا بأسمائهم، ففعلـوا، فلم تعبـد حتـى إذا هلك أولَئك وانتسخ العلم عُبِـدَتْ اهـ. قـال ابن جرير الطبري رحمه الله: القـولُ في تأويل قوله: ﴿لقـد أرسلنا نوحا إلى قـومه فقال يَا قَوْمِ اعبدوا الله مـا لكم من إلَه غيرُهُ إني أخاف عليكم عذاب يـوم عظيم﴾ قال أَبـوجعفر: أقســم ربنا جل ثنـاؤه للمخاطبين بهذه الآيَة أنه أرسل نوحا إلى قومـه مُنْذِرَهُم بأسه، ومُخَوِّفَهُمْ سَخَطَهُ، على عبادتهم غَيْرَهُ، فقال لمن كَفَرَ منهم: اعبدوا الله الذي له العبـادة، وَذِلُّوا لَهُ بالطاعة، واخْضَعُوا له بالاستكانة، وَدَعُوا عبادةَ ما سواه من الأنداد والآلهة، فإنه ليس لكم معبودٌ يستـوجب عليكم العبادةَ غَيْرُهُ، فإني أخـاف عليكم إن لم تفعلوا ذلك ﴿عَـذَابَ يَوم عظيم﴾ يعنـي: عذاب يـوم يعظم فيـه بلاؤكم بمجيئـه إياكم بِسَخَطِ ربكم اهـ. ومعنى قوله تبـارك وتعالى: ﴿قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين﴾ أي قال له سادة قومه وكبراؤهم ووجوههم ورؤساؤهم

وأشرافهم وقادتهم رَادِّين دعوة التوحيد مكذبين برسول ربِّ العالمين الذي بعثه لهم لإنقـاذهم من الشرك والضـلالة : ﴿إنـا لنـراك في ضلال مبين﴾ أي إنـا لنعتقد أنك تائهٌ عن الحق، ضائعٌ عن الرشد، مائلٌ عن نهج آبائنا، واقعٌ في خطأ ظاهـرٍ وضلال بَيِّن. قـال ابن كثير رحمه الله : وهكذا حـال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة كقوله : ﴿وإذا رأوهـم قالوا إنَّ هٰؤلاء لضالون﴾ ﴿وقال الـذين كفروا للـذين آمنـوا لو كـان خيرا مـا سبقونـا إليـه ، وإذْ لم يهتدوا بـه فسيقـولون هٰذا إفك قـديم﴾ إلى غير ذلك من الآيـات اهــ. وقـولُه تبـارك وتعـالى : ﴿قـال يـا قومِ ليس بي ضـلالـة ولٰكني رسـول من رب العـالمين ❊ أُبَلِّغُكُمْ رسالاتِ ربي وأنصح لكم وأعلمُ من الله ما لا تعلمون ❊ أَوَعَجِبْتُم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون﴾ بيان شافٍ كافٍ وحجةٌ مفحمةٌ ملزمة من نوح عليه السلام وإيضاحٌ لمنهج الفلاح والـرشد والعـدل الذي يـدعو قـومه إليـه لينقذوا أنفسهم من النـار وغضب الجبار، فقد ردَّ عليهم ما ادَّعوه عليه من الضلال بأَنْ نَفَى عن نفسه أن يكون به أي نوعٍ من أنواع الضلالة ألبتة، ووصـف نفسه بما يكون به أبعد الخلق عن الضـلال، حيث اختاره الله عـز وجل ليكون رسـول الله إليهم، ولا شك أن رسـول رب العالمين يكـون متصفا بأشرف الصفـات وأجلها، وأهـدى قومـه طـريقا وأقْـوَمَهُم سبيـلا وأرجَحَهُم عقـلاً، وأعظمَهُم نصحًا، والمعـروف أن الرائد الناصح لا يكذب أهله، وأشار نـوح عليه السلام بأن الله تبارك وتعالى قد مـنَّ عليه بأنواع مـن العلوم التي تجلب لمن تمسك بها عـز الدنيـا وسعادة الآخرة ثم وجَّـه نوح عليه السـلام لقومه سـؤال توبيخ وتقريع : أَوَتستغـربون وتعجبـون وتستبعدون أن يجيئكم رسـول من ربكم يحمل لكم الـذكر الـذي يدلكم على طـريق الهدى ويرشـدكم إلى الصراط المستقيم ويخوفكم ويحذركم من أن يَحِلَّ بكم عـذاب من الله إن كـذبتم رسولـه وعصيتم أمـره، ولتعرفـوا

حدود الله فتجتنبوا محارمه، وتكونوا من المتقين، ولتنالكم رحمة الله إن آمنتم برسوله ووقفتم عند حدوده. وفي مناداة نوح عليه السلام قومه بقوله: يا قوم هو أسلوبٌ من أساليب استمالة قلوبهم نحو الحق، وتنبيهٌ على أن محمدا ﷺ ليس هو أول من كذبه قومه، وفي ذلك مواساة لرسول الله ﷺ، وتثبيتٌ لفؤاده صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين. وفي قوله: ﴿ولَكني رسول من رب العالمين﴾ استدراك مما قبله باعتبار ما يستلزمه من كونه في أقصى مراتب الهداية، فإن رسالة رب العالمين مستلزمة له لا محالة، وقولُه: ﴿أبلغكم رسالات ربي﴾ استئناف مسوق لتقرير رسالته وتفصيل أحكامها وأحوالها، وجمع الرسالات لتنوع معانيها، وتعدد مطالبها، وفي قوله: ﴿وأنصح لكم﴾ تنبيه على أنه إنما يريد لهم الخير ويحب لهم ما يحب لنفسه، والهمزة في قوله: ﴿أَوَعجبتم﴾ للاستفهام الإنكاري والواو للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام كأنه قيل: أَسْتَبْعَدْتُم وعجبتم من أن جاءكم ذكر من سيدكم ومالككم ومربيكم ومصلح أموركم أنزله على رجل منكم تعرفون صدقه ونسبه، قال ابن جرير: : وفتحت الواو من قوله: ﴿أَوَعجبتم﴾ لأنها واو عطف دخلت عليها أَلِف الاستفهام اهـ وسبيل الواو أن تدخل على حروف الاستفهام كقوله تعالى: ﴿وهل نُجَازِي إلا الكفور﴾ إلا الألف فإنها تدخل على الواو ولا تدخل عليها الواو. ولما كانت أعظم وظائف النبيين والمرسلين هي دعوة الخلق إلى عبادة الخالق وحده لا شريك له أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك حيث قال في مطلع قصة نوح: ﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلَه غيره﴾ وقال في مطلع قصة هود بعدها: ﴿وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلَه غيره﴾ وقال في مطلع قصة صالح: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلَه غيره﴾ فالدعوة إلى التوحيد هي أهم وظائف

المرسلين وقولُه تبارك وتعالى: ﴿فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفُلْك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا، إنهم كانوا قوما عَمِينَ﴾ بيان لما أصاب قوم نوح عليه السلام من العقوبة لما تمادَوا على تكذيبه ومخالفة أمره، وأن الله عز وجل قد انتقم لأوليائه من أعدائه وخلَّص رسوله والمؤمنين من مكرهم وكيدهم، ونصر نبيه نوحا عليه السلام. وفي هذا تحذير لكفار قريش وغيرهم من المكذبين بمحمد ﷺ ليحذروا حتى لا يصيبهم ما أصاب قوم نوح عليه السلام، ومعنى قوله عز وجل:﴿إنهم كانوا قوما عمين﴾ أي إن قوم نوح الذين كذبوا وأصروا على الكفر مع طول المدة التي لبثها فيهم وكثرة نصحه لهم بالليل والنهار وفي السر والعلانية، كما قال عز وجل في سورة نوح: ﴿قال ربِّ إني دعوت قومي ليلا ونهارا * فلم يزدهم دعائي إلا فرارا * وإني كلما دعوتُهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستَغْشَوْا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا * ثم إني دعوتهم جهارا * ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا﴾ فانتقم الله عز وجل منهم، وسلط عليهم الطوفان لأن قلوبهم قد عميت عن الحق، وانطمست بصائرهم عن معرفة الله عز وجل والإيمان به وبرسوله ﷺ، يقال: رجلٌ عَمٍ إذا كان أعمى القلب وجمعه عَمُونَ، ويطلق كذلك على من انغلق عليه الأمر وجهل عاقبته كما قال زهير بن أبى سلمى المزني في معلقته المشهورة:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ... ولكنني عن علم ما في غد عَمِ

وقد ذكر الله تبارك وتعالى عقوبته لقوم نوح عليه السلام لما أصروا على تكذيبه ﷺ فقال في سورة الصافات: ﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون * ونجيناه وأهله من الكرب العظيم * وجعلنا ذريته هم الباقين * وتركنا عليه في الآخرِين * سلام على نوح في العالمين * إنا كذٰلك نَجزي المحسنين *إنه من عبادنا المؤمنين * ثم أغرقنا الآخَرين﴾. وقال في سورة القمر: ﴿كذبت

قبلهم قوم نـوح فكذبوا عبدنـا وقالوا مجنـون وازدجر * فدعا ربـه أني مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمـر قد قُـدِرَ * وحملناه على ذات ألـواح ودسر * تجري بأعيننا جـزاءً لمن كان كُفِرَ * ولقد تركناها آية فهل من مدكر * فكيف كان عذابي ونذر﴾ .

وقـال تعـالى في سورة الحاقـة : ﴿إنـا لما طغى الماء حملنـاكم في الجاريـة * لنجعلها لكم تذكـرة وتعيها أذن واعية﴾ وقال في سورة الأنبيـاء : ﴿ونوحا إذ نادى من قبلُ فـاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكـرب العظيم * ونصرناه من القوم الـذين كذبوا بآيـاتنا إنهم كانـوا قوم سَوْءٍ فأغرقنـاهم أجمعين﴾ وقال في سـورة هود : ﴿وأُوحي إلى نـوح أنه لن يـؤمن من قـومك إلا من قد آمن فـلا تبتئس بما كانوا يفعلون * واصنع الفلك بـأعيننا ووحينا ولاتخاطبني فى الذين ظلموا إنهم مغرقون * ويصنع الفلك وكلما مر عليـه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون * فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يُخزيـه ويَحِلُّ عليه عذاب مقيم * حتى إذا جـاء أمرنا وفار التنـور قلنا احمل فيهـا مـــن كلٍّ زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القـول ومن آمن وما آمن معـه إلا قليل * وقال اركبـوا فيها بـاسم الله مجريها ومرسـاها إن ربي لغفـور رحيم﴾ وقـال فى سـورة المؤمنـون : ﴿قـال رب انصرني بما كـذبـون * فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليـه القول منهم ولا تخاطبني في الـذين ظلموا إنهم مغـرقـون * فإذا استـويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجـانا من القوم الظالمين * وقل رب أنزلني مُنـزلا مباركا وأنت خير المنزلين * إن في ذُلك لآيات و إن كنا لمبتلين﴾ .

قال تعالى: ﴿وإلى عـاد أخاهم هودا، قال يا قـوم اعبدوا الله ما لكم من إلَه غيره، أفـلا تتقون * قال الملأ الـذين كفروا من قومـه إنَّا لنراك في سفـاهة وإنَّا لنظنك من الكاذبين * قال يا قـوم ليس بِي سفاهة ولَكني رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربي وأنـا لكم ناصح أمين * أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينـذركم، واذكروا إذ جعلكم خلفـاء من بعد قوم نـوح وزادكم في الخلق بصّطـة فاذكـروا ءالاء الله لعلكم تفلحون * قـالوا أجئتنا لنعبـد الله وحده ونذر مـا كان يعبد آبـاؤنا فأتنا بما تعـدنا إن كنت من الصـادقين * قـال قـد وقع عليكم مـن ربكم رجس وغضب أتجادلـونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نـزّل الله بها من سلطان، فانتظروا إني معكم من المنتظـرين * فأنجيناه والـذين معه بـرحمة منا وقطعنـا دابر الـذين كذبـوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعـالى قصة نوح عليه السلام وأنه عليـه السلام دعا قومـه إلى عبادة الله وحده لا شريك لـه، وأن قومـه كذبوه، فأغـرقهم الله عز وجل بالطـوفان وأنجى نـوحا والذين معـه في الفلك، أَتْبَعَ ذلك بذكـر قصة هود عليه السلام مع قومه، فذكر دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأن قومه كـذبوه وسفَّهُوهُ، وأن هودا عليه السـلام أجابهم بالحجة القـاطعة والآية الساطعـة فأصروا على ضلالهم وسفاهتهم واستعجلوا عـذاب الله فانتصر الله عز وجل لهود عليه السـلام والذين آمنوا معه وقَطَعَ دابِر المكـذبين الكافرين. وفي ذلك يقول: ﴿وإلى عادٍ أخاهم هُودًا، قـال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلَه غيرُهُ، أفلا تتقون﴾ إلى قولـه: ﴿وقَطَعْنَا دَابِرَ الذين كذبوا بآيـاتنا وما كانوا مؤمنين﴾ وعاد قوم هـود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقـاف الواقعة باليمن بين عُمَان وحضرموت المطلـة على البحر بناحيـة الشَّحْر، وتصل إلى الـدهناء

وعالج، والأحقاف جمع حقف وهو المعوج من الرمل أو الرمل العظيم المستدير المستطيل المشرف، وهودٌ عليه السلام هو أول رسول عربى ذكر الله عز وجل قصته في القرآن الكريم، ومعنى قوله عز وجل: ﴿وإلى عاد أخاهم هودا﴾ أي ولقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا كأنه قيل: لقد أرسلنا نوحا إلى قومه وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودا، ومعنى كونه أخاهم أي واحدا منهم في النسب، كما تقول لرجل عربي: يا أخا العرب بغض النظر عن دينه ومذهبه. كما تطلق الأخوة على المصاحبة والمخالطة، وقد وُصِفَ رسولُ الله ﷺ بأنه أخو قريش وصاحب قريش كما قال عز وجل: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿أفلا تتقون﴾ أي أفلا تخافون انتقام الله عز وجل منكم إذا عبدتم غيره وأشركتم به ما لم ينزل عليكم به سلطانا، وهو وحده خالقكم ورازقكم، فاتقوه واجتنبوا أسباب سخطه، وقفوا عند حدوده، حتى لا يحل بكم عذاب من الله كما حل بقوم نوح عليه السلام.

وقوله عز وجل: ﴿قالَ الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ بيانٌ لما قابل به قومُ هود دعوته لهم وما نَصَحَهُمْ به حيث وَاجَهُوهُ بقبيح الكلام ووصفوه عليه السلام بأنه مستغرق في السفاهة والطيش والبُعْد عن الحِلْم والعقل، متمكن في الضلال ومفارقة الحق والصواب والرشد. كما أعلنوا له أنهم لا يصدقونه بحال، وقولُه تبارك وتعالى: ﴿قال يا قوم ليس به سفاهةٌ ولَكني رسول من رب العالمين * أُبَلِّغُكُمْ رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾ بيانٌ لما أجاب به هود عليه السلام قومَهُ على ما نسبوه إليه من السفاهة والكذب حيث لم يقابل سفاهتهم بالسفاهة بل قابلها بالحِلْم والإغضاء والرزانة وكمال الشفقة والرأفة والإحسان كما فعل رسول الله نوح عليه السلام مع قومه، وفي هذا إشعار بأن رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم كانوا في أعلى الذروة من مكارم الأخلاق، وصبروا على ما

أصابهم في الله عز وجل، وفي هذا مواساةٌ لرسول الله ﷺ على أكمل وجه من وجوه المواساة، والفرق بين قوله في قصة نوح عليه السلام: ﴿وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ وقولِه في قصة هود عليه السلام: ﴿وأنا لكم ناصح أمين﴾ هو أن ما ذكره نوح عليه السلام هو جملة فعلية تدل على التجدد والحدوث، وما ذكره هود عليه السلام هو جملة اسمية تدل على الثبوت والاستقرار والاستمرار. ومن المقرر في علم المعانى من علوم البلاغة أن الجملة الفعلية تفيد الاستمرار التجددي إذا كان فعلها مضارعا كما أن الجملة الاسمية تفيد الدوام والاستمرار إذا كان خبرها مفردا، ولا شك أن نوحا عليه السلام قد ذكر الله عز وجل عنه ما يفيد أنه كان يجدد كثيرا دعوته لقومه كما أشار إلى ذلك قوله: ﴿قال رب إني دعوت قومى ليلا ونهارا﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاءَ من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصْطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾ تأكيد لكونه عليه السلام كان ناصِحًا أمينا حريصا على نجاة قومه من المهالك وتحذيرهم من أن يصيبهم ما أصاب قوم نوح من قبلهم، ولا شك أنهم كانوا على علم بما أصاب قوم نوح عليه السلام، وقد ذكَّرهم هود ﷺ بنوعين من نعم الله العظيمة الجليلة عليهم: الأول: أنه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح الذين أهلكهم الله بدعوته وجعلهم من ذرية الصالحين الذين نجاهم من الطوفان وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم. والثاني: أنه زادهم في الخلق بصطة. أي شدة بأس وقوة ومنحهم أجساما لم تمنح لسواهم، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ما كان عليه قوم هود من البسطة في الخلق والجسم إذ ذكر عز وجل أنه لم يُخْلَقْ مثلُهم في البلاد، وأنهم كالنخيل في عظم الأجسام حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بِعَادٍ * إرَمَ ذاتِ العماد * التى لم يُخْلَقْ مِثْلُهَا في البلاد﴾ وقال عز وجل: ﴿وأما عادٌ فَأُهْلِكُوا بريح صرصر عاتية * سخرها

عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيام حسوما فترى القوم فيها صَرْعَى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ . قال ابن جرير رحمه الله : القول في تأويل قوله : ﴿أُبَلِّغُكُم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين * أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخَلْقِ بصْطة فاذكروا ءَالاء الله لعلكم تفلحون﴾ قال أبوجعفر: يعني بقوله : ﴿أبلغكم رسالات ربي﴾ أؤدي ذلك إليكم أيها القوم ﴿وأنا لكم ناصح أمين﴾ يقول وأنا لكم في أمري إياكم بعبادة الله دون ما سواه من الأنداد والآلهة ، ودعائكم إلى تصديقي فيما جئتكم به من عند الله ناصحٌ فاقبلوا نصيحتي ، فإني أمين على وحي الله ، وعلى ما ائتمنني الله عليه من الرسالة ، لا أكذب فيه ولا أزيد ولا أبدل بل أُبَلِّغُ ما أُمِرتُ كما أُمرْتُ ﴿أَوَعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم﴾ يقول : أوعجبتم أن أنزل الله وحيه بتذكيركم وعظتكم على ما أنتم عليه مقيمون من الضلالة على رجل منكم لينذركم بأس الله ويخوفكم عقابه ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ يقول : فاتقوا الله في أنفسكم واذكروا ما حل بقوم نوح من العذاب إذ عَصَوْا رسولهم ، وكفروا بربهم ، فإنكم إنما جعلكم ربكم خلفاء في الأرض منهم ، لما أهلكهم أبدلكم منهم فيها ، فاتقوا الله أن يحل بكم نظير ما حل بهم من العقوبة ، فيهلككم ويبدل منكم غيركم ، سنته في قوم نوح قبلكم على معصيتكم إياه وكفركم به ﴿وزادكم في الخلق بصْطة﴾ زاد في أجسامكم طولا وعِظَمًا على أجسام قوم نوح ، وفي قُواكم على قُواهم ، نعمة منه بذلك عليكم ، فاذكروا نعمه وفضله الذي فضلكم به عليهم في أجسامكم وقُواكم ، واشكروا الله على ذلك بإخلاص العبادة له ، وترك الإشراك به ، وهجر الأوثان والأنداد ﴿لعلكم تفلحون﴾ يقول : كي تفلحوا فتدركوا الخلود والبقاء في النعيم في الآخرة ، وتنجحوا في طلباتكم عنده اهـ . وقولُه تبارك

وتعالى: ﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذرَ ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ بيانٌ لموقف قوم هود منه لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وما نصحهم به وحذرهم من أن يصيبهم ما أصاب المكذبين من قوم نوح قبلهم فكان جوابُهم أن أنكروا على هود ﷺ مَجِيئَهُ بدعوة توحيد الله عز وجل وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، والإعراض عن عبادة الأصنام والأوثان، واستعجلوا ما توعدهم به من عذاب الله على كفرهم بالله وتكذيبهم لرسول الله ﷺ، وطلبوا منه أن يأتيهم بالعذاب إن كان من الصادقين فيما يقول ويتوعد، وموقف كفار قوم هود شبيه بموقف كفار قريش من رسول الله ﷺ لما دعاهم إلى توحيد الله عز وجل وتوعدهم بالعذاب إن أصروا على تكذيبه ﷺ حيث أنكروا عليه دعوة التوحيد واستعجلوا العذاب كما قال عز وجل: ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هٰذا ساحر كذاب * أجعل الآلهة إلٰهًا واحدا إنَّ هذا لشيء عُجَابٌ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب﴾ وقولُه عز وجل: ﴿قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماءٍ سميتموها أنتم وآباؤكم ما نَزَّل الله بها من سلطان، فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أي قد حل بكم وقرب من ساحتكم عذاب من الله وسخط بسبب انقيادكم للشيطان الذي استولى على قلوبكم فضاقت بالحق وانشرحت للباطل كما قال عز وجل: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرحْ صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حَرَجًا كأنما يَصَّعَّدُ في السماء، كذٰلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ والتعبير بقوله ﴿قد وقع﴾ لتحقق مجيئه، كما قال عز وجل: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ ومعنى: ﴿أتجادلونني في أسماءٍ سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان، فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أي أتخاصمونني في هذه الأصنام التي

سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة وعبدتموها وهي لا تضر ولا تنفع وما جعل الله لكم على عبادتها برهانا ولا حجة ولا دليلا، فارتقبوا عذاب الله على كفركم به وتكذيبكم لرسوله ﷺ إني معكم من المرتقبين لما يقع عليكم من عقاب الله الذي ينصرنا به عليكم، وقولُه تعالى: ﴿فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين﴾ أي فخلَّصنا هودا والذين آمنوا معه من مكر كفار قومه ونصرناه عليهم وشملناه برحمتنا وإحساننا واستأصلنا المكذبين فلم نُبقِ منهم أحدا، لأنهم كذبوا بحججنا ولم يكونوا مصدقين بالله وبرسوله هود عليه السلام. وقد ذكر الله تبارك وتعالى في مواضع من كتابه الكريم أنه أهلك عادا بالريح حيث يقول: ﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم * ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وأما عادٌ فأُهلكوا بريح صرصر عاتية * سخَّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية﴾ وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: نُصرتُ بالصَّبَا وأُهْلِكتْ عاد بالدَّبُورِ.

قال تعالى: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم * واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين * قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه، قالوا إنَّا بما أرسل به مؤمنون * قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون * فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين * فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين * فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى قصة هود عليه السلام مع قومه وأنه دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن قومه كذبوه وسَفَّهُوهُ، وأن هودا عليه السلام شرح لهم دعوته بالحجة القاطعة فأصروا على ضلالهم وسفاهتهم، واستعجلوا عذاب الله، فانتصر الله عز وجل لِهُودٍ والذين آمنوا معه وقطع دابر الكافرين. أتبع ذلك بذكر قصة صالح عليه السلام مع قومه ثمود، وأنه دعاهم إلى عبادة الله وقد أيده الله عز وجل بمعجزة قاهرة ظاهرة وهي ناقة الله، وطلب منهم أن يتركوها تأكل في أرض الله وأن لا يتعرضوا لها بأذى، وحذرهم من أنهم إن تعرضوا لها بأذى أصابهم عذاب مؤلم، ونبههم إلى أنهم خلفاء لقوم هود الذين أهلكهم الله لما أصروا على تكذيبه، وذكَّر صالح قومه بنعم الله عليهم وأَمَرَهُم بالإيمان بالله وبشكر نعمه وأن لا يفسدوا في الأرض، فلم يسمعوا ولم يطيعوا، وعقروا الناقة واستعجلوا عذاب

الله فأخذتهم الـرجفة فأهلكتهم، وخلَّص الله عز وجل صالحا والـذين آمنوا معـه من شرهم ومكـرهم، وفي ذلك يقـول عز وجل: ﴿وإِلَى ثَمُـودَ أخـاهـم صالِحًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلَه غيره﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿فتولى عنهم وقـال يا قـوم لقـد أبلغتكم رسالـة ربي ونصحت لكم ولَكن لا تحبـون الناصحين﴾ وصالحٌ عليه السلام هو ثـاني رسول عربي بعد هود صلوات الله وسلامـه عليهما بعثه الله في جزيرة العـرب، وقد أرسله الله عز وجل إلى قـومه ثمود، وكانوا يسكنون الحِجْر وهي الأرض المعـروفة باسم ديار ثمود أو مدائن صالـح وتقع على بُعد نحـو ثمانين وثلثمائة «كيلو متر» شمال غرب مـن المدينة المنورة، ويقع في جنوبيها الآن مدينة العلا، ولايزال بعض آبارها ولاسيما البئر المعروفـة ببئر الناقـة باقية إلى الآن، كما لا تزال آثـار ثمود من البيوت والمقـابر موجودة حتى الآن وبخاصة البيوت التي كـانوا ينحتونها في الجبال. وقوله عز وجل: ﴿وإلى ثمـود أَخـاهـم صـالحا﴾ أي ولقـد أرسلنـا إلى ثمـود أخـاهـم صـالحا. ومعنى قـولـه عز وجل: ﴿قـد جـاءتكم بينـة من ربكم﴾ أي قـد جـاءتكم حجة من الله وبـرهان ظـاهـر بتأييدي من ربكم، لتعـريفكم بأني صادق فيما أبلغكـم عن الله عز وجل وأدعـوكم إليه من إخـلاص العبادة لله وحده وأني رسـول الله إليكم، والظاهر أن صالحا عليـه السلام قد جاء قـومه بحجج وبـراهين وآيـات فلم يؤمنـوا بها كما قـال عز وجـل: ﴿ولقد كـذَّب أصحابُ الحجر المرسلين * وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين﴾ وطلبوا منه آية معينة ليؤمنوا إذا جـاءتهم وتحدَّوْه بذلك، فحذرهم بأنهم إذا جاءتهم الآية التي يطلبـونها ولم يؤمنـوا فإنهم يأتيهم عـذاب قـريب، كما قال عـز وجل في سورة الشعـراء: ﴿قالوا إنما أنت من المُسَحَّرين * مـا أنت إلا بشرٌ مثلُنا فأت بـآية إن كنت من الصـادقين﴾ فأيَّـد الله عز وجل نبيـه ورسـوله صـالحا ﷺ وأخـرج لهم ناقـة من الصخر وكـانت آيةً مبصرة أي واضحـة جلية ومعجـزة

ظاهـرة دالة على قـدرة الله ووحدانيتـه في ألوهيتـه وربوبيتـه وأسمائه الحسنى وصفاته العُلَى، وكـانت هذه الآية مشتملة على آيـات، فهي قادرة على شرب جميع مياههم، لكن صـالحا عليه السلام اتفق معهم على أنها تشرب يـوما لا يشاركـونها في الماء ويشربون يوما لا تشـاركهم في الماء، ونهاهم صالح ﷺ أن يمسوها بِسُوءٍ. وقـولُه تعالى: ﴿هٰذه ناقة الله لكم آيـة فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسُوء فيأخُذَكم عذاب أليم﴾ بإضـافة الناقة إلى الله مع ما فيها من تشريف النـاقة فهي من إضـافة الخلق إلى الخالق. أي هـذه الناقـة التي أخرجها لكم الله عز وجل من الصخر هي ناقة الله التي جعلها لكم آية قاهرة ومعجزة ظاهـرة دالة على أن الله لا يعجزه شيء، فاتـركوا هذه الناقـة ترعى في أرض الله ولا تقـربوهـا بأذى، إنكم إن مسستمـوهـا بسوء حل بكم عـذاب مـوجع كما قال عـز وجل في سـورة هود: ﴿ويـا قوم هـٰذه نـاقة الله لكم آيـة فذروهـا تأكل في أرض الله ولا تمسوهـا بسُوء فيأخـذكم عذاب قـريب﴾ وقد حذَّر صالح ﷺ قومه من أن يتعرضوا للناقة بأذى في نفسها أو مطعمها، كما حذرهـم من التعرض لسقيـاها حيث قـال عز وجل: ﴿فقـال لهم رسولُ الله ناقةَ الله وسقياها﴾ وقولُـه تبارك وتعالى: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبـوأكم في الأرض تتخذون من سهـولها قصورا وتنحتـون الجبال بيـوتا، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ تحذيرٌ من صالح ﷺ لقومه من أن يصيبهم إن أصروا على تكذيبه عذابٌ مثل العذاب الذي أصاب قوم هودٍ عليه السلام لما أصروا على تكذيبـه، وهم على علم بما جرى لقوم هود وأن الله عز وجل قطع دابرهم، وتحريضٌ لهم على الإيمان بـالله ورسوله وشكر نعم الله التي امتن عليهم بها حيث أنـزلهم وبوأهم في الأرض منـزلا يأمنون فيـه، وقد يَسَّرَ لهم العيش الـرغيد والمساكـن المريحة التي يتمتعون في بعضهـا صيفا وفي بعضها في الشتـاء حيث كـانوا يتخذون مـن سهول الأرض قصـورا وينحتون

الجبال بيوتا وقد امتلأت أرضهم بالجنات والبساتين والعيون والزروع والنخيل كما قال عز وجل: ﴿أتتركون فيما هَـٰهُنَا آمنين * في جناتٍ وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم * وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين * فاتقوا الله وأطيعون﴾. وقد أكَّد صالح ﷺ على قومه أن يعرفوا نِعَمَ الله عليهم وأن يشكروه عليها وأن يلهجوا بالثناء على الله الذي تفضل عليهم بهذه الآلاء وحذَّرهم أشد التحذير أن يَعْثَوْا في الأرض مفسدين، وقولُه تبارك وتعالى: ﴿قال الملأ الذي استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسلٌ من ربه قالوا إنَّا بما أُرْسِلَ به مؤمنون * قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾. قال ابن جرير رحمه الله: قال أبوجعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ قال الجماعة الذين استكبروا من قوم صالح عن اتِّباع صالح والإيمان بالله وبه ﴿للذين اسْتُضْعِفُوا﴾ يعني: لأهلِ المسكنة من تُبَّاعِ صالحٍ والمؤمنين به منهم دون ذَوِي شَرَفِهم وأهلِ السؤدد منهم ﴿أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه﴾ أرسله الله إلينا وإليكم، قال الذين آمنوا بصالح من المستضعفين منهم: إنا بما أرسل الله به صالحًا من الحق والهُدَى مؤمنون. يقول: مصدقون مُقِرُّون أنه من عند الله، وأن الله أمَرَ به، وعن أمر الله دعانا صالح ﴿قال الذين استكبروا﴾ عن أمر الله وأمر رسوله صالح ﴿إنَّا﴾ أيها القوم ﴿بالذى آمنتم به﴾ يقول: صَدَّقْتُم به من نبوة صالح، وأن الذى جاء به حق من عند الله ﴿كافرون﴾ يقول: جاحدون منكرون لا نُصَدِّق به ولا نُقِرُّ اهـ. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿فَعَقَرُوا الناقة وعَتَوْا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنتم من المرسلين * فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين﴾ أي فَقَطَعُوا قوائم الناقة حتى سقطت على الأرض ونحروها، وتكبروا وتَجَبَّرُوا عن اتِّباع صالح ﷺ واستَعْلَوا عن الحق، وقالوا يا صالح: هات ما تعدنا من

عـذاب الله ونقمته إن كـان الله قـد أرسلك إلينـا ، استعجالا للعـذاب تهكما منهم وجهـلا ، فسلط الله عز وجل عليهم صيحـة زعزعتهم وحـركتهم حتى سقطوا صرعى منكفئين على رُكَبِهم ميتين لا حـراك بهم . وقد ذكـر الله تبارك وتعالى أنهم لما استعجلوا العذاب قال لهم صـالح ﷺ : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعـد غير مكذوب ، وقد أصر تسعـة رهط من المفسدين في الأرض على قتل صالح و إلحاقه بالناقة ، وتقـاسموا بالله لَنُبَيِّتَنَّهُ وأهله أي لنكبسنَّهُ في داره بـالليل مع أهلـه فلنقتلنـه ولنجحـدن قتلـه فلنقـولن لأوليـاء دمـه من المشركين : ما شهدنا مهلكه ولا مهلك أهله و إنا لصادقون ، ودَبَّرُوا ودَبَّرَ الله ، فنجاه ومن معـه من المؤمنين وأرسل الله عز وجل عليهم الصيحـة من فوقهم ورجفـة من تحتهم كما قال عـز وجل : ﴿ومكـروا مكرا ومكـرنا مكـرا وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبـة مكرهم أنا دمَّرناهم وقومهم أجمعين﴾ وكما قال عز وجل : ﴿فلما جاء أمرنا نجينا صـالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خـزي يومئـذ إن ربك هـو القـوي العزيـز * وأخـذ الذيـن ظلموا الصيحـةُ فأصبحـوا في دارهم جاثمين * كأن لم يَغْنَـوْا فيها أَلاَ إن ثمـود كفروا ربهم ألا بُعْدًا لثمود﴾ وكما قال عـز وجل : ﴿فأخذتهم الصيحة مصبحين * فما أغنى عنهم ما كـانوا يكسبـون﴾ وكما قال عـز وجل : ﴿فنادَوْا صاحبهـم فتعاطى فعقـر فكيف كان عـذابي ونذر * إنـا أرسلنـا عليهم صيحة واحـدة فكانـوا كهشيم المحتظر﴾ وكما قـال عز وجل : ﴿كـذبت ثمود بطغـواها * إذ انبعث أشقاها * فقال لهم رسولُ الله ناقةَ الله وسقياهـا * فكذبوه فعقروها * فَدَمْدَمَ عليهم ربهم بذنبهـم فسواها * ولا يخاف عقبـاها﴾ . وفي إسنـاد عقر النـاقة إليهم مع أن الذى عقرها هو أشقى ثمـود وحده لأنهم جميعا راضون بعقرها ، وهم الذيـن دعوه إلى عقرهـا كما قال عـز وجل : ﴿فنادوا صاحبهـم فتعاطى فعقر﴾ وقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن زمعة قال : خطب

رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكَرَ الذي عقرها فقال: ﴿إذِ انبعث أشقاها﴾ انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين﴾ هذا إخبار من الله عز وجل عن خروج صالح من بين قومه الذين عَتَوْا عن أمر ربهم حين أراد الله إحلالَ العقوبة بهم وإرسالَ العذاب عليهم وقال لهم صالح عليه السلام: لقد أديت لكم ما أمرني الله بأدائه إليكم من الرسالة، وبذلت لكم النصح في تحذيركم من سوء ما يصيبكم إن أصررتم على الكفر بالله وتكذيب رسوله، ولكنكم لا تحبون الناصحين لكم في الله، الناهين لكم عن اتباع أهوائكم وشهوات أنفسكم التي تشقيكم في الدنيا والآخرة. هذا وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما مَرَّ رسول الله ﷺ بالحجر قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين، ثم قَنَّع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي. كما روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحِجْر أرض ثمود فاستَقَوْا من آبارها وعَجَنُوا به العجين فأمرهم رسولُ الله ﷺ أن يُهَرِيقُوا ما استقَوا، ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تَرِدُها الناقة. هذا ولا ذكر لعاد وثمود في الكتب التي بيد اليهود والنصارى من كتب العهد القديم أو الجديد مما يُشعر بأن اليهود قد حَرَصُوا على إزالة كل ذكر للنبوة في الأمة العربية حسدا للعرب، وكراهية أن تكون النبوة في غير بني إسرائيل، وقد ورد في القرآن العظيم ما يقرر أن موسى ﷺ قد حذر بني إسرائيل من أن يحل بهم ما حل بقوم هود وقوم صالح حيث يقول عز وجل: ﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود﴾ الآية.

قال تعالى : ﴿ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء، بل أنتم قوم مسرفون * وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون * فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين * وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ .

بعد أن ذكر عز وجل قصة صالح ﷺ وأنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن الله عز وجل أيده بمعجزة ظاهرة وآية مبصرة حيث أخرج لهم من الصخر ناقة، وقد حذرهم صالح ﷺ من أن يمسوها بسُوء وأنهم إن تعرضوا لها بأذى أصابهم عذاب أليم، وذكَّرهم بنعم الله عليهم إذ جعلهم خلفاء من بعد عاد وبوأهم في الأرض يتخذون من سهولها قصوراً وينحتون الجبال بيوتا ونهاهم أن يعثوا في الأرض مفسدين، وأن المستكبرين في الأرض من رؤسائهم حاولوا فتنة المستضعفين من المؤمنين، وأن هؤلاء المستضعفين من المؤمنين أعلنوا أنهم مؤمنون بالله ومصدقون برسوله صالح ﷺ وأن الذين استكبروا عتوا عن أمر ربهم وعقروا الناقة واستعجلوا العذاب فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين وأن الله تبارك وتعالى خَلَّص صالحا والمؤمنين من شرورهم وردَّ كيدهم إلى نحورهم، أتبع ذلك بذكر قصة لوط عليه السلام، حيث يقول عز وجل: ﴿ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ وقولُه عز وجل : ﴿ولوطا﴾ أي ولقد أرسلنا لوطا، وقد كان لوط عليه السلام من أهل بابل المعروفة ببلاد الكلدانيين، وقد آمن لإبراهيم عليه السلام وهاجر معه إلى فلسطين، وقد بعثه الله عز وجل إلى أهل سدوم وما حولها من دائرة الأردن وكانوا من أكفر

خلق الله وأفجرهم، ولم يكن لهم اسم معروف يجمعهم كعاد وثمود ومدين ولذلك جاء التعبير البلاغي بقوله: ﴿ولوطا﴾ مغايرا للتعبير في قصة هود وصالح وشعيب حيث قال: ﴿وإلى عاد أخاهم هودا﴾ وقال: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا﴾ وقال: ﴿وإلى مدينَ أخاهم شعيبا﴾.

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن لوطا عليه السلام بدأ قومه بدعوتهم إلى توحيد الله وتقواه حيث يقول: ﴿كذبت قوم لوط المرسلين * إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين * أتأتون الذكران من العالمين﴾ والمراد من الأخوة في قوله تعالى: ﴿إذ قال لهم أخوهم لوط﴾ هي الخلطة والمصاحبة لا أخوة الدين أو النسب أو السلوك. وقد كانت رسل الله صلى الله عليهم وسلم يبدءون قومهم بعد دعوتهم إلى توحيد الله بنهيهم عن أكبر جرائمهم كما ظهر في دعوة لوط عليه السلام وكما فعل شعيب عليه السلام حيث بدأ بتحذير قومه من بخس الكيل والميزان، ولذلك قال لوط عليه السلام لقومه: ﴿أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون﴾ أي أتفعلون تلك الفعلة المتناهية في القبح وترتكبون هذه الجريمة البشعة التي ابتدعتموها في الفجور، لم يسبقكم إليها أحد من العالمين، لنفرة الطباع منها، والاشمئزاز من مقارفتها، مع ما فيها من محاربة الفطرة، والاستفهام للتوبيخ والتقريع والإنكار. وجملة: ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ مستأنفة لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ والتقريع. وقوله: ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾ زيادة في تأكيد الإنكار والتوبيخ والتقريع، وقد أُكِّدَ بإن واللام واسمية الجملة، والمقصودُ منه بيانُ تلك الفاحشة الفظيعة، والتنفيرُ منها بأقوى أدوات التنفير، أي إنكم لَيَنْزُو ذكُورُكُم على ذكوركم لانقلاب

فِطَرِكم حتى ارتكبتم الطامة من الفواحش واشتهيتم الرجس النجس بمقارفة الذكور وتركتم السبيل السوي من شهوة النساء، وشذذتم في شهوتكم عن العالمين. وقد أطبقت أمم الأرض على استنكار هذه الجريمة ونفرت منها البهائم وسائر الحيوانات العجماوات إلا الخنزير والحمار، ولذلك جعل الله تبارك وتعالى عقوبة قوم لوط أن تنقلب الأرض بهم كما انقلبت فطرتهم وأن يجعل عاليها سافلها ثم يُمْطِر عليهم حجارة من سجيل. لأنهم أسرفوا في جريمتهم وتجاوزوا كل حد. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وكان عذابُ كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم، فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية التي لا يقوم لها شيء، وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم، فجمع لهم بين الهلاك والرجم بالحجارة من السماء وطمس الأبصار، وقلب ديارهم عليهم بأن جعل عاليها سافلها، والخسف بهم إلى أسفل سافلين، وعذب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان اهـ. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿وما كان جوابَ قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أُنَاسٌ يتطهرون * فأنجيناه وأهلَه إلا امرأته كانت من الغابرين *وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ بيان لجواب قوم لوط عليه السلام وأنهم لم يقابلوا دعوته عليه السلام التي دعاهم فيها لسعادتهم ونجاتهم وما نصحهم به بجواب من الأجوبة إلا قول بعضهم لبعض: أخرجوا لوطا ومن معه من أهله المؤمنين أي إلا هذا الكلام الذي يستحيل في نظر ذوي الفطر المستقيمة أن يكون جوابا لكلام لوط عليه السلام وردًّا على ما وجَّهَهُ لهم من النصح والإرشاد وسعادة الدارين، وليس المراد أنه لم يصدر عنهم جوابٌ عن مقالات لوط عليه السلام ومواعظه إلا هذه المقالة الباطلة كما هو المتسارع إلى الأفهام بل المراد أنه لم يصدر عنهم في المرة الأخيرة من مرات المحاورات الجارية بينهم

وبين لوط عليه السلام إلا هذه الكلمة الشنيعة، وإلا فقد صدر عنهم قبل ذلك كثير من الترهات حسبما حكي عنهم في سائر السور الكريمة، وهذا هو الوجه في نظائره الواردة بطريق القصر كما قال أبوالسعود العمادي في تفسيره. وقولُه عز وجل: ﴿إنهم أناسٌ يتطهرون﴾ تشنيع على قوم لوط بأنهم عابوا لوطا ومن معه من المؤمنين بغير عيب، وجعلوا علة الأمر بإخراج لوط والمؤمنين من قريتهم هو تنزههم وتطهرهم من الفواحش والخبائث، وافتخروا بما هم فيه من القذارة، وهكذا حال من انقلبت فِطَرُهُم «كالشيوعيين» في عصرنا الحاضر، وقولُه تبارك وتعالى: ﴿فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين * وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ بيان لنجاة المؤمنين وهلاك الكافرين. ومعنى قوله: ﴿كانت من الغابرين﴾ أي كانت من الهالكين، ومعنى: ﴿وأمطرنا عليهم مطرا﴾ أي وأرسلنا عليهم حاصبا وأسقطنا عليهم حجارة من سجيل. وقد بين الله تبارك وتعالى في مواضع من كتابه الكريم كيفية إنجاء لوط ومن آمن معه من أهله وكيفية إهلاك الذين كذبوه حيث يقول عز وجل في سورة هود: ﴿ولما جاءت رسلنا لوطا سِيءَ بهم وضاق بهم ذَرْعًا وقال هٰذا يوم عصيب * وجاءه قومه يُهْرَعُونَ إليه ومن قبلُ كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هٰؤلاء بناتي «يعني زوجاتكم» هُنَّ أطهر لكم فاتقوا الله ولا تُخْزُونِ في ضيفي أليس منكم رجل رشيد * قالوا لقد علمتَ ما لنا في بناتك من حق «أي من رغبة وشهوة» وإنك لتعلم ما نريد * قال لو أن لي بكم قوة أو آوِي إلى ركن شديد * قالوا يا لوط إنَّا رُسُل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بِقِطْعٍ من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إنَّ موعدهم الصبح، أليس الصبح بقريب * فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مُسَوَّمَةً عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾ وقال في

سورة الحجر: ﴿فلما جـاء آل لوط المرسلون * قال إنكم قوم منكـرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون * وأتيناك بالحق و إنا لصادقون * فأسر بأهلك بِقِطع من الليل واتَّبِعْ أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضُوا حيث تؤمرون * وقضينا إليـه ذٰلك الأمر أنَّ دابر هـؤلاء مقطوع مصبحين * وجـاء أهل المدينة يستبشرون * قـال إن هـٰؤلاء ضيفي فلا تفضحـون * واتقـوا الله ولا تخزون * قالوا أولم ننهك عن العالمين * قـال هٰؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين * لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون * فأخذتهم الصيحة مشرقين * فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنـا عليهم حجارة من سجيل * إن في ذٰلك لآيـات للمتوسمين * و إنها لبسبيل مقيم * إن في ذٰلك لآية للمؤمنين﴾ . وقال في سورة الأنبياء : ﴿ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سَوْءٍ فـاسقين * وأدخلنـاه فى رحمتنـا إنـه من الصـالحين﴾ وقـال في سـورة الشعراء : ﴿كذبـت قوم لوط المرسلين * إذ قال لهم أخوهـم لوط ألاَ تتقون * إني لكم رسول أمين * فـاتقوا الله وأطيعـون * وما أسألكم عليـه من أجر إن أجريَ إلا على رب العالمين * أتـأتون الذكران من العالمين * وتـذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون * قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرَجين * قال إني لعملكم من القـالين * رب نجني وأهلي مما يعملون * فنجينـاه وأهله أجمعين * إلا عجـوزا في الغـابرين * ثم دمـرنا الآخـرين * وأمطـرنا عليهم مطرا فسـاء مطر المنذَرين * إن في ذٰلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ . وقـال في سورة النمـل : ﴿ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون * أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون * فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أُناس يتطهرون * فأنجيناه وأهلـه إلا امرأته قدرناها من الغابـرين * وأمطرنا عليهم مطرا فسـاء مطر المنذَرين﴾ وقال تعـالى في سورة

العنكبوت : ﴿ولـوطا إذ قال لقومـه إنكم لتأتون الفاحشـة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * أئِنكم لتأتون الرجـال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين * قال رب انصرني على القوم المفسدين * ولما جـاءت رسلُنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنـا مهلكواْ أهل هٰذه القرية إن أهلهـا كانوا ظالمين * قال إن فيهـا لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لنُنَجِّيَنَّه وأهله إلا امـرأته كانت من الغابرين * ولما أن جاءت رسلنا لـوطا سِيءَ بهم وضاق بهم ذرْعًا وقـالوا لا تخف ولا تحزن إنا مُنَجُّوكَ وأهلك إلا امـرأتك كانت من الغابـرين * إنا منزلـون على أهل هٰذه القـرية رجـزا من السماء بما كانـوا يفسقون * ولقـد تركنـا منها آيـة بينة لقـوم يعقلون﴾ . وقـال تعالى في سورة الصـافات : ﴿وإن لـوطا لمن المرسلين * إذ نجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزا في الغابرين * ثم دمرنا الآخرين * وإنكم لتمـرون عليهم مصبحين وبـالليل أفـلا تعقلـون﴾ وقـال في سـورة النجم : ﴿والمؤتفكة أهـوى فغشاهـا ما غَشَّى﴾ وقال في سـورة القمر: ﴿كـذبت قوم لوط بـالنذر * إنا أرسلنا عليهم حـاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحـر* نعمة من عندنا كذٰلك نجزي من شكـر﴾ الآيات . هذا ومن غرائب الأمور إطلاق لفظ لوطي على من يأتي الذكران وقـد شاعت هذه اللفظة واستعملها العلماء والعوام ، وهو إطلاق غير صحيح فـلا يجوز أن تنسب هذه الجريمة إلى لوط عليه السلام فيقال لمرتكبها لوطي ، كما لا يجوز أن يقال في أبي جهل وأبي لهب إنهما محمديـان ، ولا سبيل لصحة هذا الإطلاق بحـال ، ولم يرد خبر صحيح عن رسـول الله ﷺ في تسميـة أهل هـذه الجريمة لـوطيين بل الآثـار الـواردة تقول : من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط الخ .

قال تعالى : ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره، قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشيآءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذٰلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين * ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا، واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين * وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين﴾ .

بعد أن ذكر الله عز وجل قصة لوط مع قومه، وما أوقعه بالمكذبين به من أنواع العذاب، شرع هنا في ذكر قصة شعيب عليه السلام مع قومه، وكانوا يسكنون الأرض المعروفة باسمهم قرب معان من أطراف الشام مما يلي أرض الحجاز قريبا من بحيرة قوم لوط المعروفة باسم البحر الميت على طريق يسلكه العرب في أسفارهم إلى الشام، كما أنها على طريق يسلكه المسافرون بين مصر والشام والحجاز بالقرب من خليج العقبة، والظاهر أنهم كانوا بعد هلاك قوم لوط بزمان غير بعيد كما أن أرضهم غير بعيدة من قرى قوم لوط عليه السلام، كما يرشد إلى ذلك قوله عز وجل فيما قال شعيب لقومه : ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ كما قرن عز وجل قصته وذِكْرَه بقصة لوط وذِكْره في سورة الأعراف هنا وفي سورة هود وفي سورة الشعراء وفي سورة العنكبوت وفي سورة الحِجر وفي سورة التوبة وفي سورة ق، وقد وُصِفَ شعيبٌ عليه السلام بأنه خطيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكان قومه أهلُ مدين كفارا وكانوا يقطعون السبيل ويخيفون المارة، وكانوا يعبدون مع الله آلهة أخرى منها الأيكة وهي شجرة أو غيضة تنبت السدر والأراك كما كانوا من أسوأ الناس معاملة وتعديا على الأموال، يطففون في المكيال والميزان ويبخسون الناس أشياءهم

ويفسدون في الأرض بعـد إصلاحها، وقـد سماهم الله عز وجل مـدين باسم قبيلتهم كما وصفهم بأنهم أصحاب الأيكة. وقد تـوهم بعض الناس فزعم أن شعيبا أُرسِلَ إلى أُمَّتَيْنِ هما مدين وأصحاب الأيكة وهذا قول مردود وفهم غير سديد، فإن مـدين هم أصحاب الأيكة، وإنما قال عـز وجل: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبـا﴾ وقال في أصحاب الأيكـة: ﴿إذ قال لهم شعيب﴾ولم يقل: أخوهم، لأنـه لما ذكر مدين وشعيبٌ في نسبهـا ـ قال: ﴿أخـوهم﴾ ولكنه لما ذكر أصحاب الأيكة وشعيبٌ غير مشـارك لهم في أيكتهم قال: ﴿ إذ قال لهم شعيب﴾ ولم يقل أخوهم، وَهُمْ هُمْ، وهي إشـارة بلاغية، وجملـة الأوصاف التي وصف الله عز وجل بها أصحابَ الأيكة هي جملة الأوصاف التي وصف الله بها أهل مـدين. وفي قولـه عز وجل: ﴿وإلى مـدين أخاهم شعيبـا﴾ أي ولقد أرسلنا إلى مـدين أخاهم شعيبا، وقـولُه عز وجل: ﴿قال يـا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٓه غيرُه، قد جاءتكم بينة من ربكـم﴾ تنبيه على تأكيد أن أهم وظائف الأنبياء والمرسلين هي الدعوة إلى إخلاص العبادة لله وحده، وأن الله عـز وجل يؤيـد رسلـه بالبينـات التي يؤمـن على مثلها البشر، وقـولُه تبـارك وتعالى: ﴿فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسـوا الناس أشياءهم، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصـلاحها، ذٰلكم خير لكم إن كنتم مـؤمنين * ولا تقعدوا بكل صراط تُوعِدُون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا، واذكروا إذ كنتم قليـلا فكثَّركم وانظـروا كيف كـان عاقبـةُ المفسـدين﴾ تنبيـه على أهم الوصـايا التي وصَّى بها شعيب ﷺ قـومه بعـد دعوتهم إلى التـوحيد، ومعنى قـولـه عز وجـل: ﴿فأوفُوا الكيـل والميزان﴾ أي أَتِمُّوا للنـاس بـالكيل الـذي تكِيلُون به وبالـوزن الذي تَزِنُون به، ولا تنقصوا المكيـال والميزان، ولا تكونوا من المطففين ﴿الـذين إذا اكتـالوا على النـاس يَسْتَـوْفُون * وإذا كَـالُـوهم أو وزنـوهم يخسرون﴾. وفي تقديم شعيـب عليه السـلام الـوصية بإيفـاء الكيل

والميـزان على بقية وصـاياه بعـد توصيتهم بتـوحيد الله عـز وجل تنبيهٌ للنـاس ليحترزوا من هذه الجريمـة النكراء ولذلك قـال عز وجل: ﴿ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسِرُون * أَلاَ يظن أولَئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم * يـوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ ثم وصـاهـم أن لا يبخسوا النـاس أشياءهـم، وأن يتركـوا الإفساد في الأرض، وأن لا يقطعوا الطـريق، وأن لا يَصُدُّوا عن سبيل الله، وأن يذكـروا نعمة الله عليهم بتنميتهم وتكثيرهم، وأن يعتبروا بما حل بالمكـذبين قبلهم من قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح أو قوم لـوط وهم يعلمون ما حل بهم، ومعنى قوله عز وجل: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ أي لا تظلموا الناس حقوقهم ولا تنقصوهم منها شيئا ولا تخونوهم فيها وتأخذوها على وجه البخس وهو الظلم والنقص، ويشمل ذلك تحريم الغصب والسرقة والرشوة والاستيلاء على حق الغير بطريق الحيل والمخادعة كتعييب السلع والتزهيد فيها ظلما، وقولُه تبارك وتعالى: ﴿ولا تُفْسِدُوا في الأرض بعد إصـلاحها﴾ أي ولا تعملوا في أرض الله بمعاصيـه وقد بيَّن الله تبـارك وتعالى لكم مـا أحل وما حـرَّم حيث بعث لكم رسولا منكم يـرشدكم إلى الصراط المستقيم الـذي يحفظ لكل ذي حق حقه، فـلا تجوروا عن هـذا الصراط، ولا تعدلـوا عن شريعـة الله فإن العـدول عن شريعة الله يُظْهِـرُ الفساد في الأرض، وقولُـه عز وجل: ﴿ذُلكم خير لكم إن كنتم مـؤمنين﴾. قال ابن جريـر رحمه الله: ﴿ذُلكم خير لكم﴾ يقـول: هذا الذى ذكرت لكم، وأمرتكم به، من إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وإيفاء الناس حقوقهم من الكيل والوزن، وترك الفساد في الأرض، خير لكم في عـاجل دنياكم وآجل آخـرتكم عنـد الله يوم القيـامة ﴿إن كنتم مـؤمنين﴾ يقول: إن كنتم مُصَدِّقِيَّ فيما أقـولُ لكم، وَأُؤَدِّي إليكم عن الله من أمره ونهيه اهـ. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ولا تَقْعُدُوا بكل صراط تُوعِدُون وتَصُدُّون عن

سبيل الله من آمن بـه وَتَبْغُونَهَا عِـوَجًـا واذكروا إذ كنتم قليـلا فَكَثَّرَكُمْ وانظـروا كيف كـان عـاقبة المفسـدين﴾ أي ولا تجلسـوا على الطـرقات لتهـديـد المارة وتخويفهم وترويعهم وللصـد عن سبيل الله بالبطش بالمؤمنين الذين صـدقوا شعيبا عليه السلام، وأنتم تحاولون الاعوجاج والعدول عن القصد وترغبون في النهج المعـوج وتكرهون الصراط المستقيـم. قال ابن جـرير رحمه الله وقـولُه: ﴿واذكروا إذ كنتم قليلا فكثَّـركم﴾ يُذكِّرهم شعيب نعمة الله عنـدهم بأنْ كثَّر جماعتهم بعد أن كانـوا قليلا عددهم، وأنْ رفعهم من الذلة والخسـاسة يقول لهم: فاشكـروا الله الذي أنعم عليكـم بذلك، وأخلصـوا له العبـادة، واتقوا عقوبتـه بالطـاعة واحـذروا نقمته بترك المعصيـة ﴿وانظروا كيـف كان عـاقبةُ المفسدين﴾. يقول: وانظروا مـا نزل بمن كان قبلكم من الأمم حين عَتَوْا على ربهم وعصـوا رسلـه من المَثُلاتَ والنقمات، وكيف وجـدوا عقبى عصيـانهم إياه؟ ألم يهْلك بعضَهم غَـرَقًا بالطـوفان، وبعضَهم رجما بـالحجارة وبعضهم بالصيحة؟ والإفساد في هذا الموضع معناه: معصية الله اهـ. وقولُه عز وجل: ﴿وإن كان طائفةٌ منكم آمنوا بالذي أُرسلتُ به وطائفةٌ لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهـو خير الحـاكمين﴾ وعد ووعيـد وترغيب وتـرهيب وبيانٌ لما ألقى الله عـز وجل في قلب شعيب عليه السـلام من الثقة في انتصـار الله عز وجل للمؤمنين وإنزال عقوبته بأعـدائه الكافرين، وتسلية للمؤمنين وتثبيت لأفئـدتهم. ومعنى قولـه عز وجل: ﴿وإن كـان طـائفةٌ منكم آمنـوا بالـذي أرسلتُ به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾ أي وإن كان فريق منكم يـا أهل مدين قد صدقـوني وآمنوا بما أرسلني الله عز وجل به، وفـريق منكم قد كفـر بي ولم يصدقني فيما أرسلني الله عـز وجل به فانتظـروا حتى يفصل الله بين الفريقين فيعـز أولياءه ويذل أعـداءه وهو خير الفاصلين. قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿وإن كان طائفة

منكم آمنوا بـالذي أرسلت بـه وطائفة لم يـؤمنوا فـاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهـو خير الحاكمين﴾قال أبـوجعفر: يعني بقـوله تعـالى ذكره: ﴿وإن كـان طائفةٌ منكم﴾ وإن كانت جماعة منكم وفرقـة ﴿آمنوا﴾ يقول: صدَّقوا بالذي أُرسلتُ به من إخـلاص العبادة لله، وترك معاصيـه وظلم الناس، وبخسهم في المكاييل والموازين فاتَّبَعُوني على ذلك، ﴿وطائفة لم يؤمنوا﴾ يقول: وجماعة أخرى لم يصـدقوا بـذلك ولم يتبعوني عليـه ﴿فاصبروا حتى يحكـم الله بيننا﴾ يقول: فاحتبسوا على قضاء الله الفاصل بيننا وبينكم ﴿وهو خير الحاكمين﴾ يقول: والله خيرُ من يفصل، وأعدلُ مـن يقضي، لأنه لا يقع في حكمه مَيْلٌ إلى أحدٍ، ولا محابـاةٌ لأحدٍ اهـ. وقد ذكر الله تبـارك وتعالى في مقـامات من كتابه الكريم أن شعيبًا عليه السلام بيَّن لقومه أنه لا يسألهم على تبليغ الرسالة أجـرا، ولا يطلب منهم عن نصيحتـه لهم عوضـا، وأن قـومـه سخروا منـه، واستهزءوا به وبصلاته، وقـالوا: «إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا»، تمامـا كما قال الكفار لرسـول الله محمد ﷺ ولإخوانه الأنبيـاء من قبله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد قالوا له: يا شعيب أصلاتك تأمرك أن ندع عبادة الأوثان والأصنام التى عبدها آباؤنا من قبل مجيئك لنا ودعوتك إيانا؟ وهل صـلاتُك تُقَيِّدُ حريتنا في التصرف في أمـوالنا كيف نشاء من نهب أو سلب أو غصب أو رشـوة أو تطفيف الكيـل والميـزان، كنـا قبل دعـوتك نظنك حليما رشيدا، وقد جهل هؤلاء أن رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم قـد اتفقت دعـوتهم على وجوب صيـانـة النفس والمال والعـرض والعقل مع المحافظـة على دين الله وتحليل ما أحل وتحريم مـا حرَّم وأنـه لا يحل لأحد أن يأخـذ من مال غيره شيئـا من غير طريق مشروع، وقـد أجابهم شعيب عليـه السلام بأن الله تفضل عليه وهداه إلى هـذا الدين الذي يسلك بهم صراط الله المستقيم، وأن هذا رزق حسن تفضل الله به على عباده، وأنه مستمسك بهذا

الدين وأنه لـن يخالفهم إلى ما ينهاهم عنه، ولا يـريد لهم إلا الخير والإصلاح ما استطـاع، وأن التوفيق بيد الله وحده عليـه يتوكل و إليه ينيب، ومع بيـانه الواضح ودعوته المشرقـة وفصاحة عبارته قالوا له: يـا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول، و إنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز، ولا شك أن فى هذا القصص من أخبار شعيب عليه السـلام مع قومه تثبيتا لفؤاد رسول الله ﷺ ومواساة للمؤمنين، وتطييبا لخواطـرهم على ما يلاقونه من أذى من المشركين، ليستقـر في نفوسهم أن نصر الله قـريب، وأن العاقبـة الحسنى للمؤمنين وأن دائرة السَّوْء على الكافرين.

قال تعـالى : ﴿قال الملأ الـذين استكبروا من قومـه لنخرجنك يـا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا ، قال أو لو كنا كارهين * قد افترينا على الله كذبا إن عـدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منهـا ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنـا ، وسع ربنا كل شيء علما ، على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين * وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون * فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين * الذين كـذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ، الذين كـذبوا شعيبا كـانوا هم الخاسرين * فتـولى عنهم وقـال يا قـوم لقد أبلغتكم رسـالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين﴾ .

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى أنه أرسل شعيبا عليه السلام إلى قومه مدين ، وأنه أمرهم بإخلاص العبادة لله وحـده ، وأن الله عز وجل أيده بالبينات التي يـؤمن على مثلهـا البشر، وأنه ﷺ أمـرهم بإيفـاء الكيل والميـزان ، ونهاهم أن يبخسوا النـاس أشياءهم ، ونهاهم عن الإفسـاد في الأرض بعد إصـلاحها ، ونهاهم عن قطع الطريق وإخافة المارة ، كما نهاهم عن الصد عن سبيل الله ، وعن حرصهم على سلوك الطريق المُعْـوَجِّ والمنهج غير الرشيد ، وذَكَّرهم بنعم الله عليهم ، وخوفهم أن يصيبهم ما أصاب المكذبين بالرسل قبلهم كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح ، وما قوم لوط منهم ببعيد ، وتوعدهم بأن الله سَيَفْصِلُ بين الفريقين فينصر أولياءه ويُهْلِك أعداءه . شرع في بيـان جواب قوم شعيب له ، وأن رؤساء قومه المستكبرين تطـاولوا عليه وعلى من معه من المؤمنين بعد أن سمعوا هذه المواعظ القيمـة ، والنصائح البينة وتوعـدوهم بالنفي والإبعاد من أرضهم أو الإكـراه على الدخـول في ملتهم ومشاركتهم فيما هم عليـه من الكفر والفسـوق والعصيان ، وأن شعيبًا عليـه السلام بيَّن لهم أنَّ من دخل في

ملتهم فقد أعظم الفرية على الله عز وجل، وأنـه ومن آمن معه قد توكلوا على الله الـذي يحميهم من شر أعدائهم غير أن هـؤلاء الكـافرين المكـذبين أصروا على كفرهم وتكذيبهم فأخذتهم الـرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين، ونجَّى الله شعيبًا ومـن معه من المؤمنين. وفي ذلك يقـول تبارك وتعـالى: ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومـه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنـوا معك من قريتنا أو لَتَعُودُنَّ في ملتنـا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لقـد أبلغتكم رسالاتِ ربي ونصحت لكم فكيف آسَى على قوم كـافرين﴾ ومعنى قوله عز وجـل: ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قـريتنا﴾ أي لَنَنْفِيَنَّكَ يا شعيب ومن معك من المؤمنين من مـدينتنا وأرضنـا، وهكذا لم يأت نبيٌّ قـومه بـالرسـالة إلا عـادوه وهددوه بالإخراج من بلده، ولذلك قال ورقة بن نوفل لما أخبره رسول الله ﷺ بما جاءه من الوحي في غار حراء: هـذا الناموس الذي أنزل الله على موسى، يـا ليتني فيها جَـذَعًا، ليتني أكـون حيًّا إذ يخرجك قـومك، فقال رسـول الله ﷺ: أَوَمُخْرِجِيَّ هُم؟ قـال: نعم، لم يأت رجل قـط بمثل مـا جئتَ بـه إلا عُودِي. كما رواه البخـاري. والمراد بالقـرية هنـا المدينة كما قـال عز وجل في مكة: ﴿وكأيِّن من قـرية هي أشدُّ قـوةً من قريتك التى أخـرجتك أهلكناهم فـلا ناصرَ لهم﴾ والمراد بـالعَـوْد فى قولـه عـز وجل: ﴿أو لَتعودُنَّ في ملتنـا﴾ الصيرورة أي لتصيرن في ملتنـا، والعرب يستعملـون عاد بمعنى رجع إلى مـا كـان عليه، وبمعنى: استمـر ومنه قـوله عـز وجل: ﴿قل للذين كفـروا إن ينتهوا يُغْفَرْ لهم ما قـد سلف و إن يعودوا فقد مضت سنتُ الأولين﴾ أي و إن يستمروا على كفرهم، وتأتي عاد بمعنى صار كـالذي في هذا المقام، قال ابن منظور في لسان العرب: تقول: عاد الشيء يعود عَوْدًا ومَعَادًا إذا رجع وقد يرد بمعنى: صار، ومنـه حديث معاذ: قال لـه النبي ﷺ: أَعُدْتَ فَتَّانا يـا معاذ أي صِرْتَ، ومنـه حديث خـزيمـة، عَادَ لَهَا النَّقَـادُ مُـجْرَنْثِمًا أي صار. اهـ

وهكذا كانت كل أمة تهدد رسولها وتتوعده بالنفي من أرضهم أو الصيرورة في ملتهم كما قال عز وجل: ﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لَتَعُودُنَّ في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لَنُهْلِكَنَّ الظالمين * ولَنُسْكِنَنَّكم الأرض من بعدهم﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿أَوَ لو كنا كارهين﴾ أي أتخرجوننا من قريتكم وتصدوننا عن سبيل الله وتُجبروننا على الدخول في دينكم ولو كنا كارهين لذلك. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نَجَّانا الله منها﴾ أي قد أعظمنا الفرية على الله واختلقنا عليه الكذب إن صرنا إلى ملتكم ودخلنا في دينكم، لأن دينكم مبني على إقرار الشرك بالله واتخاذ الأنداد والأوثان من دونه، وذلك أقبح الكذب وأعظم الظلم والافتراء على الله، الذي له ما في السموات وما في الأرض وهو رب كل شيء وسيده ومليكه، وقد خلَّصنا الله تبارك وتعالى من الشرك به، فلن نشرك بربنا أحدا. وقوله عز وجل: ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربُّنَا كل شيء علما﴾ أي وما ينبغي لنا ولا يتأتى منا أن نصير إلى دينكم وندخل في ملتكم، ولا حول ولا قوة لنا إلا بالله الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فإنه إن كان قضى على أحد من أهل ديننا أن يصير إلى دينكم ويرتد عن الدين الحق فإن مشيئة الله نافذة، ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمِهِ ومشيئتِهِ الكونيةِ القدريةِ، وهو ربنا الذي بيده نواصينا وهو مالك أمورنا ومدبر شئوننا ومصلحُ أحوالنا، وقولُه تبارك وتعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كلَّ شيء علما، على الله توكلنا، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ تيئيسٌ لكفار قوم شعيب عليه السلام من دخول شعيب ومن معه من المؤمنين في ملتهم وصيرورتهم إلى دينهم، وبيانٌ بأن شعيبا ومن معه من المؤمنين قد استسلموا لله الذي أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا، واعتمدوا عليه عز وجل في تثبيتهم على الدين الحق الذي بعث الله به

شعيبًا عليه السلام، وأعلنوا ضراعتهم إلى الله عز وجل أن يفصل بينهم وبين أعدائهم وأن يقضي بينهم بالحق وأن ينصر رسوله ﷺ ومن معه من المؤمنين، فإنه عز وجل خير الفاصلين وأحكم الحاكمين. وقولُه عز وجل: ﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون﴾ بيانٌ بأن كفار قوم شعيب قد أصروا على كفرهم وعنادهم وتكذيبهم والصد عن سبيل الله، وتنفير الناس من الدخول في دين شعيب عليه السلام. قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون﴾ قال أبوجعفر: يقول تعالى ذكره: وقالت الجماعة من كفرة رجال قوم شعيب ــ وهم الملأ ــ الذين جحدوا آيات الله، وكذبوا رسوله، وتمادَوْا في غيهم لآخرين منهم: لئن اتبعتم شعيبًا على ما يقول، وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه من توحيد الله، والانتهاء إلى أمره ونهيه، وأقررتم بنبوته ﴿إنكم إذًا لخاسرون﴾ يقول: لمغبونون في فعلكم، وترككم ملتكم التي أنتم عليها مقيمون، إلى دينه الذي يدعوكم إليه، وهالكون بذلك من فعلكم. اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين * الذين كذبوا شعيبًا كأَن لم يَغْنَوْا فيها، الذين كذبوا شعيبًا كانوا هم الخاسرين﴾ بيانٌ لما أصابهم بعد إصرارهم على تكذيب شعيب عليه السلام وبعد أن بلغوا أقصى غايات الضلال والإضلال، وأن الله تبارك وتعالى قد سلط عليهم عقوبةً زلزلتهم زلزالا شديدًا من تحتهم، وسحابةَ عذابٍ أظلتهم من فوقهم، وصيحةً لم تُبْقِ منهم باقية فصاروا في أرضهم التي هددوا شعيبًا وصَحْبَهُ بإخراجهم منها أجساما ملقاة في الأرض كالرماد الجاثم. واستؤصلوا وقُطِعَ دابرهم، وخسروا الدنيا والآخرة، وفاز شعيب ومن آمن معه، ولم يلحقهم خُسْرَانٌ ومعنى: ﴿كأَن لم يغنوا فيها﴾ أي كأنهم لم يقيموا بهذه الأرض ولم ينزلوا فيها، كما قال الشاعر:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أَنيسٌ ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

والعرب يسمون المنزل الأنيس مَغْنىً، كما قال الشاعر:

ولقد غَنَوْا فيها بأنعم عيشة في ظل ملك ثابت الأوتاد

وكما قال رؤبة:

هاجت ومِثْلي نَوْلُه أن يَرْبَعا حمامةٌ هاجت حَمَامًا سُجَّعَا
أبكت أبا الشعثاءِ والسَّمَيْدَعَا وعَهْدُ مَغْنَى دِمْنَةٍ بِضَلْفَعَا
بادت وأمسى خَيْمُهَا تَذَعْذَعَا

وقد وصف الله تبارك وتعالى كيفية إهلاك الذين كذبوا شعيبا، فقال هنا: ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾. وقال تعالى في سورة هود: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا في ديارهم جاثمين * كأن لم يَغْنَوْا فيها، ألا بُعْدًا لمدين كما بعدت ثمود﴾ وقال في سورة الشعراء في قصة شعيب مع قومه: ﴿فكذبوه فأخذهم عذابُ يومِ الظُّلَّةِ، إنه كان عذابَ يومٍ عظيم﴾ وقال في سورة العنكبوت: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال يا قومِ اعبدوا الله وارجو اليوم الآخِر ولا تعثوا في الأرض مُفسدين * فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ وفي قوله عز وجل: ﴿الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين﴾ بتكرير قوله: ﴿الذين كذبوا شعيبا﴾ لبيان علة ابتلائهم بعقوبة قولهم للمؤمنين: ﴿لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذًا لخاسرون﴾ ولتعظيم المذلة لهم وتفظيع ما يستحق هؤلاء المكذبون من العذاب على جهلهم وافترائهم، ولتحذير كفار قريش من مغبة استمرارهم في تكذيب رسول الله محمد ﷺ.

ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالاتِ ربي ونصحت لكم فكيف آسَى على قومٍ كافرين﴾ قال ابن جرير رحمه الله:

قال أبوجعفر: يقول تعالى ذكره: فأدبر شعيب عنهم، شاخصًا من بين أظهرهم حين أتاهم عذاب الله، وقال لما أيقن بنزول نقمة الله بقومه الذين كذبوه حُزْنًا عليهم: ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالاتِ ربي﴾ وأديَّتُ إليكم ما بعثني به إليكم مِن تحذيركم غَضَبَهُ على إقامتكم على الكفر به، وظلم الناس أشياءهم ﴿ونصحت لكم﴾ بأمري إياكم بطاعة الله ونهيكم عن معصيته، ﴿فكيف آسَى﴾ يقول: فكيف أحزن على قوم جَحَدُوا وحدانية الله، وكذَّبوا رسوله، وأتوجع لِهَلاكهم؟! اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿فكيف آسَى على قوم كافرين﴾ أي إنهم لا يستحقون أن يُحزَنَ عليهم لأنهم هم الذين أهلكوا أنفسهم بسبب إصرارهم على الكفر بربهم وتكذيب رسولهم.

قال تعالى: ﴿وما أرسلنا فى قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون * ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون * ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون * أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون * أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون * أفأمنوا مكر الله، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون * أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون * تلك القرى نقص عليك من أنبائها، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل، كذلك يطبع الله على قلوبهم الكافرين * وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾.

بعد أن ذكر تبارك وتعالى قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام تثبيتًا لفؤاد رسول الله ﷺ وطُمَأْنِينَةً لأصحابه رضي الله عنهم ومواساةً لهم على ما يلاقونه من أذى كفار قريش لهم ليستقر في نفوسهم أن نصر الله قريب من المؤمنين، وأن وعد الله حق، كما قال عز وجل: ﴿إنا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والَّذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ وفي ذلك كله تحذير لكفار قريش ومن تبعهم من المكذبين وتخويف لهم بأنهم باستمرارهم على تكذيبهم لرسول الله محمد ﷺ يُعَرِّضُون أنفسهم لعقوبة من الله تحل بهم، لينزجروا عما هم عليه من الكفر والتكذيب، شرع هنا في تأكيد ذلك ببيان أن هذا هو سنة الله في الذين خَلَوْا من قبل، وأنه ما أرسل في قرية من نذير إلا ابتلى أهلها ليحذرهم من تكذيب رسلهم، وأن هذا ليس خاصا بقوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح أو قوم لوط أو قوم شعيب بل هو عام لجميع الأمم،

وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضَّرعون * ثم بدَّلنا مكان السيئةِ الحسنةَ حتى عَفَوْا وقالوا قد مَسَّ آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ أي وما بعثنا في مدينة من رسول وكذبه أهلها إلا ابتلينا أهل هذه القرية بالشدة والنقص في أموالهم وأنفسهم، وسلَّطنا عليهم الأوصاب والجدب ليتضرعوا إلى الله ويصدقوا رسوله ﷺ، فلم يتضرعوا ولم ينيبوا فبدَّل الله عز وجل حالهم واختبرهم بالسعة ورغد العيش حتى كثرت أموالهم وأولادهم فلم يشكروا الله على ذلك، ولم ينيبوا إلى الله ونسبوا ما أصابهم من الشدة أوّلا ومن الرخاء ثانيًا إلى الدهر، ولم يتفطنوا إلى هذا الامتحان والابتلاء، فأهلكهم الله عز وجل وسلط عليهم العذاب والعقوبة التي فاجأتهم وأصابتهم على غِرَّة منهم وهم لا يدرون ولا يشعرون بوقت هجوم العذاب عليهم، بسبب انطماس بصائرهم حيث لم يتفطنوا عندما سلط الله عليهم البأساء والضراء أولا وزعموا أنها لم تكن عقوبة لهم على كفرهم بالله وتكذيبهم لرسوله ﷺ حتى أخذهم أخذ عزيز مقتدر، واستأصل شأفتهم وقطع دابرهم. وهذا ولا شك بخلاف حال المؤمنين الذين إذا أصابتهم الضراء صبروا واحتسبوا ذلك عند الله عز وجل وإذا أصابتهم السراء شكروا ربهم على ما أنعم به عليهم. كما روى مسلم في صحيحه من حديث صُهَيْب بن سنان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: عَجَبًا لأمر المؤمن، إنَّ أمره له كلَّه خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاءُ صبر فكان خيرا له. والمراد بالقرية في هذا المقام مدينة الأمة وأم قراها كما أشار الله تبارك وتعالى

إلى ذلك في قوله عز وجل: ﴿وما كان ربك مُهْلِكَ القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا، وما كنا مُهْلِكِي القرى إلا وأهلُهَا ظالمون﴾ وقولُه عز وجل: ﴿ثم بدَّلنا مكان السيئةِ الحسنة﴾ أي جعلنا مكان ما يسوؤهم من الشدة والقحط والأوصاب ما يسرهم من الرخاء والسراء، وغيَّرنا أحوالهم من نكد الحياة إلى رغد العيش امتحانًا واختبارًا وابتلاء. وقولُه تبارك وتعالى ﴿حتى عَفَوْا﴾ أي كثروا، ولفظ عفا يستعمل لمعان كثيرة، فيقال: عفا يعفو إذا أعطى وعفا يعفو إذا ترك حقًّا، وعفا القوم أي كثروا، وعفا النبت والشَّعَر وغيره يعفو فهو عاف أي كثر وطال، قال ابن منظور في لسان العرب: وفي الحديث أنه ﷺ أمر بإعفاء اللحى، هو أن يُوَفَّرَ شعرها ويُكَثَّر ولا يُقَص كالشوارب من عَفَا الشيءُ إذا كثر وزاد. اهـ

ومن ذلك قول لبيد:

ولكنا نُعِضُّ السيفَ منها بأسْوُقِ عَافياتِ الشَّحم كُومِ

وقولُه تبارك وتعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ ترغيب في الإيمان والتقوى وترهيب من الكفر والتكذيب بالرسل، أي ولو أن هذه الأمم وأصحاب هذه المدائن صدقت بربها وخافت من عقابه وآمنت بما أرسل الله عز وجل لها من رسول وانقادت لما يأمرها الله عز وجل به وعملت بشريعة الله تبارك وتعالى لفتح الله عليهم أبواب الخيرات وتابَعَ عليهم سعة أرزاقهم فأرسلَ السماء عليهم مدرارا، وأَمدَّهُمْ بأموال وبنين وجعل لهم جنات وأنهارا، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ولفاضت عليهم البركاتُ من الأرض بالنبات والثمار وكثرة المواشي والأنعام، كما قال عز وجل: ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتَّقَوْا لكفَّرنَا عنهم سيئاتِهم ولأدخلناهم جناتِ النعيم * ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أُنْزِلَ إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم

ومن تحت أرجلهم﴾ ومن الأمـور المُجَرَّبَـة أن كلَّ أمـة طبَّقَتْ شريعة الله عـز وجل وانقادت لأوامر الله ونواهيه ووقفت عند حدوده فاضت عليها الخيراتُ والبركـاتُ وعَمَّهَا الأمنُ والاستقـرارُ، وأنها إذا ابتعدت عن تطبيق شريعـة الله أذاقهـا الله عـز وجل لباس الجوع والخوف كما قـال عـز وجل: ﴿وضرب الله مَثَلا قريـةً كانت آمِنَةً مطمئنة يأتيها رزقها رغـدا من كل مكان فكفرت بِأَنْعُمِ الله فأذاقها الله لبـاس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون * ولقد جـاءهم رسول منهم فكـذبوه فأخـذهم العذابُ وهـم ظالمون﴾ ولـذلك قال هنـا: ﴿ولَكن كـذَّبوا فأخـذناهم بما كـانوا يكسبـون﴾ أي ولكن كذبـوا رسلهم فعاقبنـاهم بالهلاك على مـا كسبوا من المعـاصي والمحارم والآثام. وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أهلُ القرى أن يأتيهم بأسنـا بياتا وهم نائمـون * أَوَ أَمِنَ أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضُحًى وهم يلعبون * أفأمِنوا مكر الله، فلا يأمَنُ مكر الله إلا القومُ الخاسرون﴾ تخويف وتحذيـر لكفار قـريش ولكل من كفر بـالله وكذب المرسلين، وانتهك الحرمـات، ولم يُقِمْ شرع الله، وتـرهيب لهؤلاء أن يُنـزِلَ اللهُ بهم عُقُوبَتَهُ وأن يفاجئهم بعذابه ليلا أو نهارا، أو أن يستدرجَهُم ثم يأخذَهُمْ أخذَ عـزيز مقتـدر. والاستفهام في قولـه: ﴿أفأمِنَ أهل القرى﴾ وفي قـوله: ﴿أَوَمِنَ أهل القـرى﴾. وفي قولـه: ﴿أفأمنوا مكـر الله﴾ للتوبيخ والتقـريع، والفاء في قـوله ﴿أفأمن﴾ للعطف على مقـدر يقتضيه المقام وكـذلك الواو في قوله ﴿أوأمن﴾ وكـذلك الفاء في قوله ﴿أفأمِنُوا مكـر الله﴾ والمراد بمكر الله ما يستدرج بـه أعداءه من النعم حتـى إذا فرحوا بما أُوتُـوا أخذهم بغتـة فإذا هم مبلسـون، كما قال عـز وجل: ﴿ولقـد أرسلنا إلى أمم من قبلـك فأخذنـاهم بـالبأساء والضراء لعلهم يتضرعـون * فلولا إذ جـاءهم بأسنا تضرعـوا ولَكن قست قلوبهم وزَيَّنَ لهم الشيطـانُ ما كـانوا يعملون * فلما نَسُـوا مَا ذُكِّـرُوا به فَتَحْنَا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فَرِحُوا بما أُوتُـوا أخذناهم بغتة فإذا هُمْ

مبلسون * فَقُطِعَ دَابِرُ القومِ الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين﴾ والتعبير بأهل القرى وتكريره لتحذيرهم بأنهم مهما كان جمعهم فإنهم لن يُعجِزوا الله إن أصروا على الكفر به وتكذيب رسوله كما أنهم مهما كثروا فإن الله تبارك وتعالى كفيل بأن يمدهم ببركات من السماء والأرض إن آمنوا بالله ورسوله واستقاموا على شريعة الله لأن جميع الإنس والجن من الأولين والآخرين لو وقفوا في صعيد واحد وسأل كلٌّ واحد منهم مسألة وأعطى الله كل سائل ما سأل ما نقص ذلك مما عند الله إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر، والتعبير بقوله: ﴿وهم يلعبون﴾ لتوبيخ الكفار على أعمالهم التي لا تجلب لهم نفعًا ولا تعود عليهم بالخير ولا تنقذهم من النار. قال الزجاج: وقوله: ﴿وهم يلعبون﴾ يقال لكل من كان في شيء لا يُجْدِي أو في ضلال: إنما أنت لاعب، وإنما قيل لهم: ﴿ضُحًى وهم يلعبون﴾ أي وهم في غير ما يُجْدِي عليهم. اهـ كما أن قوله عز وجل: ﴿وهم يلعبون﴾ للتنبيه على أنهم مستغرقون في اللهو، متمكنون في الغفلة وشر قلوب الخلق هو القلب اللاهي الغافلُ الجاحد لآلاء الله المكذبُ برسل الله صلى الله عليهم وسلم. وفي قوله عز وجل: ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ ترهيب شديد من الأمن من مكر الله، ولذلك أثنى الله تبارك وتعالى على الذين يُؤتُون ما آتَوْا وقلوبهم وَجِلَةٌ أنهم إلى ربهم راجعون. وقال: ﴿أولَئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ . وقوله تبارك وتعالى: ﴿أوَ لم يَهْدِ للذين يَرِثُونَ الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبوجعفر: يقول: أوَ لم يَبِنْ للذين يُسْتَخْلَفُونَ في الأرض بعد هلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها، فساروا سيرتهم وعملوا أعمالهم وعَتَوْا عن أمر ربهم ﴿أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ يقول؛ أنْ لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلَهم فأخذناهم بذنوبهم وعَجَّلْنَا لهم بأسنا كما

عجلناه لمن كـان قبلهم ممن ورثوا عنه الأرض، فأهلكناهم بـذنوبهم ﴿ونطبع على قلـوبهم﴾ يقول: ونختم على قلـوبهم ﴿فهم لا يسمعـون﴾ موعظـة ولا تذكيرا، سَمَاعَ منتفعٍ بهما. اهـ وهذا شبيـه بقوله عز وجل: ﴿أفلم يهد لهم كما أهلكنـا قبلهم مـن القـرون يمشـون في مسـاكنهـم إن في ذٰلك لآيـات لأولي النُّهَى﴾ وبقولـه: ﴿أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القـرون يمشون في مسـاكنهم إن في ذٰلك لآيات أفـلا يسمعـون﴾ وقولـه تبارك وتعـالى: ﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بـالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذٰلك يطبع الله على قلوب الكافرين * وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإنْ وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾ هـذا إخبار من الله تبارك وتعالى بأنه أهلك هـؤلاء الذين استأصلهم من أهل القـرى كقوم نـوح وعاد وثمـود وقوم لوط وقـوم شعيب، الذين قص قصصهم لعلمـه عز وجل أنهم مصرون على التكذيب وأنهم لن يـؤمنوا أبدا كما قـال عز وجل: ﴿وأُوحي إلى نـوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كـانوا يفعلون﴾ وقال بعد قصة نوح في سورة يونس: ﴿ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبـوا به من قبل، كذٰلك نطبع على قلوب المعتدين﴾ أي وكما طبع الله عز وجل على قلوب الأمم المكذبة التي أهلكها كذلك يطبع على قلوب من علم أنهم لن يؤمنوا من قومك، وما وجدنا لأكثر الأمم الماضية من عهد ولقد وجـدنا أكثرهم فاسقين خـارجين عن الطاعة حيث كـانوا يطلبون من أنبيائهم آيـات يقترحونها غير الآيات والمعجـزات التي جاءتهم من قبل، ويعاهـدونهم على الإيمان إن جاءتهم فإذا جـاءتهم الآية مبصرة نقضـوا العهد وكانوا بها كافرين.

قال تعالى: ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين * وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين * حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل * قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين * قال الملأ من قوم فرعون إن هٰذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون * قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين * يأتوك بكل ساحر عليم * وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم لمن المقربين * قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين * قال ألقُوا فلما ألقَوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾.

بعد أن ذكر تبارك وتعالى قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام بالأسلوب البلاغي الذي يقتضيه المقام المفيد للتأسي والاقتداء في الصبر والاحتساب بهؤلاء الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام والتحذير من السير في ركاب المكذبين بهم الذين عاقبهم الله بأنواع من العقوبات الرادعة لمن يكذب بالمرسلين، ثم أكد ذلك ببيان أن هذه هي سنة الله في الذين خلوا من قبل وأنه ما أرسل في قرية من نذير إلا حذرهم من تكذيب رسولهم، وأن هذا ليس خاصًا بقوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح أو قوم لوط أو قوم شعيب، بل هو عام لجميع الأمم المكذبة الماضية، شرع هنا في ذكر قصة موسى عليه السلام وساقها على سبيل الإطناب، حيث بسطها أكثر من غيرها، لاحتياج الناس إلى الاعتبار بها لأن فرعون قد بلغ من السلطان والتسلط والقهر لبني إسرائيل ما لم يبلغه أحد من المكذبين حتى

ادعى أنه الرب الأعلى، وقال لقومـه: ما علمت لكم من إله غيري، وعلا في الأرض، ولم تنتشر قصة نبـي من أنبياء الله السابقين انتشـار قصة مـوسى مع فـرعون، لـذلك كانت العبرة بها أكبر والعظـة بها أبلغ، وثُمَّ في قـوله تبـارك وتعالى: ﴿ثم بعثنـا من بعدهم مـوسى بآياتنـا إلى فرعون وملئـه فظلموا بها﴾ لإفادة التراخي وطول الوقت بين زمن مـوسى عليه السلام وزمن مَن قَصَّ الله عز وجل قصصهم من الـرسل الذين سبقوه، كما أشار إلى ذلك في مقـامات أخرى من الكتـاب الكريم حيث قـال في سورة يونس بعـد ذكر قصـة نوح: ﴿ثم بعثنا من بعـده رسلا إلى قومهم فجاءوهم بـالبينات فما كانوا ليـؤمنوا بما كذبـوا به من قبل، كذلك نطبع على قلـوب المعتدين * ثم بعثنـا من بعدهم موسى وهارون إلى فـرعون وملئه بآيـاتنا فاستكبروا وكانـوا قوما مجرمين * فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين﴾ الآيات. وقال عز وجل في سورة «المؤمنون» بعد ذكر إهـلاك قوم نوح وبعض الأمم التي كذبت رسلها: ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخَرين * ما تسبق من أمة أَجَلَهَا وما يستأخرون * ثم أرسلنا رسلنا تترى كلّما جـاء أمةً رسولُها كذبـوه، فأتْبَعْنَا بعضَهم بعضا وجعلناهم أَحَـادِيثَ، فَبُعْدًا لقوم لا يـؤمنون * ثم أرسلنا مـوسى﴾ الآيات.

وقولـه تبارك وتعالى: ﴿ثم بعثنـا من بعدهم مـوسى بآياتنـا إلى فرعـون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كـان عاقبة المفسدين﴾ هو مُوجَـزٌ لقصة موسى عليه السلام مُقَـدَّمٌ بين يَدَيْ تفصيل أنبائهـا، التي تفيد أن الله عـز وجل قد بعث موسى عليه السلام إلى فرعون مؤيدا بالآيات والمعجزات التي يؤمن على مثلها البشر، فكفـر بها فرعـون وقومـه فماذا كانـت عاقبتهم؟ فلقـد أغرقنـاهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقـومه ولقد أخذ فرعون يصرخ عنـدما أدركه الغرق يقول: آمنت بالذي آمنَتْ به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين، وشفى الله قلب موسـى ومن معه من المؤمنين، وفي هـذا تثبيتٌ تامٌّ لفؤاد رسـول الله ﷺ ومن

معه من المؤمنين، والواو في قوله عز وجل: ﴿وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين﴾ للاستئناف والشروع في تفصيل أنباء قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه، وفرعون لقب ملك مصر في زمن موسى عليه السلام وليس اسما لهذا الطاغية، وقد استعمل العرب الفرعنة بمعنى الكبر والتجبر، قال ابن منظور في لسان العرب المحيط: فَرْعَن: الفرعنة: الكبر والتجبر، وفرعونُ كلِّ نبيٍّ مَلِكُ دهره قال القَطَامِيُّ:

وَشُقَّ الْبَحْرُ عن أصحاب موسى وَغُرِّقَتِ الْفَراعِنَةُ الكِفَارُ

الكِفارُ: جمع كافر كصَاحِبٍ وصِحابٍ، وفرعون الذي ذكره الله تعالى في كتابه من هذا، وإنما تُرِكَ صرفُه في قول بعضهم لأنه لا سَمِيَّ له، كإبليس فيمن أخذه من أَبْلَسَ، قال ابن سيده: وعندي أن فرعون هذا العَلَمَ أعجميٌّ، ولذلك لم يُصْرَف، الجوهري: فرعونُ لقب الوليد بن مُصْعَبٍ ملكِ مصر، وكلُّ عاتٍ فرعونٌ، والعُتَاة الفراعنةُ، وقد تَفَرْعَنَ، وهو ذو فَرْعَنَةٍ أي دَهَاءٍ وتكبر. اهـ ومعنى: قوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ على أن لا أقولَ على الله إلا الحقَّ﴾ أي إني جديرٌ وقَمِنٌ وحَرِيٌّ وخليق بسبب أني رسول رب العالمين أن أكون أبعد الناس عن الافتراء على الله الذي اختارني وأرسلني إليكم. ومعنى قوله: ﴿قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل مَعِيَ بني إسرائيل﴾ أي قد أرسلني الله عز وجل إليكم وأيدني بالبرهان القاطع والمعجزة القاهرة الشاهدة بأني مبعوث من الله الذي خلقكم وهو مالككم وسيدكم ورازقكم، فأطلق بني إسرائيل وخَلِّ عنهم وخَلِّصهم من العذاب المهين الذي يلاقونه منكم، وقد كانت رسالة موسى ﷺ ذات شقين: الأول: دعوة فرعون وقومه وبني إسرائيل إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والثاني: تخليص بني إسرائيل من العذاب المهين الذي يلاقونه من فرعون وملئه، وإلى ذلك يشير قولُه تبارك وتعالى: ﴿ولقد فَتَنَّا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم * أن أدُّوا إليَّ عبادَ

الله إني لكم رسول أمين * وأن لا تَعْلُوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين﴾ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿قال إن كنتَ جئت بآية فَأْتِ بها إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ أي قال فرعونُ لعنه الله لموسى ﷺ: إن كنتَ قد حضرتَ إلينا ومعك البرهان الذي تشير إليه فأبرزه لنا حتى نراه ونشاهده إن كنت من الصادقين في أنك رسولٌ من رب العالمين، وأن معك آيةً تؤيدك فيما تدعي، وقولُه عز وجل: ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هي بيضاءُ للناظرين﴾ أي فرمى موسى ﷺ عصاه على الأرض أَمَامَ فرعون وملئه فانقلبت العصا حية لا يخطر على بال من يراها إلا أنها ثعبان حقيقي يهتز ويتحرك كما يتحرك الثعبان تماما، وسارع موسى ﷺ فأخرج يده من درعه ورفعها في وجه فرعون وقومه فإذا هي بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض وهم يعرفون أن موسى عليه السلام آدم اللون أسمر البشرة، وقد جرت السنة الإلهية في أن يبعث الله كل نبي بمعجزة تفوق أعلى درجات العلم الذي برع فيه قومه ليكون أظهر للحق، ويعرفوا أنه من عند الله وأنه لا يقدر على مثله البشر، ولذلك أرسل محمدًا ﷺ بالقرآن وجعله معجزته الكبرى لأن قوم محمد ﷺ قد برعوا في الفصاحة والبيان والبلاغة حتى أقاموا للخطباء والشعراء منابر في أسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز، وكما أرسل عيسى عليه السلام بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، لأن قومه قد بلغوا في الطب شأوا لم يُسْبَقُوا إليه، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن فرعون وقومه قد أيقنوا في نفوسهم عندما رأوا العصا قد انقلبت إلى حية تسعى وأن يد موسى صارت بيضاء من غير سوء واعتقدوا أن هذه آية قاهرة فوق ما كانوا يطلبون من موسى ولكنهم جحدوها ظلماً وعُلُوًّا حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿فلما جاءتهم آياتُنَا مبصرةً قالوا هٰذا سحر مبين * وجحدوا بها واسْتَيْقَنَتْهَا أنفسهم ظلماً

وَعُلُوًّا، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿قال الملأ من قوم فرعون إنَّ هـٰذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون * قالوا أَرْجِهْ وأخاه وَأَرْسِلْ في المدائن حاشرين * يأتوك بكل ساحر عليم﴾ إشارة إلى أن قوم فرعون وقفوا من الآية التي جاء بها موسى عليه السلام نفس الموقف الذي وقفه فرعون منها، إذ أن الله تبارك وتعالى أسند هذا الكلام أيضًا إلى فرعون مما يقضي بتطابق رأي فرعون وملئه فيما تشاوروا فيه حيث قال في سورة الشعراء: ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين * ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين * قال للملأ حوله إن هٰذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون * قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحَّار عليم﴾ وهـذا الجواب من فرعون وملئه بعد أن رأوا آية العصا واليد هو نوعٌ من الخداع لأتباعهم من الرعاع حتى لا يسارعوا إلى الإيمان بموسى عليه السلام، وحيلةٌ من حيلهم لإطفاء نوره وإخماد كلمته، ومعنى: ﴿فماذا تأمرونَ﴾ أي فماذا تشيرون به علينا؟ ومعنى: ﴿أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين * يأتوك بكل ساحر عليم﴾ أي أمهله وأخاه هارون ولا تعجل بمعاقبتهما واجعل بينك وبينه موعدًا واجمع له كل سحار عليم، فابعث رجالك إلى سائر أنحاء مدائن مملكتك ومدارس السحر فيها حاشرين أي جامعين لك كل خبير متمكن من فنون السحر ليغلبوا موسى ويقضوا على سحره ويبطلوا دعوته، وقد أشارالله تبارك وتعالى إلى ذلك في سورة طه حيث يقول: ﴿قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى * فلنأتينك بسحر مِثْلِهِ فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نُخْلِفُهُ نحن ولا أنت مكانا سُوًى * قال موعدكم يوم الزينة وأن يُحْشَرَ الناسُ ضُحًى * فتولى فرعونُ فجمع كيده ثم أتى﴾ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿وجاء السحرةُ فرعونَ قالوا إنَّ لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم لمن المقربين﴾

أي فأرسل فرعون في المدائن حاشرين فحشروا السحرة وجمعوهم عند فرعون، فلما اجتمعوا قالوا لفرعون: هل لنا ثواب ومكافأةٌ إذا غَلَبْنَا موسى وأبطلنا سحره نستحقه عندك؟ قال: نعم لكم عندي مكافأة وأجر وأزيدكم على ذلك بأن تكونوا أقرب الناس إليَّ في مجلسي، وأجعلكم مستشاريَّ في كل أموري. وقد أشار الله تبارك وتعالى في سورة الشعراء إلى أن فرعون وملأه لم يكتفوا بجمع السحرة لموسى بل جمعوا رعاعهم للمغالبة وإظهار التأييد للسحرة حيث يقول عز وجل: ﴿قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحار عليم * فَجُمِعَ السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلنا نَتَّبِعُ السحرةَ إن كانوا هم الغالبين * فلما جاء السحرةُ قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم إذًا لَمِنَ المقربين﴾ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿قالوا يا موسى إما أن تُلْقِيَ وإما أن نكون نحن الملقين * قال أَلْقُوا فلما أَلْقَوْا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾ أي فلما اجتمع السحرة مع موسى في الموعد والمكان المتفق عليهما بين موسى وفرعون قال السحرة لموسى عند المبارزة: أتختار أن تُلْقِيَ عصاك أوّلا أو نلقي نحن عِصِيَّنَا أوّلا فكان من الحكمة البالغة أن وفَّق الله عز وجل موسى عليه السلام فقال لهم: أَلْقُوا أنتم أولا، لأنهم إذا أَلْقَوْا حبالهم وعصيهم وبهروا الناس ببهرجهم وأخافوهم من حبالهم وعصيهم التي صاروا يرونها ويخيل إليهم أنها تسعى ثم ألقى موسى عصاه فانقلبت حية وابتلعت جميع حبالهم وعصيهم أيقن الناس بمعجزة موسى عليه السلام، ولذلك خرَّ السحرة ساجدين. ومعنى: ﴿سَحَرُوا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾ أي خَيَّلُوا إلى أعين الناس وصرفوا أعينهم عن إدراك حقيقة ما فعلوه من التمويه والتخييل حتى أدخلوا الرعب في قلوبهم وحتى أوجس في نفسه خيفة موسى عليه السلام بسبب هذا

السحر العظيم، كما قال عز وجل: ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أوَّلَ من ألقى * قال بل ألقُوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس في نفسه خِيفةً موسى * قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾.

قال تعالى: ﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون * فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين * وألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون * قال فرعون ءَآمنتم به قبل أن آذن لكم إن هٰذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين * قالوا إنا إلى ربنا منقلبون * وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا، ربنا أفرغ علينا صبرا وَتَوَفَّنَا مسلمين﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى أن السحرة خَيَّرُوا موسى عليه السلام بين أن يكون هو البادئ بإلقاء عصاه أو أن يكونوا هم البادئين، وأن موسى عليه السلام أمرهم أن يكونوا هم أول من ألقى، وأنهم لما أَلْقَوْا يعني حبالهم وعصيهم سحروا أَعْيُنَ الناس وأدخلوا الفزع والرعب والرهبة والخوف في قلوبهم بسبب ما جاءوا به من السحر العظيم، شرع عز وجل هنا فَبَيَّنَ أنه أَوحى إلى موسى بإلقاء عصاه فابتلعت جميع حبالهم وعصيهم التي خُيِّلَ إلى الناس أنها حَيَّاتٌ وثعابينُ، وأن الله تبارك وتعالى قد أظهر برهان موسى ﷺ وأيده بهذه المعجزة الباهرة، وأبطل ما جاء به السحرة، فاندحر فرعون وقومه وانقلبوا أذلة صاغرين، إلا السحرة، فإنهم عندما عاينوا هذه الآية العظيمة وأنها ليست من قبيل السحر خَرُّوا ساجدين لله تبارك وتعالى، وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون، فسارع عدو الله فرعونُ المخذولُ إلى توجيه اللوم للسحرة معاتبًا لهم أوّلا على إيمانهم قبل استئذانه بذلك، ثم أخذ في توجيه التهم لهم بأنهم تمالئوا مع موسى وهارون ليفسدوا في الأرض وليخرجوا منها أهلها، ثم توعدهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وأن يُصَلِّبَهُم في جذوع النخل ليردهم بذلك عن الدين الحق إلى دينه الباطل، فأعلنوا أنهم

لن يـرجعوا عن الـدين الحق أبـدا مهما أُوذُوا في الله عز وجل ونَـدَّدُوا بفرعـون وبدينه الباطل وتضرعوا إلى الله عز وجل أن يُفْرِغَ عليهم صبرا وأن يثبتهم على الإيمان حتى يمـوتوا مسلمين. وفي ذلك يقـول تبارك وتعـالى: ﴿وأوحينا إلى موسـى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف مـا يأفِكُون﴾ إلى قـوله تبـارك وتعالى: ﴿ربنا أفرغ علينا صبرًا وتَوَفَّنَا مسلمين﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وأوحينا إلى مـوسى أن ألق عصاك فإذا هي تَلْقَفُ مـا يأفكـون﴾ أي وأمرنـا موسى عليـه السلام بإلقـاء عصاه فألقـاها فـانقلبت حية عظيمـة وانطلقت بسرعة هـائلة تأخذ حبـالهم وعصيهم وتبتلعها حتى أَفْنَتْهَـا عن آخرها والْتَقَمَتْهَـا جميعا ولم تُبْقِ من إفكهم وكذبهم وبـاطلهم شيئا، وقـولُه تبارك وتعـالى: ﴿فوقع الحق وبطل مـا كانـوا يعملـون﴾ أي فظهـر الحق واستقر في نفـوس الحاضرين أن موسى رسول من رب العالمين، وبطل السحر وذهبت مخايله وتمويهاته، وقوله تبارك وتعـالى: ﴿فَغُلِبُوا هنالك وانقلبـوا صاغـرين﴾ أي فَهُزِمَ فرعـون وملؤه واندحروا وصـاروا في مكان مبارزتهم أذلاء مقهورين مدحـورين مبهوتين بعد أن كـانوا متكبرين متعـالين متغطـرسين متعجرفين، وقـولُـه تبارك وتعـالى: ﴿وَأُلْقِيَ السحرةُ ساجدين * قالـوا آمنا برب العالمين * ربِّ موسى وهارون﴾ قال ابن جـرير رحمه الله: قـال أبوجعفر: يقـول تعالى ذكـره: وأُلْقِيَ السحرة عنـدما عـاينوا من عظيم قـدرة الله، ساقطين على وجـوههم سُجَّدًا لـربهم، يقولـون: ﴿آمَنَّا بـرب العالمين﴾ يقولـون: صدَّقْنا بما جـاءنا بـه موسى، وأنَّ الذي علينا عبادتـه هو الذي يملك الجن والإنس وجميع الأشياء وغير ذلك، ويُدَبِّرُ ذلك كلَّه، ﴿رب موسى وهارون﴾ لا فرعون. اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿قـال فـرعـون آمنتم بـه قبل أن آذن لكم إن هـٰذا لمكر مكـرتموه في المدينـة لِتُخْرِجُوا منهـا أهلها فسوف تعلمون﴾ إلى قوله: ﴿وتـوفنا مسلمين﴾ بيان لما صار عليه حـال فرعون المتردد بين الخَوَر والذُّل من ناحيـة والتكبر والغطرسة

من نـاحيـة أخـرى حيث بـدأ بـالمعـاتبـة للسحـرة على إيمانهم بمـوسى قبل استئـذانه، وهـذا يدل على استخـذائه وحُمْقِهِ ثم انتقل إلى اتهامهم بأنهم قـد اتفقوا مع موسى على هذا المكـر والتدبير الذي أدى إلى هزيمتهم ثم انتقل الى التهـديد بتقطيع أيـديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم على جـذوع النخل، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآيـات: يُخْبِرُ تعالى عما توعَّد بـه فرعون لعنه الله السحـرةَ لما آمنوا بموسى عليه السـلام، وما أظهره للنـاس من كيده ومكره في قولـه: ﴿إنَّ هٰذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجـوا منها أهلها﴾ أي إن غَلَبَتَـهُ لكم في يومكم هـذا إنما كان عن تشـاور منكم ورضا منكم لـذلك كقوله في الآية الأخرى: ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ وهو يعلم وكلُّ من لـه لُبٌّ أنَّ هذا الـذي قالـه من أبطل الباطل، فإن مـوسى عليه السـلام بمجرد ماجاء من مدين دعا فـرعونَ إلى الله وأظهر المعجزاتِ الباهرة والحجج القاطعـة على صدق ما جـاء به، فعند ذلـك أرسل فرعونُ في مـدائن ملكه، ومَعَامِلَةِ سلطنته، فجمع سحرةً متفـرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممن اختـار هو والملأ من قـومه، وأحضرهم عنـده، ووعـدهم بالعطـاء الجزيل، ولهذا قـد كانـوا أحرص النـاس على ذلك، وعلى الظهور في مقـامهم ذلك، والتقدُّمِ عند فـرعون، وموسى عليه السـلام لا يعرف أحدا منهم، ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعونُ يعلم ذلك، وإنما قال هذا تَسَتُّرًا وتدليسًا على رعاع دولته وجَهَلَتِهِم كما قال تعـالى: ﴿فاسْتَخَفَّ قومَهُ فأطـاعوه﴾ فإن قوما صـدَّقوه في قولـه: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ من أجهل خلق الله وأَضَلِّهم. اهـ ومعنى قـوله: ﴿إنَّ هٰذا لمكـر مكرتموه في المدينة لتخـرجوا منها أهلهـا﴾ أي إن هذا الصنيع الذي صنعتموه من سجودكم وإعلانكم بأنكم آمنتم برب موسى وهارون هو تـدبير تم بينكم وبين مـوسى وخـدعة وحيلـة اتفقتم عليهـا في المدينـة قبل مجيئكم إلى هنـا لتكـون الـدولـة في مصر لكم أنتم ومـوسى وتطـردوا الكبراء

والرؤساء منهاوقولُه : ﴿فسوف تعلمون﴾ تهديـد ساقه عدوُّ الله فرعونُ بطريق الإجمال للتهويل والترويع ثم فَصَّلَهُ فقـال : ﴿لأُقَطِّعَنَّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأُصَلِّبَنَّكم أجمعين﴾ أي لأقطعن من كل واحد منكم رجله اليمنى ويـده اليسرى أو رجلـه اليسرى ويـده اليمنى، ثم لأصلبنكم أي لأُعَلِّقنكم على جـذوع النخل لتبقى جثثكم شـاهـدا على تنكيلي بكم، وقـولـه تبـارك وتعالى: ﴿قالـوا إنا إلى ربنا منقلبون * ومـا تنقم منا إلا أن آمنا بـآيات ربنا لما جاءتنا، ربنـا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين﴾ قـال ابن جرير الطبري رحمه الله : قال أبوجعفر: يقول تعالى ذكره : قال السحرةُ مُجِيبَةً لفرعون، إذْ توعَّدهم بقطع الأيدي والأرجل من خلاف، والصلب : ﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾ يعني بالانقـلاب إلى الله الرجـوع إليه والمصير، وقـولُه : ﴿ومـا تنقم منـا إلا أن آمنا بآيات ربنا﴾ يقـول : ما تنكر منا يا فرعـون وما تجد علينا إلا من أجل أن آمنا أي صدَّقنا ﴿بـآيات ربنا﴾ يقول : بحجج ربنا وأعلامـه وأدلته التي لا يقدر على مثلها أنت ولا أحد سوى الله الذي له ملك السموات والأرض. ثم فزعوا إلى الله بمسألتـه الصَبْرَ على عـذاب فـرعـون، وقبض أرواحهم على الإسـلام فقالوا : ﴿ربنا أفرغ علينا صبرا﴾ . يَعْنُـون بقولهم : ﴿أفرغ﴾ أنزل علينا حَبْسًا يَحْبِسُنَا عن الكفـر بك عند تعـذيب فرعـون إيانـا ﴿وتوفنـا مسلمين﴾ يقول واقبضنا إليك على الإسـلام دين خليلك إبراهيـم ﷺ لا على الشرك بك . اهـ وقد وصف الله تبـارك وتعالى مـا كان من موسى والسحـرة ومن فرعـون وملئه وكيف سـارع السحرة إلى الإيمان بمـوسى عندمـا ألقوا حبـالهم وعصيهم ثم ألقى موسى عصاه وانقلبت حية هائلة عظيمة وابتلعت جميع ما صنعوا فأيقن السحرةُ أن هـذا لا يقدر عليه البشر ولا يأتي بـه إلا الله مالك القُـوَى والقُدَر فخروا لله ساجدين معلنين إيمانهم بالله ورسله صابرين على كل بلاء يصيبهم في مرضـاة الله، فذكـر ذلك هنا في سورة الأعـراف، وقال عـز وجل في سورة

طه : ﴿فتـولى فرعونُ فجمع كيده ثم أتى * قـال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فَيُسْحِتَكُم بعذاب وقد خاب من افترى * فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى * قـالوا إنْ هٰذان لسـاحران يريـدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم الْمُثْلَى * فَأَجْمِعُـوا كيدكم ثم ائتوا صفًّا ، وقد أفلح اليومَ مَن استعلى * قالوا يا مـوسى إما أن تلقي وإما أن نكون أولَ من أَلْقَى * قـال بل أَلْقُـوا فإذا حبـالهم وعِصِيُّهم يُخَيَّـلُ إليـه من سحـرهم أنها تسعى * فأوجس في نفسه خِيفَةً مـوسى * قلنا لا تَخَفْ إنك أنت الأعلى * وألق ما في يمينك تَلْقَفْ ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى * فَأُلْقِيَ السحـرةُ سُجَّدًا قالوا آمنـا برب هارون وموسى * قـال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الـذي علمكم السحر فَـلَأُقَطِّعَنَّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخـل وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عذابا وأبقـى * قالوا لن نؤثـرك على ما جاءنـا من البينات والذي فطـرنا فاقض مـا أنت قاضٍ إنما تقضي هٰذه الحياة الدنيا * إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحـر، والله خير وأبقى﴾ وقـال عـز وجل في سـورة الشعـراء : ﴿فَجُمِعَ السحـرةُ لميقات يـوم معلـوم * وقيل للناس هـل أنتم مجتمعون * لعلنـا نَتَّبِعُ السحرة إن كانوا هـم الغالبين * فلما جاء السحرةُ قالوا لفـرعون أَئِنَّ لنا لأجرا إن كنـا نحن الغالبين * قـال نعم وإنكم إذًا لمن المقـربين * قال لهم مـوسى أَلْقُوا مـا أنتم مُلْقُونَ * فألقوا حبـالهم وعصيهم وقالـوا بعزة فرعـون إنا لنحن الغالبون * فألقى مـوسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكـون * فَأُلْقِيَ السحرةُ ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون * قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنـه لكبيركم الذي علمكم السحـر فَلَسَوْفَ تعلمـون ، لأُقَطِّعَنَّ أيديكم وأرجلكم من خـلاف ولأصلبنكم أجمعين * قالوا لا ضَيْرَ إنـا إلى ربنا منقلبون * إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أَن كنا أَوَّلَ المؤمنين﴾ .

ومن وجوه التصريف البلاغي في هذاالمقام أنه قال هنا: ﴿قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هـٰذا لمكر مكرتموه في المدينة﴾ وقال: ﴿ثم لأصلبنكم أجمعين * قالوا إنا إلى ربنا منقلبون﴾ وفي سورة طه وفي الشعراء قال: ﴿قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ وقال في سورة الشعراء: ﴿ولأصلبنكم أجمعين * قالوا لا ضَيْرَ إنا إلى ربنا منقلبون﴾ فإن جرس الكلام «وموسيقاه» وكونَهُ فوق القمة من الفصاحة والبلاغة من ميزان الحروف اقتضى أن يجيء كل نصٍّ من هذه النصوص على الوصف الذي جاء به ليكون وجها مشرقًا من وجوه إعجاز القرآن المتشابه المثاني، الذي يعجز الإنس والجن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، والتعبير بِثُمَّ في قوله هنا: ﴿ثم لأصلبنكم﴾ وبالواو في قوله في طه وفي الشعراء: ﴿ولأصلبنكم﴾ لأن الواو صالحة للمهلة والتراخي فهي لمطلق الجمع ولا تقتضي التعقيب.

قال تعالى: ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك، قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون * قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين * قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا، قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون * ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون * فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هٰذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه، ألا إنما طائرهم عند الله ولٰكن أكثرهم لا يعلمون﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى أنه أوحى إلى موسى عليه السلام أن يُلقي عصاه لتبتلع ما ألقاه السحرة من عصيهم وحبالهم التي انقلبت في أعين المشاهدين إلى ثعابين تُخِيفُ الناظرين وترهبهم وأن يُخرِج يدَهُ من درعه آيةً أخرى حيث تصير بيضاء تَتَلألأ من غير برص ولا مرض، وأن موسى عليه السلام لما ألقى عصاه التقمت جميع إفكهم فانقلبوا صاغرين وأُلْقِي السحرة ساجدين وأعلنوا إيمانهم برب العالمين رب موسى وهارون، فتوعدهم فرعون بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصَلْبِهم، وأن السحرة لم يَعبَئُوا بوعِيد فرعون وتهديده وسألوا الله عز وجل أن يفرغ عليهم صبرا وأن يتوفاهم مسلمين، شرع هنا في بيان موقف قوم فرعون بعد انقلابهم صاغرين، حيث سلكوا سبيل المهزوم في المحاجة، العاجز عن إظهار الحجة فأخذوا في تحريض فرعون على التنكيل بقوم موسى عليه السلام وتشديد العذاب على بني إسرائيل، وإغراء فرعون بهم لعل ذلك يَثْنِيهم عن الوقوف صفًا واحدًا مع موسى عليه السلام والانتصار للدين الحق، وقد سارع فرعون فأعلن أنه سيوقع ببني إسرائيل أشد العذاب، ويجدد عليهم العقوبة التي كان قد

تـراخى فيها وهي تقتيلُ أبنـائهم واستحيـاءُ نسائهم وقهـرُهم و إذلالهم بشتى وسائل القهـر والإذلال، وأن موسى عليـه السلام عندمـا سمع وعيد فـرعون وتهديده قال لقومه من بني إسرائيل: لا يُرْهبكم وعيدُ فرعون وتهديده واطلبوا من الله عز وجل أن يعينكم على عـدوكم واحبسوا أنفسكم عن الجزع ممـا قد يلحقكم من أذاه وأيقنـوا أنَّ الله عـز وجل نـاصركم عليه فـإنه تعـالى مـالك الأرض وما فيها ومن فيها يُعِزُّ من يشاء ويذل من يشاء والعاقبة للمتقين فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: لقـد وقع علينا الأذى من فرعون من قبل أن يبعثك الله إلينا رسولا ومن بعدما بعثك الله إلينا رسولا، فقد عَانَيْنَا من فرعون وقومه صنـوفَ الاضطهاد والعذاب دهرا طويلا فبشرهم مـوسى عليه السلام بأن نصر الله قـريب من المحسنين، وقـال لهم: أرجـو أن تستقيمـوا فتكـونَ العاقبـةُ الحسنى لكم، وأن يهلك الله عز وجل عـدوكم ويمكنكم في الأرض امتحانا لكم لتصبروا في الضراء وتشكـروا في السراء، وقد بدأت بشائر النصر للمؤمنين فسلط الله تبارك وتعالى على فرعون وقومه الجدب والقحط والجوائح التي تصيب ثمارهم كي يتذكروا ويتعظوا ويؤمنوا بالله ورسوله، لكنهم صاروا إذا رأوا بريقا من العافية والخصب والرخاء وما يحبونه من دنياهم أسندوا ذلك إلى أنفسهم، و إذا رأوا الجدب والقحط وقلـة الثمرة ومـا يسوؤهم في دنيـاهم تشاءمـوا من موسى ونسبوا ذلك إلى مجيئـه عليه السلام لهم وتشاءمـوا كذلك من المؤمنين الذين اتبعـوا موسى عليه السلام. والواقع أن سبـب شؤمهم هو كفرهم بالله ورسوله ومعاداة أوليائه. لكنهم جاهلون لا يعرفون أن كفرهم هو سبب بلائهم. وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقـومه ليفسدوا في الأرض ويـذرك وآلهتك﴾ إلى قولـه عز وجل: ﴿ألا إنما طائرهـم عند الله ولكن أكثرهـم لا يعلمون﴾ والمقصود مـن الاستفهام في قول قـوم فرعـون لفرعـون ﴿أتذر مـوسى وقـومه ليفسـدوا في الأرض ويذرك

وآلهتك﴾ هو تحريضهم فرعون وإثارته وتهييجه لإيقاع أشد العذاب بموسى وقومه أي أتترك موسى وقومه طليقين حتى يتمكنوا من الإفساد في بلادك بنشر دينهم ويكُفُّوا الناس عن الانقياد لك وعن عبادة آلهتك؟ والظاهر أن قوم فرعون لما أحَسُّوا الذلةَ والصَّغارَ في نفس فرعون بعد أن التقمت عصا موسى ما ألقاه السحرة خافوا أن يراود فرعونُ موسى على أن يكف موسى عن التنديد بفرعون وديانته ويكُفَّ فرعونُ عن إلحاق الأذى بموسى وقومه وتتم بينهما معاهدة مصالحة ومسالمة. وفي قوله: ﴿وآلهتك﴾ إشعار بأن فرعون وقومه كانوا يعبدون أربابا كثيرة، وقد ادعى لهم فرعون أنه ربهم الأعلى، وقد بلغ الذروة في الاستخفاف بقومه عندما قال لهم: ما علمت لكم من إلّه غيري، ولا شك أن بقايا آثارهم تدل على كثرة معبوداتهم. وفي قوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أبناءهم ونستحيي نساءهم﴾ دون أي وعيد لموسى عليه السلام إشعار بما وقر في قلب فرعون من المهابة لموسى عليه السلام وخوفه من إلحاق الأذى به وعلمه في قرارة نفسه بأن موسى رسول من رب العالمين لكنه جحد ذلك مع الاستيقان به هو وقومه. ومعنى قوله: ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾ أي قال موسى عليه السلام لقومه ناصحًا لهم ومبشرًا ومواسيًا ومحذرا من أن يلحقهم الضجر من وعيد فرعون وتهديده: اطلبوا العون من الله عز وجل على فرعون وقومه واحبسوا أنفسكم عن الجزع مما قد يصيبكم من آل فرعون من المكاره، وأيقنوا أن فرعون وقومه مملوكون لله يفعل بهم ما يشاء ويحكم فيهم بما يريد وأن الأرض لله يُمَكِّن فيها من يشاء من عباده، وستكون العاقبة الحسنى لكم لأن العاقبة الحسنى للمتقين، وقد أنجز الله تبارك وتعالى لقوم موسى ما وعدهم به كما سيجيء في الآية السابعة والثلاثين بعد المائة من هذه السورة حيث يقول عز وجل: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يُسْتَضْعَفُونَ مشارق

الأرض ومغاربها التي بـاركنا فيها وتمت كلمـة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعونُ وقـومُهُ وما كانوا يَعْرِشُون﴾ ولا شك أن تهديد فـرعون لقـوم موسى بتقتيل أبنائهم واستحيـاء نسائهم وزيـادة قهرهم وإذلالهم قد أخـاف بني إسرائيل وأحدث في نفوسهم الرعب، وقـد أشار الله تبارك وتعـالى إلى ذلك في قوله عز وجل في سـورة يونس: ﴿فما آمن لموسى إلا ذُرِّيةٌ من قومه على خوف من فرعون وملإهم أن يفتنهم، وإن فرعون لعالٍ في الأرض وإنه لمن المسرفين * وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين * فقالوا على الله توكَّلْنا ربنـا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين * ونَجِّنَا برحمتك من القوم الكافرين﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿قالوا أُوذِينَا من قبل أن تأتينـا ومن بعـد مـا جئتنـا، قـال عسى ربكم أن يُهْلِكَ عـدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظرَ كيف تعملـون﴾ أي قال قـومُ مـوسى لموسى عليه السـلام حين قال لهم: ﴿استعينـوا بالله واصبروا﴾ قـد وقع علينا الأذى من فرعون وقومـه قبل أن تجيئنا برسالة الله إلينا حيث كـان فرعون يأمر بتقتيل أبنـائنا واستحيـاء نسائنـا، ويقع علينـا الأذى من فرعـون وملئه بعـد مجيئك بالـرسالة من الله إلينـا حيث أمر فرعون الآن بتقتيل أبنـائنا واستحياء نسـائنا وإلحاق أنواع القهر بِنَـا، فأجابهم موسى عليه السـلام حاضًّا لهم على الصبر والثبات فقـال لهم: لعل اللهَ ربَّكم أن يهلك عدوكم فرعونَ وقـومه ويجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم، وتتمكنـون في البلاد، لا تخافون أحدًا من الناس، فيرى ربكم مـا تعملونه بعـد أن يُمَكِّنَ لكم في الأرض وسيجازيكم على ما يكون منكم من الخير أو الشر، فـإن من دأب عباد الله الصالحين أنهم إذا مُكِّنَ لهم في الأرض أقامـوا الصلاة وآتـوا الزكـاة وأمروا بـالمعروف ونَهَوْا عن المنكر وأعْلَـوْا راية الدين. كما أشـار إلى ذلك قولُـه تعالى: ﴿ولَيَنصُرَنَّ اللهُ من ينصره، إن الله لقوي عزيز * الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا

الـزكاة وأمـروا بالمعـروف ونَهَوْا عن المنكـر ، ولله عاقبـة الأمور﴾ وقـولُهُ تبـارك وتعـالى : ﴿ولقـد أخـذنـا آل فـرعـون بـالسنين ونقص من الثمـرات لعلهم يذَّكرون* فإذا جاءتهم الحسنة قالـوا لنا هٰذه وإن تصبهم سيئة يَطَّيَّروا بموسى ومن معـه ، أَلا إنما طـائرهم عنـد الله ولٰكنَّ أكثـرهم لا يعلمـون﴾ شروع في تفصيل تسليط عقوبـات الله تبارك وتعالى على آل فرعـون ، ومبادئ الانتصار لموسى وقـومه مع بيان جهـل آل فرعون وتماديهم في الغي والضـلال ، وقَلْبِهم لحقـائق الأشياء ، وعـدم ارتداعهم بما يشـاهـدونه من الآيـات الكونيـة التي يمتحنهم الله عز وجل بها تأييـدا لموسـى عليـه السلام ، والمراد بآل فـرعون : فرعـونُ وقومُه ، والمرادُ بالسنين : القحط والجدب ، من قـولهم : أسنت القوم أي أجدبوا . كما قال عبدالله بن الزِّبَعْـرَى في هاشم بن عبد مناف جد رسول الله ﷺ :

عَمرو الذي هَشَمَ الثَّرِيدَ لقومه قَوْمٍ بمـكةَ مُسْنِتِينَ عِجَاف

وقـد استعمل العرب السنـة بمعنى الحوْل وبمعنى الجدب وهو المراد هنـا كما وصفت . والمراد بنقص من الثمـرات : هـو قلـة الثمـرات التي تحملهـا أشجـارهم أو إصـابتهـا بـالآفـات التي تقلل محصـولهم من الثمار. ومعنى : ﴿لعلهم يذَّكرون﴾ أي كي يتعظوا ويرتدعـوا ويتوبوا إلى الله ويصدقوا موسى وهارون صلى الله عليهماوسلم . ومعنى قوله عز وجل : ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هٰذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾ أي فإذا نَفَّسْنَا لهم بين الحين والحين وأصبناهم بنوع من الرخاء امتحـانا وابتلاء نسبوا ما أصابهم من الخير لأنفسهم وأنهم حصلـوا على ذلك بسبب ذاتي لهم كما قال قـارون : ﴿إنما أُوتيتُه على علم عنـدي﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ثم إذا خَوَّلْنَـاه نعمة منا قال إنما أوتيتـه على علم﴾ أما إذا أصـابهم قحط أو جدب نسبـوه إلى موسى ومن معـه من المؤمنين وجعلـوا ذلك بـزعمهم من شـؤم مجيء مـوسى إليهم

وإيمان من آمن به، وقالوا ما أصابتنـا هذه المصائب إلا من شؤمك وشؤم من معك، فازدادوا بـذلك جهلا على جهلهم وضـلالا فوق ضـلالهم، وسلكوا نفس المسلك الـذي سلكـه المكذبـون من قبلهم ومن بعـدهم ولم يعتبروا ولم يتعظوا ولم يتـذكروا، وقد ذكـر الله تبارك وتعالى عـن قوم صالح عليـه السلام أنهم: ﴿قـالـوا اطَّيَّرْنا بك وبمـن معك، قال طـائركم عنـد الله بل أنتم قـوم تُفْتَنُـون﴾ كما ذكـر عـز وجل عن أصحـاب القـريـة في ردهم على المرسلين: ﴿قالـوا إنا تطيرنـا بكم لئن لم تنتهوا لنـرجمنكم وليمسنكم منا عـذاب أليم * قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بـل أنتم قوم مسرفون﴾ ومعنى قوله: ﴿ألا إنما طائرهم عنـد الله ولَكن أكثرهـم لا يعلمـون﴾ أي إن أسباب بـلائهم وما حل بهم من العقوبات عند الله علمه وهو وحده المدبر لكل شيء، ولكن أكثرهم جاهلـون بالله ولا يدرون أن المعـاصي تجلب المصائب. والتطير هـو التشاؤم وهو الفأل السيئ ضد التيمن وهو الفأل الحسن. وقد نهى رسول الله ﷺ عن الطِّيرة وقال: الطيرة شرك كما رواه أبوداود والترمذي وصححه من حديث ابن مسعود رضي الله عنـه. وقد كانوا في الجاهليـة إذا عزموا على أمـر مُهِم أرسلوا طائرا أو نظروا في جـو السماء إلى طائر فإن وجدوه اتجه يمينا فـرحوا ومضوا في طريقهم وإن اتجه شمالا تشاءموا ورجعوا عـن قصدهم واعتقدوا عدم نجاح خطتهم وقد أطلقوا على ذلك اسم التطير حتى ولو تشاءموا من سماع اسم لا يرضونه أو شهر أو يوم أو مكـان، فأبطل الإسلام ذلك وحذر منه، وقد روى البخاري ومسلـم من حديث أبي هـريرة أن رسـول الله ﷺ قال: لا طيرة ولا هامة ولا صفر.

قال تعالى : ﴿وقالوا مهما تأتنا بـه من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين * فأرسلنا عليهم الطـوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيـات مفصلات فاستكبروا وكانوا قـوما مجرمين * ولما وقع عليهم الرجز قالوا يـا موسى ادع لنا ربك بما عهد عنـدك لئن كشفت عنا الـرجز لنؤمنن لك ولنـرسلن معك بنى إسرائيل * فلما كشفنـا عنهم الـرجـز إلى أجل هم بـالغـوه إذا هم ينكثـون * فانتقمنـا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كـذبوا بآيـاتنا وكانوا عنهـا غافلين * وأورثنا القـوم الذيـن كانوا يستضعفـون مشارق الأرض ومغـاربها التي بـاركنا فيهـاوتمت كَلِمَتُ ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمـرنـا ما كـان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ .

بعد أن ذكر الله تبـارك وتعالى أن قوم فرعون أخـذوا في تحريض فرعون على التنكيل بقوم موسـى عليه السلام وتشديد العـذاب على بني إسرائيل وإغراء فرعون بهم لعل ذلك يَثْنيهم عن الوقوف صفًـا واحدًا مع موسى عليه السلام والانتصار للـدين الحق، وقد سـارع فرعـون فأعلن أنه سيـوقع ببني إسرائيل أشـد العذاب ويجدد عليهم العقـوبة التي كـان قـد تراخى فيهـا وهي تقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم، وأن موسى عليه السلام عندما سمع وعيد فرعون وتهديده لقوم موسى عليه السلام قـال لبني إسرائيل : لا يرهبكم وعيد فرعون وتهديده واطلبوا من الله عـز وجل أن يعينكم على عدوكم، واحبسوا أنفسكم عن الجزع مما قد يلحقكم من أذاه، وأيقنـوا بنصر الله وتأييده لكم، فقال بنو إسرائيل لموسى : لقـد وقع علينا الأذى من فـرعون من قبل مجيئك إلينـا ومن بعد ما جئتنا وعـانينا من فرعون وقومه صنوف العـذاب دهرًا طويلا فطمأنهم موسى عليـه السلام بأن نصر الله قريب من المحسنين ورجـا الله عز وجل أن تكون العـاقبة الحسنى لبني إسرائيل، وأن يمكن لهم في الأرض، وقـد بدأت

العقوبات تتوالى على فرعون وقومه حيث سلط الله عليهم الجدب والقحط أحيانا كثيرة والرخاء في بعض الأحيان ليبتليهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون عن غيهم وضلالهم لكنهم كانوا إذا أصابهم الرخاء نسبوه إلى أنفسهم وإذا أصابتهم الضراء نسبوها إلى مجيء موسى إليهم تشاؤما منه، شرع عز وجل يبين هنا أن فرعون وقومه تمادوا في غيهم وضلالهم وأكدوا لموسى عليه السلام بأنهم لن يؤمنوا به مهما جاءهم به من الخوارق والمعجزات واعتبروا أنَّ كل ما يجيئهم به موسى عليه السلام هو سحر، فسلط الله عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم آيات مُفَصَّلات فاستكبروا ولم ينزجروا حتى اشتد بهم الرجز فطلبوا من موسى أن يسأل ربه كشف العذاب عنهم ووعدوه أن يؤمنوا به ويرسلوا معه بني إسرائيل إن كشف الرجز عنهم، فلما كشف الله عز وجل الرجز عنهم امتحانا لهم إذا هم ينقضون عهدهم ويستمرون على كفرهم وغيهم وضلالهم، فانتقم الله عز وجل منهم فأغرقهم وأورث بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها ومكَّن لهم فيها وحقق لهم ما وعدهم به موسى عليه السلام وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾ إلى قوله: ﴿ودَمَّرْنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ وقوله عز وجل: ﴿وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾ بيان لتمرد فرعون وقومه وعتوهم وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل، حيث أعلنوا لموسى عليه السلام أنهم لن يصدقوه أبدا مهما جاءهم به من الخوارق والمعجزات وقالوا له: إن جئتنا بكل آية لتخدعَنَا بها وتلفتنا عما نحن عليه فلن نصدقك أبدا، ولن ننقاد لك بحال من الأحوال، وعندما وصلوا إلى هذا الحد من التعنت والجحود والكفران، بدأت عقوبات الله تتابع عليهم، وقد جعل الله عز وجل هذه العقوبات لافِتةً لانتباه الإنسان إذا كان عنده ذرة من العقل، فهي

عقوبات مـؤذيةٌ مزعجةٌ واعظةٌ شاهـدةٌ بأن الله قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء، وهذه العقوبات هي الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم، حيث يقول عـز وجل: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّلَ والضفـادع والدم آيات مُفَصَّلاتٍ فاستكبروا وكانوا قومـا مجرمين﴾ والمراد بالطوفان المياه الجارفة والسيـول المغـرقـة لمزارعهـم دون أن يلحق ببني إسرائيل منهـا أذى، والجراد معروف، وقـد سلطه الله عـز وجل عليهم فأتلف زروعهم وثمارهم ولم يصب بني إسرائيل بـأذى، على أن في تمكين الجراد منهم لفت انتبـاه إلى عجـزهم وضعفهم أمام هذا الجراد الضعيف، الذي جعل الله عـز وجل في صورته آيةً من آيات قدرته، كما قال شريح رحمه الله: الجرادة فيهـا خِلقة سبعة جبابرة، رأسها رأس فرس، وعنقها عنق ثور، وصدرهـا صدر أسد، وجناحها جناح نسر، ورِجلاها رِجْلا جمل، وذَنَبُها ذنَب حيـة، وبطنها بطن عقرب. اهـ أما القُمَّلَ فإنـه يُطْلَقُ على السـوس الذي يتـوالد في الحبـوب فيأكل لُبَّهـا ويُبْقي قشرهـا، كما يطلق القُمَّلَ على صغار الـذر وعلى القَمْل والبراغيث ونـوع من القراد، ويطلق أيضـا على دُوَيبة خبيثة الـرائحة شديـدة الأذى تشبه الحَلَمَ، فصار هذا القُمَّلُ يخالطهم في جميع أحوالهم لا يلمسون شيئا إلا وجدوه فيه، وأما الضفـادع فهي دابة نهريـةتَنِقُّ كثيرا، وقد قال الحافـظ ابن حجر في فتح الباري: وذكـر الأطباء أن الضفدع نوعـان: بَرِّيٌّ وبحري فـالبري يقتل آكله والبحري يضره. اهـ وقد سلط الله عز وجل على قوم فرعون الضفادع فملأت بيوتهم وطعامهم وشرابهم، ثم سلط عليهم الدم فصـاروا لا يتناولون شيئا إلا وجدوه مغطى بالدم وقد امتزجت به مطاعمهم ومشاربهم وكان من آيات الله أن صـان بني إسرائيل من كل هـذه العقـوبـات. ومعنى قـولـه عـز وجل: ﴿آيـاتٍ مُفَصَّلاتٍ﴾ أي عـلامـات ودلالات على صحـة نبوة مـوسى عليـه السـلام ومعجزات مـؤيدات لصدقـه في أنه رسـول من رب العالمين، وقـد

جعلها الله عز وجل متواترة متتابعة يتلو بعضها بعضا . وقد فَصل بينها ، وبَيَّنها لهم حتى لا يشكل على عاقل أنها آيات من الله عز وجل ، وأنها تحذير من نقمة تكون أكبر منها ، كما فعل بهم لما عتوا فأغرقهم في اليم وقضى عليهم ، وقولُه تبارك وتعالى : ﴿فاستكبروا وكانوا قومًا مجرمين﴾ قال ابن جرير رحمه الله : قال أبوجعفر: يقول تعالى ذكره : فاستكبر هؤلاء الذين أرسل الله عليهم ما ذكر في هذه الآيات من الآيات والحجج عن الإيمان بالله وتصديق رسوله موسى ﷺ، واتِّباعه على ما دعاهم إليه ، وتعظموا على الله وعَتَوْا عليه ﴿وكانوا قوما مجرمين﴾ يقول : كانوا قوما يعملون بما يكرهه الله من المعاصي والفسق عُتُوًّا وتَمَرُّدًا . اهـ ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشَفْتَ عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلنَّ معك بني إسرائيل * فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون * فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ أي ولما نزلت بهم هذه العقوبات وهي الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم وآلمتهم ألما شديدا صاروا يلجئون إلى موسى عليه السلام ليدعو الله لهم ليكشف عنهم هذا الرجز، ويَعِدُونَه بأنه إذا كشف الرجز عنهم آمنوا به وأرسلوا معه بني إسرائيل ، وهذا شبيه بما كان بين قريش وبين رسول الله محمد ﷺ حينما دعا الله عز وجل أن يعينه على قريش بسنين كسني يوسف أو أشد فاستجاب الله عز وجل له ، فذهبوا إلى رسول الله ﷺ وسألوه أن يدعو الله ليكشف عنهم هذا العذاب ، وقالوا ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون إن كشفت عنا العذاب ، فلما كشف الله عنهم العذاب استمروا على كفرهم وضلالهم فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري في باب إذا استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط ، من طريق مسروق قال : أتيت ابن مسعود فقال : إن قريشا أَبطأوا

عن الإسلام فدعـا عليهم النبي ﷺ فأخذتهم سَنَةٌ حتى هلكـوا فيها، وأكلوا الميتة والعظـام، فجاءه أبوسفيان فقـال: يا محمد جئتَ تأمر بصلـة الرحم، وإن قومك هلكوا فادع الله، فقرأ: ﴿فـارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ ثم عادوا إلى كفرهم، فـذلك قولُه: ﴿يوم نبطش البطشـة الكبرى﴾ يوم بدر ثم قـال البخـاري: وزاد أسباط عن منصـور: فـدعـا رسول الله ﷺ فَسُقُـوا الغيث. وهكذا لجأ قـوم فرعون إلى موسـى عليه السلام ليدعـو الله عز وجل حتى يكشف الـرجز عنهم، فـدعا مـوسى عليـه السلام ربـه فكشف عنهم الرجـز الذي أنزله بهم ورفع العـذاب عنهم إلى أجل هم بالغوه أي ليستـوفوا أيامهم التي جعلهـا الله لهم من الحياة أجلا، إذا هم ينقضـون عهودهم التي عاهـدوا موسى عليهـا ويقيمون على كفـرهم ولا يرسلـون بني إسرائيل، فلما نكثوا عهودهم أنزلنا بهم نقمتنا فَسُقْنَاهُم إلى البحر وأغرقناهم فيه، وقد فعلنا بهم ذلك بسبب تكذيبهم بآياتنا التي أيدنا بها موسى عليه السلام وبسبب ما أقمنـاه لهم من البراهين السـاطعـة والحجـج القـاطعـة بأن الله على كل شيء قدير، وأن أعـداءه لا يستطيعون الإفلات من عقابـه والهروب من عذابه مهما كانوا عليـه من القوة والبطش إذا أصروا على الكفر به وتكـذيب رسله والغفلة عن آياتـه التي ينصبها أمامهم، ومعنى قـوله تبارك وتعالى: ﴿ وأورثنـا القوم الذين كانوا يُسْتَضعفون مشارق الأرض ومغـاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صَبَرُوا ودمَّرنـا ما كان يصنع فرعـون وقومه وما كـانوا يعـرشون﴾ بيـان لما وعد بـه موسى بني إسرائيل حيث رجـا الله عز وجل أن يمكـن لهم في الأرض وأن يستخلفهم فيهـا حيث قـال لهم: ﴿استعينـوا بالله واصبروا إن الأرض لله يـورثها من يشـاء من عبـاده والعاقبـة للمتقين﴾ وقـال لهم: ﴿عسى ربكم أن يهلك عـدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ وقـد تمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل

بما صبروا، وأنجز لهم وعده وأهلك عدوهم واستخلفهم في الأرض وجعلهم مسيطرين على مشارقها ومغاربها في الشام ومصر ومنحهم بركاتها التي باركها بها حيث مكن لرسوله سليمان عليه السلام فيها وسخر له الريح تحمله إلى أطرافها غدوها شهر ورواحها شهر، وجاءته ملكة سبأ منقادة وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين. وكما قال عز وجل: ﴿ونريد أن نَمُنَّ على الذين اسْتُضْعِفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض وَنُرِيَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ وقد أنهى الله عز وجل بهذه الآيات في هذا المقام من هذه السورة المباركة قصة فرعون وقومه مع موسى عليه السلام.

قـال تعالى : ﴿وجـاوزنا ببنى إسرائيـل البحر فأتـوا على قوم يعكفـون على أصنام لهم، قالوا يا مـوسى اجعل لنا إلَهًا كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون * إن هٰؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون * قال أغير الله أبغيكم إلَهًا وهو فضلكـم على العالمين * وإذ أنجيناكـم من آل فرعـون يسومونكـم سوء العـذاب يقتلـون أبناءكم ويستحيـون نسـاءكم، وفى ذٰلكم بـلاء من ربكم عظيم﴾.

بعد أن قصَّ الله تبارك وتعالى قصة موسى ومـا لقيه من المتاعب من فرعون وأَنْهَى هذه القصة بإغـراق فرعون وجنوده في اليم، وإنجـاء موسى ومن تبعه من بني إسرائيل، شرع هنـا في ذكـر قصـة مـوسـى مع بني إسرائيل، فلما أن استراح موسى عليه السـلام من متاعب فرعون وملئه حتى بـدأت متاعبه من بني إسرائيل، حيث رأوا ــ بعد نجـاتهم من فرعون ورؤيتهم معجـزة كبرى حيث ضرب مـوسى بعصاه البحـر فانفلق وجعل لهم طـريقا في البحـر يَبَسا ورأوا بأعينهم غرق فرعون ومن معه ــ رأوا قوما يعبدون أصناما لهم قد عكفوا عليها فقالوا لموسى عليه السلام: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، فوبخهم موسى عليـه السـلام وبَيَّنَ لهم أن هـؤلاء الـوثنيين يهلكـون أنفسهم بهذا الشرك فهم مبطلـون وعملهم بـاطل، وذكَّـرهـم بفضل الله وآلائه عليهم وتخليصهم من العـذاب المهين الذي وقع عليهم مـن فرعـون وملئـه، وفي ذلك يقول تبـارك وتعالى: ﴿وَجَـاوَزْنَا ببني إسرائيل البحـر فَأَتَـوْا على قوم يعكُفُـون على أصنام لهم، قالـوا يا موسى اجعـل لنا إلَهًا كما لهم آلهةٌ، قال إنكم قـومٌ تجهلون﴾ إلى قـوله تبـارك وتعـالى: ﴿وفي ذٰلكم بـلاء من ربكم عظيم﴾ ومعنى قـوله عـز وجل: ﴿وجـاوزنا ببني إسرائيل البحـر﴾ أي وقطعنـا بموسى وقـومه البحـر وعبرنا بهم من الشاطئ الغربي إلى الشاطئ الشرقي، وقد بيَّن الله تبارك وتعالى

كيفية عبورهم البحر حيث قال عز وجل: ﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يَبَسًا لا تَخَافُ دَرَكًا ولا تَخْشَى * فأتبعهم فرعونُ بجنوده فَغَشِيَهُمْ مِن اليَمِّ ما غَشِيَهُمْ * وأضل فرعونُ قومه وما هَدَى﴾ وقال عز وجل: ﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم مُتَّبَعُونَ * فأرسل فرعونُ في المدائن حاشرين * إنَّ هؤلاء لَشِرذِمَةٌ قليلون * وإنهم لنا لغائظون* وإنا لجميع حاذرون * فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل * فأتبعوهم مُشرِقِينَ * فلما تَرَاءى الجمعان قال أصحابُ موسى إنا لَمُدْرَكون * قال كلا إنَّ مَعِي رَبِي سَيَهْدِينِ * فأوحينا إلى موسى أَنِ اضْرِبْ بعصاك البحر فانفلق فكان كلُّ فِرْق كالطَّوْدِ العظيم * وأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرينَ﴾ وقد أقر رسول الله ﷺ على أن إغراق فرعون وقومِهِ ونجاة موسى وقومِهِ كان في اليوم العاشر من المحرم فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قَدِمَ المدينة فوجد اليهود صيامًا يوم عاشوراء فقال لهم رسولُ الله ﷺ: ما هذا اليومُ الذي تصومونه؟ فقالوا: هذا يومٌ عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه وغَرَّقَ فرعونَ وقومه، فصامه موسى شكرا، فنحن نصومه، فقال رسول الله ﷺ: فنحن أحق بموسى منكم، فصامه رسولُ الله ﷺ وأَمَرَ بصيامه. ومعنى قوله عز وجل: ﴿فَأَتَوْا على قوم يَعْكُفُون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلَهًا كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون * إنَّ هؤلاء مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون﴾ أي وبعد أن قطعنا ببني إسرائيل البحر بعد هذه الآيات الكبار التي شاهدوها ورأوها بأبصارهم في فلق البحر لهم وإغراق عدوهم فلم تزجرهم تلك الآيات ولم ينتفعوا بهذه العِبَر ولم يتعظوا بهذه المواعظ المُبْصِرَة التي صنعها الله عز وجل لهم فما أن خرجوا من البحر حتى مَرُّوا بقوم عاكفين

على أصنام لهم يلازمونها ويقيمون حولها ويعبدونها من دون الله فقال بعض جهلة بني إسرائيل لموسى عليه السلام: اتَّخِذْ لنا صنما نعبده كما يعبد هؤلاء أصنامهم وتماثيلهم، فوبخهم موسى عليه السلام، ونَبَّهَهُم إلى أن هذا الطلبَ جهالةٌ منكم، فإن العبادة لا تنبغي ولا تصح إلا لله الواحد القهار، إنكم أيها القوم تجهلون عظمة الله وحقه في أن يُفْرَدَ بالعبادة وأن يُخَصَّ بالألوهية فكيف لا تعلمون أنه لا إله إلا الله، وأن الإقرار بكلمة التوحيد يقتضي أن لا يُصْرَفَ شيء من العبادة مهما كان إلا لله وحده لا شريك له. إنَّ هؤلاء العاكفين على أصنامهم مُتَبَّرٌ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون أي هالك فاسد، ومضمحل زائل لا يعود على أهله إلا بالشر ولا يجلب شيئا من الخير لهم فكُلُّ عبادةٍ لغير الله باطلة، والله أغنى الشركاء عن الشرك، فمن أشرك معه غيره رَدَّهُ وشِرْكَهُ وأحبط عمله، ومعنى قوله عز وجل: ﴿قال أغيرَ الله أَبْغيكم إلَهًا وهو فضَّلكم على العالمين﴾ أي أأَطْلُبُ لكم شيئا تعبدونه غير الله، الذي فضَّلكم على عَالَمِي زمانكم حيث بعث إليكم رسوله وكليمه موسى، فعليكم أن تعرفوا نعمة الله عليكم ولا تَنْسَوْا هذه الآلاءَ التي منحكم إياها ولا يليق بواحد منكم أن يطلب معبودًا غير الله عز وجل ليشابه المشركين عَبَدَةَ الأوثان، ولا شك أنه لم يكن كلُّ بني إسرائيل قد طلب إلها آخر، وإنما هو طلب بعض جهلتهم، وقد ذكر كثير من المفسرين ومؤلفي السيرة النبوية خبرا من طريق معمر عن الزهري عن سنان بن أبي سنان الديلي عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قِبَلَ حُنَيْنٍ فمررنا بسدرة، فقلت، يا نبي الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذاتُ أنواط، وكان الكفارُ ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون عليها، فقال النبي ﷺ: الله أكبر، هذا كما قال بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة. إنكم تركبون سَنَنَ من كان قبلكم. قال ابن كثير في تفسيره: أورده ابن جرير ورواه ابن أبي حاتم

من حـديث كثير بن عبـدالله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيـه عن جـده مرفوعا . اهـ أقـول : قال الحافظ ابن حجر في التقريب : كثير بن عبـدالله بن عمـرو بـن عـوف المزني المدني ضعيف من السـابعـة ، منهم مـن نسبـه إلى الكذب . اهـ فإن صح هـذا الخبر حُمِلَ على أنه قـول واحد من حدثـاء العهد بالجاهليـة كما جاء مصرحًـا به في روايـة عن أبي واقد الليثي قـالوا : وقـد كان لكفار قـريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمـة خضراءُ يقال لها : ذات أنـواط يأتـونها كل سنـة فيُعَلِّقـونَ عليها أسلحتهـم ، ويذبحـون عنـدهـا ، ويعكفون عليهـا يوما ، قال أبـوبكر الطرطوشي المالكي : فـانظروا رحمكم الله أينما وجـدتم سـدرةً أو شجرة يقصـدهـا النـاس ويعظمونها ويـرجـون البُرْءَ والشفـاء من قِبَلِها فاقطعوها . اهـ والاستفهـام في قولـه : ﴿أَغَيْرَ اللهِ أبغيكم إلهًا﴾ للإنكار والتعجب والتوبيخ . وقولُه تبارك وتعالى : ﴿وإذ أَنجَيْنَاكم من آل فرعونَ يسومونكم سوء العـذابِ يُقَتِّلُونَ أبناءكم وَيَسْتَحيُون نِسَاءَكُمْ ، وفي ذٰلكم بَـلاءٌ من ربِّكُم عَظِيمٌ﴾ قـال ابن جـريـر رحمه الله في تفسير قولـه عـز وجل : ﴿وإذ أنجينـاكم من آل فـرعـون يسـومـونكم سُـوءَ العـذاب﴾ قـال أبوجعفـر : يقول تعالى ذكره لليهـود من بني إسرائيل الذين كانـوا بين ظهراني مهـاجَر رسـول الله ﷺ : واذكـروا مع قِيلكم هـذا الذي قلتمـوه لموسى بعـد رؤيتكم من الآيـات والعِبَر، وبعـد النعم التـي سَلَفَتْ مني إليكم والأيـادي التي تَقَـدَّمَتْ ـــ فِعْلَكُمْ مـا فعلتم ـــ ﴿إذ أنجينـاكم من آل فرعـون﴾ وهم الذين كانـوا على منهاجه وطريقته في الكفـر بالله من قومه ﴿يسـومونكم سُوءَ العذاب﴾ يقول : إذ يُحَمِّلُونكم أَقبَح العذابِ وسَيِّئَهُ . اهـ وهذه الآية الكريمة شبيهـةٌ بقـولـه تبارك وتعـالى في سـورة البقـرة حيث يقـول عـز وجل : ﴿وإذ نَجَّيْنَاكم من آل فرعون يسومونكم سُـوءَ العذاب يذبحون أبناءكم وَيَسْتَحيُونَ نساءكم ، وفي ذٰلكـم بلاء من ربكم عظيـم﴾ كما أن بها شَبَهًـا من قولـه تبارك

وتعالى في سورة إبراهيم حيث يقول عز وجل: ﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذْ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سُوءَ العذاب وَيُذَبِّحونَ أبناءكم ويستحيون نساءكم، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ وقد ذكرت في تفسير آية سورة البقرة أن قوله عز وجل: ﴿يُذَبِّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ هو تفسير لقوله عز وجل: ﴿يسومونكم سُوء العذاب﴾ والعطف بالواو في سورة إبراهيم حيث قال عز وجل: ﴿يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ للإشارة إلى أن فرعون وجنده كانوا يُوقعون ببني إسرائيل ألوانا من العذاب المهين وكان منها قتلُ أبنائهم واستحياءُ نسائهم، فعطف بالواو في سورة إبراهيم لبيان أنهم كانوا يعذبونهم بالذبح واستحياء النساء وغير ذلك، إذ كانوا يكلفون الذكور بالأعمال القذرة والشاقة من قطع الحجارة من الجبال وحملها ونقلها لبناء قصور آل فرعون، ومن الحراثة والزراعة وحمل القاذورات، واستخدام النساء في أعمال غير كريمة وفي خدمة نساء آل فرعون مبالغةً في إذلال بني إسرائيل وشدة إيذائهم، ولذلك وصف الله تبارك وتعالى ذلك بقوله: ﴿وفي ذُلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ في تذييل هذه الآيات في هذه المقامات الثلاث من الذكر الحكيم، كما أشار عز وجل إلى أن العذاب الذي كان يوقعه فرعون وجنوده ببني إسرائيل كان عذابًا مُهِينًا حيث يقول تبارك وتعالى في سورة الدخان: ﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المُهِين * من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين﴾ كما وصف ما أوقعه فرعون وجنوده ببني إسرائيل بأنهم صاروا في كرب عظيم حيث يقول عز وجل: ﴿ولقد مَنَنَّا على موسى وهارون * ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم﴾ والمقصود من هذه الآيات هو تذكير بني إسرائيل المعاصرين لرسول الله ﷺ ولمن يجيء بعدهم منهم بأن هذا الإنجاء لآباءهم هو إنجاء لهم، إذ أن تنجية الآباء هي تنجية للأبناء والذرية

إذ لو هلك الآباء تحت التعذيب ما وُجدَ هؤلاء الأبناء، والمراد بالبلاء الامتحان والاختبار بالخير والشر ليظهر في عالم الوجود، الشاكرون والصابرون أو الجاحدون والكافرون كما قال عز وجل: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾ وكما قال تبارك وتعالى: ﴿ونَبْلُوكُم بالشر والخير فتنةً وإلينا تُرْجَعُونَ﴾.

قال تعالى : ﴿ وواعـدنا موسى ثلاثين ليلةوأتممناهـا بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلـة ، وقال مـوسى لأخيـه هارون اخلفنى في قـومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسـدين * ولما جاء مـوسى لميقـاتنا وكلمـه ربـه قال رب أرنى أنظـر إليك ، قال لن ترانى ولٰكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر مـوسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين * قـال يا مـوسى إنى اصطفيتك على الناس بـرسالاتى وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾ .

بعد أن نَجَّى الله موسى وقومه وأغرق فرعون وجنده ، وجاوز عز وجل ببني إسرائيل البحر ورأوا قـوما يعكفون على أصنام لهم وقـالوا يا مـوسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، وأن موسى عليه السلام وبخهم على ذلك وذكرهم بنعمة الله عليهم حيث نجـاهم من آل فرعـون ، وأن العبادة لا تجوز إلا لله وحـده فهو المستحق لجميع أنواعهـا ومن عَبَدَ غيرَ الله فهو هـالك وعمله مضمحل زائل فاسد لا يعود عليه إلا بالشر والعذاب ، وقـد كان موسى عليه السلام عندما بعثه الله إلى فرعـون إنما بعثه بأصول الدين من التـوحيد و إقامة الصـلاة لذكر الله ووجوب الإيمان بـالبعث بعد الموت ، ولم يكن قد أنزل عليـه التوراة ، فلما انتهت مهمة مـوسى عليه السلام الخاصة بفـرعون وملئه ، وأغرق الله فـرعون وجنده ، وخَلَصَ موسى إلى سيناء وصـار مختصا ببني إسرائيل وهم في حاجة مـاسَّةٍ إلى نظـام يشمل حوائجهم في معـاشهم ومعادهم ، هَيَّأَ الله عـز وجل مـوسى عليه السـلام لِيُلْقِيَ عليه التـوراة المشتملة على الأحكـام التي تسلك بأهلها صراط الله المستقيم ، وحالةُ موسى عليه السلام هذه تُشْبِهُ حالة رسول الله محمد ﷺ في حيـاته النبـوية قبل الهجرة وبعـدها ، فإن القـرآن المكي كان ينزل لتقرير التوحيد والرسالة والإيمان بالبعث بعد الموت أما القرآن المدني فإنه

زيادة على ذلك جاء بتقرير نظام الدولـة الإسلامية و إقامة المجتمع السعيد، وما يحتاجه كل فرد لصلاح معاشه ومعاده، وقد واعد الله تبارك وتعالى موسى عليه السلام أربعين ليلة يتهيأ فيها لتلقي الشريعة، وقد سأله بعض قومه من المتعنتين المتنطعين أن يريهم الله جهرة، وأن يسأل ربـه ذلك، ولما أراد موسى التوجه لميقات ربه قال لأخيه هارون: أنت خليفتي على بني إسرائيل فأصلح أمورهم ولتكن سِياسَتُكَ لهم سِيَاسَةً رشيدة، واحذر دعاة الضلالة المفسدين في الأرض، فلما جاء موسى لميقات ربه وقد اختار من قومه سبعين رجلا لهذا الميقـات فلما انتَهَوْا إلى الجبـل وكلَّم اللهُ موسى تكليما قـال مـوسى: ربِّ أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظـر إلى الجبل فإن كان هذا الطُّور لا يَنْهَدُّ إذا تَجَلَّى اللهُ له فإنك تقدر على رؤيتي، وأراد الله عز وجل أن يضرب لموسى وغيره مثلا على أن الله عز وجل قد احتجب بـالنور عن خلقه لأنهم لم يُهَيَّئُوا في هذه الحياة الدنيا لرؤية الله، وإنما يرونه في الدار الآخرة، إذا ماتوا على الإيمان. كما قال عز وجـل: ﴿وُجُوهٌ يومئذ ناضرةٌ * إلى ربها نـاظرة﴾ لأن المؤمنين يجعلهم الله عـز وجل في الـدار الآخـرة أهـلا للتمتع بـالنظـر إلى وجـه الله الكـريم، بخـلاف حالهم في الـدنيا، فـإن حجابـه عز وجل النـور أو النـار لو كشفـه لأحـرقت سبحات وجهـه مـا انتهى إليه بَصَرُهُ من خلقـه، ومعنى قـوله عـز وجل: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلـة وأتممناها بِعَشْر فَتَمَّ ميقاتُ ربه أربعين ليلة﴾ أي وأوحينا إلى موسى أن يهيئ نفسه لمناجاتنا وكلامنا وتَلَقِّي التوراة منا بلا واسطة في موعد وَقَّتْنَاهُ له بثلاثين ليلة وعشر ليال فَبَلَغ الميقاتُ تمام أربعين ليلةً، وفي هـذا التعبير من الدقـة ما ليس فيها لـو قيل: واعدنـاه شهرا وعشر ليال لأن الشهر القمري قد يكون تسعـا وعشرين ليلة كما يكون ثلاثين ليلة، كما أن الشهر عنـد القبط قد يكـون ثلاثين ليلة، وقـد يكون إحـدى وثلاثين ليلة، والأشهـر التي تتعلق بها العبادات هي الأشهـر القمرية، كما قـال عز

وجل ﴿يسألـونك عن الأهلة قل هي مـواقيت للناس والحج﴾ وثبـوتها يكون مبنيًا على رؤية الهلال، ويحتاج إلى تحريه، وقد أراح الله عز وجل موسى عليه السـلام من انتظـار رؤيـة الهلال وتحريـه لأن الله العليم الخبير يعلم أن هـذا الشهر من الميقـات المؤقت لموسى عليه السـلام هو ثـلاثون ليلـة وليس تسعا وعشرين ليلة، ومعنى قـوله عز وجل: ﴿وقال موسـى لأخيه هارونَ اخْلُفْنِي في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المُفْسِـدِينَ﴾ أي ولما عَزَمَ موسى عليـه السلام على التوجه لميقات ربه وَصَّى أخاه نبي الله ورسوله هارون عليهما السلام وقال لـــه: أنت خليفتـي على بني إسرائيل حتى أرجع مـن منـاجـاة الله وتلقي الشريعـة، فأصلح أمورهـم بحملك إياهم على طـاعـة الله وعبادتـه ولتكن سياستك لهم سياسة رشيدة، واحذر دعاة الضلالة المفسدين في الأرض، ولا تمكن أحـدا منهم من العمل بغير طاعـة الله، لأن إظهـار المعصية إفسـاد في الأرض، وليس مقصـود مـوسى عليـه السلام أنـه يخاف على هـارون أن يتبع سبيل المفسدين، لأنـه يعلم أن هارون عليه السلام نبي كـريم ورسول عظيم يعصمه الله عـز وجل من سلوك سبيل المفسدين، وإنما المقصود هـو التذكير والتنبيه والتحـذير لبني إسرائيل من الفساد في الأرض على حد قـول القائل: إياكِ أعني واسمعي يا جـارة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولما جاء مـوسى لميقاتنا وكلمه ربُّـه قال ربِّ أرني أَنظرْ إليك، قال لن تـراني ولَكن انظر إلى الجبل فإن استقـر مكانـه فسوف تـراني، فلما تجلى ربُّـه للجبل جعله دكًّـا وخَرَّ مـوسى صَعِقًا، فَلَمَّا أفـاق قال سبحـانك تبت إليك وأنـا أولُ المؤمنين﴾ أي ولما جاء موسى لميقـات الله تعالى وحَصَلَ له التكليـم من الله وبلغ هذه المرتبة العـالية التي سُمِّيَ بسببها كليمَ الله سأل الله عز وجل أن ينظر إليه فقال: ﴿ربِّ أرني أنظر إليك قال لن تراني﴾ أي لأنه لـن يطيق بَشَرٌ النظر إليَّ وهو في دار الدنيا لأن حجاب ذي الجلال والإكرام النورُ لو كشفـه لأحرقت سبحات وجهه ما

انتهى إليـه بصره من خلقـه كما جـاء في صحيح مسلم حيث قـال رحمه الله : حدثنا أبوبكر بن أبي شيبة وأبوكرَيْب قـالا: حدثنا أبومعاوية حدثنا الأعمش عن عمرو بن مُـرَّة عن أبي عُبَيْدَة عن أبي موسى قال : قـام فينا رسولُ الله ﷺ بخمس كلمات فقال : إن الله عز وجل لا ينـامُ ولا ينبغي له أن ينام ، يَخْفِضُ القسط ويـرفعه ، يُـرْفَعُ إليه عمـلُ الليل قبل عمل النهار وعَمَلُ النهـار قبل عمل الليل ، حجابُـه النور ـــ وفي رواية أبي بكر ـــ النارُ، لو كشفـه لأحرقت سُبُحَاتُ وجهــه ما انتهى إليه بَصَـرُهُ من خلقــه ـــ وفي روايـــة أبي بكر عن الأعـمش ـــ ولم يقـل حدثنا . اهـ وقد زعم بعض أهل الأهواء أن قـوله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام: ﴿لن تراني﴾ دليل على استحـالة الرؤية في الدنيا والآخرة بدعوى أنَّ ﴿لَنْ﴾ تفيد تأبيـد النفي ، وجهلوا أن الله عز وجل قال في اليهـود : ﴿فتَمَنَّوُا الموتَ إن كنتم صـادقين﴾ ثم قـال : ﴿ولن يَتَمَنَّوْهُ أبـدا بما قـدمت أيــديهم﴾ مع أنهم سَيَتَمَنَّـوْنَ الموت وهم في جهنـم ، إذ يُنَـادُونَ مع نظـرائهم من الكفار: ﴿يـا مـالكُ ليقض علينا ربك﴾ وقـولـه تبارك وتعـالى لموسى عليه السلام : ﴿ولَكن انظر إلى الجبل فإن استقـر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلى ربُّه للجبل جعلـه دكًّا وخرَّ موسى صعقـا فلما أفاق قـال سبحانك تبت إليك وأنـا أول المؤمنين﴾ أي إذا أردت أن تعرف أنك في هـذه الدنيـا لن تطيق النظـر إليَّ فانظـر إلى الجبل ذلك الطور الأشم فإن كـان هذا الطُّـور لا يَنْهَـدُّ إذا تجلى الله لـه فإنك تقـدر على رؤيتي ، وأراد الله عـز وجل أن يضرب لموسى وغيره مثلا على أن الله عـز وجل قد احتجب عن خلقه بـالنور لأنهم لم يُهَيَّئُوا في هذه الحيـاة الدنيا لرؤية الله تعالى ، وإنما يـراه في الجنة من يموت على الإيمان ، وقد كـان موسى عليه السلام قـد اختار من قومـه سبعين رجلا لهذا الميقـات فلما تجلى الله تبارك وتعـالى للجبل جعله دكـا أي مـدكوكـا مستويـا بالأرض وخر مـوسى صعقا أي وسقط موسى مغشيا عليه ، وقـد خر كذلك

السبعون رجلا الذين كانوا مع موسى عليه السلام، فلما أفاق موسى عليه السلام من صعقته اعتذر إلى الله عز وجل وقال: تبت إليك وأنا أول المؤمنين، ولما رأى موسى عليه السلام أن السبعين الذين معه لايزالون في صعقتهم دعا اللهَ عز وجل أن يكشف عنهم، واعتذر إلى الله عز وجل بأنه أراد بِسُؤالِـهِ أن يقطع شبهة هؤلاء السفهاء الذين كانوا سألوه قبل أن يتوجه لميقات ربه أن يريهم ربَّهم جهرة، وقد أجاب الله عز وجل دعوة موسى عليه السلام، فأفاق السبعون من صعقتهم، وقد ذكر الله تبارك وتعالى صعقة السبعين رجلا في الآية الخامسة والخمسين بعد المائة من هذه السورة الكريمة حيث يقول عز وجل: ﴿واختار موسى قومَهُ سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال ربِّ لو شئت أهلكتهم من قبلُ وإياي أَتُهْلِكُنَا بما فعل السفهاءُ منا إن هي إلا فتنتُك تُضِل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن قول بعض بني إسرائيل لموسى عليه السلام: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، هو من أكبر الكبائر حيث يقول عز وجل: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تُنَزِّلَ عليهم كتابا من السماء، فقد سألوا موسى أكبر من ذُلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾ وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ بثبوت رؤية المؤمنين ربهم في الجنة، وقد روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابيا من أصحاب رسول الله ﷺ وقد أخرجها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن، ولا ينفيها إلا من زاغ عن مذهب أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء وقد سقت جملة من هذه الأحاديث التي أخرجها البخاري ومسلم في صحيحيهما في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ كما سقت دليلا من صريح كتاب الله تبارك وتعالى في ذلك حيث يقول عز وجل: ﴿وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة﴾

وقـولُه تبـارك وتعالى: ﴿قـال يـا موسى إني اصطفيتك على النـاس برسـالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشـاكرين﴾ قال ابن كثير رحمه الله: يذكر تعالى أنه خاطب مـوسى بأنه اصطفاه على عَالَمِي زمانه برسـالاته وكلامه، ولا شك أن محمدًا ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين، ولهذا اختصه الله بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة، وأتباعُه أكثرُ من أتبـاع الأنبياء كلِّهم، وبَعْدَه في الشرف والفضـل إبراهيمُ الخليلُ ثم موسى بن عمران كليم الرحمن عليه السـلام، ولهذا قال الله تعالى له: ﴿فخذ ما آتيتك﴾ أي من الكـلام والمناجاة ﴿وكن من الشـاكرين﴾ أي على ذلك، ولا تطلب ما لا طـاقة لك به. اهــ وهذ المقـام من الأدلة القطعيـة على ثبوت صفة الكلام لله عز وجل، ولله الحمد والمنة.

قال تعالى: ﴿وكتبنا له فى الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها، سأوْريكم دار الفاسقين * سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا، ذالك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون * واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا، اتخذوه وكانوا ظالمين * ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى أنه واعد موسى عليه السلام أربعين ليلة يتهيأ فيها لتلقي التوراة وأن موسى عليه السلام وصَّى أخاه هارون عليه السلام أن يخلفه في بني إسرائيل وأمره أن يصلح أمورهم وأن تكون سياسته لهم سياسة رشيدة، وحذره من دعاة الضلالة المفسدين في الأرض، وأن موسى عليه السلام لما جاء لميقات ربه وكلمه الله تكليما سأل موسى ربه أن ينظر إليه فأفهمه الله عز وجل أنه لن يستطيع ذلك وضرب له ولغيره مثلا بأن ينظر إلى الجبل فلما تجلى الله عز وجل للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا، فلما أفاق اعتذر إلى الله عز وجل وقال: تبت إليك وأنا أول المؤمنين، فبشره الله عز وجل بأنه اصطفاه على عالمي زمانه برسالاته وبكلامه، وأمره أن يستمسك بما يوحيه الله عز وجل إليه وأن يكون من الشاكرين، شرع هنا في بيان أنه عز وجل قد كتب لموسى في الألواح بيان جميع ما تحتاجه بنو إسرائيل من التشريعات الشاملة لمعاشهم ومعادهم وما يسلك بهم صراط الله المستقيم وأنه تبارك وتعالى أمر موسى عليه السلام أن يستمسك بتعاليم هذه الشريعة

وأن يأمر بني إسرائيل أن يستمسكوا بها، وتوعد تبارك وتعالى من ينحرف عن صراطه المستقيم ويفسق عن أمر الله ويتكبر في الأرض بغير الحق بأن يخذله الله عز وجل فلا يسدده ولا يعينه على الخير ولا يهديه سبيل الرشاد، فتنطمس أمامه الحقائق فيرى الغي رشدًا والرشد غيًا. وذكر عز وجل أن قوم موسى عليه السلام قد اتخذوا من بعد خروجه للميقات عجلا جسدا له خوار وجعلوه إلها وعبدوه، وأنه لما سُقِط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا تابوا إلى الله وندموا على جريمتهم وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظةً وتفصيلا لكل شيء﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا رَبُّنا ويَغْفِرْ لَنَا لنكونَنَّ من الخاسرين﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظةً وتفصيلا لكل شيء﴾ أي وكتبنا لموسى عليه السلام في ألواح الشريعة من كل شيء يحتاج إليه بنو إسرائيل ومما لا غنى لهم عنه من معرفة ربهم وأحكام دينهم ومراسيم شريعتهم وما يتعظون به ويرقق قلوبهم وجعلنا فيها تبيان كل شيء حتى لا يضلوا إن استمسكوا بهذه الشريعة، والألواح جمع لَوح قال ابن منظور في لسان العرب المحيط: اللَّوح: كل صفيحة عريضة من صفائح الخشب. الأزهري: اللَّوح صفيحة من صفائح الخشب، والكتفُ إذا كتب عليها سميت لوحا، واللوح: الذي يكتب فيه. اهـ وظاهر قوله تبارك وتعالى ﴿وكتبنا له في الألواح﴾ يدل على أن موسى عليه السلام تلقى التوراة من ربه مكتوبة في الألواح، وأنها نزلت جملة واحدة، أما القرآن العظيم فقد أنزله الله عز وجل على نبيه ﷺ مُفَرَّقا في ثلاث وعشرين سنة تثبيتًا لفؤاد رسول الله ﷺ كما قال عز وجل: ﴿وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآنُ جملةً واحدةً، كذلك لِنُثَبِّتَ به فؤادك وَرَتَّلْنَاه ترتيلا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وقرآنا فَرَقْنَاه لِتَقْرَأَهُ على الناس على مُكْثٍ ونَزَّلْنَاه تنزيلا﴾ وقد وصف

الله عز وجل التوراة بالهدى والنـور وأن فيها تفصيل كل شيء حيث يقول عز وجل: ﴿ثم آتينا موسى الكتـاب تماما على الذي أَحْسَنَ وتفصيلا لكل شيء وهـدى ورحمةً لعلهم بلقاء ربهم يـؤمنون﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿إنـا أنزلنـا التوراة فيها هُـدًى ونور﴾ ومعنى قوله عـز وجل: ﴿فخذها بقوة وَأْمُـرْ قومك يأخذوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي فاستمسك بأحكام التوراة وعض عليها بالنواجذ وأمر بني إسرائيل بأن يستمسكـوا بها ويلتزمـوا بأحكامهـا ويعضوا على تعـاليمها بـالنـواجـذ فإنها قـد اشتملت على أحسن التعـاليم التي تسلك بأصحـابها والملتزمين بها صراط الله المستقيم، ولفظ أحسن قد يرد لغير التفضيل وكذلك لفظ خير، ومن ذلك قوله تبارك وتعـالى: ﴿واتبعوا أحسن ما أُنْزِل إليكم من ربكم﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿أصحـاب الجنة يـومئذ خيرٌ مُسْتَقَـرًّا وأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ وقد تكـون بعض الأحكام الشرعية على التخيير بين الحسن والأحسن كـالتخيير بين القصـاص والعفـو، إذ العفـو أفضل وأحسن، كما قـال عـز وجل: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعينَ بالعين والأنف بالأنْف والأذنَ بالأذن والسن بـالسن والجروحَ قصاص، فمن تصـدق به فهـو كفارةٌ له﴾ وكما قال عز وجل ﴿وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلُهَا فمن عفا وأصلح فأجره على الله، إنـه لا يحب الظـالمين * ولمن انتصر بعـد ظلمـه فأولَئك مـا عليهم من سبيل * إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغُون في الأرض بغير الحق، أولَئك لهم عذاب أليم * ولمن صبر وغفـر إن ذُلك لمن عزم الأمور﴾ والشرائع السماوية تأمـر بالعـدل وتحض على العفو في مقامـات كثيرة ومعنى قولـه عز وجل: ﴿سـأُريكم دار الفاسقين﴾ أي ستبصرون وتـرون بأعينكم عاقبـة من خـالف أمري وخـرج عن طاعتـي، وكيف يكون مـآلهم من الهلاك والدمـار والتباب والخسران؟ وفي هذا حض على الاستمساك بالتوراة ووعيد شديد لمن تكبر عنها وخـرج على تعاليمها وكفـر بها، وقوله تبـارك وتعالى: ﴿سأصرف

عن آياتيَ الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإنْ يَـرَوْا كل آية لا يـؤمنوا بها وإنْ يَرَوْا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيـلا وإنْ يَرَوْا سبيل الغي يتخذوه سبيلا، ذٰلك بأنهم كذبـوا بآياتنـا وكانوا عنهـا غافلين * والذين كذبـوا بآياتنـا ولقاء الآخرة حبِطت أعمالهم، هل يُجْزَوْن إلا ما كـانوا يعملون﴾ وعيد شـديد أيضا لمن تكبر في الأرض بغير الحق وتهديدٌ له بأن الله عز وجل سيخذله ولا يسدده ولا يوفقه للخير فتنطمس الحقائق أمامه فيرى الرشد غيا والغيَّ رشدا فيضيق صدره إذا سمع ذكر الله وينشرح صدره للطاغوت كما قال عز وجل: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلـوب الذين لا يؤمنون بالآخـرة وإذا ذكر الذين من دونـه إذا هم يستبشرون﴾ فهـؤلاء المتكبرون في الأرض بغير الحق يُحرَمـون من الانتفـاع بآيـات الله الكونيـة والمتلوة، قـال ابن كثير رحمه الله: يقول تعـالى: ﴿سأصرف عن آيـاتيَ الـذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ أي سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالـة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوبَ المتكبرين عن طاعتي ويتكبرون على الناس بغير حق، أي كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بـالجهل، كما قال تعـالى: ﴿ونُقَلِّبُ أفئـدتهم وأبصارهم كما لم يـؤمنوا بـه أول مـرة﴾ وقال تعـالى: ﴿فلما زاغـوا أزاغ الله قلوبهم﴾ وقـال بعض السلف: لا ينال العلم حييّ ولا مستكبر، وقـال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم سـاعة بقي في ذل الجهل أبدا، وقال سفيان بن عيينـة في قوله: ﴿سأصرف عن آياتيَ الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ قال: أَنزِعُ عنهم فَهْمَ القرآن وأصرفهم عن آياتي. اهـ وقال ابن جـرير رحمه الله: القـول في تأويل قـوله: ﴿والـذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يُجْزَوْنَ إلا ما كانوا يعملون﴾ قال أبـوجعفر: يقـول تعـالى ذكره: وهـؤلاء المستكبرون في الأرض بغير الحق وَكُلُّ مُكَذِّبٍ حجج الله ورسله وآيـاته وجاحدٍ أنـه يوم القيامة مبعوث بعـد مماته، ومُنْكـرٍ لقـاء الله في آخـرتـه ذَهَبَتْ أعمالهم فبطلت، وحصلت لهم أوزارهـا فثبتت، لأنهم عملوا لغير الله، وأتعبوا أنفسهم في غير ما يرضي الله، فصارت

أعمالهم عليهم وبالا، يقول الله جل ثناؤه: ﴿هل يُجْزَوْنَ إلا ما كانوا يعملون﴾ يقول: هل يثابون إلا ثواب ما كانوا يعملون؟ فصار ثوابُ أعمالهم الخلودَ في نار أحاط بهم سرادقها، إذ كانت أعمالهم في طاعة الشيطان دون طاعة الرحمن، نعوذ بالله من غضبه. اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حُلِيِّهِمْ عجلا جَسَدًا له خُوَارٌ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا، اتخذوه وكانوا ظالمين * ولما سُقِطَ في أيديهم ورَأَوْا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربُّنا ويَغْفِرْ لَنا لنكونن من الخاسرين﴾ أي وعكف قوم موسى من بعد أن فارقهم متجها لميقات الله على صنم صنعه لهم السامري من حليهم عجلا جسدا يخرج من فمه صوت البقر مع أن هذا التمثال لا حياة فيه، وقد عَموا عن أنه لا يكلمهم ولا يهديهم، فعبدوه من دون لله وارتكبوا أقبح الظلم وأبشعه حيث أشركوا بالله وعبدوا تمثالا على صورة مجسمة لعجل، وقد أضلهم به السامري لما شعر أنهم مائلون لعبادة الصور والتماثيل حيث طلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلها مثل الأصنام التي رأوا قوما يعكفون عليها بعد أن جاوز الله بهم البحر، وقد روَّج له دعاة الضلالة منهم وقالوا: هذا إلهكم وإله موسى، وقد نصحهم هارون عليه السلام وقال لهم: يا قوم إنما فُتِنْتُمْ به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري، قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى، والظاهر أن موعظة هارون عليه السلام أثرت في بعضهم فندموا وتابوا إلى الله وعلموا أنهم قد ضلوا وقالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين، قال الزجاج: والجسد هو الذي لا يعقل ولا يميز، إنما معنى الجسد معنى الجثة فقط. اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولما سُقِط في أيديهم﴾ هو كناية عن ندمهم على ما فرط منهم يقال للنادم على ما فعل المتحسر على مافرط منه: سُقِطَ في يده. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ أي وعلموا أنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا فتابوا من جريمتهم وآبوا إلى ربهم وثابوا إلى رشدهم.

قال تعالى: ﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه، قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين * قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين * إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا، وكذلك نجزي المفترين * والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم * ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون * واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾.

بعد أن ذكر الله عز وجل أنه قد كتب لموسى في الألواح بيان جميع ما تحتاجه بنو إسرائيل من التشريعات الشاملة لمعاشهم ومعادهم، وما يسلك بهم صراط الله المستقيم وأنه عز وجل أمر موسى عليه السلام أن يستمسك بتعاليم هذه الشريعة وأن يأمر بني إسرائيل بأن يَدُورُوا في فَلَكِهَا، وتوعد من ينحرف عنها ويفسق عن أمر الله ويتكبر في الأرض بغير الحق بأن يخذله الله عز وجل فتنطمس أمامه الحقائق فيرى الرشد غيا والغيَّ رشدا، وذكر عز وجل أن قوم موسى قد اتخذوا من بعد خروجه للميقات عجلا جسدا له خوار وجعلوه إلها وعبدوه، وأنه لما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا تابوا من جريمتهم وندموا على خطيئتهم، شرع عز وجل هنا يبين موقف موسى من قومه حين رجع إليهم، وموقفه من أخيه هارون عليه السلام، وموقف

هارون عليـه السلام من ذلك، وتوعد عـز وجل الذين اتخذوا العجل ورغَّبَ في التوبة والإنابة إلى الله عز وجل، وذكَر قصةَ صَعْق السبعين الذين كانوا مع مـوسى عليه السـلام في الميقـات، وضراعة مـوسى إلى الله عـز وجل أن يَمُنَّ عليهم بالإفـاقة من صعقتهم، وأن يغفـر لهم ويرحمهم، وفي ذلك يقـول عز وجل: ﴿ولما رجع مـوسى إلى قومه غضبـان أَسِفًا﴾ إلى قـوله تبـارك وتعالى: ﴿أنت ولينا فاغفـر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾ ومعنى قـوله عز وجل: ﴿ولما رجع موسى إلى قـومه غضبان أَسِفًـا﴾ أي ولما عاد موسى إلى قـومه من ميقات ربه رجع إليهم ممتلئـا غَضَبًا وحزنا، وسَبَبُ رجوعـه غضبان أَسِفًا أن الله تبارك وتعالى قد أعلمه وهو في المناجاة أن قومه قد عبدوا عجلا صَنَعَهُ لهم السامري، كما ذكر ذلك عز وجل حيث يقـول: ﴿وما أَعْجَلَكَ عن قومك يا موسى * قـال هم أولاء على أَثَري وعَجِلْتُ إليـك رب لترضَى * قال فإنـا قد فَتَنَّا قـومك من بعـدك وأضلهم السامـري * فرجع مـوسى إلى قومـه غضبان أسِفًا﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿قال بئسما خلفتمونى من بعدي أعجِلْتُم أمر ربكم﴾ أي بئس وقَبُحَ وذُمَّ الفعلُ الذي فعلتموه من عبادة العجل بعد فراقي إيـاكم وخَلَفْتُمُـوني في قـومي وديني بهذا الشر الـذي ارتكبتمـوه، أرغبتم أن يُعَجِّلَ الله أمره بإنزال العذاب بكم وأن يحل عليكم غضب من ربكم، وأنتم قد علمتم أن الله عـز وجل قد أنـزل عقوبتـه بفرعون وقـومه لما عَتَـوْا عن أمر ربهم، وشهدتـم بأنفسكم مصارعهم، وقـولـه عز وجل: ﴿وَأَلْقَى الألـواح وأخذ برأس أخيه يَجُرُّهُ إليه، قال ابنَ أُمَّ إنَّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فـلا تُشْمِتْ بِيَ الأعـداءَ ولا تجعلني مع القـوم الظـالمين * قـال ربِّ اغفـر لي ولأخي وأَدْخِلْنَـا في رحمتك وأنت أرحم الـراحمين﴾ بيان لموقف مـوسى عليـه السلام من أخيـه وخليفته في قومه أثناء غيـابه هارونَ عليه السـلام، وموقفِ هارونَ من ذلك، وما اعتذر به لموسى عليـه السلام، وأن موسى عليه السلام

قبل عذره وسأل الله عز وجل أن يغفر لـه ولأخيه هارون وأن يدخلهما في رحمة أرحم الـراحمين. ومعنى: ﴿وألقى الألواح وأخـذ برأس أخيـه يجره إليه﴾ أي ووضع ألـواح التوراة على الأرض بسرعـة وأمسك بـرأس هـارون وأخذ يجذبـه نحوه ليعاتبه على عدم ردعه لهؤلاء الذين عبدوا العجل، ومعنى قوله: ﴿قال ابنَ أُمَّ إن القـوم استضعفـوني وكـادوا يقتلـونني فـلا تشمت بي الأعـداء ولا تجعلني مع القوم الظـالمين﴾ أي فاعتذر هارون عليه السـلام لموسى ﷺ وقال مخاطبا لـه: يا ابن أمي لا تجذبني هكـذا ولا تأخذ بـرأسي، فقد نصحت لهم وحذرتهم من عبادتهم العجل وشركهم بالله وقلتُ لهم يا قوم إنما فتنتم به و إن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري، وأنهم قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينـا موسى، فأصر دعـاة الضلالة منهم على بـاطلهم، واستضعفوني وكادوا يقتلوننـي فلا تفعل بي شيئا يكون سببا لشماتتهـم بي، ولا تؤاخذني بما فعل هؤلاء الظـالمون فإني نهيتهم عن المنكر فلم ينتهوا وزجرتهم فلم ينـزجروا. وقد حاول هـارون عليه السلام أن يستدر شفقـة موسى عليه السـلام وحنانه فناداه بقـوله: يا ابن أمي مع أنـه شقيقه فهو أخـوه لأبيه وأمه، لأن ذكـر أمه يجعله أرق له وأكثر حنانا وشفقـة عليه صلوات الله وسلامه عليهما. وقد قبل مـوسى اعتـذار أخيـه هـارون عليهما السـلام وقـال: ﴿رب اغفـر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الـراحمين﴾ وقد ذكر الله تبارك وتعـالى في سورة طه مزيد بيان لما كان بين مـوسى صلى الله عليه وسلم وقومه من عبدة العجل وما أجـابوه بـه، وما ذكـروه عن السامـري، وموقـف هارون عليـه السلام، ومعاقبة السامري وتحريق العجل ونسفـه في اليم، والتأكيد على أنه لا إله إلا الله الذي وسـع كل شيء علما حيث يقول تبـارك وتعالى: ﴿فرجع مـوسى إلى قومه غضبان أسِفًا، قال يـا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا، أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يَحِلَّ عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي * قالوا ما

أخلفنا موعدك بِمَلْكِنَـا ولكِنَّا حُـمِّلْنَا أوزارا من زينة القوم فقذفنـاها فكذٰلك ألقى السامـري * فأخرج لهم عجلا جسـدا له خُـوارٌ فقالوا هٰذا إلهكم وإلٰه موسى فَنَسِيَ * أَفَلا يَرَوْنَ أَلا يَـرْجِعُ إليهم قولا ولا يملك لهم ضَرًّا ولا نفعا * ولقد قـال لهم هارونُ من قبلُ يا قـوم إنما فُتِنتُمْ به وإنّ ربكم الرحمٰنُ فـاتبعوني وأطيعوا أمري * قالوا لن نبرح عليه عـاكفين حتى يرجع إلينا موسى * قال يا هارونُ ما منعك إذْ رأيتَهم ضلّوا * ألا تَتَّبِعَـنِ أَفَعَصَيْتَ أمري * قال يا ابن أمَّ لا تأخـذ بلحيتي ولا برأسي إني خَشِيتُ أن تقـول فَـرَّقْتَ بين بني إسرائيل ولم تَـرْقُبْ قـولي * قـال فما خَطْبُكَ يَـا سَـامِـرِيُّ * قـال بَصُرْتُ بما لم يَبْصُرُوا بـه فَقَبَضْتُ قَبضـةً من أثـر الـرسول فَنَبَـذْتُهَا وكـذٰلك سـوَّلَتْ لي نفسي * قـال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مِسَـاسَ وإن لك موعدا لن تُخْلَفَهُ وانظر إلى إلهك الـذي ظَلْتَ عليه عـاكفا لَنُحَـرِّقَنّـه ثم لَنَنسِفَنَّهُ في الْيَمِّ نَسْفًـا * إنما إلهكم الله الـذي لا إلٰه إلا هـو، وَسِعَ كلَّ شيء علما﴾ وقولُـه تبارك وتعـالى: ﴿إنَّ الذيـن اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذِلَّـةٌ في الحياة الـدنيا، وكذٰلك نجزي المفترين * والـذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعـدها وآمنوا إن ربك من بعدهـا لغفور رحيم﴾ وعيـد لعبدة العجل ولكل مُفْتَرٍ على الله، ووعـد لكل من وقع في المعـاصي ثم أقلع عنها وتـاب إلى ربـه وانقاد لشرعـه ظاهـرا وباطنـا، أي إن الذين عبـدوا العجل واتخذوه إلها من دون الله وأصروا على ذلك وأشربـوا في قلـوبهم العجل بكفـرهم سيحل بهم سخط من ربهم ويصيبهم الذل والهوان في الحيـاة الدنيا، ولعذاب الآخرة أشـد وأشق، وهذا جزاء كل من يفتري على الله ويتخذ إلها غيره، ويصر على ضـلالته، وأما من وقع في المعـاصي واجترح السيئات سواء كـانت شركـا أو ما دونه مـن الكبائر لكنه أقلع عنهـا وتاب منهـا وانقاد لشرع الله ظاهـرا وباطنـا فإن الله عز وجل يعفو عنه ويغفر له ويتوب عليه لأنـه هو الغفور الرحيم، كما قال عز وجل:

﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون﴾ وقولُه عز وجل : ﴿ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواحَ وفي نسختها هُدًى ورحمة للذين هم لربهم يَرْهَبُون﴾ أي ولما سكن عن موسى الغضب حمل ألواح التوراة وقد كُتِبَ فيها هدى أي بيانٌ لكل ما يحتاجه بنو إسرائيل وتفصيلٌ لكل شيء وفيها رحمة للخلق بإرشادهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في دنياهم ودينهم وينتفع بذلك منهم الذين يخشون ربهم ويخافونه ويمتنعون عن المعاصي من أجل ربهم فيسلكون صراطه المستقيم. ولفظ سكت يكون بمعنى سكن ومصدره السكْتُ، ويكون بمعنى انقطع عن الكلام ومصدره السكوت. قال الزجاج في تفسيره : يقال : سكت يَسْكُتُ سَكْتًا إذا هو سَكَنَ، وسكت يَسْكُتُ سُكوتًا وسَكْتًا إذا قطع الكلام . اهـ هذا وفي قوله : ﴿أخذ الألواح﴾ دليل على أنها لم تتكسر عندما ألقاها ، ولم يثبت في خبر صحيح أن الألواح تكسرت عندما ألقاها موسى عليه السلام . قال القرطبي رحمه الله : قال أبوالفرج الجَوْزِيُّ : مَنْ يُصَحِّحُ عن موسى عليه السلام أنه رماها رَمْيَ كَاسِر؟ والذي ذُكِرَ في القرآن ألقاها ، فمِنْ أين لنا أنها تكسرت؟اهـ وقولُه تبارك وتعالى : ﴿واختار موسى قَوْمَهُ سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال ربِّ لو شئتَ أهلكتهم من قبلُ وإياي أَتُهلكنا بما فعل السفهاءُ منا إن هي إلا فتنتك تُضِل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾ قد أشرت في تفسير قوله : ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾ إلى أن موسى عليه السلام لما أفاق من صعقته واعتذر إلى ربه ورأى موسى عليه السلام أن السبعين الذين معه لايزالون في صعقتهم دعا الله عز وجل أن يكشف عنهم وأن الله عز وجل قد

أجاب دعوة موسى عليه السلام فأفاق السبعون من صعقتهم، ومعنى الآية: واصطحب موسى معه لميقاتنا سبعين رجلا من خيار قومه وفضلائهم، فلما تجلى الله للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا وأخذت الصعقة السبعين الذين كانوا معه، فلما أفاق موسى اعتذر إلى ربه ودعا الله أن يكشف عن السبعين صعقتهم، وقال: رب لو أردت أهلكتنا من قبل أن نسألك الرؤية، أتهلكنا بعمل سفهائنا الذين قالوا: أرنا الله جهرة، وأنت وحدك تفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد وتختبر عبادك فتضل من تشاء عدلا وتهدي من تشاء فضلا، أنت حافظنا وناصرنا فاستر علينا واحفظنا وأدخلنا في رحمتك وأنت خير من صفح عن جرم وعفا عن ذنب.

قال تعالى: ﴿واكتب لنا في هٰذه الدنيـا حسنة وفي الآخرة إنَّا هدْنا إليك، قال عـذابي أصيب به من أشاءُ ورحمتي وسعتْ كلَّ شيءٍ، فسأكتبهـا للذين يتقـون ويؤتون الزكوٰة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرَّسول النبي الأمي الـذي يجدونه مكتـوبا عنـدهم في التوراة والإنجيل يأمـرهم بالمعـروف وينهاهم عـن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبـائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالـذين آمنوا به وعزَّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولٰئك هم المفلحون﴾.

بعـد أن بين الله تبـارك وتعالى مـوقف مـوسى من قـومـه حين رجع إليهم وموقفه من أخيه هارون عليهما السـلام وموقف هارون عليه السلام من ذلك ومـا تـوعـد الله عـز وجل بـه عُبَّـاد العجل، وقصـة صعق السبعين الـذين اختارهم موسى لميقات ربه، وأن مـوسى عليه السلام تضرَّع إلى الله عز وجل أن يمنَّ عليهم بالإفـاقة من صعقتهم وسأل الله عز وجل مغفرتـه ورحمته بيَّن في هذا المقام بقية دعاء موسى عليه السلام وما أجابه الله تبارك وتعالى به مبينًا سعة رحمة الله وشروط التأهل لها، حيث لا ينالها إلا المتقـون، المؤتون الزكاة، المؤمنون بـآيات الله التي يـؤيد بها رسله، المتبعـون لرسـول الله محمد ﷺ إذا بعث، المعروف لأهل الكتب السماوية بما وصفـه المرسلون لأممهم من صفاته وبخاصـة في التوراة والإنجيل، المبعوث بـالأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر وإباحـة الطيبات وتحريم الخبائث، وتيسير التشريـع، وأنه لن يفلح إلا من آمن به وأيده ونصره واتبـع النور الذي أنزل معه، وفي ذلك يقـول عز وجل: ﴿واكتبْ لنـا في هـٰذه الدنيـا حسنـة وفي الآخـرة﴾ إلى قـوله تبـارك وتعـالى: ﴿فالـذين آمنـوا به وعزَّرُوهُ ونصروه واتبعـوا النور الـذي أنزل معـه أولٰئك هم المفلحون﴾ ومعنى قـوله عـز وجل: ﴿واكتب لنا في هـٰذه الدنيـا حسنة وفي

الآخرة﴾ أي وتفضل علينا وامنحنا وحقق لنـا خير الدنيا والآخرة، بأن تحيينا حياة طيبة في الدنيا وتجعل رزقنا فيها رغدا، وتمنحنا الصحة والعافية والأمن، وتحفظنـا من الشرور والمعـاصي والآثـام، ولا تجعـل عيشنـا نكـدا، ومتعنـا بأسماعنا وأبصارنا وقواتنا ما أحييتنـا، وهب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إمامـا، وتوفنا مسلمين غير خزايـا ولا نادمين ولا مفتونين، واجعلنـا في الفردوس الأعلى في جنـات النعيم، ودعوة مـوسى عليه السـلام هذه شبيهة بدعوة المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الدعاء بها فيقول: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنـة وقنا عـذاب النار. ومعنى قـوله: ﴿إنـا هدنـا إليك﴾ أي تبنا وأنبنا ورجعنـا إليك، قال في القـاموس المحيط: الـهَوْدُ التـوبة والـرجوع إلى الحق. ومعنى قـوله عـز وجل: ﴿قـال عذابي أصيـب به من أشـاءُ ورحمتي وسعت كل شيء﴾ أي قـال الله تعالى مجيبـا لموسى عليه السـلام مبيِّنًا لـه أنه يعـاقب من يشـاء من عصـاة عباده ويعفـو عمن يشـاء لا راد لقضـائه ولا معقب لحكمـه، ولا يظلـم ربك أحـدا، وأن رحمتـه غلبـت غضبـه، وأنها وسعت كل شيء في الـدنيا، حيث أنـزل عز وجل جـزءًا من مائة جـزء من رحمته إلى الأرض فمن هـذا الجزء من رحمة الله يتعاطف الخلق ويتراحمون وبها تعطف الـوحش على ولـدها، وأمسك عنـده تسعـا وتسعين رحمة خص بها عبـاده المؤمنين يوم القيـامـة، فقد روى البخـاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنـه قال: قال رسول الله ﷺ: لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي، وفي رواية: غلبت غضبي، وفي روايـة: سبقت غضبي، كما روى البخـاري ومسلم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسـول الله ﷺ يقول: جعل الله الرحمة مـائة جزءٍ، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنـزل في الأرض جزءا

واحـدا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق، حتى تـرفع الدابـة حـافرهـا عن ولدها خشية أن تصيبه، وفي روايـة للشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسـول الله ﷺ: إن لله تعالى مـائة رحمة، أنزل منهـا رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهـائم والهوام، فبها يتعـاطفـون وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخَّر الله تعـالى تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامـة. وفي لفظ لمسلم من رواية سلمان الفـارسي رضي الله عنه قـال: قال رسـول الله ﷺ: إن لله تعالى مـائة رحمة، فمنهـا رحمة يتراحم بها الخلق بينهم وتسع وتسعـون ليوم القيـامـة، وفي لفظ قـال: قال رسـول الله ﷺ: إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مـائة رحمةٍ، كل رحمة، طِبَاقَ ما بين السماء والأرض، فجعل منهـا في الأرض رحمةً، فبها تعطف الـوالـدة على ولدهـا، والـوحش والطير بعضهـا على بعض، فإذا كـان يـومُ القيامـة أكملهـا بهذه الرحمة، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن من رحمته أنه من عمل سوءا بجهالة ثم تـاب من بعده وأصلح فإن الله يغفـر له ويـرحمه حيث يقول عـز وجل: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سـوءا بجهالة ثم تاب من بعـده وأصلح فأنه غفـور رحيم﴾ وقولـه تبارك وتعـالى: ﴿فسأكتبها للـذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآيـاتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبي الأمي﴾ إلى قولـه عز وجل: ﴿فالـذين آمنوا به وعزَّروه ونصروه واتبعـوا النور الذي أنزل معـه أولئك هم المفلحون﴾ بيان لشروط التأهل لـرحمة الله الدائمة في جنـات النعيم التي جعلها الله عـز وجل رحمتـه الخاصة بـالمؤمنين التي لا تفنى ولا تزول، فلا يريمون منها ولا يتحولون عنها بحال من الأحوال، وأول هذه الشروط المؤهلة للجنة تقوى الله عز وجل ويشمل ذلك طاعة الله باتباع أوامره واجتنـاب نواهيـه، ومنها إيتـاء الزكـاة، والإيمان بآيـات الله الكونيـة والمتلوة، واتباع الـرسول النبي الأمي، والمراد به محمـد رسول الله ﷺ الذي لم

يبعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق أن يبشر به أمته حتى يؤيدوه وينصروه عندما يبعثه الله عز وجل، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وإذْ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمِنُنَّ به ولَتَنْصُرُنَّهُ، قال أأقررتم وأخذتم على ذٰلكم إصري قالوا أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ وقد وصفه الله عز وجل هنا بأنه الرسول النبي الأمي المكتوب في التوراة والإنجيل الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر الذي يحل الطيبات ويحرم الخبائث ويضع عن الإنسانية الإصر والأغلال التي كانت عليهم، وأنه لن يفلح إلا من آمن به وعزّره ونصره واتبع النور الذي أنزل معه. وهذه الصفات التي وصف الله عز وجل بها نبيه محمدًا ﷺ، قد وصفه بها كل نبي من أنبياء الله ورسله لأمته وبشر قومه به حتى وقف آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم خطيبا في بني إسرائيل يقول لهم: ﴿إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يديَّ من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ ولذلك كان علماء أهل الكتاب يعرفون صفات النبي محمد ﷺ كما يعرفون أبناءهم بسبب بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ ووصفهم له لأممهم حتى يؤمنوا به إذا جاء، ومن صفاته عندهم أنه يُبْعَثُ بالحنيفية دين إبراهيم عليه السلام، وأنه يخرج بأرض العرب، وأنه يهاجر إلى أرض سبخة ذات نخيل بين لابتين، وأنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وأن في كتفه خاتم النبوة كزر الحجلة. وفي التوراة التي بيد اليهود والنصارى: سأقيم لبني إسرائيل من إخوتهم مثلك يا موسى، أنزل عليه توراة، وأجعل كلامي على فيه. ولم يأت أحد من الرسل يذكر أن معجزته كلام الله غير محمد ﷺ الذي جعل الله معجزته الكبرى، وآيته العظمى القرآن العظيم والذكر الحكيم، الباقي محفوظا بحفظ الله حتى يرث الله الأرض ومن عليها، والتوراة معناها الشريعة كما جاء أيضا في وصف رسول

الله ﷺ في التوراة: تجلى الله أو جاء الله من طور سيناء وأشرق من ساعير واستعلى أو استعلن من جبال فاران، وهو إشارة إلى دين موسى الذي أوحى الله إليه به في طور سيناء. وبشارة بعيسى عليه السلام الذي أنزل الله عليه الوحي في جبال ساعير من أرض الجليل بقرية تدعى الناصرة، ويقال لها أيضا: نصرانة التي سُمِّيَ من ينتمي إلى المسيح عليه السلام بها فيقال لهم: النصارى. وقوله: واستعلى أو استعلن من جبال فاران أو من برية فاران بشارة واضحة جلية بمحمد ﷺ الذي أنزل الله تعالى عليه الوحي ببرية أو جبال فاران وهي أرض مكة بلا خلاف بين المسلمين وأهل الكتاب. وهذه البشارة الواردة في التوراة تطابق ما جاء في قوله تعالى: ﴿والتين والزيتون * وطور سينين * وهٰذا البلد الأمين﴾ فالتين والزيتون جبلان بالأرض المقدسة بعث الله عندهما عيسى عليه السلام، وطور سينين هو الجبل الذي كلم الله موسى عنده وآتاه التوراة فيه، والبلد الأمين هو مكة المكرمة التي بعث منها محمد ﷺ. وقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: وجدت في التوراة في صفة النبي محمد ﷺ يقول الله سبحانه: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولى سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، ويفتح عيونا عميا وآذانا صما، وقلوبا غلفا بأن يقولوا: لا إله إلاّ الله اهـ والمراد بالتوراة في هذا الحديث بعض كتب العهد القديم. والمراد بكونه أميا أنه ما كان يتلو قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه، وأمته الأميون الذين كانوا قبل بعثته لا يكتبون ولا يحسبون. والمراد بالإصر التكاليف الثقيلة إذ أصل الإصر الثقل والشدة والضيق والحبس، والأغلال التي كانت عليهم كالقتل في القصاص وعدم قبول الدية، وتحريم العمل

يوم السبت وعـدم قبول الصلاة إلا في أبنية خـاصة وعدم جـواز التيمم عند فقد الماء، وقد كان من حرَّم على نفسه شيئا باليمين فلا كفارة له وصار محرما عليه إلى يوم القيـامة، ومعنى: «وعزروه» أي أيـدوه وعظموه ووقروه، والمراد بالنور الذي أنزل معه الكتاب والسنة النبوية.

قال تعالى: ﴿قـل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الـذي له ملك السمٰوات والأرض لا إلٰه إلاَّ هو يحيي ويميت فئامنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون * ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾.

بعد أن ذكـر الله عز وجل بقيـة دعاء مـوسى عليه السـلام وما أجـابه الله تبـارك وتعالى بـه مبينـاً سعة رحمة الله الـذي يقبل تـوبـة التائبين ويغفـر لهم ويرحمهم كما أشـار إلى ذلك قولـه عز وجل في دعاء حملـة العرش ومن حـوله للمؤمنين حيث يقـولون: ﴿ربنـا وسعت كلَّ شيء رحمةً وعلما فاغفـر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعـدتهم ومن صلح مـن آبـائهم وأزواجهم وذريـاتهم، إنك أنـت العـزيـز الحكيم * وقهم السيئـات ومن تق السيئات يـومئذ فقـد رحمته، وذٰلك هـو الفـوز العظيم﴾ وبين عـز وجل شروط التأهل لـرحمة الله حيث لا ينـالها إلا المتقون، المؤتـون الزكـاة، المؤمنون بـآيات الله التي يـؤيد بها رسلـه، المتبعون للـرسـول النبي الأمي إذا بُعِثَ، المعـروف لأهل الكتب السماويـة بما وصفـه المرسلون لأممهم من صفاتـه وبخاصة في التوراة والإنجيل، المبعـوث بالأمر بـالمعـروف والنهي عن المنكـر وإبـاحـة الطيبـات وتحريم الخبـائث وتيسير التشريع، وأنه لـن يفلح إلا من آمن به وأيـده ونصره واتبع النور الـذي أُنزل معه، شرع هنا فأمر نبيه ورسوله محمدا ﷺ أن يعلن لجميع بني آدم من جميع أجناسهم وألـوانهم وأمصارهم وأعصارهم ممن عاصره أو يجيء بعـده إلى يوم القيـامـة أنـه رسول الله إليهـم جميعا، وقـد بعثـه إليهم الله الـذي لـه ملك السمـوات والأرض الـذي لا يستحق العبـادة أحـد سـواه، الـذي يحيي ويميت، فبيده وحده إيجاد الخلق وإعدامهـم وإحياؤهم بعد موتهم، فَعَلى

العباد أن يصدقوا بالله الذي لا إلّه إلا هو ويقرُّوا بألوهيته وربوبيته وأسمائه الحسنى وصفاته العلى وأن يصدقوا برسوله محمد ﷺ ليهتدوا ويسعدوا، ثم أثنى الله عز وجل على بعض قوم موسى الذين انقادوا للحق وصدقوا بجميع المرسلين، وبخاصة رسول الله محمد ﷺ الذي لم يبعث الله عز وجل رسولا إلا وصف لأمته صفته، وعرفهم به حتى صاروا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، كما أكد ذلك عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي رضي الله عنهما فيما صح عنهما من الخبر بذلك، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له مُلْكُ السمٰوات والأرض لا إلّه إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون * ومن قوم موسى أمةٌ يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ والمقصود الذي سيق له قوله عز وجل: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا﴾ بيانُ عموم رسالته ﷺ إلى جميع البشر، وقد أكد الله تبارك وتعالى ذلك في مقامات كثيرة من كتابه الكريم حيث يقول: ﴿تبارك الذي نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ ويقول عز وجل: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾ ويقول عز وجل: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدا﴾ ويقول عز وجل: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ ويقول عز وجل: ﴿وأوحِيَ إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومَن بَلَغ﴾ وقال تعالى: ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم، فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾ ويقول تبارك وتعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ ويقول تبارك وتعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ ولو سألت يهوديا أو نصرانيا أو غيرهما من أهل الأديان عن أتباع محمد ﷺ لقال: هم المسلمون. وقد روى البخاري في صحيحه من حديث

جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: أُعطيت خمسا لم يعطهنَّ أحد قبلي، نصرتُ بالرعب مسيرة شهر، وجُعِلَتْ لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيُّما رجلٍ من أمتي أدركته الصلاة فَلْيُصَلِّ، وأُحِلَّت لي الغنائم، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصةً وبعثتُ إلى الناس عامةً. وقد رواه مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما بلفظ: قال رسول الله ﷺ: أُعْطِيتُ خمسا لم يعطهن أحدٌ قبلي، كان كل نبي يبعثُ إلى قومه خاصة وبعثتُ إلى كل أحمرَ وأسودَ، وأحلت لي الغنائم ولم تُحَلَّ لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيِّبة طَهُورًا ومسجدًا فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرتُ بالرُّعب بين يديْ مسيرةِ شهر، وأُعطيتُ الشفاعة. كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: والذي نفسُ محمدٍ بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة، يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلتُ به إلا كان من أصحاب النار. وقوله عز وجل: ﴿الذي له ملك السموٰات والأرض لا إلٰه إلا هو يحيي ويميت﴾ بيان وتقرير بأن الذي أرسل محمدا ﷺ هو الملك الحق المبين الذي له السلطان التام في السموات والأرض الذي لا ينبغي أن تكون الألوهة والعبادة إلا له وحده جل ثناؤه، وهو القادر على إنشاء وخلق كل شيء وإحيائه، وإفنائه إذا شاء وإماتته، وهو رب كل شيء وسيده ومليكه، له الخلق وله الأمر، ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ أي فصدقوا بالله وصدقوا برسوله النبي الموصوف بالأميّ الذي ما كان يتلو من قبل بعثته كتابا ولا يخطه بيمينه، وقد بعثه من الأميين فصار يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة فصاروا أئمة الدنيا علما وسلوكا وأبصر خلق الله بالكون وما فيه من

الآيـات الشاهـدة على أن الله هو رب كل شيء وسيـده ومليكه كما أشـار إلى ذلك قولـه عز وجل: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسـولا منهم يتلوا عليهم آياتـه ويزكيهم ويعلمهـم الكتاب والحكمة وإن كـانوا من قبل لفـي ضلال مبين * وآخرين منهم لما يلحقوا بهم، وهو العزيز الحكيم * ذلك فضل الله يؤتيـه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم﴾ وقد جعل الله عز وجل معجـزته الكبرى وحجته العظمى كتابه الكريم الجامع لجميع ما تحتاجه الإنسانية من نظام يجلب لها سعـادة الدنيـا والآخرة في جميع أعصارهـا وأمصارهـا وألوانها وأجناسها، وبدأ إنزال الكتاب عليه بقوله عز وجل: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علَّم بالقلم * علَّم الإنسـان ما لم يعلـم﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿وعلمك مـا لم تكن تعلم وكان فضـل الله عليك عظيما﴾ وكان من آيـات الله في هذا الكتاب الكـريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديـه ولا من خلفه أنه كان ينزل على هذا النبي الأمي وقد يكون النـازل في المرة الواحدة سورة طويلة كسـورة الأنعام فيقرؤها جبريل على رسـول الله ﷺ مـرة واحـدة فتنطبع في قلب رسـول الله ﷺ فـلا ينسى منها حـرفا واحدا، ولما كـان يردد الآيـة أو الجملة عندمـا يسمعها من جبريل في أول نزول القرآن ويحرك بها لسـانه من شدة حرصـه عليه، قال الله عز وجل له: ﴿لا تحرك بـه لسانك لتعجل به * إن علينا جمعـه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه﴾ وقد ثَبَّتَهُ الله عز وجل في قلبه مع طوله وكونه كتابا متشابها مثـاني، فكان حفظه ﷺ لهذا القرآن ـ وهو النبي الأمي ـ معجزة ظـاهرةً وحجةً بـاهرةً، لأن القرآن أشـدُّ تفلُّتًا من صدور الـرجال من الإبل المعقلة فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قـال: «إنما مثل صـاحب القـرآن كمثل صاحب الإبل الـمُعَقَّلة، إن عاهـد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت. كما

روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: تعاهدوا القرآن فوالذي نفسي بيده لهوَ أشدُّ تَفَصِّيًا من الإبل في عقلها. وقد وصف الله تبارك وتعالى نبيه الأمي محمدا ﷺ بأنه يؤمن بالله وكلماته وأمر جميع الناس باتباعه ليكونوا من المهتدين، وقوله عز وجل: ﴿ومن قوم موسى أمةٌ يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ أي ومن بنى إسرائيل طائفة يتبعون الحق ويعدلون بسبب الاستمساك به فيصدقون بجميع المرسلين ويؤمنون بالنبي الأمي ومن هؤلاء عبد الله بن سلام رضي الله عنه.

وقد أشار الله تبارك وتعالى بذلك إلى أن أهل الكتاب ليسوا سواء، كما قال عز وجل: ﴿من أهل الكتاب أمةٌ قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولَٰئك من الصالحين * وما يفعلوا من خير فلن يكفروهُ، والله عليم بالمتقين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإنَّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أُنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا، أولَٰئك لهم أجرهم عند ربهم، إن الله سريع الحساب﴾ وقال عز وجل: ﴿إنَّ الذين أوتوا العلم من قبله إذا يُتْلَى عليهم يخرون للأذقان سجدا * ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحقُّ من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولَٰئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون * وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾.

قال تعـالى: ﴿وقطعناهم اثنتي عشرة أسبـاطاً أمما، وأوحينـا إلى موسىٰ إذ استسقاهُ قومـه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتـا عشرة عينا قد علم كل أناسٍ مشربهم، وظللنـا عليهم الغمام وأنزلنـا عليهم المنَّ والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم، وما ظلمونا ولٰكن كانوا أنفسهم يظلمون * وإذ قيل لهم اسكنـوا هٰذه القـرية وكلوا منهـا حيث شئتم وقـولوا حطـة وادخلوا الباب سجدا نغفـر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين * فبـدل الذين ظلموا منهم قـولاً غير الـذي قيل لهم فأرسلنـا عليهم رجزاً مـن السماء بما كـانـوا يظلمون﴾.

بعد أن أمر الله نبيه محمدًا ﷺ أن يعلن لجميع بني آدم من جميع أجناسهم وألوانهم وأعصارهم وأمصـارهم ممن عاصره أو يجيء بعده إلى يوم القيـامة أنه رسول رب العالمين إليهم جميعا ليعبـدوا الله وحده لا شريك له وأنَّ عليهم أن يصدقـوا بالله ورسـوله ليهتـدوا ويسعدوا، ثم أثنى عز وجـل على بعض قوم موسـى الذين انقـادوا للحق وصدقـوا بجميع المرسلين وبخاصـة رسول الله النبي الأمي محمـد ﷺ. شرع هنـا في شرح بعض أحـوال بنـي إسرائيل مع موسى عليه السلام مبينـا بعض ما أنعم به عليهم منَدِّدًا بما كانـوا يقابلون به نعم الله وأوامره من الجحود والعصيـان حتى أرسل عليهم رجزا من السماء بما كانـوا يظلمون، وقـد ساق الله عـز وجل ذلك في صور بـلاغية من المتشـابه المثاني تأكيدًا على نبوة ورسالة الرسول النبي الأميّ محمد ﷺ، وفي ذلك يقول تبارك وتعـالى: ﴿وقطَّعناهم اثنتي عشرة أسبـاطا أمما، وأوحينـا إلى موسى إذ استسقاه قـومه أن اضرب بعصاك الحجر فـانبجست منه اثنتا عشرة عينـا قد علم كل أناس مشربهم﴾ إلى قـوله تبارك وتعالى: ﴿فأرسلنـا عليهم رجزا من السماء بما كانـوا يظلمون﴾ ومعنى قوله عـز وجل: ﴿ وقطعناهـم اثنتي عشرة

أسباطا أمما﴾ أي وقد فرقنا بني إسرائيل فرقًا اثنتي عشرة وقوله: ﴿أسباطا﴾ بدل من ﴿اثنتي عشرة﴾ كأنه قال: جعلناهم أسباطا، وفرقناهم أسباطا كما قال الزجاج، وقد تقدم تفسير الأسباط في سورة البقرة، وقوله ﴿أمما﴾ نعت ﴿أسباطا﴾ والأمم جمع أمة والمراد بها الجماعة كما قال عز وجل: ﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون﴾ أي وجد عليه جماعة من الناس يسقون. وقد ساق الله تبارك وتعالى في هذا المقام من سورة الأعراف وهي مكية قصة الاستسقاء وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى والأمر بأن يسكنوا القرية وأن يأكلوا منها من حيث يشاؤون، وأن يقولوا حطة وأن يدخلوا الباب سجدا، وذكر عصيانهم هذه الأوامر وإرسال الرجز عليهم وساقها في سورة البقرة وهي مدنية حيث قال: ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين * فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون * وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾ الآية وكلا السياقين يشبه بعضه بعضا في الحسن والجمال والإتقان مع اختلاف في العبارة واتفاق في المعاني على صورة قد بلغت في البلاغة أعلى الدرجات، واشتملت على دُرَر المعاني والبيان والبديع من مناسبة المقال للمقام، حيث قدَّم قصة الاستسقاء في هذا المقام على غيرها مع أنها جاءت في سورة البقرة متأخرة عن بقية هذه الأحوال، وذلك لبدئه بيان هذه الأحوال هنا بقوله تبارك وتعالى: ﴿ وقطَّعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما﴾ فناسب أن يتبع ذلك مباشرة بذكر الاستسقاء لأن الحجر الذي ضربه موسى بعصاه قد انفجرت منه اثنتا عشرة عينا بعدد الأسباط، بخلاف سورة البقرة فإنه لم يذكر

هناك أنه قطع بني إسرائيل أسباطا اثنتي عشرة فرقة، ومن أظهر هذه الأبواب البديعية في هـذا المقام الاحتباك وهو أن يثبت قيدا في مقـام ويحذفه في المقام الآخر لدلالة المذكور على المحذوف، وهـذا الباب من أعظم أبواب البلاغة، وقد ورد كثيرا في كتـاب الله عز وجل كقـوله تبـارك وتعالى: ﴿ إن يكن منكم عشرون صابـرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مـائة يغلبوا ألفًـا من الذين كفروا بأنهم قـوم لا يفقهون * الآن خفف الله عنكم وعلـم أن فيكم ضعفًا، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبـوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله، والله مع الصابرين﴾ فقد قيـد العشرين في قوله: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون﴾ بقيدين وهو كـون العشرين منكم، وكونهم صابرين، ثم قال: ﴿يغلبـوا مائتين﴾ ولم يقيدهـا بقيد، ثم قـال: ﴿وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفـا من الذين كفـروا﴾ فلم يقيد المائة هنا بقيـد الصبر اكتفاء بـالقيد السابق وهو كـونهم صابرين، وقيد الألف بكونهم من الـذين كفروا، فكان قـوله: ﴿مـائتين﴾ مقيدا بهذا القيـد في المعنى أي يغلبـوا مائتين من الـذين كفـروا، وقـال: ﴿يغلبوا ألفين بإذن الله﴾ فكـان إذن الله قيـدا في الجميع، وهكذا في هذا المقـام حيث قال عز وجل: ﴿إذ استسقاه قـومه فقلنا اضرب بعصـاك الحجر﴾ وقـال في سورة البقـرة ﴿وإذ استسقى موسى لقـومه فقلنـا اضرب بعصاك الحجر﴾ فدل المذكـور على المحذوف في المقامين وعلم أن قوم موسى طلبوا منه الاستسقاء فـاستسقى لهم، وأن الأمر بضربه الحجر بعصاه مرتبٌ على استسقـائه لا على استسقائهم، وقال في سورة البقـرة ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ وقال هنا: ﴿فانبجست منه اثنتا عشرة عينا﴾ فدل على أن الانفجار والانبجاس بمعنى واحد، وهو إشارة إلى كنوز فقه اللغة العربية التي لا يستطيع إنسان مهما كان أن يحيط بلغات القبـائل المتحدثة بها، وقال هنا: ﴿وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهـم المن والسلوى كلوا من طيبات ما

رزقناكم، وما ظلمـونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ وقـال في سورة البقرة: ﴿وظللنـا عليكم الغمام وأنـزلنـا عليكم المن والسلوى كلـوا من طيبـات مـا رزقناكم، ومـا ظلمونـا ولٰكن كانوا أنفسهم يظلمـون﴾ بتوجيـه الخطاب في سـورة البقـرة إلى بني إسرائيل المعـاصرين لـرسـول الله صلى الله عليـه وسلم تقـريعا لهم، لأن النعمـة على آبائهم نعمـة عليهم، وهم لم يشكروا النعمـة العظمى حيث بعث فيهـم رسـول الله خـاتم النبيين و إمـام المرسلين الـذي يعرفـونه كما يعرفون أبنـاءهم فلم يؤمنوا بـه وكذبوه، وعلم أن قولـه في سورة البقـرة: ﴿وظللنـــا عليكم الغمام وأنـزلنـــا عليكم المن والسلـوى﴾ أي على آبائكم، وخير ما يُفَسَّر القـرآن بالقرآن. وفي قوله عـز وجل في سورة البقرة: ﴿و إذ قلنا ادخلـوا هٰذه القرية فكلـوا منها حيث شئتم رغدا﴾ وقـال في هذا المقام: ﴿و إذ قيل لهم اسكنوا هٰذه القريـة وكلوا منها حيث شئتم﴾ فقال في سورة البقرة ﴿قلنـا ادخلوا﴾ وقال هنا: ﴿قيل لهم اسكنـوا﴾ فدل ذلك على أن موسى عليه السلام قال لهم اسكنوا هذه القرية بأمر من الله عز وجل، كما دل أيضا على أن المراد بـالدخـول هو الولـوج إلى القريـة للسكنى لا للعبور، والتعبير في هـذا المقام بقـوله: ﴿قيل لهم﴾ وتـرك هذا القيـد في سورة البقـرة لدلالة المذكور هنا على المحذوف هناك، ولا منـافاة بين التعبير بالفاء في قوله في سورة البقرة: ﴿فكلـوا منها حيث شئتم رغدا﴾ والتعبير بالـواو في قوله في هـذا المقام: ﴿وكلـوا منها حيث شئتم﴾ لما عُلِم في علم معـاني الحروف بأن الحرف قـد يستعمل في معـان كثيرة قد يتـلاقى في بعضهـا مع بعض معـاني الحروف الأخرى، فالواو لمطلق الجمع لا تقتضي ترتيبا ولا تعقيبا فلا تتعارض مع الفاء المقتضيـة للتعقيب، ويكون التعبير بـالفاء في سـورة البقرة للـدلالة على أنهم سيجدون ما يـرغبون في أكله بمجرد دخول القريـة ولا يحتاجون إلى كبير عناء في الحصول على ذلك، والتعبير بالواو في هذا المقام لا ينافي ذلك،

وقد أشرت في تفسير قولـه تبارك وتعالى: ﴿ثم لأصلبنكم أجمعين﴾ بأن مجيء التعبير بقولـه: ﴿ثم﴾ في هذا المقـام لا يتنافى مع التعبير بالـواو في قولـه عز وجل في طـه والشعراء: ﴿ولأصلبنكم أجمعين﴾ إلى أنـه لا تنافي بين الحرفين في الدلالـة على المقصود وحذف كلمـة «رغدا» في هـذا المقام للدلالـة عليها بذكرهـا في سورة البقرة. وهذا سر من أسرار إعجاز القـرآن و إشارة إلى تعاور الحروف والكلمات، ومجيء بعضها مكان بعض، ولذلك قال في هذا المقام: ﴿وقولـوا حطة وادخلـوا الباب سجـدا﴾ وقال في سـورة البقرة: ﴿وادخلـوا الباب سجـدا وقولوا حطة﴾ بـالتقديم والتأخير لما ذكرت قريبـا من أن الواو لمطلق الجمع لا تقتضي ترتيبـا ولا تعقيبا، كما أنه لا منافاة بين معنـى قوله في سورة البقرة: ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ وقـوله هنا: ﴿نغفر لكم خطيئاتكم﴾ و إنما المغـايرة اللفظيـة جاءت للتصريف البـلاغي ولفت الانتباه إلى أن هـذا الكتاب العظيم الذي نزل على النبي الأمي قـد أحكمت آياته ثم فصلت من لـدن حكيم خبير. ومجيء الواو في قـولـه تعالى في سـورة البقـرة: ﴿وسنزيـد المحسنين﴾ وحذفهـا هنا حيث قال: ﴿سـنـزيد المحسنين﴾ لدلالـة المذكور على المحـذوف مع أن حذف الـواو قد يفيـد الاستئنـاف المترتب على تقديـر سـؤال نشأ من الإخبـار بـالغفـران كـأنـه قيل: فماذا بعـد الغفـران، فقيل: ﴿سنزيـد المحسنين﴾ ولا فرق بين قوله عـز وجل في سورة البقرة: ﴿فأنـزلنا على الذين ظلمـوا رجزا من السماء بما كـانوا يفسقون﴾ وقـوله هنـا ﴿فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون﴾ حيث سجل عليهم في سورة البقرة أنهم ظالمون فاسقون، فانطبق عليهم هنا كونهم ظالمين فاسقين أيضا لكنه في هذا المقام أورد ضميرهم حيث قـال ﴿عليهم﴾ وفي سورة البقرة قال: ﴿على الـذين ظلموا﴾ فـذيَّل الآيـة بقـوله ﴿يفسقـون﴾ وهنـا ذيل الآيـة بقولـه: ﴿يظلمون﴾ ولا شك أنهم خـارجون عن طـاعة الله ظـالمون لأنفسهم، هذا

وقد مر تفسير ألفـاظ هذه الآيات في سورة البقـرة، وقد بينت أن أرسل وأنزل المذكـورين في قولـه في سورة البقـرة: ﴿فأنـزلنا على الـذين ظلموا رجـزا من السماء﴾ وفي سـورة الأعـراف هنا: ﴿فأرسلنـا عليهم رجـزا من السماء﴾ هما بمعنى واحد، أي سلطنـا عليهم عذابـا من فوقهم وأطلقنـاه عليهم بسبب ظلمهم وفسقهم حيث عصـوا ربهم، وبـدَّلوا قـولا غير الـذي قيل لهم، ولا يظلم ربك أحدا.

قال تعالى: ﴿وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرّعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذالك نبلوهم بما كانوا يفسقون * وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون * فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون * فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين * وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب، إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيمٌ * وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾.

بعد أن شرح الله تبارك وتعالى بعض أحوال بني إسرائيل مع موسى عليه السلام وبين بعض ما أنعم به عليهم وندَّد بما كانوا يقابلون به نعم الله وأوامره من الجحود والعصيان حتى أرسل عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون، مما يتضمن مواساة رسول الله محمد ﷺ مما يلاقيه من اليهود وغيرهم من الكفار مع تحذير هؤلاء المكذبين من أن يحل بهم ما حل بمن سبقهم من الجاحدين الكافرين شرع هنا في ذكر بعض أحوال بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام وما كانوا يعملونه من الحيل والمكر السيئ لارتكاب المعاصي ومخالفة أوامر الله ونواهيه، وموقف بعض صالحيهم الذين قاموا بوعظهم وتذكيرهم لعلهم ينتهون عن غيهم وضلالهم، وموقف بعض القاصرين المتشددين المتنطعين الذين أيقنوا أن هؤلاء العصاة لا توبة لهم وأن الله معاقبهم لا محالة، وأنهم لما نَسُوا ما ذكروا به أنجى الله الذين ينهون عن السوء وأخذ الذين ظلموا بعذاب شديد بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة ربهم، وأنهم لَمَّا عتوا عما نُهُوا عنه مسخهم قردة خاسئين وأعلن عز وجل أنه

سيسلط على اليهود الكـافرين من يذيقهم سـوء العذاب إلى يوم القيـامة مع قبـولـه تـوبـة التـائبين، ثم ذكـر عــز وجل تقطيع بني إسرائيل في الأرض جماعـات، منهم من ينيب إلى الله، ومنهم دون ذلك وأنه عـز وجل اختبرهم بـالحسنـات والسيئـات لعلهم يـرجعـون، وفي ذلك يقـول تبـارك وتعالى: ﴿واسألهم عن القرية التي كـانت حاضرةَ البحر إذ يَعْدُون في السبت إذ تأتيهم حِيتانُهم يـوم سَبْتِهم شُرَّعًا ويوم لا يَسْبِتُون لا تأتيهم﴾ إلى قـوله عز وجل: ﴿وبَلَوْناهُم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾ والمراد بالسؤال في قوله عز وجل: ﴿واسألهم عن القرية التـي كانت حاضرة البحر﴾ هو تقريع اليهود المعـاصرين لرسـول الله ﷺ وتوبيخهـم على كفرهم بـرسول الله ﷺ، وإفحامهم بأن محمدا ﷺ وهو الأميّ يعلم حقيقـة هذه القصة التي يحرصون على كتمانها وإخفائهـا، ولا سبيل له إلى معرفتهـا إلا بالوحي من الله العـزيز العليم، وهم مـوقنـون بذلك، مع مـا يتضمنـه هذا السـؤال من تهديـدهم بعقوبة من الله على كفرهم برسولـه محمد ﷺ، لأنه إذا كان الذين اعتدوا في السبت قد مسخهم الله وجعلهم قـردة خاسئين مع أنهم إنما خالفوا فـرعا من فروع الشريعة واحتـالوا لارتكاب المحرم فما بالك بمن كفروا بـالشريعة كلها وكذبوا إمام المرسلين محمدا ﷺ، وجحدوا نبوته؟ قال الزجاج في تفسير هذه الآية: والسـؤال على ضربين، فأحد الضربين أن تسأل لتستخبر عما لا تعلم لتعلم. والضربُ الثاني أن تسأل مستخبرا على وجه التقرير، فتقول للرجل: أأنا فعلت كذا؟ وأنت تعلم أنك لم تفعل فإنما تسأله لتقرره وتوبِّخه، فمعنى أمر النبي ﷺ أن يسأل أهل الكتاب عن أهل هذه القرية ـ وقد أخبر الله جل ثناؤه بقصـتها ـ ليقررهم بقـديم كفرهم، وأن يعلمهم ما لا يعلم إلا بكتاب أو وحي. اهـ ولم يـرد نص في كتاب الله ولا في سنة رسـول الله ﷺ يُعَيِّن هذه القرية، ومعنى كـونها حاضرة البحر أي واقعة على شاطىء البحر قـريبة منه

وبحضرته، ومعنى: ﴿إذ يعدون في السبت﴾ أي ينتهكون ما حرَّم الله عليهم ويعتدون على شريعة الله التي حرمت عليهم الصيد في يوم السبت وقد ندد الله تعالى باعتداء اليهود في السبت في سورة البقرة في قوله عز وجل: ﴿ولقد علمتم الذين اعْتَدَوْا منكم في السبت﴾ وصرَّح في سورة النساء بأنه عز وجل حرَّم السبت حيث قال في الآية الرابعة والخمسين بعد المائة: ﴿وقلنا لهم لا تَعْدُوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿إذ تأتيهم حيتانهم يوم سَبْتِهِم شُرَّعًا ويوم لا يَسْبِتُون لا تأتيهم، كذلك نَبْلُوهُم بما كانوا يفسقون﴾ أي كانت الحيتان وهي السمك ترفع رؤوسها فوق الماء مقبلة على الساحل يوم السبت ويسهل على من يريد صيدها أن يصيدها ـ والصيد محرم عليهم يوم السبت ـ فإذا ذهب يوم السبت اختفت من الماء القريب منهم فلا يرونها إلى السبت الآخر، اختبارا لهم وامتحانا، فاحتالوا على صيدها بوسائل كأن يحفروا حياضا كبيرة تتصل بالبحر فتدخلها الحيتان يوم السبت ولا تستطيع الرجوع إلى البحر فيصيدونها يوم الأحد والأيام الأخرى غير السبت، وهكذا اختبرهم الله عز وجل فلم ينجحوا في الاختبار، بسبب فسقهم عن طاعة الله وتمردهم على أوامر الله، ومعنى قوله: ﴿شُرَّعًا﴾ أي شارعة ظاهرة على الماء من كل طريق وناحية كشوارع الطرق، ومعنى: ﴿ويوم لا يَسْبِتُون لا تأتيهم﴾ أي ويوم لا يُعَظِّمونه تعظيمهم السبت، والمراد بقية أيام الأسبوع، لا تأتيهم الحيتان، وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى في سورة المائدة: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب﴾ أن الله تبارك وتعالى نبه المؤمنين وحذرهم من قتل الصيد وهم محرمون بحج أو عمرة أو حالة كونهم داخل حدود الحرم وأعلمهم أنه سيختبرهم بشيء من الصيد وهم محرمون، فصار الصيد يقترب منهم حتى يستطيع المحرم أن يأخذه بيده

وذكـرت أن هذا الاختبـار شبيه بما اختبر الله عـز وجل به بني إسرائيل الـذي قصـه الله عز وجل عـن أصحاب القـريـة التي كانـت حاضرة البحـر، فلم ينجحوا في هذا الاختبار فجعلهم الله قـردة خاسئين، أما أصحاب رسول الله ﷺ فقد نجحوا في الامتحان وفازوا فيه حيث صار الصيد يسقط عليهم وهم محرمون عام الحديبية فخافـوا الله عز وجل وعصمهم الله من تناوله، وحماهم من معصيته ومخالفة أمره، ولا شك أن هذه التربية العملية والنجاح فيها أبرز برهان على أن أصحاب محمد ﷺ أهل لأن يشرفهم الله بصحبة خير المرسلين ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين، وقولـه تبارك وتعالى: ﴿وإذ قـالت أُمَّةٌ منهم لم تَعِظُون قـومًا اللهُ مُهْلِكُهم أو معـذبهم عذابـا شديـدا قالـوا معذرةً إلى ربكم ولعلهم يتقون * فلما نسوا ما ذُكِّرُوا به أنجينـا الذين يَنْهَوْن عن السوء وأخذنا الـذين ظلموا بعـذاب بَئِيسٍ بما كانـوا يفسقون﴾. قـال ابن كثير رحمه الله: يخبر تعالى عن أهـل هذه القريـة أنهم صاروا إلى ثـلاث فرق، فـرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يـوم السبت. كما تقدم بيانه في سورة البقـرة، وفرقـة نهت عن ذلك واعتـزلتهم، وفرقـة سكتت فلم تفعل ولم تنـه ولكنهـا قالت للمنكـرة: ﴿لم تعظـون قومـا الله مهلكهم أو معـذبهم عذابـا شديدا﴾ أي لِمَ تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فـائدة في نهيكم إياهم؟ قالت لهم المنكرة: ﴿معـذرة إلى ربكم﴾ قرأ بعضهم بالرفع كأنه على تقديـر: هذا معذرة، وقرأ آخرون بالنصب أي نفعل ذلك «معـذرةً إلى ربكم» أي فيما أخذ علينـا من الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر «لعلهم يتقون» يقـولون: ولعلَّ لهذا الإنكار يتقون ما هـم فيـه ويتركونه ويرجعـون إلى الله تائبين، فإذا تـابوا تـاب الله عليهم ورحمهم، قـال تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة ﴿أنجينا الذين ينهـون عن السوء وأخـذنـا الذين ظلمـوا﴾ أي ارتكبـوا المعصية ﴿بعـذاب

بئيس﴾ فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين وسكت عن الساكتين، لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحا فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيما فيُذَمُّوا . اهـ والبئيس هو الشديد الموجع من البأس وهو الشدة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فلما عَتَوْا عما نُهُوا عنه قلنا لهم كونوا قردةً خاسئين﴾ أي فلما استحكموا في الفساد واستمروا في التمرد والعناد واستمرءوا صيد السمك وأكله يوم السبت ولم يلتفتوا إلى وعظ الواعظين ونصح الناصحين قلنا لهم كونوا قردة خاسئين، وقد بينت في سورة البقرة أن هذا الأمر بقوله ﴿كونوا﴾ هو أمر كوني أي إنما قلنا لهم كونوا قردة فصاروا قردة، ويعبر البلاغيون عنه بأنه أمر تسخير وتكوين، والأمر الكوني لا يتخلف على حد قوله تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وإذْ تَأَذَّن ربك لَيَبعثَنَّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب، إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ أي وإذ أعلم ربك ليسلطن على اليهود من يجعل عليهم الذلة والمسكنة إلى يوم القيامة كما قال عز وجل: ﴿وضُرِبَتْ عليهم الذِّلَّة والمسْكنة وباءوا بغضب من الله﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ضُرِبَتْ عليهم الذلة أين ما ثُقِفُوا إلا بحَبْل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة﴾ وقد قلت في تفسير قوله عز وجل: ﴿إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾ أي إلا بإمداد من الله عز وجل يكون بسبب تقصير من يُسَلَّطُ عليهم اليهود في حق الله وتفريطهم في جنبه، وعدم إقامتهم شريعة الله فإن اليهود الرعاديد الجبناء لم ينتصروا على المسلمين ويحتلوا بيت المقدس في عصرنا بشجاعتهم وإنما بذنوبنا وتفرق كلمتنا لأنه إذا عصى الله من يعرفه سلط عليه من لا يعرفه، كما أنهم قد يُمَدّون من بعض الأمم المعادية للإسلام لا حبا في اليهودية وإنما لحرب الإسلام ولا شك أن قوله عز وجل: ﴿إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾

معجزة ظاهرة على مدى التاريخ يشاهدها القاصي والداني في مشارق الأرض ومغاربها. هذا وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة بيان فضل الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر وأنهم أهل الفلاح والفوز والنجاة، كما تضمنت الوعيد الشديد للذين يصرون على المعاصي، وأشارت إلى أنه ينبغي للدعاة إلى الله ألا ييأسوا من رَوْح الله فإنه الغفور الرحيم الذي يقبل توبة التائبين، وكما قال تبارك وتعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿نبّئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وقطّعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذٰلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾ أي وفرقنا بني إسرائيل في الأرض فرقا وشتتناهم في المشارق والمغارب، فكان منهم المستقيمون ومنهم دون ذلك كانوا طرائق قددا، واختبرناهم بالخير والشر، ليرجعوا إلى ربهم ويتوب المسيئون من غيهم.

قال تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هٰذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه، والدَّار الآخرة خيرٌ للذين يتقون، أفلا تعقلون * والذين يُمَسِّكُون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين * وإذ نَتَقْنَا الجبل فوقهم كأنه ظُلّة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوةٍ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى بعض أحوال بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام وما كانوا يعملونه من الحيل والمكر السيئ لارتكاب المعاصي، ومخالفة أوامر الله ونواهيه وموقف بعض صالحيهم الذين كانوا يعظونهم ويخوفونهم من الله لعلهم ينتهون عن غيهم وضلالهم وموقف بعض المتشددين المتنطعين الذين أيقنوا أن هؤلاء العصاة لا توبة لهم وأن الله معاقبهم لا محالة وأنهم لما نسوا ما ذكروا به أنجى الله الذين ينهون عن السوء وأخذ الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون، وأنهم لما عَتَوْا عما نُهوا عنه مسخهم قردة خاسئين وأعلن عز وجل أنه سيسلط على اليهود الكافرين من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة مع قبوله توبة التائبين، وبين عز وجل أنه قطع بني إسرائيل في الأرض جماعات منهم من ينيب إلى الله، ومنهم دون ذلك، وأنه اختبرهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون. شرع هنا في شرح بعض أحوال الذين جاءوا من بعد هؤلاء الذين تقدم ذكرهم ليقرر أنهم كانوا خَلْف سَوْء وأكثر تمردًا على كتاب ربهم ومواريث أنبيائهم، فإنهم قد ازدادت دراستهم لكتابهم الذي ورثوه أي انتقل إليهم من أسلافهم، ومع ذلك فإنهم كانوا يرتكبون القبائح ويزعمون أنهم لن يؤاخذوا بها ولن يعاقبوا عليها وأن الله سيغفر لهم، ويتمنون على الله الأماني، ويقولون على الله غير الحق، ولم

يمتنعوا عن المسارعة إلى ارتكاب المحظور متى لاح لهم، وهم يعلمون أن الله قد أخذ عليهم الميثاق في الكتاب الـذي بأيديهم ألا يقولوا على الله إلا الحق، وقد قرؤوه وعرفوا ما فيه، ولكنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة وباعوا آيات الله بالثمن الـزهيد ولو كـانوا يعقلون ما بـاعوا جنات النعيم بهذا الحطـام الفاني والعـرض الزائل، ثم أثنى الله عـز وجل على الـذين يستمسكـون بالكتـاب ويقيمون الصلاة، وبشرهم بالأجر الجزيل ووصفهم بأنهم مصلحون، وذكَّر بني إسرائيل بما فعلـه الله عـز وجل بآبـائهم الأولين حيث رفع الجبل فـوقهم كأنه ظلة حتى أيقنوا أنه واقع بهم وأمرهم أن يستمسكوا بالكتاب وألا يتراخوا في تطبيق أحكـامه وتنفيـذ تعـاليمه والعمل بما فيـه، ليعـرفوا ربهم ويخافـوه ويتقـوه، وفي ذلك يقــول عـز وجل: ﴿فخَلَفَ من بعـدهـم خَلْفٌ ورثـوا الكـتاب يأخـذون عَرَضَ هٰذا الأدنى ويقـولون سيُغْفَر لنـا وإنْ يَأْتِهِم عَرَضٌ مثلُه يأخـذوه﴾ إلى قولـه عز وجل: ﴿خـذوا ما آتيناكم بقـوة واذكروا مـا فيه لعلكم تتقـون﴾ وقولـه عز وجل: ﴿فخلف من بعـدهم خلف﴾ الآية هـو شبيـه بقولـه عـز وجل في سورة مـريم بعـد ذكر الصـالحين: ﴿فخَلَفَ من بعدهم خلفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يَلْقَوْن غيـًّا * إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولَئك يدخلـون الجنة ولا يُظْلَمُون شيئا﴾ قال ابن جريـر رحمه الله في تفسير قولـه: ﴿فخلف من بعدهم خلف ورثـوا الكتاب يأخـذون عَـرَضَ هٰـذا الأدنى ويقـولون سيغفـر لنـا وإن يأتهم عـرض مثلـه يأخذوه﴾: فتبدل من بعـدهم بَدَل سوء، ورثوا كتـاب الله فَعُلِّموه، وضَيَّعوا العمل به، فخالفـوا حكمه، يُرْشَوْن في حكم الله، فيأخذون الـرشوة فيه من عـرض هـذا العاجل ﴿الأدنى﴾ يعني بـالأدنى الأقـرب من الآجل الأبعـد، ويقولون إذا فعلـوا ذلك: إن الله سيغفر لنا ذنوبنـا، تمنيًّا على الله الأباطيل، كما قال جل ثناؤه فيهم: ﴿فـويل للذين يكتبون الكتاب بأيـديهم ثم يقولون

هٰذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ ﴿وإن يأتهم عـرضٌ مثله يأخـذوه﴾ يقول: وإنْ أشرف لهم ذنب حرام مثله من الرشوة بعد ذلك أخـذوه واستحلوه ولم يرتدعوا عنه، يخبر جل ثنـاؤه عنهم أنهم أهل إصرار على ذنوبهم وليسـوا بأهل إنـابة ولا تـوبة. اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه﴾ أي قد أخذنا عليهم العهد الموثق في الكتاب الذي بأيديهم أن لا يفتروا على الله الكـذب وقد قرءوا هـذا الكتاب مرة بعـد مرة، وهم ذاكرون لذلك لم ينسوه، قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يقول تعـالى ذكـره: ﴿ألم يـؤخذ﴾ على هـؤلاء المرتشين في أحكـامهم، القـائلين: سيغفر اللهلنا فعلنـا هذا، إذا عوتبوا على ذلك ﴿ميثاق الكتـاب﴾ وهو أخذ الله العهود على بني إسرائيل بإقامة التـوراة، والعمل بما فيها، فقال جل ثناؤه لهؤلاء الذي قص قصتهم في هذه الآية، موبخا على خلافهم أمره، ونقضهم عهده وميثاقه: ألم يأخذ الله عليهم ميثـاق كتابه ألا يقولوا على الله إلا الحق، ولا يضيفوا إليه إلا مـا أنزله على رسوله موسى ﷺ في التـوراة، وأن لا يكذبوا عليه. اهـ والاستفهام في قـوله: ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتـاب﴾ للتقرير والتقريع والتوبيخ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون، أفلا تعقلون﴾ زيادة تقرير للحقيقة الثالثة من الحقائق الثلاث التي تدور في فلكها السور المكية وهي تقرير أنـه لا إله إلا الله وتقرير أن محمدا رسول الله، وتقـرير الإيمان بـالبعث بعد الموت، لأن تقـريـر توحيـد الله وتقريـر رسالـة المرسلين وتقـرير البعـث بعد الموت هي الأسس التـي لا سعادة للنـاس إلا بها، وفي قوله عـز وجل: ﴿والدار الآخر خير للذين يتقـون، أفلا تعقلون﴾ لفت الانتباه إلى أنـه من سفاهـة الرأي أن يبيع الإنسـان نعيم الجنة بـالحطام الـزائل من عـرض الحيـاة الـدنيا، وأن الـذين يتقـون الله ويعملـون بأوامـره

ويجتنبون نـواهيه ويقفون عنـد حدوده هم أهل النعيم المقيم، حيث يمتعهم الله عـز وجل في الجنـة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطـر على قلب بشر، كما قـال عز وجل: ﴿إنَّ المتقين في مقـام أمين * في جنات وعيـون * يلبسون مـن سندس وإستبرق متقابلين * كذلك وزوجناهـم بحورٍ عينٍ * يَـدْعُـون فيها بكل فـاكهـة آمنين * لا يـذوقون فيهـا الموت إلا الموتـة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم* فضلا من ربك ذٰلك هو الفوز العظيم﴾ وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لَقَابُ قَـوْسٍ في الجنة خيرٌ مما تطلع عليـه الشمس، والاستفهام في قولـه عز وجل: ﴿أفـلا تعقلون﴾ للتـوبيخ كما أن الالتفـات من الغيبة إلى الخطـاب لتشديد التوبيخ، إذ مقتضى السيـاق أن يقال: أفلا يعقلون، لكن مقتضى الحال من تشـديـد تـوبيخ الـذيـن يبيعـون نعيم الجنـة بعـرض زائل اقتضى الالتفات من الغيبـة إلى الخطاب فقال: ﴿أفـلا تعقلون﴾ وقولـه عز وجل: ﴿والذين يُمَسِّكُون بـالكتاب وأقاموا الصـلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾ أي والذين يعملـون بما في كتاب الله الذي بأيـديهم فيحلون حلالـه ويحرمون حرامه ويقفون عند حدوده، ويستمسكون بتعاليمه التي تقتضي المسارعة إلى تصـديق النبيين، وتأييـد المرسلين والإيمان بمحمـد رسـول الله ﷺ خـاتم النبيين، ويقيمـون الصـلاة بحدودهـا، ولم يضيعـوا أوقـاتها، وكانـوا فيهـا خـاشعين لا يضيع أجـرهم عنـد الله عز وجل لأنهم مصلحـون والله تبـارك وتعالى لا يضيـع أجر المصلحين، قال ابـن منظور في لسان العـرب: ومعنى قوله تعالى: ﴿والذين يُمَسِّكون بـالكتاب﴾ أي يؤمنون به ويحكمون بما فيه، الجوهـري: أمسكتُ بالشيء وتمسَّكت بـه، واستمسكت بـه، وامتسكتُ، كلـه بمعنى اعتصمت وكذلك مسَّكتُ بـه تمسيكا . اهـ وقال الإمـام محيي السنـة أبـو محمـد البغـوي في تفسيره: يقـال: مسَّكت بـالشيء ولا يقـال:

أمسكت بالشيء إنما يقال: أمسكته. اهـ والصلاح ضد الفساد والصالح المستقيم، والإصلاح نقيض الإفساد، وهذه الآية بعمومها تشمل المؤمنين من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه الذين تمسكوا بالكتاب الذي جاء به موسى ولم يحرفوه ولم يكتموا منه صفة النبي محمد ﷺ، ولم يتخذوه مأكلة، وسارعوا إلى الإيمان برسول الله محمد ﷺ، كما يشمل المستمسكين بالقرآن من أمة محمد ﷺ، المعتصمين به العاملين بما فيه المحلين لحلاله المحرمين لحرامه الواقفين عند حدوده، ولذلك وصى رسول الله ﷺ المسلمين بكتاب الله تبارك وتعالى، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أوصى بكتاب الله عز وجل وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلةٌ وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ قد ساق الله تبارك وتعالى قصة رفع الجبل فوق رءوسهم في هذا المقام وفي الآية الثالثة والستين من سورة البقرة حيث قال عز وجل: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ كما ذكرها في الآية الثالثة والتسعين من سورة البقرة حيث قال: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا﴾ الآية. كما ذكرها في الآية الرابعة والخمسين بعد المائة من سورة النساء حيث قال: ﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تَعْدُوا في السَّبْت وأخذنا منهم ميثاقًا غليظا﴾ وكلها جاءت في سياق حكاية جناية من جنايات بني إسرائيل وبيان تمردهم على أحكام الله وعدم قبولهم للحق ونقضهم للعهود والمواثيق حيث لا يستقرون على عهد ولا يستقيمون على ميثاق، وقد قلت في تفسير الآية الثالثة والستين من سورة البقرة: أي واذكروا يا بني إسرائيل وقت أخذنا عليكم العهد الموثق بأن تحافظوا على

الشريعة وأن تؤيدوا المرسلين وأن تـؤمنوا بما يبعث الله من نبي وما يرسل من رسـول، وجعلنـا لكم آيـة حِسِّيَّـةً للـدلالـة على قـدرتنـا عليكم وأنكم لا تستطيعون الإفـلات من عقوبـة الله إن عصيتم أمـره وكذبتم رسلـه إذ رفعنا الجبل فوق رءوسكم كأنه سحابـة تظللكم حتى صرتم في رعب وفزع تخشون أن يسقط عليكم فيهلككم وأمـرناكم والحالـة هذه أن تحافظـوا على الشريعة وأن تلتزموا بأحكام التوراة ووصايـاها، وأن تجتهدوا في تنفيذ أوامر الله وطاعة المرسلين لكي تجعلوا لأنفسكم وقـاية من عـذاب النار وسخط الجبـار. وقد بينت أن معنى قوله: ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي خذوا ما أنزلنا عليكم من الشريعـة بجـد وعزيمـة ونشـاط واجتهـاد، ومعنى ﴿واذكروا مـا فيـه﴾ أي احفظوه ولا تنسـوه واجعلوه دائما على ذُكر منكم بـالعمل به وتطبيق مـا فيه على شئون معاشكم ومعـادكم، ﴿لعلكم تتقون﴾ أي لكي تجعلوا لأنفسكم وقـاية من سخط الله وعـذابـه ولتنتظموا في سلك عبـاده المتقين. لكنهم مع ذلك نقضوا الميثـاق وأعرضوا عن الـوفاء كما قال عـز وجل: ﴿ثم توليتم من بعد ذٰلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾.

قال تعـالى : ﴿وإذ أخذ ربك من بنى ءَادم من ظهـورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالـوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامـة إنا كنَّا عن هـٰذا غافلين * أو تقـولـوا إنما أشرك ءَاباؤنـا من قبل وكنـا ذرية من بعـدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلـون * وكذالك نفصل الآيات ولعلهم يـرجعون* واتل عليهم نبأ الذى ءاتيناه آياتنا فانسلخ منها فأَتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولَكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذُلك مثل القوم الذين كـذبوا بئاياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكـرون * ساء مثلاً القوم الـذين كذبوا بئايـاتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ .

بعد أن شرح الله تبارك وتعالى بعض أحـوال بني إسرائيل الذين خلفوا من سبقوهم ، وكانوا خَلْف سوء وأكثر تمردا على كتاب ربهم ومواريث أنبيائهم ، حيث كانوا يدرسون الكتاب الذي انتقل إليهم من أسلافهم ومع ذلك كانوا يرتكبـون القبائح ويزعمون أنهم لن يـؤاخذوا بها ولن يعاقبوا عليهـا ويتمنون على الله الأمـاني ، ويقـولـون على الله غير الحق ، وكـانـوا يسـارعـون إلى أكل السحت متى عرض لهم ، ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه مع إقرارهم بأن الـذي يأخذونه هو محرم عليهم ثم أثنى عـز وجل على الذين يستمسكون بالكتـاب ويقيمون الصلاة وبشرهم بالأجـر الجزيل ، وذكَّر بني إسرائيل بقصة رفع الجبل فـوق رءوس آبائهم حتى يستمسكوا بـالكتاب ولا يفرطوا فيه ، شرع هنا في بيان أنـه عز وجل قد أوضح لعباده أنه رب كل شيء ومليكه وأنه لا إلـه إلا هو، وحذرهم من الشرك به وقصَّ عليهـم قصة الذي عرف الحق فانسلخ منه فأَتبعه الشيطـان فكان من الغاوين ، وضرب له مثلا بالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث وأن هذا المثل ينطبق على سائر

المكـذبين بآيـات الله الظالمين لأنفسهم الـذين يعرفـون الحق ولا ينقادون لـه حيث يقـول عز وجل: ﴿وإذ أخـذ ربك من بني آدم من ظهـورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هٰذا غافلين﴾. إلى قوله عز وجـل: ﴿ساء مثلا القوم الذيـن كذبوا بآيـاتنا وأنفسهم كانوا يظلمـون﴾ وقوله تبارك وتعـالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بـربكم قالوا بلى شهدنـا أن تقولوا يـوم القيامة إنا كنـا عن هٰذا غافلين * أو تقـولوا إنما أشرك آباؤنـا من قبل وكنا ذريـة من بعدهـم أفتهلكنا بما فعل المبطلون * وكـذلك نفصل الآيـات ولعلهم يـرجعـون﴾ قـال ابن كثير رحمه الله: يخبر تعـالى أنـه استخـرج ذريـة بني آدم من أصـلابهم شـاهـدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعـالى فطرهم على ذلك وجَبَلَهُمْ عليه قال تعالى ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطـرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنـه قال: قال رسول الله ﷺ: كل مولـود يولد على الفطـرة وفي رواية: على هـذه الملة ـ فأبـواه يهوِّدَانه ويُنَصِّـرانه ويُمَجِّسانـه، كما تولد بهيمة جمعاء هل تحسون فيهـا من جدعاء. وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشيـاطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم. ثم قـال ابن كثير رحمه الله: قال قـائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهـاد إنما هـو فطرهـم على التوحيـد كما تقـدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجـاشعي، ثم قال رحمه الله: قالوا ولهذا قـال: ﴿وإذ أخـذ ربك من بني آدم﴾ ولم يقل: من آدم من «ظهـورهم» ولم يقل: من ظهره «ذريـاتهم» أي جعل نسلهم جيلا بعـد جيل وقرنا بعـد قرن كقولـه تعالى: ﴿وهـو الذي جعلكم خـلائف الأرض﴾ وقال: ﴿ويجعلكم

خلفاء الأرض﴾ وقال: ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ ثم قال: ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾ أي أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالاً وَقَالا، والشهادة تارة تكون بالقول كقوله: ﴿قالوا شهدنا على أنفسنا﴾ الآية، وتارة تكون حالا كقوله تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ أي حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، وكذا قوله تعالى: ﴿وإنه على ذٰلك لشهيد﴾ كما أن السؤال تارة يكون بالمقال وتارة يكون بالحال كقوله: ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك فلو كان قد وقع هذا كما قال من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه، ثم أكد ابن كثير رحمه الله هذا التفسير فقال: فدل على أنه الفطرة التي فُطِروا عليها من الإقرار بالتوحيد، ولهذا قال: ﴿أن تقولوا﴾ أي لئلا تقولوا ﴿يوم القيامة إنا كنا عن هٰذا﴾ أي التوحيد ﴿غافلين* أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا﴾ الآية. اهـ وقال الزجاج: ومعنى: ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم﴾ أن كل بالغ يعلم أن الله واحد، لأن كل ما خلق الله تعالى دليل على توحيده، وقالوا: لولا ذلك لم تكن على الكافر حجة، وقالوا: فمعنى: ﴿أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم﴾ دلهم بخلقه على توحيده. اهـ ولا معارضة بين شهادة الفطرة التي فسر بها ابن كثير والزجاج هذه الآية وبين ما رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري في كتاب الأنبياء من صحيحه من حديث أنس يرفعه أن الله يقول لأهون أهل النار عذابا: لو أن لك ما في الأرض من شيء كنت تفتدي به قال: نعم قال: فقد سألتك ما هو أهونُ من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي فأبيت إلا الشرك. اهـ فإن قدرة الله عز وجل لا تعجز عن شيء، وكما قال ابن كثير رحمه الله فإن السؤال تارة يكون بالمقال وتارة يكون بالحال، والعلم

عند الله عـز وجل . ومعنى قولـه عز وجل : ﴿أو تقـولوا إنما أشرك آبـاؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ أي أو لئلا تعتذروا بأن آباءكـم قد أشركوا قبـل مجيئكم إلى الدنيا وقـد صرتم ذرية لهم وقلـدتموهم في الشرك بالله ، وما جـاءوا به من الباطل ، وتظنوا أن تقليـدكم لآبائكم المبطلين ينجيكم من شرككم برب العالمين ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿وكذٰلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون﴾ أي وكـذلك نبين البراهين ونقيم الحجج ليتدبروها ولكي يـرجع هؤلاء المكـذبون المشركـون عن تكذيبهم لـرسول الله محمـد ﷺ ويتوبوا من شركهـم بالله عز وجل قبل فوات الأوان ، وضيـاع زمان اكتساب العمل الصـالح ، وقـولـه عـز وجل : ﴿واتل عليهم نبأ الـذي آتينـاه آيـاتنـا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولٰكنه أخلـد إلى الأرض واتبع هـواه فمثلـه كمثل الكلب إن تحمل عليـه يلهث أو تتركه يلهث﴾ إلى قـوله عـز وجل : ﴿وأنفسهم كانـوا يظلمون﴾ قـال الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بـابن قيم الجوزية في كتابه «الفوائد» في قـوله تعـالى : ﴿واتل عليهم نبأ الـذي آتيناه آيـاتنا فـانسلخ منهـا فأتبعـه الشيطان فكـان من الغاوين * ولو شئنـا لرفعناه بها ولٰكنـه أخلد إلى الأرض واتبع هـواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمـل عليه يلهث أو تتركـه يلهث﴾ : فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه ، وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمـه ، وذلك من وجـوه : أحدهـا : أنه ضل بعد العلم ، واختـار الكفر على الإيمان عمدا لا جهلا ، وثانيها : أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبدا فإنه انسلخ من الآيات بالجملـة كما تنسلخ الحية من قشرها ولو بقي معه منها شيء لم ينسلخ منها ، وثالثها : أن الشيطـان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه ، ولهذا قـال : ﴿فأتبعـه الشيطان﴾ ولم يقل تبعـه فإن في معنى أتبعه أدركه ولحقه وهو أبلغ من تبعه لفظا ومعنى . ورابعها : أنه غوى بعد الرشد ،

والغي: الضلال في العلم والقصد، وهو أخص بفساد القصد والعمل، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإذا اقترنا فالفرق ما ذكر، وخامسها: أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم، فكان سبب هلاكه، لأنه لم يُرْفَعْ به فصار وبالا عليه، فلو لم يكن عالما كان خيرا له وأخف لعذابه، وسادسها: أنه سبحانه أخبر عن خسة همته، وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى، وسابعها: أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض ومَيْلٍ بكليته إلى ما هناك، وأصل الإخلاد: اللزوم على الدوام كأنه قيل: لزم الميل إلى الأرض، ومن هذا يقال: أخلد فلان بالمكان إذا لزم الإقامة به. قال مالك بن نويرة:

بأبناء حيٍّ من قبائل مالك وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا

وعبر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض، لأن الدنيا هي الأرض وما فيها، وما يستخرج منها من الزينة والمتاع، وثامنها: أنه رغب عن هداه واتبع هواه فجعل هواه إماما له يقتدي به ويتبعه، وتاسعها: أنه شَبَّهَهُ بالكلب الذي هو أخس الحيوانات همةً، وأسقطها نفسا، وأبخلها وأشدها كَلَباً، ولهذا سمي كَلْبًا، وعاشرها: أنه شبه لهثه على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدها وحرصه على تحصيلها بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد، وهكذا هذا إن ترك فهو لهثان على الدنيا، وإن وُعِظَ وزُجِرَ فهو كذلك، فاللهث لا يفارقه في كل حال كلهث الكلب، قال ابن قتيبة: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة وحال الري وحال العطش، فضربه الله مثلا لهذا الكافر، فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال، كالكلب إن طردته لهث وإن تركته على حاله لهث، وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب وإنما

وقع بالكلب اللاهث وذلك أخس ما يكون وأبشعه . اهـ وقال ابن منظور في لسان العرب في مادة لهث : الجوهري : لهث الكلب بالفتح يَلْهَث لَهْثًا ولُهاثا بالضم إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش ، وكذلك الرجل إذا أعيا ، وفي التنزيل العزيز: ﴿كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ لأنك إذا حملت على الكلب نبح وولَّى هاربا ، وإن تركته شد عليك ونبح ، فيتعب نفسه مقبلا عليك ومدبرا عنك فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان ، قال أبو إسحاق (يعني الزجاج) ضرب الله عز وجل للتارك لآياته والعادل عنها أخس شيء في أخس أحواله مثلا فقال : ﴿فمثله كمثل الكلب﴾ إن كان الكلب لَهْثانَ ، وذلك أن الكلب إذا كان يلهث فهو لا يقدر لنفسه على ضر ولا نفع ؛ لأن التمثيل به على أنه يلهث على كل حال ، حملت عليه أو تركته ، فالمعنى : فمثله كمثل الكلب لاهثا . اهـ وفي قوله عز وجل : ﴿ ذُلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ إشعار بأن هذا المثل ليس خاصا بشخص معين بل يشمل كل من كذب بآيات الله وعرف الحق فأعرض عنه واتبع هواه فقبح مثلهم ، فلهم مثل السوء وقد ظلموا أنفسهم وما عليك أيها الرسول الكريم إلا البلاغ فاتل عليهم ما أوحي إليك من ربك لعلهم يتدبرون ويتذكرون ويتعظون ، ويرجعون عن غيهم وضلالهم .

قال تعالى: ﴿من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون* ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون * ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾.

بعد أن بين الله عز وجل أنه قد أوضح لعباده أنه رب كل شيء ومليكه وأنه لا إله إلا هو، وحذرهم من الشرك وقص عليهم قصة الذي عرف الحق فانسلخ منه فأَتبعه الشيطان فكان من الغاوين وضرب له مثلا بالكلب اللاهث، وأن هذا المثل ينطبق على سائر المكذبين بآيات الله الظالمين لأنفسهم الذين يعرفون الحق ولا ينقادون له، شرع هنا في ترغيب عباده وتحريضهم على أن يتضرعوا إلى الله ليهديهم سبيل الرشاد لأن الهداية بيد الله وحده فمن يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وحذرهم من سلوك طريق الضالين الخاسرين فإن من سلكها كان حَرِيًّا بأن يكون في عِداد أهل جهنم التي ذرأ الله لها كثيرا من الجن والإنس الذين انطمست بصائرهم وعميت أعينهم وصُمَّت آذانُهم فصاروا كالأنعام بل هم أضل ثم أرشد عباده إلى أن يدعوا الله بأسمائه الحسنى وأن يدَعوا الذين يُلحدون في أسمائه الذين يُعَرِّضون أنفسهم للعذاب الأليم، على ما يرتكبونه من الجُرْمِ العظيم بالإلحاد في أسماء الله الحسنى، وصفاته العلى، فيسمون الله تبارك وتعالى بغير ما سمَّى به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ، ويدخل في ذلك أهل التشبيه والتعطيل والتأويل والتحريف وفي ذلك يقول: ﴿من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿سَيُجْزَون ما كانوا يعملون﴾ والمراد بالهداية في قوله تبارك وتعالى: ﴿من يَهْدِ اللهُ فهو

المهتـدي﴾ هي هدايـة التوفيـق إلى الدين الحق والإعـانة إلى سلـوك الصراط المستقيم، قال ابن جرير رحمه الله: القـول في تأويل قوله: ﴿من يهد الله فهو المهتـدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ قـال أبـو جعفر: يقـول تعـالى ذكره: الهداية والإضـلال بيد الله، والمهتدي ــ وهـو السالك سـبيل الحق الـراكبُ قصـدَ المحجة في دينـه ــ من هـداه الله لـذلك فـوفقه لإصـابتـه، والضـال: من خذلـه الله فلم يـوفقه لطـاعتـه، ومن فعل الله ذلك به فهـو الخاسر يعني الهالك. اهـ وقال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى: من هداه الله فإنه لا مضلَّ له، ومن أضله فقد خـاب وخسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا جـاء في حديث ابن مسعود: «إن الحمد لله نحمـده ونستعينه ونستهديـه ونستغفره ونعوذ بـالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومـن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحـده لا شريك لـه، وأشهـد أن محمـدا عبـده ورسـولـه» الحديث بتمامه رواه الإمـام أحمد وأهل السنن وغيرهم. اهـ ومعنى قولـه تبارك وتعالى: ﴿ولقد ذرأنـا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعـون بها﴾ أي ولقـد هيأنـا للنـار خلقـا كثيرا من الجن والإنس لم ينتفعوا بما أعطـاهم الله عـز وجل من أدوات الاستبصار والهداية والاعتبار، فانطمست بصائر قلوبهم فلم يفقهوا آيات الله التي أقامهـا للدلالة عليه، ولم يعقلوا الحجج والبراهين التـي جعلها الله عز وجل في الآفاق وفي أنفسهم، كما أنهم قد عميت أبصـارهم فلم يستفيدوا مما يشاهدونـه من الآيات والبراهين الثابتة والمتجـددة، وكذلك لم يسمعوا داعي الحق عندمـا يناديهم إلى ما فيـه سعادتهم في العاجلـة والآجلة، ولا شك أن القلب يطلق على قطعـة اللحم الصنـوبـريـة الشكل الموضـوعـة في تجويف الصـدر كما يطلق القلب على اللطيفة الـربانيـة التي تقوم بـالقلب اللحمي

الصنوبـري الشكل والتي بها يحصل الإدراك والعقل والفهم وتـرتسم بسببها العلـوم والمعـارف، وهي البصر الحقيقي للقلب اللحمي وهي التي تميـز بها الإنســان عن البهائم الأليفـة والوحشيـة فإذا علم الله من العبد طلبـا للحق استعملـه في طـاعتـه فاستنـارت بصيرة قلبـه، وإذا علم منـه بغضـا للحق خذله، وإذا خذله عميت بصيرتـه، كما أن العين تطلق على الجارحة المعروفة التي جعل الله عـز وجل لـلإنســان منها اثنتين في وجهـه وركب كلَّ واحـدة منهما في حجاجهـا وجهزها بأدوات الإبصار مـن القرنية والعدسـة والشبكية والأعصـاب والمجاري، وهي بهذه المثـابة مـوجـودة في جميع الناس مـؤمنهم وكافرهم، كما أنها موجودة في البهائم الـوحشية والأليفة، وقد تفضل الله عز وجل فأودع في العين الحسيـة لطيفـة ربـانيــة، فإذا علم الله من العبـد خيرا واستعمله في طاعتـه انتفع بهذه اللطيفة الربانية ففـرق بها بين مشاهد الحق ومشاهد الباطل، وإذا علم الله من العبد شرا خذلـه، فصار يرى الرشد غيا والغي رشـدا كما قال عز وجـل: ﴿وإن يروا سبيل الـرشد لا يتخـذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخـذوه سبيلا﴾ كما تطلق الأذن على الجارحة المعـروفة وهي كذلك موجودة في الحيوانات الأليفة والوحشية، وقد أودع الله عز وجل في أذن الإنسان لطيفـة ربانية تفـرق بين ما تسمعه من الخير ومـا تسمعه من الشر، فإذا خذل الله العبد حرم من فوائد هذه اللطيفة فلا يسمع صوت الحق ولا يستفيد منه، وهذه اللطائف التي جعلها الله عز وجل في القلوب والأعين والآذان هي الثمـرات الحقيقيـة للقلـوب والأعين والآذان فإذا حُـرِم العبـد الاستفادة منها، صارت هذه الجوارح جوارح بهيمية محضة، ولذلك قال الله عز وجل في هـؤلاء الذين لم يستفيدوا من قلـوبهم وأعينهم وآذانهم ولم يهتدوا بها إلى مـا يقربهم إلى الجنـة ويباعـدهم عن النـار: ﴿أولَئك كالأنعـام﴾ ولما كانت الأنعام قـد استفادت من جوارحها فلا ترعى النبـات الذي يضرها ولا

تُقْبِل إلا على ما ينفعها ، وصف الله عز وجل هـؤلاء بأنهم أضل من الأنعام حيث قال : ﴿بل هم أضلُّ﴾ ووصفهم كذلك بأنهم شر الدواب حيث قال : ﴿إنَّ شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله عز وجل : ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس﴾ قال : يقول تعالى : ﴿ولقد ذرأنا لجهنم﴾ أي خلقنا وجعلنا لجهنم ﴿كثيرا من الجن والإنس﴾ أي هيأناهم لها ، وبعمل أهلها يعملون فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم ، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، كما ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء . اهـ وقال ابن جرير رحمه الله : وقوله : ﴿أولَئك هم الغافلون﴾ يقول تعالى ذكره : هؤلاء الذين وصفت صفتهم القوم الذين غفلوا يعني سهوا عن آياتي وحججي وتركوا تدبرها والاعتبار بها والاستدلال على ما دلت عليه من توحيد ربها ، لا البهائم التي قد عرَّفها ربها ما سخرها له . اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يُلْحِدُون في أسمائه ، سَيُجْزَوْنَ ما كانوا يعملون﴾ قال أبو السعود العمادي في قوله تعالى : ﴿ولله الأسماء الحسنى﴾ تنبيه للمؤمنين على كيفية ذكره تعالى وكيفية المعاملة مع المُخِلِّين بذلك الغافلين عنه سبحانه عما يليق به من الأمور وما لا يليق به إثر بيان غفلتهم التامة وضلالتهم الطامة ، والحسنى تأنيث الأحسن أي الأسماء التي هي أحسن الأسماء وأجلُّها لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها . اهـ ومعنى الآية الكريمة : أي ولله أكرم الأسماء وأجلها وأحسنها وهي خاصة به عز وجل فاسألوه عز وجل بها وتوسلوا إلى الله تعالى بذكرها ، واعبدوه ونادوه بها ، وسَمُّوه بها ، وهو وحده أعلم بأسمائه وصفاته فلا تسموه

إلا بما سمى به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ وكل أسمائه حسنى وكل صفاته عُلَى ومَهِّلوا الذين يلحدون في أسمائه فيسمونه بغير ما سمَّى به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ من الملحدين المشركين والمعطلين والمشبهين والمؤولين والممثلين والمحرفين والمكيفين، واتركوهم إلى أجل هم بالغوه وسوف يجزون بما كانوا يفترونه على الله وبما كانوا يعملونه من المعاصي والسيئات، وقد تفضل الله تبارك وتعالى على أهل السنة والجماعة فأثبتوا لله ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء الحسنى والصفات العُلَى من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تحريف ولا تكييف ولا تعطيل ولا تأويل فإنه عز وجل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وقد سمى الله عز وجل نفسه حفيظا عليما، وسمى بعض عباده حفيظا عليما وليس الحفيظ العليم الذي سمى الله بهما نفسه كالحفيظ العليم الذي سمى الله بهما بعض عباده، ولذلك قال الخضر لموسى عليه السلام لما ركبا السفينة ووقع عصفورٌ على حرف السفينة فغمس منقاره في البحر: يا موسى ما علمك وعلمي وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفورُ منقاره كما جاء في صحيح البخاري من حديث أبي بن كعب، فأسماء الله وصفاته لا تليق إلا به، وأسماء العباد وصفاتهم لا تليق إلا بهم، وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن لله تسعة وتسعين اسما، مائة إلاّ واحدا، من أحصاها دخل الجنة. قال النووي: اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه فليس معناه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين، وإنما مقصود الحديث أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبارُ بحصر الأسماء، ولهذا جاء في الحديث: أسألك بكل اسم سميت به نفسك أو استأثرت به في علم الغيب عندك. اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: ثم ليعلم أن الأسماء

الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين بـدليل ما رواه الإمـام أحمد في مسنده عن يزيد بن هارون عن فضيل بـن مرزوق عن أبي سلمة الجهني عن القاسم ابن عبد الـرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنـه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحـداً قط همٌّ ولا حزنٌ فقال: اللهم إني عبدك ابن عبـدك ابن أمتك نـاصيتـي بيـدك، مـاضٍ فيَّ حكمك، عَـدْلٌ فيَّ قضـاؤك أسألك بكل اسم هـو لك سَمَّيْتَ بـه نفسك أو أنزلتـه في كتابك أو علمتـه أحـدا من خلقك أو استـأثـرت بـه في علم الغيب عنـدك أن تجعل القـرآن العظيم ربيع قلبي ونـور صـدري وجلاء حـزني وذهـاب همي إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبـدل مكانه فرحـا». فقيل: يا رسول الله أفـلا نتعلمها؟ فقال: «بلى ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمهـا». وقد أخرجه الإمام أبـو حاتم بن حبان البستـي في صحيحه بمثله. اهــ وقد صحح هـذا الحديث ابن القيم وغيره، وأصل الإلحاد في كلام العرب: العـدول عن الصراط المستقيم. وقال الزجـاج رحمه الله: وقولـه: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعـوه بها﴾ لا ينبغي أن يدعـوه أحد بما لم يصف نفسه بـه أو لم يسم به نفسـه، فيقول في الدعـاء: يا الله، يا رحمــن، يا جَـوَادُ ولا ينبغي أن يقول يـا سبحان لأنـه لم يصف نفسه بهذه اللفظـة، وتقول يـا رحيم ولا تقـول: يـا رفيق، وتقـول: يا قـوي، ولا تقـول: يـا جلـدُ. اهـ ولله المثـل الأعلى في السموات والأرض وهـو العـزيـز الحكيم. وقد وصف الله تبارك وتعـالى أسماءه بأنها الحسنى في هذا المقام وفي آخر سورة الإسراء وفي أول سورة طه وفي آخر سورة الحشر حيث قال عز وجل في أواخر سـورة الإسراء: ﴿قل ادعـوا الله أو ادعوا الـرحمن أيًّا مـا تدعـوا فله الأسماء الحسنى﴾ وقال عـز وجل في أوائل سورة طه: ﴿الله لا إلَه إلا هـو له الأسماء الحسنى﴾ وقال في آخر سورة الحشر: ﴿هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى﴾.

قال تعالى: ﴿ وممن خلقنـا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون * والـذين كذبوا بئاياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملي لهم، إن كيدى متين* أو لم يتفكروا، مـا بصاحبهـم من جِنَّة، إن هـو إلا نذيـرٌ مبينٌ* أو لم ينظروا فى ملكـوت السموات والأرض ومـا خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قـد اقترب أجلهم فبأي حـديث بعده يـؤمنون* من يضلل الله فـلا هادي لـه، ويذرهم في طغيـانهم يعمهون* يسئلونك عن السـاعة أيان مرسـاها قل إنما علمهـا عند ربي لا يجليهـا لـوقتهـا إلا هو ثقلت في السمٰوات والأرض، لا تأتيكم إلا بغتـة يسـئلونك كأنك حفي عنها قـل إنما علمها عنـد الله ولٰكن أكثر النـاس لا يعلمون* قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرًّا إلا مـا شاء الله، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء، إن أنا إلا نذير وبشيرٌ لقوم يؤمنون﴾.

بعـد أن رغَّب الله تبـارك وتعـالى عباده وحـرَّضهم على أن يتضرعـوا إليـه ويسألـوه الهدايـة والتوفيق إلى سلـوك الصراط المستقيم وبعـد تعـريفهم بأن الهداية بيد الله وحده وتحذيرهم من سلوك طريق الضالين الخاسرين فإن من سلكهـا كان حـريا بـأن يكون في عـداد أهل جهنم التي ذرأ الله لها كثيرا من الجن والإنس الـذين انطمست بصـائرهـم وعميت أعينهم وصمت آذانهم فصـاروا كالأنعـام بل هم أضل، وأرشـد عباده إلى أن يتـوسلوا إليـه بأسمائه الحسنى، وأن يهجروا الـذين يلحدون في أسمائه ويعرضـون أنفسهم للعذاب الأليم، شرع هنـا في زيادة تثبيت فـؤاد رسـول الله ﷺ وأفئدة المؤمنين ببيـان حال جماعة من خلقه قد سلك الله عز وجل بهم صراطه المستقيم فهم بعمل أهل الجنـة يعملـون، حيث يهدون النـاس بالحق، ويـدُلُّـونهم على الصراط المستقيم، ويقيمون العدل بين النـاس، وحذر تبارك وتعالى الـذين يكذبون

بآيـات الله التي بعث بها محمدا ﷺ الذين يسلكون طـريق من ذرأهم الله عز وجل لجهنم، بأنـه سيعاقبهم بعقـوبة الاستدراج والإمـلاء لهم من حيث لا يشعرون، وقد جـاء ذلك على النهج القرآني في الترغيب والترهيب، ثم لفت انتبـاه المكذبين الجاحـدين إلى إعادة النظـر وإعمال الفكر في شأن الصـادق المصدوق أكمل خلق الله عقلا وصدقا وقد كـانوا قبل بعثته يلقبونه بالصادق الأمين ﷺ، وطلب منهم كـذلك النظـر والتفكـر في ملكـوت السمـوات والأرض وسـائر ما يشـاهدونـه من خلق الله وأن يعلموا أن أعمارهم بيـد الله لعلهم يرجعون إلى الله ويطلبون منه عز وجل هدايتهم إلى سواء السبيل حتى لا يخذلـوا فينغمسوا في ضـلالهم وطغيـاهم، والسـاعة آتيـة لا ريب فيهـا، وعلمهـا عنـد الله وحده، وليس بيـد محمـد ﷺ نفع العبـاد أو ضرهم، ولا يملك ذلك إلا الله عز وجل وفي ذلك يقول: ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعـدلون﴾ إلى قولـه عز وجل: ﴿إن أنا إلا نـذير وبشير لقوم يـؤمنون﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وممن خلقنـا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ أي وبعض من خلقنـا من الجن والإنس جماعـة كثيرة دعـاة إلى الحق سـالكـون طريق الرشد يعدلون في أحكامهـم وينصفون في معاملاتهم، وقد ذكر رسول الله ﷺ أنـه لا تزال طـائفـة من أمته ﷺ ظـاهـرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا مـن خذلهم حتى يأتي أمـر الله فقد روى البخـاري من حـديث المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ قـال: لا يزال طائفة من أمتي ظـاهرين حتى يأتيهم أمـر الله وهم ظاهـرون. ورواه مسلم في صحيحه من حـديث المغيرة قـال: سمعت رسول الله ﷺ يقـول: لن يـزال قوم مـن أمتي ظاهـرين على الناس حتى يـأتيهم أمر الله وهم ظـاهرون. كما روى البخاري من حـديث معـاوية بن أبي سفيـان قال: سمعت النبي ﷺ يقـول: من يرد الله بـه خيرا يفقهـه في الـدين، وإنما أنـا قاسم ويعطـي الله، ولن يزال أمـر هـذه الأمـة

مستقيما حتى تقوم الساعة أو حتى يأتي أمر الله . ولفظ مسلم من حديث معاوية قال : قال رسول الله ﷺ : من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة وفي لفظ لمسلم من حديث معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس . وقد بشر الله تبارك وتعالى الذين يقيمون العدل بين الناس بأنه عز وجل يحبهم حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين﴾ . ويقول عز وجل : ﴿فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعَدْل وأقسطوا إنَّ الله يحب المقسطين﴾ . كما بشر رسول الله ﷺ الذين يعدلون بين الناس بأن الله عز وجل يجعلهم على منابر من نور يوم القيامة فقد روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمينٌ : الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا . وقوله تبارك وتعالى : ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملي لهم ، إن كيدي متين﴾ ترهيب شديد من التكذيب بآيات الله ، ووعيد لهؤلاء المكذبين بألوان من عقوبات الله لهم في الدنيا والآخرة ، حيث يستدرجهم بالنعمة فيغترون ولا يشكرون ويمهلهم فيظنون أن الإمهال إهمال ، ثم تحيط بهم معاصيهم بعد أن يستغرقوا في الترف والملذات والمعاصي فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر وهم لأهونَ غافلون لا يدرون ما يدبر لهم ولا ما يُكادون به ، قال ابن منظور في لسان العرب : ودَرَّجهُ إلى كذا واستدرجه بمعنًى ، أي أدناه منه على التدريج ، فتَدَرَّج هو ، وفي التنزيل العزيز: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ قال بعضهم : معناه : سنأخذهم قليلا قليلا ولا نباغتهم . وقيل :

معناه: سنأخـذهم من حيث لا يحتسبون. وذلك أن الله تعـالى يفتح عليهم من النعيم مـا يغتبطون بـه فيركنون إليـه، ويأنسـون به فـلا يذكـرون الموت، فيأخذهم على غرَّتهم أغفل ما كانوا ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما حُمِل إليـه كنـوز كسرى: اللهم إني أعـوذ بك أن أكـون مُسْتَـدْرَجًـا فإني أسمعك تقول: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾. اهـ ومعنى قوله عز وجل ﴿وأملي لهم﴾ أي أمهلهم وأُطوِّلُ لهم كما قـال عز وجل: ﴿ولا يَحْسَبَنَّ الـذين كفـروا أنما نُملي لهم خير لأنفسهم، إنما نملي لهم ليـزدادوا إثما، ولهم عـذاب مهين﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿فلما نَسُوا مـا ذُكِّـروا به فتحنـا عليهم أبواب كـل شيء حتى إذا فرحـوا بما أُوتُوا أخذنـاهم بغتة فإذا هـم مبلسون﴾ فقُطِعَ دابِرُ القوم الذين ظلموا، والحمـد لله رب العالمين﴾. ومعنى قوله عز وجل: ﴿إن كيدي متين﴾ أي إن تدبيري قـوي شديد وقولـه تبارك وتعالى: ﴿أو لم يتفكـروا، ما بصـاحبهم من جِنَّـة، إنْ هو إلا نـذير مبين﴾ قـال ابن جرير رحمه الله: قـال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: أو لم يتفكـر هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا فيتدبروا بعقـولهم ويعلموا أن رسولنا الذي أرسلناه إليهم لا جِنَّة به ولا خَبَل وأن الذي دعاهم إليـه هو الدين الصحيح القويم والحق المبين. ثم قال رحمه الله: ويعني بقـوله: ﴿إن هـو إلا نذير مبين﴾ مـا هو إلا نـذير ينذركـم عقاب الله على كفركـم به إن لم تنيبـوا إلى الإيمان به، ويعني بقـوله: ﴿مبين﴾ قد أبان لكم أيها الناس إنذاره ما أنذركم به من بأس الله على كفركم بـه. اهـ ولا شك أن كفـار قـريش كانـوا مـوقنين بأن محمدا ﷺ هـو أعظم الناس عقـلا وأمانة وصـدقا، لكنهم كانـوا لجحودهم يسارعـون إلى وصفه بأمور يعلمـون أنه أبعـد الناس عنها حتـى قالوا: معلَّمٌ مجنـون، ولو تـدبروا لأيقنوا أن المجنون لا يقبـل التعليم، ولذلك أمر الله تبارك وتعـالى نبيه محمدا ﷺ أن يطلب منهم أن يقومـوا قيامـا خالصا للـه لا تعصب فيه اثنين اثنين

وواحدا واحـدا ثم يتفكروا في هذا الـذي جاءهم به رسـول الله محمد ﷺ من عند ربه ، أبـه جنون أم لا، لأنهم إن فعلوا ذلك ظهر لهم أنـه رسول الله حقا وصدقا ، حيث يقول عز وجل : ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ، ما بصاحبكم من جنـة ، إن هو إلا نذير لكم بين يَدَيْ عـذاب شديـد﴾ وقولـه تبـارك وتعالى : ﴿أولم ينظـروا في ملكوت السمٰوات والأرض ومـا خلق الله من شيء وأن عسى أن يكـون قـد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ قال الزجاج : أي ألم يستدلوا بما أنبأهم به من ملكوت السمـوات والأرض ﴿وأن عسى أن يكـون قد اقترب أجلهم﴾ أي إن كـانـوا يُسَوِّفون بـالتوبة فعسى أن يكون قـد اقترب أجلهـم ، فالمعنى : أولم ينظروا فيما دلهم الله جل ثنـاؤه على توحيـده فكفـروا بـذلك فلعلهم قد قـربت آجـالهم فيموتـون على الكفر . اهـ وقـال ابن جريـر رحمه الله : قال أبو جعفـر يقول تعالى ذكـره : أو لم ينظر هـؤلاء المكذبون بـآيات الله في ملك الله وسلطـانه في السمـوات وفي الأرض وفيما خلق جل ثنـاؤه من شيء فيهما ، فيتـدبـروا ذلك ويعتبروا بـه ويعلمـوا أن ذلك لمن لا نظير لـه ولا شبيـه ، ومِنْ فِعْل من لا ينبغي أن تكون العبـادة والدين الخالص إلا لـه فيؤمنوا بـه ويصدقوا رسـوله وينيبـوا إلى طاعتـه ويخلعـوا الأنداد والأوثـان ويحذروا أن تكـون آجالهم قـد اقتربت فيهلكوا على كفـرهم ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقـابه ، وقـوله : ﴿فبأي حـديث بعده يـؤمنون﴾ يقول : فبأي تخويـف وتحذير وترهيـب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه الذي أتاهم بـه من عند الله في آي كتابه يصدقون إن لم يصدقـوا بهذا الكتاب الذي جاءهم بـه محمد ﷺ من عند الله تعـالى . اهـ وقولـه تبارك وتعالى : ﴿من يضلل الله فـلا هادي له ، ويـذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ . تأكيد على أن من خذله الله فـلا هادي له ، ويذره الله عز وجل مستغـرقـا في كفـره عامهًـا متحيرا ، كما قـال عـز وجل : ﴿من يهد الله فهـو

المهتدي ومن يضلل فأولَئك هم الخاسرون﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو، ثَقُلَتْ في السمٰوات والأرض، لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حَفِيٌّ عنها قل إنما علمها عند الله ولَكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي يسألك الكافرون عن القيامة استبعادا لوقوعها وتكذيبا بوجودها قائلين لك ﴿أيان مرساها﴾ أي متى وقوعها وقيامها ومجيئها ومحطها؟ ومعنى: ﴿قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء السائلين عن الساعة: إنما علمها عند الله وحده فإنه هو الذي يجليها لوقتها أي يعلم جلية أمرها ومتى يكون على التحديد ومعنى قوله: ﴿ثقلت في السمٰوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة﴾ أي ثقل علمها على أهل السموات والأرض حيث يبغتهم قيامها، وقوله: ﴿يسألونك كأنك حفيٌّ عنها﴾ أي يسألونك كأنك غير عالم بأن الله قد استأثر بعلمها وأنك تلحف في السؤال عنها، وذلك من شدة جهلهم والمبالغة في تكذيبهم، ولذلك أكد الله تبارك وتعالى ذلك فقال: ﴿قل إنما علمها عند الله ولَكن أكثر الناس لا يعلمون﴾. أي ولكن أكثر الناس وهم الجاهلون لا يعلمون أن الله قد استأثر بعلمها، وأن أمر الساعة كلمح البصر أو هو أقرب. وقوله عز وجل: ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله﴾ الآية تقرير لحقيقة رسول الله ﷺ ووظيفته بأنه عبد الله ورسوله لا يقدر على جلب نفع لنفسه ولا لغيره ولا يقدر على دفع ضر عن نفسه أو عن غيره إلا بمشيئة الله فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا يعلم الغيب، لأن عالم الغيب والشهادة هو رب العالمين، كما قال عز وجل: ﴿عالم الغيب فلا يُظْهِرُ على غيبه أحدا * إلا مَن ارتضى مِن رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رَصَدا * ليعلمَ أنْ قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا﴾ وأنه ليس على رسول الله إلا البلاغ المبين لإنذار

من عصاه بالنـار وبشارة من أطاعه بالجنـة ولا ينتفع بذلك إلا المؤمنون وإن تعجب فعجب للـذين يـدْعُون أصحـاب القبـور والأضرحة ويسألـونهم أن يجلبـوا لهم نفعا أو يـدفعوا عنهم ضرًا وهم يقـرؤون هذه الآيـة في حق أفضل الخلق محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين * فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما، فتعالى الله عما يشركون * أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون* ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون * وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم، سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون * إن الذين تدعون من دون الله عبادٌ أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين * أَلَهم أرجلٌ يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعينٌ يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها، قلِ ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون * إن وَلِيِّيَ الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾.

بعد أن ذكر عز وجل حال جماعة من خلقه قد سلك بهم صراطه المستقيم فوفقهم لعمل أهل الجنة، وحذَّر الذين يكذبون بآيات الله التي بعث بها محمدا ﷺ الذين يسلكون طريق من ذرأهم الله عز وجل لجهنم، ونبههم إلى بعض العقوبات التي سيعاقبهم بها من الاستدراج والإملاء لهم من حيث لا يشعرون، ولفت انتباه المكذبين إلى إعادة النظر وإعمال الفكر في شأن الصادق المصدوق محمد ﷺ وطلب منهم كذلك النظر والتفكر في ملكوت السموات والأرض وجميع ما خلق الله، ونبههم إلى أن أعمارهم بيد الله وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن علم وقت مجيئها عند الله وحده، وليس بيد محمد ﷺ نفع العباد أو ضرهم وأنه لا يملك ذلك إلا الله وحده، شرع هنا في توبيخ المشركين من قريش وغيرهم على إشراكهم بالله وكفرهم بمن خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها، وندَّد بمن يعبد ما لا يضره ولا ينفعه، ولا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه، ولا يعقل دعاء

من دعاه، وأمر نبيه محمدا ﷺ أن يتحدى المشركين وأصنامهم بأنه ﷺ لا يعبأ بهم، وأنهم مهما بالغوا في الكيد له فلن يطفئوا نور الله، وفي ذلك يقول: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قل ادعوا شركاءكم ثُم كِيدونِ فلا تُنْظِرون* إن وَلِيِّيَ اللهُ الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين*﴾ والمراد بالنفس الواحدة آدم أبو البشر عليه السلام، ووصْفُ النفس بأنها واحدة تنبيه على كمال علم الله وقدرته حيث أنشأ من هذه النفس الواحدة ما لا يحصي عدده إلا الله من الأنفس المختلفة الألوان والأشكال والألسنة مهما طالت الأعصار وتباعدت الديار كما أشار الله إلى ذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون * ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذٰلك لآيات لقوم يتفكرون* ومن آياته خَلْقُ السمٰوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذٰلك لآيات للعالِمين﴾ ومعنى ﴿وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ أي وخلق لآدم حواء زوجةً له ليستأنس بها وقد جعلها من جنسه، وأشار رسول الله ﷺ إلى أن الله تبارك وتعالى قد خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم عليه السلام فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: استوصوا بالنساء خيرا فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج ما في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء. ومعنى قوله: ﴿فلما تَغَشّاها حَمَلَتْ حَمْلا خفيفا فمَرَّتْ به﴾ أي فلما واقع الزوج زوجته حملت من نطفة الزوج حملا خفيفا لا ثقل له في البطن فصارت تذهب وتجيء لخفة حملها وسهولته ومعنى: ﴿فلما أثقلت﴾ أي فلما كبر بطنها وثقل عليها حملها، واقترب وقت الولادة، وقوله: ﴿دَعَوَا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين * فلما آتاهما صالحا

جعلا له شركاء فيما آتاهما، فتعالى الله عما يشركون﴾ أي سأل الزوجان ربهما وتضرعا إليه أن يرزقهما ولدا صالحا ليشكراه تبارك وتعالى، فلما تفضل الله عليهما بالولد الصالح لم يقوما بشكر نعمة الله بل جعلا لله شركاء وعَبَدَا غيره، فتنزه الله وتعالى وتقدس عن أن يكون له شريك، والمقصود من الزوجين المشركين هنا من أشرك بالله من الأزواج والزوجات من ذرية آدم، وقد تم الكلام على آدم وحواء عند قوله عز وجل: ﴿ليسكن إليها﴾ مع الإشارة فيه إلى نعمة الله التي أنعم بها على آدم وذريته، أما قوله: ﴿فلما تَغَشّاها حَمَلَتْ حَمْلا خفيفا﴾ إلى قوله: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ هو انتقال بعد ذكر آدم وزوجته واستطراد إلى ذكر الجنس والذرية، وهو أسلوب بلاغي قد ورد كثيرا في القرآن الكريم حيث يذكر الشيء ثم يستطرد إلى ذكر جنسه كما في قوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين﴾ فالمخلوق من الطين آدم، والمخلوق من النطفة بنوه وذريته وكذلك قوله تعالى: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين﴾ فالمعلوم أن رجوم الشياطين ليست هي أعيان مصابيح السماء ولكنه استطراد من شخصها إلى جنسها. أما ما رواه أحمد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عبد الصمد بن عبد الوارث عن عمر ابن إبراهيم عن قتادة عن الحسن البصري عن سمرة عن النبي ﷺ قال: لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال: سميه عبد الحارث فإنه يعيش فسمته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره. وقال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر ابن إبراهيم ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه، قال ابن كثير في تاريخه: فهذه علة قادحة في الحديث أنه روي موقوفا على الصحابي، وهذا أشبه، والظاهر أنه تلقاه من الإسرائيليات، وهكذا روي موقوفا عن ابن

عباس ، والظاهر أن هذا متلقى عن كعب الأحبار وذويه ، والله أعلم وقد فسر الحسن البصري هذه الآيات بخلاف هذا فلو كان عنده عن سمرة مرفوعا لما عدل عنه إلى غيره اهـ وقال ابن كثير في تاريخه أيضا : فالله تعالى إنما خلق آدم وحواء ليكونا أصل البشر وليبث منهما رجالا كثيرا ونساء فكيف كانت حواء لا يعيش لها ولد . اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه وأشار رحمه الله إلى أن العلة الأولى هي قول أبي حاتم الرازي في عمر بن إبراهيم : لا يحتج به ، والعلة الثانية أنه روي من قول سمرة نفسه ليس مرفوعا ، والعلة الثالثة : أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا فلو كان عنده عن سمرة مرفوعا لما عدل عنه . قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن عمرو عن الحسن : ﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾ قال : كان هذا في بعض أهل الملل ، ولم يكن بآدم ، وحدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر قال : قال الحسن : عنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده يعني ﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾ وحدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال : كان الحسن يقول : هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادا فَهَوَّدوا ونَصَّروا . وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك ، وهو من أحسن التفاسير وأَوْلَى ما حُمِلت عليه الآية ، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظا عن رسول الله ﷺ لما عَدَلَ عنه هو ولا غيره ، ولا سيما مع تقواه لله وورعه . اهـ وإن تعجب فعجب للذين ينسبون آدم وحواء إلى الشرك بالله ، وأن يكون أَوَّل شرك في الأرض من آدم وزوجه ، والمعروف أن الشرك الأصغر أكبر من الزنا والقتل وشرب الخمر والسرقة مع أن المعروف الثابت أنه لم يقع شرك في الأرض إلا في أمة نوح عليه السلام ولا شك أن قوله عز وجل في صلب الآية : ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ دليل ظاهر على أنه ليس المراد آدم وحواء إذ لو

كان المراد آدم وحواء لقال: فتعالى الله عما يشركـان. والآية ظاهرة في أن المراد بـالشرك هنا مـا يعم الشرك الأصغـر والأكبر ولذلك زاد في تـوبيخ المشركين والتنـديد بهم حيث قـال: ﴿أيشركـون ما لا يَخْلُـقُ شيئا وهم يُخْلَقـون * ولا يستطيعــون لهم نصرا ولا أنفسَهم يَنْصرون﴾ وهـــذا ولا شك يشمل الشرك الأكبر والشرك الأصغر، قال شيخ الإسلام ابـن تيمية رحمه الله: وكذلك ذكر الله سبحانه على لسان محمد في الشرك عموما وخصوصا فقال: ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقـون * ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون * وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سـواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون * إن الذين تدعون من دون الله عبادٌ أمثـالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صـادقين * ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيـد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعـون بها قل ادعــوا شركـاءكم ثم كيــدونِ فـلا تُنْظِرون﴾ واستفهم استفهـام إنكار وجحود لطرق الإدراك التـام وهو السمع والبصر، والعمل التام وهو اليد والرجل كما أنه سبحانه لما أخبر فيما روى عنه رسوله عن أحبـابه المتقربين إليه بالنوافل، فقـال: ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتـه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التـي يمشي بها. اهـ هذا وقد ضعف ابن العربي في تفسيره الحديث الذي يجعل هذا الشرك قد وقع من آدم وحواء حيث قال: وذلك مذكور ونحوه في ضعيف الحديث في الترمذي وغيره، وفي الإسرائيليـات كثير ليس لها ثبـات، ولا يعوِّل عليهـا من لـه قلب، فإن آدم وحواء ـ وإن كان غرهما بالله الغرور ـــ فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، وما كانا بعد ذلك ليقبلا منه نصحا ولا يسمعا منه قولا. ثم بين رحمه الله أن المراد بهذا جنس الآدميين فإن حالهم في الحمل وخفته وثقلـه إلى صفة واحدة، إذا خفَّ عليهم الحمل استمروا به، فإذا ثقل عليهم نذروا كل نذر فيه، فإذا ولد

لهم ذلك الولـد جعلوا فيه لغير الله شركاء في تسميتـه وعمله، حتى إن منهم من ينسبه إلى الأصنـام ويجعله لغير الله وعلى غير دين الإسلام، وهـذا القول أشبه بالحق وأقرب إلى الصدق، وهو ظاهر الآية وعمومها الذي يشمل جميع متنـاولاتها، ويَسْلَمُ فيهـا الأنبياء عن النقص الـذي لا يليق بجُهَّـال البشر، فكيف بسـادتهم وأنبيائهم. اهـ. ومعنى قـوله عـز وجل: ﴿أيشركون مـا لا يخلق شيئا وهـم يخلقون﴾ أي أيعبدون مع الله أنـداداً وأصنامـا وأوثانـا ما لا يقدر على خلق ذبابة وهذه الأصنام وعابدوها مصنوعون مخلوقون بل بعض عابديها أقدر على الحركة منها، وقد يكـون العابد هو الصانع لمعبوده كما قال خليل الرحمن إبـراهيم عليه السلام: ﴿أتعبدون مـا تنحتون﴾ وقد ضرب الله تبارك وتعالى مثلا لعجز هذه الأصنام حيث قال: ﴿يا أيها الناس ضُرِبَ مثل فاستمعوا له، إن الـذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابـا ولو اجتمعوا له وإن يَسْلُبْهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه، ضعُفَ الطالب والمطلوب * ما قَدَرُوا الله حق قَدْره، إن الله لقوي عزيـز﴾ ولهذا قال عز وجل في هذا المقام: ﴿ولا يستطيعـون لهم نصرا ولا أنفسهـم ينصرون﴾ أي لا يقـدرون على نصر عابديهم ولا يستطيعون نصر أنفسهم ممن أرادهم بسوء، فهل يليق بعاقل أن يذل ويعبـد من لا يملك له ولا لغيره نفعـا ولا ضرا، ولا يستطيع أن يحمي نفسـه ممن أراده بسوء؟ قـال ابن كثير رحمه الله: وقولـه: ﴿وإن تدعـوهم إلى الهدى لا يتبعوكم﴾ الآية، يعني أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها، كما قال إبراهيم: ﴿يا أبت لِمَ تعبدُ ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا﴾ ثم ذكـر تعالى أنها عبيد مثل عـابديها أي مخلـوقـات مثلهم بل الأنـاس أكمل منهـا لأنها تسمع وتبصر وتبطش، وتلك لا تفعل شيئـا من ذلك، وقـولـه: ﴿قل ادعـوا شركـاءكم﴾ الآيـة أي استنصروا بها عليَّ فلا تـؤخروني طـرفة عين واجهدوا جهـدكم ﴿إن وليِّيَ اللهُ

الـذي نـزَّل الكتـاب وهو يتـولى الصـالحين﴾ أي الله حسبي وكـافيني وهـو نصيري، وعليه مُتَّكَلي، وإليـه ألجأ، وهو وَليِّي في الدنيا والآخـرة، وهو وليّ كل صالح بعـدي، وهذا كما قال هـود عليه السـلام لما قال له قـومه: ﴿إن نقول إلا اعتراك بعـض آلهتنا بسـوء قال إني أُشْهِـدُ اللهَ واشهدوا أني بـريء مما تشركون * من دونـه فكيدوني جميعا ثم لا تنظـرون * إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾ . اهـ

قال تعالى: ﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون * وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون * خذ العفو وأمر بالعُرْف وأعرض عن الجاهلين* وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليمٌ * إن الذين اتقوا إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ .

بعد أن وبخ الله المشركين من قريش وغيرهم على إشراكهم بالله، وكفرهم بمن خلقهم من نفس واحدة، وندد بمن يعبد ما لا يملك له نفعا ولا ضرا، ولا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه، ولا يعقل دعاء من دعاه، وأمر نبيه محمدا ﷺ أن يتحدى المشركين وأصنامهم بأنه ﷺ لا يعبأ بهم، وأنهم مهما بالغوا في الكيد له والمكر به فلن يطفئوا نور الله الذي بعثه به، وأن ينبههم إلى أن الله ناصره عليهم لأنه عز وجل وليُّه القادر على الانتصار لأوليائه الصالحين، شرع هنا في توكيد عدم مبالاة رسول الله ﷺ بالمشركين وآلهتهم وأنهم مهما كادوا له فلن يتمكنوا منه لأنه في رعاية وليه فاطر السموات والأرض الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، فمن نصره الله فهو المنصور ومن خذله الله فهو المخذول المقهور كما قال الشاعر:

وإذا العناية لاحظتك عيونها نَمْ فالمخاوف كلهن أمان

وأكد للمشركين أن أصنامهم أعجز من أن تهدى ضالا، لأنها لا تسمع ولا تبصر ثم أمر نبيه محمدا ﷺ وأتباعه بأن يحسنوا إلى من أساء إليهم، وأن يصبروا على ما يلقونه من أذى أعدائهم، وأن يأمروا بالمعروف، وأن يعرضوا عن الجاهلين، وأن يستعيذوا بالله من نزغات الشياطين، ووصف المؤمنين بأنهم سريعو العودة إلى طاعة الرحمن إن أصابهم طيفٌ من الشيطان، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا

أنفسهم ينصرون﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مُبصرون﴾ وقوله عز وجل: ﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: وهذا أيضا أمر من الله جل ثناؤه لنبيه أن يقوله للمشركين، يقول له تعالى ذكره: قل لهم: إن الله نصيري وظهيري، والذين تدعون أنتم أيها المشركون من دون الله من الآلهة لا يستطيعون نصركم، ولا هم مع عجزهم عن نصرتكم يقدرون على نصرة أنفسهم، فأيُّ هذين أولى بالعبادة وأحق بالألوهة؟ أمَنْ ينصر وليَّه ويمنع نفسه ممن أراده أم من لا يستطيع نصر وليَّه، ويعجز عن منع نفسه ممن أراده وبغاه بمكروه؟ . اهـ وقوله عز وجل: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ تأكيد على أن المشركين قد خلت آذانهم اللحمية من اللطيفة الربانية التي تفرق بها الأذن بين ما تسمع من الخير وما تسمع من الشر، فهم مهما دعاهم دعاة الخير إلى ما فيه الخير لهم في الدنيا والآخرة فإنهم لا يسمعون كما قال عز وجل﴿ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ كما تقدم قريبا، كما أنهم قد خلت أعينهم من اللطيفة الربانية التي تفرق بها العين بين مشاهد الحق ومشاهد الباطل، فمهما رأوا من آيات الله فإنهم لا يستفيدون منها، كأنهم خشبٌ مسندة كما قال عز وجل: ﴿ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ فمن رآهم ينظرون إليه يحسب أنهم قد سلمت أعينهم، والواقع أنهم عُمْيٌ عما فيه نجاتهم وفلاحهم، كما قال عز وجل: ﴿أم تحسبُ أنَّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ فآلة السمع والبصر موجودة فيهم ولكنهم حُرِموا المقصود الأصلي منها الموصل إلى جنات النعيم، ومن نظر إلى البهائم وهي تنظر إليه وهو من ذوي الفكر أيقن أن

نظرها إليه ليس نظر تَفَكُّر وتَعَقُّل، مع أن هذه البهائم إذا نَظَرَتْ إلى ما تحتاجه من الطعام أو الشراب أقبلت إليه، وإذا نظرت إلى ما يؤذيها هربت منه أو حاولت افتراسه، وقوله تبارك وتعالى: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله، إنه سميع عليم﴾ هذا المقام الكريم في التربية والتعليم ورسم أحسن مناهج السلوك لا نظير له في غير القرآن الكريم، ولا نظير له في القرآن الكريم إلا في مقامين آخرين أحدهما في سورة المؤمنون حيث يقول عز وجل: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون * وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ وثانيهما في سورة حم السجدة حيث يقول عز وجل: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم* وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾ ولا شك أن الإنسان إذا قابل إساءة المسيء بالإحسان إليه دفع كثيرا من شره، ولذلك قيل: الإنسان أسير الإحسان، فهذه الحيلة والمجاملة تجدي مع شياطين الإنس، لكنها لما كانت لا تجدي مع شياطين الجن ولا تنفع معهم حيلة لأنه لا هَمَّ لهم غير إهلاك الإنسان ودماره بالكلية لتمكن العداوة بين الشيطان والإنسان من لدن آدم وإلى أن تقوم القيامة لذلك أرشد الله تبارك وتعالى عباده إلى الاستعاذة بالله السميع العليم من نزغ الشيطان وهمزه ولمزه فإنه عز وجل هو وحده القادر على دفع شره، والمراد بالعفو في قوله عز وجل: ﴿خذ العفو وأمر بالعُرْف وأعرض عن الجاهلين﴾ معاملة الناس بالإحسان وترك التشدد معهم في كل ما يتعلق بالحقوق المالية والتخلق بالخلق الطيب وترك الغلظة والفظاظة التي أشار الله عز وجل إليها في قوله تبارك وتعالى: ﴿فبما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم ولو كنتَ

فَظًّا غليظَ القلب لانْفَضُّـوا من حولك فاعفُ عنهم واستغفـر لهم وشاوِرْهم في الأمر﴾ والمراد بالعُرْفِ المعروف، والمراد بالإعراض عن الجاهلين هو الصبر على أذاهم كما قال عز وجل: ﴿قل للـذين آمنوا يغفروا للذين لايـرجون أيام الله ليجزي قومـا بما كانوا يكسبون﴾ وهذه أجمع آية في القـرآن لمكارم الأخلاق وقد قال البخاري في صحيحه: بابٌ «خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين» العرف المعروف. حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني عبيدُ الله بن عبد الله بن عتبة أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم عيينـة بن حصنٍ بن حـذيفة فنـزل على ابن أخيـه الحُرِّ بن قيس، وكـان من النفر الـذين يدنيهم عمـر، وكان القراءُ أصحـاب مجالس عمر ومشـاورته، كهولا كانوا أو شُبَّانًا، فقال عيينـة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فـاستأذن لي عليـه، قـال: سأستـأذن لك عليـه، قـال ابن عبـاس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال هِيْ يا ابن الخطاب فوالله مـا تعطينا الجَزْلَ، ولا تحكم بيننـا بالعدل، فغضـب عمر حتى همَّ أن يوقع بـه، فقال له الحرُّ: يـا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيـه ﷺ: ﴿خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين﴾ وإنَّ هذا من الجاهلين، والله ما جاوزهـا عمر حين تـلاها عليـه، وكان وقّـافاعنـد كتاب الله. حدثنـا يحيى حـدثنا وكيع عن هشـام عن أبيه عن عبـد الله بن الزبير ﴿خـذ العفو وأمـر بالعرف﴾ قال ما أنزل الله إلا في أخلاق الناس، وقال عبد الله بن برّادٍ حدثنا أبو أسامة حدثنا هشام عن أبيـه عن عبد الله بن الزبير قال: أمر الله نبيه ﷺ أن يأخـذ العفو من أخـلاق الناس، أو كما قال. اهـ والمراد بالنَّـزغ في قولـه تبارك وتعـالى: ﴿وإما ينـزغنك من الشيطـان نزغ فاستعـذ بالله، إنـه سميع عليم﴾ هو الـوسوسة والإغراء والإفسـاد والإغواء، قال ابن منظـور في لسان العـرب المحيط: النـزغ أن تنزغ بين قـوم فتَحْمِلَ بعضَهم على بعض بفسـاد

بينهم، ونزغَ بينهم ينزَغُ وينزِغُ نَـزْغاً: أغرى وأفسد وحمل بعضهم على بعض والنَّزغ: الكـلام الذي يغـري بين الناس، ونَـزَغَهُ حـرَّكه أدنـى حركـة، ونزغ الشيطـان بينهم ينزَغُ وينـزِغُ نزغـاً أي أفسد وأغـرى، وقولـه تعالى: ﴿وإمـا ينزغنَّك من الشيطـان نزغٌ فاستعـذ بالله﴾ نـزغُ الشيطانِ وساوسـه ونخسه في القلب بما يسوِّل لـلإنسان من المعـاصي، يعني يُلقي في قلبه مـا يفسده على أصحابـه وقال الـزجاج: معنـاه إن نالك من الشيطـان أدنى نزغٍ ووسـوسة وتحريكٍ يصرفك عن الاحتمال فاستعذ بالله من شره وامض على حكْمك. اهـ ومعنى: ﴿فاستعـذ بالله، إنه سميع عليـم﴾ أي فاستجر بـالله والتجئ إليه وتحصن به من نزغ الشيطان ووسوسته وإغوائه فإنه لا يدفع شره عنك إلا الله السميع العليم، وقـد روى البخاري ومسلم واللفـظ للبخاري من حـديث سليمان بن صرد رضي الله عنـه قـال: كنت جـالسـا مع النبي ﷺ ورجـلان يستبان، فأحدهما احمر وجهـه وانتفخت أوداجه فقال النبي ﷺ: إني لأعلم كلمةً لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قال أعوذ بالله من الشيطان ذهب عنه ما يجد. الحديث. وقوله تبارك وتعـالى: ﴿إن الذين اتَّقَوْا إذا مَسَّهُم طائف من الشيطان تـذكروا فإذا هم مبصرون﴾ أي إن المؤمنين الذين عرفـوا ربهم واتقوه إذا أصابهم نزغ من الشيطان تذكروا وعد الله ووعيده، فإذا هم مبصرون هدى الله فمنتهـون عما دعاهـم إليه الشيطـان ومـا أغراهـم به وراجعـون إلى ربهم وتائبون من ذنبهم، وقـد فتح الله تبارك وتعالى للمؤمنين بـاب التوبة ورغبهم فيهـا وبشرهم بأنه يحب التـوابين كما قـال عز وجل: ﴿إن الله يحب التـوابين ويحب المتطهـرين﴾، والمؤمن يعلـم أن الشيطان لا يـوسوس إلا بـالشر، ولا ينـزغ إلا بما يضر، فإذا صـادف الشيطـان منه غـرة وغفلـة اهتبلهـا، غير أن المؤمن سرعـان مـا يتنبـه من غفلته ويـرجع إلى ربـه ويقلع عن ذنبـه، قـال الترمذي في جامعه: حـدثنا هَنَّاد حدثنا أبو الأحـوص عن عطاء بن السائب

عن مُـرَّة الهَمْـداني عن عبـد الله بن مسعـود قـال : قـال رسـول الله ﷺ : إن للشيطان لَـمَّةً بابن آدم وللمَلَك لمةً فأمـا لمةُ الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأمـا لمةُ المَلَكِ فإيعاد بالخير وتصديقٌ بـالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنـه من الله فليحمـد الله ، ومن وجـد الأخـرى فليتعـوذ بـالله من الشيطـان الرجيـم ، ثم قرأ : ﴿الشيطـان يعدكم الفقـر ويأمركم بـالفحشاء﴾ قـال أبو عيسى : هـذا حـديث حسن غـريب وهـو حديث أبي الأحـوص لا نعلمـه مـرفوعـا إلا من حديث أبي الأحوص . اهــ وقد روى مسلم من حـديث ابن مسعود رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال : ما منكم من أحـد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة .

قال تعالى: ﴿وإخوانهم يمدونهم فى الغي ثم لا يقصرون * وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها، قل إنما أتبع ما يوحى إليّ من ربى، هٰذا بصائر من ربكم وهدى ورحمةٌ لقوم يؤمنون * وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون * واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفةً ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين * إن الذين عند ربكَ لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون﴾.

بعد أن أكد الله عز وجل أن رسول الله محمدًا ﷺ لن يبالي بالمشركين وآلهتهم وأنهم مهما كادوا له فلن يتمكنوا منه لأنه في رعاية وليه فاطر السموات والأرض الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، وأكد للمشركين أن أصنامهم أعجز من أن تهدي ضالا لأنها لا تسمع ولا تبصر وأمر نبيه محمدا ﷺ وأتباعه بأن يحسنوا إلى من أساء إليهم وأن يصبروا على ما يلقونه من أذى أعدائهم وأن يأمروا بالمعروف وأن يُعرضوا عن الجاهلين وأن يستعيذوا بالله من نزغات الشياطين، ووصف المؤمنين بأنهم سريعو العودة إلى طاعة الرحمن إن أصابهم طيفٌ من الشيطان، شرع هنا في تأكيد انغماس المشركين في الضلالة بسبب ولايتهم للشياطين التي لا تزال تغويهم وتُزَيِّن لهم الباطل وأنهم لا يزالون يقترحون على رسول الله ﷺ أن يأتيهم بخوارق اتباعا لشهواتهم، وقد جهلوا أن رسول الله ﷺ ليس عليه إلا البلاغ وأن القرآن كاف شاف في إثبات أن محمدا هو رسول الله حقا وصدقا، وهو الآية الكبرى والمعجزة العظمى الباقية ما بقي الليل والنهار والشمس والقمر، ولو أن هؤلاء المكذبين استمعوا للقرآن وأنصتوا له لسارعوا إلى الإيمان به ولأيقنوا أنه ليس من كلام البشر بل هو كلام مالك القُوَى والقُدَر، ثم ختم مسك هذه السورة بأمر رسوله ﷺ بالإكثار من ذكر الله منبهًا أن الملائكة لا يستكبرون

عن عبادة الله وتسبيحه والسجود له، وفي ذلك يقول ﴿وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يُقْصِرون﴾ إلى آخرة السورة. ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وإخوانهم يمدُّونهم في الغيِّ ثم لا يقصرون﴾ أي وإخوان الشياطين من المشركين تمدهم الشياطين في غيهم وتزيدهم ضلالا فوق ضلالهم ثم لا يُقصر الشياطين عن المدد والإمداد، ولا يُقْصِر أولياؤهم من الإنس عن غيهم وضلالهم بل يزدادون ضلالا فوق ضلالهم وكفرا فوق كفرهم. والمد والإمداد يأتيان بمعنى الزيادة، والغي الضلال، والإقصار الكف عن الشيء والانتهاء عنه يقال: أقصر فلانٌ عن الشيء يُقْصِر إقصارًا إذا أمسك وكفَّ عنه وانتهى. وقوله عز وجل: ﴿وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها﴾ بيان لتعنت المشركين من قريش وسفاهتهم حيث كانوا يقترحون على رسول الله ﷺ أن يأتيهم بآيات كأن يفجر لهم من أرض مكة ينبوعا، أو يسقط السماء عليهم كسفا أو يأتي بالله والملائكة قبيلا، أو يَرْقَى في السماء، أو يكلمهم الموتى وكان رسول الله ﷺ يجيبهم بأن الآيات عند الله، فكانوا يستهزئون ويقولون هلا اصطفيت لنا آية من عندك؟ فأمره الله عز وجل أن يخبرهم بأنه عبدٌ رسول يَتَّبع ما يوحيه الله إليه، وأن الله تبارك وتعالى قد أعطاه القرآن وهو حجة عظمى ومعجزة كبرى يعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة واحدة من مثله، كما قال عز وجل: ﴿وقالوا لن نؤمنَ لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض ينبوعا * أو تكونَ لك جَنة من نخيل وعنب فتُفَجِّرَ الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقطَ السماء كما زعمتَ علينا كِسَفا أو تأتيَ بالله والملائكة قَبِيلا * أو يكونَ لك بيتٌ من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمنَ لرُقِيِّكَ حتى تُنَزِّلَ علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنتُ إلا بشرا رسولا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين * أو لم يكفهم أنا أنزلنا

عليك الكتاب يُتْلَى عليهم، إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ وقال عز وجل هنا: ﴿قل إنما أتبع ما يُوحَى إليَّ من ربي﴾ أي إنما أنقاد لوحي الله وشرعه ولا أتبع أهواءكم الباطلة، واقتراحاتكم الفاسدة الكاسدة، ثم شرع عز وجل في وصف القرآن بأنه بصائر وهدى ورحمة لقوم يؤمنون، وأن العيب فيكم أنتم أيها المشركون حيث تحاولون التهويش عليه عندما يتلى عليكم ويقول بعضكم لبعض: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون، فلو أنكم استمعتم له وأنصتم عند تلاوته لسارعتم إلى الإيمان به وعلمتم أنه ليس من كلام البشر وأيقنتم أنه كلام الله مالكِ القوى والقُدَر حيث يقول عز وجل: ﴿هٰذا بصائر من ربكم وهدًى ورحمةٌ لقوم يؤمنون * وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم تُرحَمون﴾ وقد نبهت كثيرا إلى أن السور المكية المبدوءة بالحروف المفرقة، يفتتحها الله بذكر القرآن صراحة أو ضمنا فَيُمجِّده ويعظمه، ويشير إلى اختلاف الناس فيه بين مؤمن به أو كافر مكذب له، ويبين أن العاقبة الحسنى تكون للمؤمنين به وأن العاقبة السيئة تكون للمكذبين به، ثم يختتم السورة بذكر القرآن صراحة أو ضمنا فيمجده ويعظمه ترغيبا وترهيبا مما يؤكد أن المقصود من الحروف المفرقة في أوائل بعض السور هو الإعجاز والتحدي بهذا القرآن العظيم والذكر الحكيم. ومعنى قوله عز وجل: ﴿هٰذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ أي هذا القرآن والوحي الذي جئتكم به من عند الله حجج عليكم وبراهين لكم من ربكم تضيء لمن استضاء بها الطريق المستقيم وتحذره من الوقوع في المهالك، وتبين له الحق من الباطل، وهو دلائل تقودكم إلى الحق، فمن اهتدى بهديه أدخله الله عز وجل في رحمته، ولا ينال ذلك إلا المؤمنون. كما قال عز وجل: ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها، وما أنا عليكم بحفيظ﴾ وكما قال عز وجل عن التوراة: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب

من بعـد مـا أهلكنـا القـرون الأولى بصـائر للنـاس وهـدًى ورحمةً لعلهم يتـذكرون﴾ ومعنـى قولـه تبـارك وتعالى: ﴿وإذا قـرئ القـرآن فـاستمعوا لـه وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾ أي وإذا تُلي عليكم كتـاب الله المنزل على محمد ﷺ فأصغوا لـه سمعكم لتتفهموا آيـاته ولتعتبروا بمـواعظه وأمسكـوا عن الكلام لتتمكنوا من ضبط ما تسمعـون حتى تتسرب إليكم أنواره فتضيء لكم طريق الهدى وتبتعـدوا عن طـريق الـرَّدَى وتنخـرطـوا في سلك عبـاد الله المتأهلين للدخول في رحمتـه، يقال: استمع له وتسمَّع أي أصغى ومـال بسمعه نحوه حتى لا يفوتـه منه شيء، وأنصت بمعنى سكت وقد أثنى الله تبـارك وتعالى على الجن وإنصاتهم لاستماع القـرآن، وأشار إلى أنهم لما استمعوا لـه انصرفوا دعاة إلى الله عـز وجل مُحرِّضين قـومهم على الاستجابـة لرسـول الله محمد ﷺ والإيمان به حيث يقول عز وجل: ﴿وإذ صَرَفْنا إليك نَفَرًا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قـالوا أنصتوا فلما قُضِي وَلَّوْا إلى قـومهم مُنْذِرِين * قالـوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طـريق مستقيم * يـا قومنـا أجيبـوا داعِيَ الله وآمنوا بـه يغفـر لكم من ذنـوبكم ويُجِرْكم من عذاب أليم* ومن لا يُجِبْ داعي الله فليس بمعجِزٍ في الأرض وليس لـه من دونـه أوليـاءُ، أولَئك في ضـلال مبين﴾ وقـولـه تبـارك وتعـالى: ﴿واذكـر ربك في نفسك تضرُّعـا وخِيفـة ودون الجهـر من القـول بـالغُدُوِّ والآصـال ولا تكن من الغـافلين﴾ إرشـاد إلى أهم أسبـاب الفـوز والفلاح والنصر على الأعداء وتفريج الكربات ودفع الهموم والأحزان وتخفيف القيام بـالتكاليف الدينيـة والدنيويـة فإن الله تبارك وتعـالى كان يأمر رسـوله محمدا ﷺ إذا اشتد تَعَنُّت المشركين معه، وكثر أذاهم له أن يذكر ربه ويسبح بحمده مشيرا إلى أن ذلك يدفع عنـه شر أعدائه، ويشرح صدره، ويجلب له الرضا كما قال عز وجل: ﴿يا أيها الـذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثْبُتُوا واذكروا الله

كثيرا لعلكم تفلحون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولقد نعلمُ أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب* ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾ وكما قال عز وجل ﴿واذكر اسم ربك وتَبَتَّلْ إليه تبتيلا * ربُّ المشرق والمغرب لا إلَه إلا هو فاتخذه وكيلا * واصبر على ما يقولون واهْجُرْهم هجرا جميلا﴾ والمراد بذكر الله في النفس: تسبيحه وتقديسه وتهليله وتعظيمه وتكبيره وتمجيده ونداؤه ودعاؤه وسؤاله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وتلاوة كتابه مع التفكر والتدبر في آلائه كما قال عز وجل: ﴿إن في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السمٰوات والأرض، ربنا ما خلقْتَ هٰذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار﴾ ومعنى: ﴿تضرعا﴾ أي تخشُّعًا وتذللا وتمسكنًا ورجاء وخضوعا واستكانة، ومعنى: ﴿وخيفةً﴾ أي وخوفا ورهبة، ومعنى: ﴿ودون الجهر من القول﴾ أي واجمع في ذكرك لربك بين لسانك وقلبك بصوت دون الجهر كما قال عز وجل عن زكريا عليه السلام: ﴿إذ نادى ربه نداء خفيا * قال رب إني وَهَنَ العَظْمُ مِنّي واشتعل الرأسُ شَيْبًا ولم أكن بدعائك ربِّ شقيا﴾ ولذلك كان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بأن يخفضوا أصواتهم بالذكر فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي موسى الأشعري قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة، فجعلنا لا نصعد شرفا ولا نعلو شَرَفا ولا نهبط في وادٍ إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير قال: فدنا منا رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس ارْبَعُوا على

أنفسكم فإنكم لا تـدعـون أصم ولا غـائبـا إنما تـدعـون سميعـا بصيرًا. الحديث، وفي لفظ للبخـاري قـال أبـو مـوسى: ثم أتى عليَّ وأنـا أقـول في نفسي: لا حول ولا قـوة إلا بالله فقال: «يا عبـد الله بن قيس قل لا حول ولا قوة إلا بـالله فإنها كنز مـن كنوز الجنة». والغُـدُوّ جمع غُدْوَة وهي مـن طلوع الفجـر إلى طلـوع الشمس، والآصـال: مـا بين العصر والمغـرب. ومعنى: ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ أي ولا تكن من اللاهين عن ذكر الله، والمعلوم أن النهي عن الشيء لا يقتضي الوقـوع فيه، وقولـه عز وجل: ﴿إن الـذين عند ربك لا يستكبرون عن عبـادتـه ويسبحونـه ولـه يسجـدون﴾ فيه ثنـاء على المسبحين السـاجـدين العـابـدين من الإنس والجن، وأنهم ينهجـون النهج الذي تنهجـه الملائكة في عبادة فاطـر السموات والأرض والمراد بالـذين عند ربك هم الملائكة، لأنهم يسكنـون السموات العلى ومنهم حملـة العرش ومن حـولـه، كما قـال عـز وجل: ﴿ومَـن عنـده لا يستكبرون عن عبـادتـه ولا يستحسرون * يسبحون الليل والنهار لا يَفْتُرُون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون﴾ قال ابن كثير رحمه الله في قوله عـز وجل: ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته﴾ الآية: وإنما ذكرهم بهذا ليقتدي بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم ولهذا شرع لنا السجود ههنا لما ذكر سجودهم لله عز وجل كما جاء في الحديث «ألا تصفُّون كما تصف الملائكة عند ربها يُتِمُّون الصفوف الأول فالأول ويتراصُّون في الصف». وهذه أول سجـدة في القرآن يشرع لتـاليها ومستمعهـا السجود بالإجماع. اهـ وقد تم بحمد الله تفسير سورة الأعراف.



تفسير سورة الأنفال



بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .

هذه سورة الأنفال، وهي مدنية وقد نزلت هذه السورة أو معظمها في بدر، وكانت في رمضان من السنة الثانية للهجرة، فقد روى البخاري من طريق سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الأنفال ؟ قال: نزلت في بدر. وفي لفظ لمسلم من طريق سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الأنفال؟ : قال: تلك سورة بدر. ومناسبة هذه السورة لسورة الأعراف أنه تعالى ختم سورة الأعراف - وهي مكية - بما حكاه عن الملائكة من إخلاصهم التوحيد لله عز وجل، وافتتح هذه السورة بالحديث عن أهل بدر الذائدين عن حمى التوحيد، وما أمرهم به من تقوى الله عز وجل، وقد ذكر رسول الله ﷺ أن مَنْ شهد بدرا من الصحابة رضي الله عنهم هم خيار المسلمين، وأخبره جبريل عليهما السلام أن من شهد بدرا من الملائكة هم خيار الملائكة فقد روى البخاري في صحيحه من طريق يحيى بن سعيد وهو الأنصاري عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزُّرَقِيّ عن أبيه ــ وكان أبوه من أهل بدر ــ قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدر فيكم ؟ قال: من أفضل المسلمين أو كلمةً نحوها، قال: وكذلك من شهد بدرا من الملائكة. اهـ والأنفال جمع نَفَل ويطلق في اللغة على معانٍ: منها الغنيمة والعطية وولد الولد وما تفعله مما لم يجب كالنَّفْل، والمراد بالأنفال في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ

وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ هي الغنائم، قال البخاري: قال ابن عباس: الأنفال المغانم. اهـ وقد سميت الغنائم أنفالا لأنها زيادة من الله تعالى لهذه الأمة بخصوصها إذ كانت محرمة على الأمم السابقة من أتباع الأنبياء، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لم يُعْطَهُنَّ أحد قبلي: نُصِرْتُ بالرُّعب مسيرة شهر، وجُعِلت لي الأرض مسجدا وطَهُورا فأيما رجلٍ من أمتي أدركته الصلاة فَلْيُصَلِّ، وأُحِلَّت لي الغنائم ولم تَحِلَّ لأحد قبلي، وأُعطِيتُ الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبُعِثتُ إلى الناس عامَّةً». كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «غزَا نبي من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعني رجل مَلَكَ بُضْعَ امرأة وهو يريد أن يبني بها ولما يَبْنِ بها، وَلا أحدٌ بَنَى بيوتا ولم يرفع سُقُوفها، ولا أحد اشترى غنما أو خَلِفاتٍ وهو ينتظر ولادها، فَغَزَا، فدنا من القرية صلاة العصر أو قريبا من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احْبِسْهَا علينا، فَحُبِسَتْ حتى فتح الله عليه، فَجَمَعَ الغنائم، فجاءت - يعني النار - لتأكلها فلم تطعمها، فقال: إن فيكم غُلُولا، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده، فقال فيكم الغُلول، فَلْتُبَايِعني قبيلتُك، فلزقت يد رَجُلَيْن أو ثلاثة بيده، فقال: فيكم الغُلُولُ، فجاءوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب، فوضعوها فجاءت النار فأكلتها، ثم أحل الله لنا الغنائم، رأى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنا فأحلها لنا. والسؤالُ في قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ﴾ هو مُبْهَمٌ يُعَيِّنُ المرادَ منه قولُهُ عز وجل: ﴿قُلِ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ﴾ ودلَّ ذلك على أنهم سألوه عن الأنفال كيف مصرفها ومن المستحق لها؟ وهذا أسلوب بلاغي حيث يورد السؤال مبهما

ليكون الجواب مُبَيِّنًا له مع الإيجاز، وذلك كقوله تبارك وتعالى: ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يَطْهُرْنَ فإذا تَطَهَّرْنَ فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ وهذا في القرآن كثير حيث يجيء السؤال مبهما ويكون الجواب دَالا عليه. ومعنى قوله عز وجل: ﴿قُلِ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي مَرَدُّ مصرفها لله بما يُبَيِّنُهُ في كتابه ولرسوله ﷺ بما يُبَيِّنُهُ في سنته ﷺ. والمقصود حسم مادة تنازع المجاهدين في تناول هذه الغنائم وأن يرضوا بما يقسمه الله عز وجل وما يعطيه لهم رسول الله ﷺ منها لما في ذلك من إصلاح ذات بينهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ولهذا كان المال حيث أضيف إلى الله ورسوله فالمراد به ما يجب أن يصرف في طاعة الله ورسوله، ليس المراد به أنه ملك للرسول كما ظنه طائفة من الفقهاء، ولا المراد به كونه مملوكًا لله خَلْقا وقَدَرًا، فإن جميع الأموال بهذه المثابة، وهذا كقوله: ﴿قُلِ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ﴾ وقوله: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأنَّ لله خمسه وللرسول﴾ الآية، وقوله: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾ إلى قوله: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى﴾ الآية، فذكر في الفيء ما ذكر في الخمس. ثم قال رحمه الله: فما أضيف إلى الله والرسول من الأموال كان المرجع في قسمته إلى أمر النبي ﷺ بخلاف ما سُمِّيَ مستحقوه كالمواريث، ولهذا قال النبي ﷺ عام حُنَيْن: «ليس لي مما أفاء الله عليكم إلا الخُمْسُ، والخُمسُ مردود عليكم». أي ليس له بحكم القسم الذي يرجع فيه إلى اجتهاده ونظره الخاص إلا الخمس، ولهذا قال: «وهو مردود عليكم»، بخلاف أربعة أخماس الغنيمة فإنه لمن شهد الوقعة، ولهذا كانت الغنائم يقسمها الأمراء بين الغانمين، والخُمس يرفع إلى الخلفاء الراشدين المهديين الذين خَلَفُوا رسولَ الله ﷺ في أمته، فيقسمونها بأمرهم، فأما أربعة الأخماس

فإنما يرجعون فيها ليعلم حكم الله ورسوله كما يستفتى المستفتى وكما كانوا في الحدود لمعرفة الأمر الشرعي، والنبي ﷺ أعطى المؤلفة قلوبهم من غنائم حنين ما أعطاهم. اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ فيه نوع إجمال بينه الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ الآية، حيث بيَّنَ مصارف الغنيمة وكيفية قسمتها على التفصيل، والفاء في قوله تبارك وتعالى: ﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ هي الفاء الفصيحة، أي إذا علمتم أن الأنفال لله والرسول فاتقوا الله باجتناب ما يبغضه ولا تتعلق قلوبكم إلا بما يبيحه الله لكم ولا تعملوا عملا يؤدي إلى تنازع المسلمين واختلافهم وتفرق كلمتهم، والبَيْنُ يطلق على الفُرقة وعلى الوصل والمراد هنا الوصل، وذات البَيْن حقيقته، ومعنى: ﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ أي أصلحوا حقيقة وصلكم ببذل الأسباب التي تنشر المحبة بينكم، ومعنى قوله عز وجل: ﴿وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ أي وانقادوا لأمر الله عز وجل ولأمر رسوله محمد ﷺ، وجواب قوله عز وجل: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه، والتقدير: إن كنتم مؤمنين فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، والتعبير بوصف الإيمان لتنشيط المخاطبين وحضهم على المبادرة إلى الامتثال وسرعة الانقياد، فإن المؤمنين المتقين إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون، وقد قال مسلم في الجهاد من صحيحه: وحدثنا قتيبةُ بن سعيد حدثنا أبو عَوَانَةَ عن سِمَاك عن مُصْعَب بن سعد عن أبيه قال: أخذ أبي من الخُمس سيفا، فأتى به النبي ﷺ فقال: هَبْ لي هذا، فَأَبَى، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ﴾ حدثنا محمد بن المُثَنَّى وابنُ بَشَّار واللفظ لابن المثنى قالا: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سماك

ابن حرب عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: نَزَلَتْ فِيَّ أربعُ آيات، أصبت سيفا، فأتى به النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، نَفِّلْنِيهِ، فقال: «ضَعْهُ»، ثم قام فقال له النبي ﷺ: «ضعه من حيث أخذتَه» ثم قام فقال: نَفِّلْنِيهِ يا رسول الله فقال: «ضَعْهُ» فقام فقال: يا رسول الله نفلنيه، أَأُجْعَلُ كمن لا غَنَاءَ له، فقال له النبي ﷺ: «ضعه من حيث أخذتَهُ» قال: فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ﴾ وقد ساقه مسلم في فضائل الصحابة من صحيحه من طريق سماك بن حرب حدثني مصعب ابن سعد عن أبيه أنه نزلت فيه آيات من القرآن، قال: حَلَفَتْ أم سعد أن لا تكلمه أبدا حتى يكفر بدينه ولا تأكلَ ولا تشربَ، قالت: زَعَمْتَ أن الله وصَّاك بوالديك، وأنا أمك، وأنا آمرك بهذا، قال: مَكَثَتْ ثلاثًا حتى غُشِيَ عليها من الجَهد، فقام ابنٌ لها يُقَالُ له عُمارةُ فسقاها، فَجَعَلَتْ تدعو على سعد، فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حُسْنًا﴾ ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي﴾ وفيها: ﴿وصاحبهما في الدنيا معروفا﴾ قال: وأصاب رسول الله ﷺ غَنِيمَةً عظيمة، فإذا فيها سيف، فأخذته، فأتيت به الرسول ﷺ فقلت: نَفِّلْنِي هذا السيف، فأنا من قد عَلِمْتَ حَالَهُ، فقال: «رُدَّهُ من حيث أخذتَهُ»، فانطلَقْتُ حتى إذا أردتُ أن أُلْقِيَهُ في القَبَضِ لامَتْنِي نفسي، فرجعتُ إليه فقلت: أعطنيه، قال: فَشَدَّ لي صوتَه: «رُدَّهُ من حيث أخذتَهُ»، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ﴾ الحديث، كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: بينا أنا واقف في الصف يوم بدر فنظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثةٍ أسنانها تمنيت أن أكون بين أَضْلَعَ منها، فغمزني أحدهما فقال: يا عمِّ هل تعرف أبا جهل؟ قلت نَعَمْ، ما حاجتك إليه يا ابن أخي قال: أُخبرتُ أنه يسب رسول الله

ﷺ، والـذي نفسي بيـده لئن رأيتـه لا يفـارق سـوادي سـوادَه حتى يمـوت الأعجل منا، فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظـرت إلى أبي جهل يَجُولُ في النـاس، قلـتُ: ألا إنَّ هـذا صـاحبُكُما الـذي سألتماني فابتدراه بسيفيهما، فضرباه حتـى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال: «أيُّكُمَا قتله»؟ قال كلٌّ واحـد منهما: أنا قَتَلْتُهُ، فقال: «هل مَسَحْتُمَا سيفيكما؟» قالا: لا، فنظـر في السيفين فقال: «كِـلاكُمَا قَتَلَهُ سَلَبُـهُ لمعـاذ بن عمرو بن الجمـوح»، وكـانا معـاذ ابن عفـراء ومعاذ بن عمـرو ابن الجموح. اهـ هذا وقد قسم رسول الله ﷺ غنـائم بدر وهو في طريق عـودته من بدر على من شهـد بدرًا من المهاجرين والأنصـار وضرب لعثمان بن عفان رضي الله عنـه بسهم وإن لم يشهد بـدرا لأنه تخلف عنهـا بأمر رسـول الله ﷺ لتمريض زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ وقد توفيت في اليوم الذي وصلت فيه البشـارة بـالنصر إلى أهل المدينـة، وقـد أعطى رسـول الله ﷺ أربعـة أخماس الغنيمـة للغانمين وأخـذ خمسهـا الـذي جعله الله تعـالى للنبي ﷺ أو لإمـام المسلمين بعد رسول الله ﷺ ينفقـه في حاجته وعلى ذوي قرابـة رسول الله ﷺ وعلى اليتامى والمساكين وأبناء السبيل، ومما يؤكد أن رسول الله ﷺ قسم غنائم بدر على ما وصفت هو ما رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من طريق علي ابن الحسين عن أبيه الحسين بن علي أن عليا قال: كانت لي شارفٌ من نصيبي من المغنم يـوم بدر وكـان رسول الله ﷺ أعطـاني شارفـا من الخمس يومئـذ. الحديث.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُم وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ *﴾

بعد أن قرر تبارك وتعالى أن الأنفال لله والرسول وأمر أهل بدر وسائر المؤمنين أن يتقوا الله وأن يُصلحوا ذات بينهم وأن يطيعوا الله ورسوله، ليَذُوقوا حلاوة الإيمان الذي ينتسبون إليه مما يحسم مادة تنازع المجاهدين ويجعلهم كالجسد الواحد ويرضون بما يَقْسِمُه الله عز وجل وما يعطيه لهم رسول الله ﷺ، شرع هنا في بيان صفات كملة المؤمنين، وأمارات صدقهم مع الله عز وجل، وما هم عليه من الحرص على سرعة امتثال أوامر الله، وبشرهم بما أعده لهم في دار كرامته من الأجر العظيم والرزق الكريم حيث يقول: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تُليتْ عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون *﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾ وقد وصف الله تبارك وتعالى المؤمنين حقا بخمس صفات منها ثلاثُ صفاتٍ ترجع للعبادات القلبية، وهي وَجَلُ القلب عند ذكر الله، وزيادة الإيمان عند سماع القرآن. والتوكل على الله وحده، والصفة الرابعة ترجع إلى العبادات البدنية وهي إقامة الصلاة التي هي رأس العبادات البدنية، والصفة الخامسة ترجع إلى العبادات المالية، وهي إيتاء الزكاة التي هي رأس العبادات المالية، ولا شك أن من اجتمعت فيه هذه الصفات الخمس كان حريًّا بالمحافظة على جميع شرائع الإيمان، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فإن قيل: إذا كان المؤمن حقا هو الفاعل للواجبات التارك للمحرمات، فقد قال: ﴿أولَئك هم المؤمنون حقا﴾ ولم يذكر إلا خمسة

أشياء، وكذلك قال في الآية الأخرى: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾ وكذلك قوله: ﴿إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله﴾ وأجاب رحمه الله أن يكون ما ذكر مستلزما لما تُرِكَ، فإنه ذكر وجل قلوبهم إذا ذكر الله، وزيادة إيمانهم إذا تُليتْ عليهم آياته مع التوكل عليه، وإقام الصلاة على الوجه المأمور به باطنا وظاهرا، وكذلك الإنفاق من المال والمنافع، فكان هذا مستلزما للباقي، فإن وجل القلب عند ذكر الله يقتضي خشيته والخوف منه، وقد فسروا «وجلت» بِفَرِقَتْ، وفي قراءة ابن مسعود: «إذا ذكر الله فَرِقَتْ قلوبهم» وهذا صحيح، فإن الوجل في اللغة هو الخوف يقال: حمرة الخَجَل وصفرة الوَجَل، ومنه قوله تعالى: ﴿والذين يُؤْتُونَ مَا آتَوا وقلوبُهم وَجِلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ قالت عائشة: يا رسول الله هو الرجل يزنى ويسرق ويخاف أن يعاقب؟ قال: «لا يا ابنة الصِّديق، هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يُقْبَلَ منه»، وقال السدى في قوله تعالى: ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾: هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية فينزع عنه، وهذا كقوله: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾ وقوله: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ قال مجاهد وغيره من المفسرين: هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه بين يدي الله فيتركها خوفا من الله، وإذا كان وجل القلب من ذكره يتضمن خشيته ومخافته فذلك يدعو صاحبه إلى فعل المأمور وترك المحظور. اهـ على أن لفظ «إنما» في قوله عز وجل: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ إلى آخر هذه الصفات لا يفيد حصر الإيمان في هذه الصفات الخمس لأن كلمة «إنما» غير مصرح فيها بنفي ما سوى المذكور في حيزها ولذلك تحتمل أن تجيء لا العاطفةُ بعدها فتقول: إنما أنا إمام لا خطيب،

بخلاف الحصر بالنفي والاستثناء فإن لا العاطفة لا تجتمع معه . قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في شرح حديث «إنما الأعمال بالنيات» : وقال ابن عطية : «إنما» لفظ لا يفارقه المبالغة والتأكيد حيث وقع ، ويصلح مع ذلك للحصر إن دخل في قصة ساعدت عليه ، فجعل وروده للحصر مجازا يحتاج إلى قرينة ، وكلام غيره على العكس من ذلك ، وأن أصل ورودها للحصر لكن قد يكون في شيء مخصوص كقوله تعالى : ﴿إنما الله إلٰه واحد﴾ فإنه سيق باعتبار منكري الوحدانية ، وإلا فلله سبحانه وتعالى صفاتٌ أخرى كالعلم والقدرة ، وكقوله تعالى : ﴿إنما أنت منذر﴾ فإنه سيق باعتبار منكري الرسالة وإلا فله ﷺ صفاتٌ أخرى كالبشارة ، إلى غير ذلك من الأمثلة ، وهي فيما يقال السببُ في قول مَنْ مَنَعَ إفادتها للحصر مطلقا . اهـ والصفة الأولى من صفات المؤمنين في هذا المقام هي الوجل عند ذكر الله عز وجل فإن المؤمن إذا ذكر الله أو سمع ذكره فتذكر مرجعه إلى الله ووقوفه بين يديه وَجِلَ أي خاف وفزِعَ وفَرِق وخشي وَرَهِبَ وأَخْبَتَ كما قال عز وجل : ﴿وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وبشر المخبتين * الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ قال الزجاج : تأويله : إذا ذُكِرَتْ عظمةُ الله وقدرتُه وما خَوَّفَ به من عصاه وجلت قلوبهم أي فزعت لذلك . اهـ والعرب يستعملون الوجل فيما يخافونه ويرهبونه مما قد يقع بهم من المكروه في المستقبل كما قال معن بن أوس :

لعمرُكَ ما أدري وإني لأوجل   على أيِّنا تعدو المنيةُ أَوَّلُ

ولا شك أن المؤمن إذا ذكر الله الجليل الجبار القهار القوي العزيز المقتدر اقشعر جلده كما قال عز وجل : ﴿الله نزَّل أحسن الحديث كتابا متشابها مَثَانِي تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ ومن شأن الإنسان أنه إذا ذكر حبيبه ارتعد وارتعش واقشعر جلده كما قال

الشاعر أبو صخر الهذلي :

وإني لَتَعْرُوني لذكراكِ هِزَّةٌ كما انتفض العصفورُ بلَّلَهُ القَطْرُ

ولا معارضة بين وجل قلب المؤمن عند ذكر الله وبين طمأنينة القلب بذكر الله حيث قال عز وجل : ﴿أَلا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ لأن وجل القلب إنما يكون بتذكر المؤمن عظمة الله وعَرْضَهُ على الله يوم القيامة ومقامه بين يدي جبار السموات والأرض للحساب ، لكنه إذا ذكر الله عز وجل وأكثر من تسبيحه وتقديسه وتحميده وتمجيده وتَـذكَّرَ فضلَه وجُودَه ورحمتَه التي سبقت غضبه دخل على قلبه الرجاء فاطمأن بذكر الله وطمع في إحسانه ، وهذا حال المؤمن فإنه يرجو رحمة الله ويخاف عذابه ، فلا يصل خوفُه إلى القنوط واليأس من رحمة الله ولا يحمله الرجاء على الأمن من عقاب الله ، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في وصف عباده الصالحين حيث يقول : ﴿وَيَـرْجُونَ رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا﴾ وكما قال عز وجل : ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغَبًا وَرَهَبًا وكانوا لنا خاشعين﴾ والصفة الثانية من صفات المؤمنين في هذا المقام هي أنهم إذا تليت عليهم آيات الله زادتهم إيمانا ، أي إذا سمعوا القرآن ازدادوا يقينا وتصديقا بأن هذا القرآن من عند الله ، وانضم إلى ما كان في قلوبهم من أنوار المعرفة أنوار جديدة وصار لهم نور على نور كما قال عز وجل : ﴿نُورٌ على نور يهدي الله لنوره من يشاء﴾ ولا شك أن سماع القرآن بتدبر وتفكر يجلو أبصار القلوب ، ويُذْهب الران عن الصدور، وتتوالى البراهين والحجج ، فيزداد الإيمان رسوخا في قلوب المؤمنين ، ويحس المؤمن بحلاوة الإيمان ، وهذا بخلاف الذين في قلوبهم مرض من المنافقين فإنهم لانطماس بصائرهم يزدادون بسماع القرآن رجسا إلى رجسهم كما قال عز وجل : ﴿وإذا ما أُنزلت سورةٌ فمنهم من يقول أيُّكم زادته هذه إيمانا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم

مرض فزادتهم رِجْسًا إلى رجسهم وماتوا وهم كـافرون﴾ أما الصفة الثالثة من صفات المؤمنين المذكورة في هذا المقام فهي أنهم على ربهم يتوكلون حيث يقول عز وجل: ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي ويعتمدون على الله وحده، ويفوضون أمـورهم إليـه، ولا يلـوذون إلا بجنـابـه ولا يقفـون إلا ببـابـه. ولا يطلبـون حوائجهم إلا منه ولا يرغبون إلا إليه، ويؤمنون بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وقد حـرض الله تبارك وتعالى المؤمنين على التـوكل عليه في مقـامات كثيرة من القـرآن الكريم وبشَّــر المتوكلين عليـه بالنصر على عدوهـم والفوز والفلاح حيـث يقول عز وجل: ﴿ومـن يتوكل على الله فهـو حسبه، إن الله بالغ أمره﴾ وقال: ﴿الله لا إلَه إلا هـو، وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ وقال عز وجل: ﴿إن ينصركم الله فلا غـالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعـده، وعلى الله فليتوكل المؤمنـون﴾ وقال عـز وجل: ﴿الذين قـال لهم الناسُ إن الناسَ قد جَمَعُوا لكم فاخشوهـم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فـانقلبوا بنعمـة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعـوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم*﴾ وقال عز وجل: ﴿وتـوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده﴾ والصفـة الرابعة مـن صفات المؤمنين المذكورة في هـذا المقام هي قوله عز وجل: ﴿الذيـن يقيمون الصلاة﴾ ومعنى: ﴿يقيمون الصلاة﴾ أي يحافظون عليها في مـواقيتها ووضوئها وركـوعها وسجودها وسـائر أركانها وشروطها، ويُجَوِّدُونَهَا. وإقامة الصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين، وقـد وصَّى الله تبارك وتعالى بها في مقـامات كثيرة جدا في كتـابه الكريم وأشار إلى أن من لم يُصَلِّ من المنتسبين للإسلام لا يُخَلَّى سبيله، وليس أخا للمسلمين حيث قـال: ﴿فإن تابـوا وأقامـوا الصلاة وآتـوا الزكـاة فخلوا سبيلهم﴾ وقال: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين﴾ وقال شقيق بن عبدالله التابعي الجليل: كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئا

من الأعمال تركه كفر غير الصلاة، أما الصفة الخامسة من صفات المؤمنين التي ذكرها الله عز وجل في هذا المقام فهي أنهم ينفقون مما رزقهم الله، والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة وسائر الحقوق الدينية والدنيوية على نفسه وعلى من يَعُولُ من إنسان أو حيوان، وقد وصف الله تبارك وتعالى أصحاب هذه الصفات بأنهم هم المؤمنون حقا، أي الجديرون بوصف الإيمان، المتحققون به، الحريُّون بأن يقال فيهم: هم المؤمنون، وقد بَشَّرَهُم الله تبارك وتعالى بقوله في هذا المقام: ﴿أولـئك هم المؤمنون حقا، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾ أي المتخلقون بهذه الصفات هم المؤمنون حقا، لهم منازل ومقامات ودرجات في الجنات، ولهم من ربهم مغفرة لذنوبهم ورزق كريم، وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة لَيَتَرَاءَوْنَ أهل الغُرَف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدُّرِّيّ الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لِتَفَاضُل ما بينهم»، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجالٌ آمنوا بالله وصدقوا المرسلين».

قال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ المُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فى الحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى المَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَىٰ الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبْطِلَ البَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ *﴾

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى أهل بدر وسائر المؤمنين أن يتقوا الله وأن يصلحوا ذات بينهم وأن يطيعوا الله ورسوله مما يقتضي أن يكون هواهم تبعا لما جاء به رسول الله ﷺ فيسارعوا إلى امتثال أوامره ويبادروا إلى السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، ويجتنبوا الأَثَرَةَ وما يجلب التنازع بينهم، وبيَّن لهم صفة كملة المؤمنين، ضرب لهم هنا مثلا يغرس في قلوبهم أن الخير والعاقبة الحميدة هي في السمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ وأن الإنسان قد يكره شيئا وهو خير له وقد يحب شيئا وهو شرٌّ له، وذلك كما حدث لفريق من المؤمنين عند الخروج إلى بدر، وقد وعدهم رسول الله ﷺ إحدى الطائفتين العير أو النفير فتمنى بعضهم أن يحصل لهم العير وكرهوا النفير لأنهم لم يكونوا قد تأهبوا لذلك، وأراد عز وجل لهم النفير وجمعهم على غير ميعاد، فكانت عاقبة ذلك أحسن العواقب وفرحوا بنصر الله أشد من فرحهم بما لو حصلوا على العير، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون *﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون *﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ المُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى المَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ *﴾ أي هذا مثلٌ ضُرِبَ لكم قد شهدتم حقيقته، وأبصرتم واقعه يؤكد لكم أن الخير والعاقبة

الحميدة هي في السمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ، وأن الإنسان قد يكره الشيء وهو خير له، وقد يحب الشيء وهو شرٌّ له، ومثال ذلك، أن الله تبارك وتعالى قد أخرج نبيه ﷺ من بيته بالمدينة وهو فيه آمن مطمئن، وأمره بالنهوض إلى بدر ليطلب عير أبي سفيان الصادرة من الشام فيها أموال جزيلة لكفار قريش الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم وأموالهم، فاستنهض رسول الله ﷺ من خَفَّ من المسلمين فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، وسار بهم يريد ساحل البحر من طريق بدر، ولما علم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في طلبه بعث ضمضم بن عمرو الغفارى إلى مكة وأمره أن يأتي قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمدا قد تعرض لها في أصحابه، فأسرع ضمضم بن عمرو إلى مكة وأخبر أهل مكة بذلك فأخذ أبو جهل يستنفر الناس ويقول: أدركوا عيركم، فخرجت قريش ونفرت على الصعب والذلول في عدد من المقاتلين يتراوح بين التسعمائة والألف ومعهم أكثر من خمسين فارسا، وكان رسول الله ﷺ يبعث العيون لمعرفة مكان أبي سفيان وعيره، فجاءته الأخبار وهو قريب من الصفراء بأن أبا سفيان قد سَاحَل بالعير، وأن مكة قد رمتهم بأفلاذ كبدها، فشاور أصحابه رضي الله عنهم، وقد كره بعض المسلمين ملاقاة قريش، لأنهم لم يكونوا قد استعدوا لملاقاتهم، حيث لم يخرجوا من المدينة لقتال، وإنما خرجوا للعير، وقد بدأ رسول الله ﷺ يبشر أصحابه بإحدى الطائفتين: العير أو النفير. فأبو سفيان في العير وأبو جهل في النفير، والعير ليس فيها قتال، والنفير لا يأخذونه إلا بقتال وشوكة وكان هؤلاء الذين كرهوا القتال يودون أن غير ذات الشوكة تكون لهم يعني العير ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين، وعسى أن يكره الإنسان شيئا وهو خير له، وعسى أن يحب شيئا وهو شر له، وهكذا تَمَّ في بدر فقد كانت ثمارها أعظم من ثمار أضعاف عير قريش، وقد روى البخاري

في صحيحه من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: شهدت من المقداد بن الأسود مشهدا لأن أكون صاحبَه أحبُّ إليَّ مما عُدِلَ به: أتى النبيَّ ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسَرَّهُ يعني قوله. وقد كان المقداد هو الفارس الوحيد يوم بدر كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبدالرحمن بن مهدي عن شعبة عن أبي إسحاق عن حارثة بن مُضَرِّب عن علي قال: ما كان فينا فارسٌ يوم بدر غير المقداد. وقال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، قال: فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد يا رسول الله، والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نُخِيضَهَا البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْكِ الغِماد لفعلنا، قال: فندب رسول الله ﷺ الناس فانطلقوا حتى نزلوا بدرا، ووردت عليهم رَوَايَا قريش وفيهم غلام أسود لبني الحجاج، فأخذوه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه فيقول: ما لي علمٌ بأبي سفيان ولكنْ هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأميةُ بن خلف، فإذا قال ذلك ضربوه، فقال: نعم أنا أخبركم، هذا أبو سفيان فإذا تركوه فسألوه فقال: ما لي بأبي سفيان علمٌ ولكنْ هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف، في الناس، فإذا قال هذا أيضا ضربوه، ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فلما رأى ذلك انصرف، قال: «والذي نفسي بيده لَتضربوه إذا صدقكم وتتركوه إذا كذبكم». اهـ وهذه الكراهية التي حصلت من بعض المؤمنين لم تكن جبنًا عن القتال، وإنما كانت منهم لأنهم كانوا يرون أنفسهم في قلة من العدد والسلاح وأنهم لم يخرجوا من المدينة للحرب،

ولم يعلم هؤلاء أن هذه الأسباب كانت من أبرز آيات نصرهم وعزهم كما قال عز وجل: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾ يعني في قلة من العدد والسلاح حالة كونكم تقابلون عدوا كثير العدد والعدة والفرسان وقد خرج متهيئا للقتال مستعدا له، وقد كان جدال هؤلاء الذين جادلوا رسول الله ﷺ يدور حول قلتهم في العدد والعدة والفرسان وأنهم ما خرجوا للقتال، وإنما خرجوا للعير وهي لا شوكة فيها وقد وصف الله تبارك وتعالى هؤلاء المجادلين بأنهم جادلوا رسول الله ﷺ في الحق بعدما تبين أي جادلوه في قتال المشركين يوم بدر بعد أن أخبرهم رسول الله ﷺ أنهم مقاتلو كفار قريش ذوي العدد والعُدَّة، ولذلك لما أيقنوا بأنهم ملاقو العدو صاروا في حالة من أيقن أنه ميت لا محالة، وكأنه ينظر إلى الموت بعينه حيث يقول عز وجل: ﴿يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ ولا شك أن من كانت هذه حال بعضهم ثم لما دخلوا المعركة واستقبلوا الموت بصدروهم، أشبعوا عدوهم قتلا وأسرا وجراحة حيث قتلوا من المشركين سبعين رجلا فيهم صناديد قريش كأبي جهل وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف كما أسروا سبعين رجلا ولم يؤسر من المسلمين أحد ولم يستشهد سوى أربعة عشر رجلا، لا شك أن نصر هؤلاء هو النصر العزيز، والشاهدُ العدل على أن وعد الله حق، فقد تحقق لهم ما وعدهم الله عز وجل به على لسان رسوله ﷺ حيث بشرهم قبل المعركة بأنهم سيرجعون بالعير أو النفير كما قال عز وجل: ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودُّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ أي واذكروا إذ يبشركم الله عز وجل على لسان رسوله ﷺ بالظفر بعير قريش وما فيها من الأموال أو بالنصر على كفار قريش، وكنتم تريدون العير وما فيها لأنها تكون غنيمة بلا قتال، وهي أسهل من ملاقاة العدو الكثير العَدَد والعُدَد، قال الزجاج: وذاتُ الشوكة ذات السلاح

يقال: فلانٌ شاكٍ في السلاح وشائكٌ في السلاح وشاكٌّ في السلاح بتشديد الكاف من الشِّكَةِ، ومثل شاكي قول الشاعر:

فتوسموني إنني ذاكم   شاكٍ سلاحي في الحوادث مُعْلَمُ اهـ

وهذا البيت لطريف بن تميم العنبري، ويروى: فتعرفوني بدل قوله: فتوسموني وهو بمعناه، وقال ابن منظور في لسان العرب: والشوكة: شدة البأس والحدُّ في السلاح وقد شَاكَ الرجُلُ يَشَاكُ شَوكا أي ظهرت شوكته وحِدَّتُهُ فهو شائك السلاح، وشوكةُ القتال: شدة بأسه، وشوكة المقاتل: شدة بأسه وفي التنزيل العزيز: ﴿وتَوَدُّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ قيل معناه: حدة السلاح وقيل: شدة الكفاح، وفلان ذو شوكة أي ذو نكاية في العدو، وفي حديث أنس: قال لعمر رضي الله عنه حين قدم عليه بالهرمزان: تركتُ بعدى عدوا كثيرا وشوكةً شديدة أي قتالا شديدا وقوةً ظاهرةً، ومنه الحديث: «هلمَّ إلى جهاد لا شوكة فيه» يعني الحج. اهـ وقوله عز وجل: ﴿ويريد الله أن يُحِقَّ الحقَّ بكلماته﴾ قال ابن كثير رحمه الله: أي هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ليظفركم بهم وينصركم عليهم، ويظهر دينه ويرفع كلمة الإسلام ويجعله غالبا على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي يدبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عليكم القتال وهو كُرْهٌ لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم﴾ اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ أي ويستأصل شأفة صناديد كفار قريش كأبي جهل وشيبة بن ربيعة وأخيه عتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف والأسود بن عبدالأسد المخزومي وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث وغيرهم، وكانوا يؤذون رسول الله ﷺ والمؤمنين ويصدون عن سبيل الله، فأراح الله المسلمين من

شرورهم ، وقـد أهلكهم الله عـز وجل وقـذف بـالحق على البـاطل فإذا هـو زاهق ، وأعز الإسلام وأعلى رايته وأذل عبدة الأصنام وأخزاهم ولذلك قال عز وجل هنا : ﴿لِيُحِقَّ الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾ .

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ، وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللهِ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا، سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُم كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ، وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ * ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ *﴾

بعد أن ضرب الله عز وجل مثلا يغرس في قلوب المؤمنين أن الخير والعاقبة الحميدة هي في السمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ وأن الإنسان قد يكره شيئا وهو خير له، وقد يحب شيئا وهو شرٌّ له كما حدث لفريق من المؤمنين عند الخروج إلى بدر، وقد وعدهم رسول الله ﷺ إحدى الطائفتين العير أو النفير فتمنى بعضهم أن يحصل لهم العير وكرهوا النفير لأنهم لم يكونوا قد تأهبوا لذلك، وأراد الله عز وجل لهم النفير، وجمعهم على غير ميعاد، فكانت عاقبة ذلك أحسن العواقب، وفرحوا بنصر الله لهم أشد من فرحهم بما لو حصلوا على العير، شرع عز وجل هنا يُذكِّرُ المؤمنين بما كانوا عليه قبل ملاقاة العدوِّ بعد أن أيقنوا أنهم ملاقوه لا محالة، وأنه لا ملجأ لهم إلا إلى الله، فاستغاثوا ربهم أن يُمِدَّهم بنصر من عنده، فاستجاب لهم ووعدهم على لسان رسوله ﷺ أن يمدهم بألف من الملائكة مردفين، وقد أراهم عز وجل آياته، وغشاهم النعاس أَمَنَةً منه، ونزَّل عليهم من السماء ماء ليطهرهم به، ويذهب عنهم رِجْزَ الشيطان، وليربط على قلوبهم، ويثبِّت به أقدامهم حتى لا تسيخ في الأرض، وأن الله تبارك وتعالى أوحى إلى الملائكة أنه معهم

في تأييد المؤمنين، وأمرهم أن يثبتوا الذين آمنوا وأخبرهم أنه سيلقي الرعب في قلوب الذين كفروا وحض الملائكة على ضرب أعناقهم وأن يضربوا منهم كل بنان، لأنهم شاقوا الله ورسوله فاستحقوا العقاب الشديد في العاجلة مع ما سيلقونه من عذاب جهنم في الآجلة، ليستحضر المؤمنون هذه الصورة البينة في ذاكرتهم، وليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، وليستيقنوا بأن إعداد القوة للعدو وبذل أسبابها وإن كان مأمورا به ليس هو الجالب للنصر، لأن النصر من عند الله، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿ذٰلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ أي اذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم إذ تستجيرون بربكم من عدوكم ليلة بدر وتدعونه للنصر عليهم فأجاب دعاءكم وأوحى إلى رسوله ﷺ ليبشركم بأن الله عز وجل مرسل إليكم مددًا وردءًا لكم بألف من الملائكة يُرْدِفُ بعضُهم بعضا ويتلو بعضهم بعضا ويجيئون متتابعين بعضُهم في إثر بعض. قال البخاري في كتاب المغازي من صحيحه من رواية كريمة: باب قول الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إلا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ، وَمَا النَّصْرُ إلا مِنْ عِنْدِ اللهِ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ ويُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ ويُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا، سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُم كُلَّ بَنَانٍ * ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ، وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ *﴾ حدثنا أبو نُعَيْم حدثنا إسرائيل عن مُخَارِقٍ عن طارق بن شهاب

قال: سمعتُ ابن مسعود يقول: شهـدت من المقداد بن الأسود مَشْهَدًا لأَنْ أكونَ صاحبَه أَحَبُّ إليَّ مما عُدِلَ به، أتى النبيَّ ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقـول كما قال قوم مـوسى اذهب أنت وربك فقاتلا، ولكنّـا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسرَّه يعني قولـه، حدثني محمد بنُ عبدالله بن حَـوشَبٍ حدثنا عبدالـوهاب حدثنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللهم إن شئتَ لم تُعْبَدْ»، فأخذ أبو بكر بيده فقال: حَسْبُكَ، فخـرج وهو يقـول: «سَيُهْزَمُ الجمع ويُـوَلُّون الـدبر» اهــ وقد كـان رسـول الله ﷺ قد أُعِـدَّت له قُبَّـة أي عريش فقـام فيها يـدعو الله عـز وجل مستقبلا الكعبـة، ويستغيثه تبارك وتعـالى، كما روى أحمد واللفظ له ومسلم وأبو داود والترمذي من حديث عكرمة بن عمار حدثنا سِماك الحنفي أبو زُمَيْل حدثني ابن عباس حـدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قـال: لما كان يومُ بدر نظـر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثـلاثمائة ونيِّف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، ثم مـدَّ يديه وعليه رداؤه وإزاره ثم قـال: «اللهم أين ما وعـدتني، اللهم أنجـز ما وعـدتني، اللهم إنك إن تُهْلِكْ هذه العصـابة من أهل الإسلام فلا تُعْبَـد في الأرض أبدًا» قال: فمازال يستغيث ربَّه عز وجـل ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبـو بكر فأخذ رداءه فردَّه، ثم التزمـه من ورائه، ثم قال: يا نبي الله، كفاك منـاشدتك ربك فإنه سيُنْجِزُ لك ما وعدك، وأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْـفٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۞﴾ فلما كان يومئـذ والتَقَوْا، فهزم الله عز وجل المشركين، فقتل منهم سبعون رجلا، وأسر منهم سبعون رجلا، الحديث. وقـد روى البخاري في صحيحـه من حديث ابن عبـاس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال يـوم بدر: «هذا جبريل آخـذٌ برأس فرسـه، عليه أداة

الحرب» كما جاء في لفظ لمسلم في صحيحه من طريق أبي زُميل (هو سِماك الحنفي) حدثني عبدالله بن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه فَخَرَّ مستلقيا، فنظر فإذا هو قد خُطِمَ أنفه، وشُقَّ وجْهُهُ كضربة السَّوط، فاخضرَّ ذلك أجمعُ، فجاء الأنصاريُّ فحدث بذلك رسولَ ﷺ، فقال: «صدقتَ، ذلك من مدد السماء الثالثة». الحديث. فإن قيل: ما الحكمة في قتال الملائكة مع المسلمين يوم بدر مع أن جبريل وحده قادر على أن يُهلكَهُم بريشة من جناحه؟ فالجواب أن الملائكة كانوا على هيئة المدد مع إضافة أصل الفعل للنبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ليرجعوا بهذا الفضل العظيم والنصر المبين، على حد قوله تعالى: ﴿ذٰلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض﴾ والأمر كُلُّه لله وحده، ولذلك قال عز وجل هنا: ﴿وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم، وما النصر إلا من عند الله، إن الله عزيز حكيم﴾ وقال في سورة آل عمران: ﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم * ليقطع طرَفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلوا خائبين﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿إذ يُغَشِّيكم النُّعاسَ أَمَنَةً منه﴾ أي اذكروا نعمة الله عليكم إذ يُلْقي عليكم النعاس أي النوم الخفيف أَمَانًا من الله لكم قد أمَّنكم به ليَدْفَعَ عنكم الخوف من كثرة عدوكم المتهيئ لقتالكم وقلة عددكم وسلاحكم، وقد ألقى الله تبارك وتعالى النعاس على المسلمين في غزوة بدر وفي غزوة أحد كما قال عز وجل في سياق قصة غزوة أحد في سورة آل عمران: ﴿ثم أَنْزَلَ عليكم من بعد الغَمِّ أَمَنَةً نُعاسا يَغْشَى طائفةً منكم﴾ وقال هنا في قصة غزوة بدر: ﴿إذ يُغَشّيكم النعاسَ أمنة منه﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وكأنَّ

ذلك كائن للمؤمنين عند شدة البـأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله، وهـذا من فضل الله ورحمتـه بهم ونعمتـه عليهم وكما قـال تعـالى: ﴿فإن مع العسر يسرا * إن مع العسر يسرا﴾ ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما كان يـومَ بدر في العـريش مع الصِّدِّيق رضي الله عنـه، وهما يَدْعُـوَان أخذت رسولَ الله ﷺ سِنَـةٌ من النوم، ثم استيقظ مُتَبَسِّماً، فقال: «أبشر يا أبـا بكر، هذا جبريـل على ثناياه النقـع»، ثم خرج من بـاب العريش وهـو يتلو قـوله تعالى: ﴿سَيُهْـزَمُ الجَمْعُ ويُوَلُّـونَ الدُّبُـرَ﴾ اهـ وقولـه تبارك وتعـالى: ﴿ويُنَزِّلُ عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويُـذْهِبَ عنكم رجز الشيطان وليربط على قلـوبكم ويثبت به الأقـدام﴾ هذه آيـة أخرى من آيـات الله التي مَنَّ بها على المؤمنين يـوم بـدر، وكـان هذا في ليلـة الجمعـة التي وقعت معـركـة بـدر في صبيحتهـا فقد أنـزل الله عـز وجل على المسلمين من السماء ماءً، شرب منـه المسلمـون، وتطهـروا وأذهب الله عنهم رجـز الشيطـان وتخذيلــه وتخويفـه للنفـوس، فطهرهم الله عـز وجل به ظـاهرًا وبـاطنا وثبَّتَ أقـدامهم وشجَّع قلوبهم، قـال ابن جرير: حـدثني هارون بن إسحاق ثنـا مصعب بن المقدام ثنا إسرائيل ثنا أبو إسحاق عن حارثة عن علي بن أبي طالب قال: أصابنا من الليل طش من المطـر - يعني الليلـة التي كـانت في صبيحتها وقعـة بـدر - فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ - يعني قـائما يصلي - وحرض على القتـال. اهـ قـال في القامـوس: الطشُّ والطَّشِيشُ المطر الضعيف وهـو فوق الـرذاذ، وقال الجوهـري في الصحاح: يقـال للترس إذا كـان من جلود ليس فيـه خشب ولا عقبٌ: حجفـةٌ ودرقـةٌ والجمع حَجَفٌ. اهــ وقوله تعـالى: ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكـة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفـروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان * ذلك بأنهم شاقُّوا الله ورَسوله ومن يشاقق الله ورسوله

فإن الله شديد العقاب * ذٰلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار *﴾ بيان لما أمر الله عز وجل به ملائكته من تأييد المؤمنين حيث أعلمهم عز وجل أنه معهم بنصره وتأييده وحيث أوصاهم أن يُقَوُّوا عزم المؤمنين وأخبرهم أنه سَيُرْعب قلوب الكافرين ويملؤها خوفا وجزعا وهلعا وأمرهم أن يضربوا رءوس المشركين وأعناقهم وأن يضربوا منهم كل طرف ومَفْصِلٍ من أطراف أصابع أيديهم وأرجلهم جزاءً لهم بسبب أنهم حاربوا الله ورسوله وعصوا أمر الله وأمر رسوله ﷺ ومن يعص الله ورسوله ﷺ فإن الله عز وجل يعاقبه عقابا شديدا، ذلكم العذاب الذي عجلته لكم أيها الكفار فذوقوه في العاجلة وأيقنوا أنكم صائرون إلى جهنم في الآجلة .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ * فَلَمْ تَقْتُلُوهُم وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى، وَلِيُبْلِيَ المُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِينَ * إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ المُؤْمِنِينَ *﴾.

بعد أنْ ذكَّر الله تبارك وتعالى المؤمنين بما كانوا عليه من الحال قبل ملاقاة عدوهم يوم بدر بعد أن أيقنوا أنهم ملاقوه لا محالة، وأنهم استغاثوا ربهم أن يُمِدَّهم بنصر من عنده فاستجاب لهم ووعدهم على لسان رسوله ﷺ أن يمدهم بألف من الملائكة مردفين، وقد أراهم عز وجل آياته، وغشاهم النعاس أمنة منه، ونزَّل عليهم من السماء ماء ليطهرهم به، ويذهب عنهم رجز الشيطان، وليربط على قلوبهم ويثبت به أقدامهم حتى لا تسيخ في الأرض، وأن الله تبارك وتعالى أوحى إلى الملائكة وأمرهم أن يثبتوا الذين آمنوا، وأخبرهم أنه سيلقي الرعب في قلوب الذين كفروا، وحضَّ الملائكة على ضرب أعناقهم وأن يضربوا منهم كلَّ بَنَان، جزاء لهم على مشاقتهم لله ولرسوله ﷺ مُعَجَّلاً لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، شرع هنا في تحريض المؤمنين على الثبات والصبر عند لقاء عدوهم، ونهاهم عن الفرار يوم الزحف وحذرهم أشد التحذير من ذلك وتوعد من يفر يوم الزحف بأنه قد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير إلا من كان متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة من المسلمين المجاهدين، وأكد لهم أنه عز وجل هو الذي ينصر عباده المؤمنين، وضرب لهم مثلا بما وقع لهم في معركة بدر ليكون ماثلا

أمام أعينهم حيث تأكدوا أن الله عز وجـل هو الذي قتل أعداءهم، وانتصر للمسلمين، وإنما الأمـر بقتـال أعـداء الله لابتـلاء المسلمين ليرفع درجـاتهم عنده، كما قـال عز وجل في سورة القتال: ﴿فإذا لقيتم الـذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدُّوا الوَثاق فإما مَنًّا بعدُ وإما فداءً حتى تضعَ الحربُ أوزارهـا، ذلك ولـو يشـاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلـو بعضكم ببعض، والـذين قُتِلُـوا في سبيل الله فلن يُضِلَّ أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عَرَّفَها لهم * يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم *﴾ ثم وعـد عز وجل المؤمنين بأنـه مُوهِنُ كيد أعـدائهم وأنَّبَ المشركين على غرورهم واستمرارهم في ضلالهم، ودعاهم إلى الاستجابة لله ولـرسـوله ﷺ حتى يسعـدوا بـالله عـز وجل الـذي يؤيـد المؤمنين ويشـد عضدهم، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولُّوهم الأدبار *﴾ إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿إن تستفتحوا فقد جـاءكم الفتح وإن تنتهـوا فهـو خير لكم وإن تعـودوا نعـد ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولـو كثرت وأن الله مع المؤمنين *﴾ ومعنى قوله عـز وجل: ﴿يا أيها الذيـن آمنوا إذا لقيتم الـذين كفروا زحفـا فلا تُوَلُّـوهُم الأدبار﴾ قـال ابن جرير رحمه الله: قـال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره: يا أيها الـذين صدقوا الله ورسـولـه ﴿إذا لقيتم الـذين كفـروا﴾ في القتـال ﴿زحفا﴾ يقـول: متـزاحفـا بعضكم إلى بعض، والتـزاحف: التداني والتقـارب ﴿فلا تـولُّوهم الأدبـار﴾ يقول: فـلا تولـوهم ظهوركم فتنهـزموا عنهم، ولكن اثبتـوا لهم فإن الله تعالى معكم. اهـ فقولـه تبارك وتعالى: ﴿فلا تولوهم الأدبـار﴾ كناية عن انهزامهم لأن المنهزم يُحَوِّلُ ظهره إلى جهة محاربه هربا إلى ملجـأ وموئل يفر إليه منه خوفا على نفسه، ويتبعـه محاربه في أثره، فَـدُبُرُ المطلـوب حينئذ يكون محاذيًـا وجه طالبـه، ولا شك أن هذا التعبير غايـة في تبشيع الفرار يـوم الزحف والتشنيع

على من يفر. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن يُوَلِّهِمْ يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ وعيد شديد لمن يفر يوم الزحف بأنه قد عرَّض نفسه لغضب الله وسخطه وصيرورته إلى جهنم إلا أن يكون فراره لسبب من سببين أحدهما أن يكون فراره مكيدة يكيد بها عدوه ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه عدوه يحسب أنه هاربٌ منه فَيَكِرُّ عليه ويقتله، فَقَصْدُهُ من فراره طَلَبُ الغِرَّةِ ثم الكَرَّة، والسبب الثاني أن يكون فراره من عدوه لينضم إلى جماعة من المؤمنين ليستعين بهم أو يعينهم على قتال عدوهم. وهذا الوعيد الذي ذكره الله عز وجل في هذا المقام يؤكد أن الفرار يوم الزحف من الكبائر، وقد عدَّه رسول الله ﷺ في السبع الموبقات، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من طريق ثور بن زيد عن أبي الغيث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: يا رسول الله وما هُنَّ؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات». وقوله عز وجل: ﴿فلم تقتلوهم ولَكن الله قتلهم، ومَا رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى، وَلِيُبْلِيَ المؤمنين منه بلاء حَسَنًا، إن الله سميع عليم﴾ قال ابن كثير رحمه الله: يُبَيِّنُ تعالى أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم، ولهذا قال: ﴿فلم تقتلوهم ولَكنَّ الله قتلهم﴾ أي ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، أي بل هو الذي أظفركم عليهم، كما قال: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حُنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغْنِ عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رَحُبَتْ ثم وليتم مدبرين﴾ يُعْلِمُ تبارك وتعالى أن النصر ليس على كثرة العَدد، ولا

بلبس اللأمة والعُدَد، وإنما النصر من عنده تعالى، كما قال تعالى: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ ثم قال لنبيه ﷺ أيضا في شأن القبضة من التراب التي حصب بها وجوه الكافرين يوم بدر حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته فرماهم بها قال: «شاهت الوجوه»، ثم أمر أصحابه أن يَصدُقُوا الحملة إثرها، ففعلوا، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله، ولهذا قال تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ أي هو الذي بلَّغ ذلك إليهم وَكَبَتَهم بها لا أنت. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: رفع رسول الله ﷺ يديه يعني يوم بدر فقال: ربِّ إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبدا، فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تُراب من تلك القبضة فولوا مدبرين. اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وَلِيُبْلِيَ المؤْمِنِينَ منه بلاء حسنا، إن الله سميع عليم * ﴾ أي وليعرِّف المؤمنين نعمته عليهم من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا نعمته، وليمحص الذين آمنوا ويتخذ منهم شهداء ويرفع درجاتهم في جنات النعيم، مع ما قد يمنحهم من النصر فإن المجاهد في سبيل الله يفوز بإحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ذلكم وأن الله مُوهِنُ كيد الكافرين*﴾ قال ابن كثير رحمه الله: هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أَعْلَمَهُمْ أنه مضعف كيد الكافرين فيما يُسْتَقْبَلُ، مصغر أمرهم وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار ولله الحمد والمنة. اهـ وقوله عز وجل: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ هذا تقريع للمشركين حيث كانوا يطلبون من الله النصر والفتح لأحب الفريقين إليه يوم بدر، فرأوا بأعينهم نصر الله

للمؤمنين وإعزازهم ودحر المشركين وإذلالهم، أي إن تستنصروا الله لأحب الفريقين إليه فقد جاء النصر لأحب الفريقين إليه، قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد يعني ابن هارون أخبرنا محمد بن إسحاق حدثني الزهري عن عبدالله بن ثعلبة (يعني ابن صُعَير) أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فَأَحِنْهُ الغداة. فكان المستفتح. وقال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: حدثني المثنى قال حدثنا أبو صالح قال: حدثني الليث قال: حدثني عقيل عن ابن شهاب قال: أخبرني عبدالله بن ثعلبة بن صُعَيْر العدوى حليف بني زهرة، أن المستفتح يومئذ أبو جهل، وأنه قال حين التقى القوم: أَيُّنَا أقطع للرحم، وآتانا بما لا يُعْرَفُ فأَحِنْهُ الغداة، فكان ذلك استفتاحه، فأنزل الله في ذلك: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ الآية، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإن تنتهوا فهو خير لكم﴾ أي وإن تتركوا أيها الكافرون ما أنتم عليه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله محمد ﷺ وتدخلوا في زمرة المؤمنين فهو خير لكم في عاجلتكم وآجلتكم، ومعنى قوله عز وجل: ﴿وإن تعودوا نَعُدْ﴾ أي وإن تستمروا على كفركم بالله ورسوله نعد بمثل هذه الواقعة عليكم ونؤيد رسولنا والمؤمنين كما أيدناهم في بدر، ونُدِمْ عزهم ونصرهم، وقد نبهت في تفسير الآية الخامسة والتسعين من سورة المائدة في قوله عز وجل: ﴿ومن عاد فينتقم الله منه﴾ إلى أن لفظ «عاد» قد يأتي بمعنى استمر ومنه قوله عز وجل: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنَّةُ الأولين﴾ أي وإن يستمروا على كفرهم فقد عرفوا ما أوقع الله تبارك وتعالى بالأمم الماضية، فالعَوْدُ يستعمل في الرجوع إلى الشيء كما يستعمل في الاستمرار على الشيء والمضيّ فيه، وقوله عز وجل: ﴿ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كَثُرَتْ﴾ أي ولن تفيدكم جموعكم وكثرة عددكم وعُدَدِكم شيئا مهما جمعتم من الجموع وأعددتم من السلاح، فإن

دولتكم إلى زوال، وجموعكم إلى اضمحلال. وقولـه تبارك وتعالى: ﴿وأن الله مع المؤمنين*﴾ أي وأن الله مع المؤمنين بنصره وتـوفيقه وتأييده، ومـن كان الله عز وجل معه فلا غالب لـه، كما قال عز وجل: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾ وقـد كتب الله عـز وجل نصر من نصره وإعزاز حـزبـه المؤمنين حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي، إن الله قوي عزيز*﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿إنا لننصر رسلنـا والذين آمنـوا في الحياة الـدنيا ويـوم يقوم الأشهاد﴾.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *﴾

بعد أن حرَّض الله تبارك وتعالى المؤمنين على الثبات والصبر عند لقاء عدوهم، ونهاهم عن الفرار يوم الزحف، وحذرهم أشد التحذير من ذلك وأكد لهم تبارك وتعالى أنه هو الذي ينصر عباده المؤمنين، وضرب لهم مثلا بما وقع لهم في معركة بدر، وأنه إنما أمر المؤمنين بقتال أعداء الله لابتلاء المسلمين ورفع درجاتهم عنده، ووعد المؤمنين بأنه مُوهِنُ كيد الكافرين، وأنَّب المشركين على غرورهم واستمرارهم في ضلالهم، ودعاهم إلى الاستجابة لله ولرسوله حتى يسعدوا بالله عز وجل الذي يؤيد المؤمنين ويشد عضدهم، شرع هنا في توجيه المؤمنين إلى الحرص على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وتحذيرهم أشد التحذير من أن يغتروا بما قدَّموا من خير فيتكاسلوا في امتثال أوامر الله أو أوامر رسوله ﷺ، ويصيروا مثل الكفرة الذين يقولون: سمعنا وعصينا، فإن هؤلاء هم شر الدواب عند الله، ولا يليق بمن عرف الله عز وجل أن يتشبه بهم؛ لأنهم لا ينقادون لحق ولا يدلون على خير، قد انطمست بصائرهم، وانسدت مسامعهم وتعطلت آلات الإدراك عندهم، لأن الله تبارك وتعالى قد عاقبهم بمعاصيهم فخذلهم، فأصم آذانهم وأبكم ألسنتهم وأعمى أبصارهم، لما علمه من استغراقهم في الشر، ومعاداتهم للخير، ثم نبه المؤمنين إلى أن الاستجابة لله ولرسوله ﷺ هي أهم أسباب الحياة الطيبة في

الدنيا والآخرة، ولفت انتباههم مرة أخرى إلى الحذر من الغفلة والاغترار مبينا لهم أن قلوبهم بيد الله يحركها كيف يشاء وأن المعاصي سبب للحرمان من الخير، ولا سيما إذا أُعْلِنَتْ دون رادع لها أو ناهٍ عنها فإنها حينئذ تجلب البلاء والعقوبة التي تعم مرتكبها وغير مرتكبها ممن لم ينه عنها، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون* ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب* ﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولَّوا عنه وأنتم تسمعون* ﴾ أي يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله احرصوا على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وبادروا إلى امتثال ما يأمركم به الله ورسوله ﷺ واحذروا من الوقوع في المعاصي وإياكم والإعراض عن رسول الله ﷺ والإدبار عن هديه ومخالفة أمره أو نهيه إذا سمعتم أمره أو نهيه كما قال عز وجل: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم * ﴾. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ تحذير شديد من مخالفة أمر رسول الله ﷺ بالتنبيه على أن مخالفة رسول الله ﷺ قد تسلك بالمخالفين مسلك الكافرين، قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون* ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين بالله ورسوله من أصحاب نبي الله ﷺ: لا تكونوا أيها المؤمنون في مخالفة رسول الله ﷺ كالمشركين الذين إذا سمعوا كتاب الله يتلى عليهم قالوا ﴿قد سمعنا﴾ بآذاننا ﴿وهم لا يسمعون﴾ يقول: وهم لا يعتبرون ما يسمعون بآذانهم ولا ينتفعون به، لإعراضهم عنه، وتركهم أن يُوعُوه قلوبهم ويتدبروه، فجعلهم الله إذ لم ينتفعوا بمواعظ القرآن - وإن كانوا قد سمعوها بآذانهم - بمنزلة من لم يسمعها، يقول جل ثناؤه لأصحاب رسول الله ﷺ: لا تكونوا أنتم في

الإعراض عن أمر رسول الله، وترك الانتهاء إليه وأنتم تسمعونه بآذانكم، كهؤلاء المشركين الذين يسمعون مواعظ كتاب الله بآذانهم، ويقولون: ﴿قد سمعنا﴾ وهم عن الاستماع لها، والاتعاظ بها معرضون كمن لا يسمعها. اهـ

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إن شر الدوابِّ عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ هذه غاية قصوى في تنفير المؤمنين من مشابهة المشركين المعرضين عن أوامر الله وأوامر رسوله محمد ﷺ حيث وصفهم الله عز وجل بأنهم شر الدواب وأنهم الصم البكم الذين لا يعقلون، أي إن شر ما دبَّ على الأرض من البريَّة عند الله عز وجل هم الصُّمُّ عن الخير البكم الذين لا يقولون الحق المحرومون من الفهم الصحيح والقصد إلى العمل الصالح، ولذلك شبههم الله بالأنعام ووصفهم بأنهم أضل من البهائم حيث قال عز وجل: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي يَنْعِقُ بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، صمٌّ بكم عميٌ فهم لا يعقلون*﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولَئك كالأنعام بل هم أضل أولَئك هم الغافلون* ﴾ وقد قال البخاري في صحيحه: حدثنا محمد بن يوسف حدثنا ورقاء عن ابن أبي نَجِيح عن مجاهد عن ابن عباس: ﴿إن شر الدَّوَابِّ عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون * ﴾ قال: هم نَفَرٌ من بني عبدالدار. اهـ وقد كان بنو عبدالدار هم أصحاب لواء المشركين يوم بدر ويوم أحد، وقد قتل الله تبارك وتعالى صناديد بني عبدالدار من المشركين بأحد، ولم يدخل في الإسلام منهم غير مصعب بن عمير وسويبط بن حرملة، وقد كان هؤلاء النفر المشركون من بني عبدالدار يتباهون ويقولون: نحن صم بكم عمي عما جاء به محمد، ولا شك في صحة خبر عبدالله بن عباس رضي الله عنهما الذي رواه البخاري في هذه الآية، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فهي تشمل كلَّ من أعرض عن رسول الله ﷺ،

وتنظمهم في سلك الصم البكم الذين لا يعقلون. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم، ولو أسمعهم لَتَوَلَّوْا وهم معرضون﴾ أي ولو علم الله منهم صدق النية في طلب الحق لأعانهم وسددهم وهداهم ووفقهم للخير حتى يصل إلى قلوبهم، ولكنه عز وجل عَلِمَ خُبْثَ نفوسِهم وفساد نياتهم ومقاصدهم وشدة عنادهم فلذلك خذلهم فمهما سمعوا من الذكر فلن يصدقوا، ومهما رأوا من الحجج والبراهين فلن ينتفعوا بها، وقال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر فتأويل الآية إذًا: ولو علم الله في هؤلاء القائلين خيرا لأسمعهم مواعظ القرآن وعِبَرَه، حتى يعقلوا عن الله عز وجل حُجَجَه منه، ولكنه قد علم أنه لا خير فيهم، وأنهم ممن كتب لهم الشقاء فهم لا يؤمنون، ولو أفهمهم ذلك حتى يعلموا ويفهموا لَتَوَلَّوْا عن الله وعن رسوله وهم معرضون عن الإيمان بما دلَّهم على صحته مواعظُ الله وعِبَرُهُ وحُجَجُهُ، معاندون للحق بعد العلم به. اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يَحُولُ بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾ ترغيب في الوقوف عند حدود الله والاعتصام بحبل الله والعض على سنة رسول الله ﷺ بالنواجذ، وترهيب شديد عن الإعراض وعدم الاستجابة لله ولرسوله ﷺ، وتقرير لفقه الإسلام وأن الله عز وجل قد بعث رسوله ﷺ بالدين الذي لا حياة للنفوس والقلوب إلا به فأهل الإسلام المتمسكون به هم الأحياء حقا، أما الكافرون المعرضون عن هذا الدين فهم الأموات وإن تحركت أجسامهم وتقلبوا في البلاد شرقا وغربا، كما قال عز وجل: ﴿أَوَ من كان مَيْتًا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن هذه الآية تدل على وجوب المسارعة إلى رسول الله ﷺ مهما كان عليه المدْعُوُّ من الأحوال فقد روى البخاري من حديث أبي سعيد بن المُعَلَّى رضي الله عنه

قال: كنت أصلي فَمَرَّ بي رسولُ الله ﷺ فدعاني فلم آتِهِ حتى صليتُ ثم أتيته فقال: «ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم﴾؟» ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج» الحديث، وقد سقته بتمامه في تفسير سورة الفاتحة وقوله عز وجل: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ تحذير شديد من ارتكاب أسباب سخط الله؛ لأن المعصية قد تكون سببا في سلب الإيمان، فعلى العبد المؤمن أن يديم الضراعة لله عز وجل ليثبته على الإيمان، لأن الله عز وجل قد يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع الثبات على الإيمان إلا بتوفيق الله وتثبيته كما قال عز وجل: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين، ويفعل الله ما يشاء﴾ قال البخاري رحمه الله: بابٌ ﴿يَحُولُ بين المرء وقلبه﴾ حدثنا محمد بن مقاتل أبو الحسن أخبرنا عبدالله أخبرنا موسى بن عقبة عن سالم عن عبدالله قال: كثيرا مما كان النبي يحلف: «لا ومُقَلِّبِ القلوب». كما أخرج مسلم في صحيحه من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم كلَّها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلبٍ واحدٍ يُصَرِّفه حيث يشاء، ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مُصَرِّفَ القلوبِ صَرِّفْ قلوبنا على طاعتك» وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يُكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك» قال: فقلنا: يا رسول الله آمنا بك وبما جئتَ به فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها». وأخرجه البغوي في تفسيره بسند الإمام أحمد وفي آخره: «يقلبها كيف يشاء». وفي قوله عز وجل: ﴿وأنه إليه تحشرون * واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ الآية تحذير للذين لا يستجيبون لله ولرسوله ﷺ من عذاب

الآجلة والعـاجلة وفيه كذلك تحذيـر للذين لا ينهون النـاس عن المنكر، فإن المعصية إذا ظهرت ولم تنكـر عمت عقوبتها من باشر ومـن لم يباشر ما دام لم ينكرها. فقـد روى البخاري من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ القائم على حدود الله والـواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لـو أنا خَرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نـؤذ من فوقنـا ؟ فإن تـركوهم ومـا أرادوا هلكـواجميعا، وإن أخـذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا».

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِى الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ *﴾

بعد أن وجّه الله تبارك وتعالى المؤمنين إلى الحرص على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وحذّرهم من أن يغتروا بما قدّموا من خير فيتكاسلوا في امتثال الأوامر واجتناب الزواجر، ويصيروا كالذين قالوا سمعنا وعصينا الذين هم شر الدواب عند الله، ولا يليق بمن عرف الله عز وجل أن يتشبه بهم، لأن الله تبارك وتعالى قد خذلهم، فأصمهم وأعمى أبصارهم، فانطمست بصائرهم، ونبّه المؤمنين إلى أن الاستجابة لله ولرسوله ﷺ هي أهم أسباب الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، وأكّد تحذيرهم من الاغترار، وبيّن لهم أن قلوب العباد بيد الله يُصرفها كيف يشاء حيث يحول بين المرء وقلبه، ولفَتَ انتباههم إلى أن المعاصي تجلب عقوبة العاجلة والآجلة، وأن المعصية إذا ظهرت في الناس دون ناهٍ عنها أو رادع لها عمت عقوبتها من ارتكبها ومن لم يرتكبها ما دام لم ينه عنها، ولم يُحَذِّرْ منها، شرع هنا في تذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم حيث بدّل خوفهم أمنا وآواهم وأيدهم بنصره ورزقهم من الطيبات، وحذّرهم أشد التحذير من أن يخونوا الله أو يخونوا الرسول ﷺ، أو أن يخونوا الأمانات التي تكون بينهم، وأعلمهم أن الدنيا عرض زائل، وأنَّ ما مَنَّ الله عز وجل به عليهم من الأموال والأولاد هو اختبار لهم، فلا يليق بهم أن يقدموا حب أموالهم أو أولادهم على حب الله ورسوله ﷺ، وبشّرهم بأن

تقوى الله تسبب لصاحبها النصر والنجاة، وتفريج الكربات، وسعادة الدنيا والآخرة، وتكفير سيئاتهم ومغفرة ذنوبهم ورغد عيشهم، وفي ذلك يقول: ﴿واذكروا إذْ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم، والله ذو الفضل العظيم﴾ وقوله تعالى: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: وهذا تذكيرٌ من الله عز وجل أصحابَ رسول الله ﷺ ومناصحةٌ، يقول: أطيعوا الله ورسوله أيها المؤمنون، واستجيبوا له إذا دعاكم لما يحييكم، ولا تخالفوا أمرهُ و إن أمركم بما فيه عليكم المشقة والشدة، فإن الله يُهَوِّنُه عليكم بطاعتكم إياه، ويُعَجِّل لكم منه ما تحبون، كما فعل بكم إذ آمنتم به واتبعتموه وأنتم قليل يستضعفكم الكفار فيفتنونكم عن دينكم، وينالونكم بالمكروه في أنفسكم وأعراضكم، تخافون منهم أن يَتَخَطَّفُوكُمْ فيقتلوكم ويصطلموا جميعكم، ﴿فآواكم﴾ يقول: فجعل لكم مأوى تأوون إليه منهم، ﴿وأيَّدكم بنصره﴾ يقول: وقوَّاكم بنصره عليهم حتى قتلتم منهم مَن قتلتم ببدر ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ يقول: وأطعمكم غنيمتهم حلالا طيبا ﴿لعلكم تشكرون﴾ يقول: لكي تشكروه على ما رزقكم وأنعم به عليكم من ذلك وغيره من نعمه عندكم. اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال قتادة بنُ دعامة السدوسي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾ قال: كان هذا الحي من العرب أذلّ الناس ذُلاًّ، وأشقاه عيشا وأجوعه بطونا، وأعراه جلودا، وأبينه ضلالا، من عاش منهم عاش شقيا، ومن مات منهم رُدِّي في النار يُؤْكَلُونَ ولا يأكلون،

والله ما نعلم قبيلا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشَرَّ منزلا منهم، حتى جاء الله بالإسلام، فَمَكَّنَ به في البلاد، وَوَسَّع به في الرزق، وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى اللهُ ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهلُ الشكر في مزيد من الله . اهـ
وقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾ تحريض على النصح لله ولرسوله ﷺ ولأئمة المسلمين وعامتهم وتحذير من تضييع حقوق الله التي أنزلها في كتابه أو تضييع أوامر رسول الله ﷺ التي بيَّنها في سنته أو تضييع حقوق العباد وودائعهم التي يأتمن بعضهم بعضا عليها، وقد عدَّ رسول الله ﷺ خيانة الأمانة من علامات النفاق فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث، إذا حدَّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان»، وقولهُ عز وجل: ﴿واعلموا أنّما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم﴾ تحذير من أن يحمل حبُّ الإنسان للمال أو للولد على الخيانة لله أو لرسوله ﷺ أو للمؤمنين، فإن المال ظل زائل وعارية مستردة ومن عَصَى الله من أجل ولده يوشك أن يعاقبه الله عز وجل به ويحرمه من منافعه في الدنيا والآخرة، ومن راعى الأمانة فيما خوله الله عز وجل وتفضل عليه به من الأموال والأولاد فإن له الأجر العظيم عند الله عز وجل، فلا ينبغي للعاقل أن يحمله حبه للمال والأولاد على الخيانة، بل عليه أن يوقن أن المال والولد قد جعله الله عز وجل فتنة واختبارًا في الدنيا وربما يكون الولد قد امتلأ قلبه بالعداوة لأبيه وهو لا يدري ولا يشعر كما قال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم، وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم * إنما أموالكم وأولادكم فتنة، والله عنده أجر عظيم * فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرًا

لأنفسكم، ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولَئك هم المفلحون * ﴾ وقال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُلْهِكُمْ أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله، ومن يفعل ذٰلك فأولَئك هم الخاسرون * ﴾ وقد نبه الله تبارك وتعالى المؤمنين إلى أنه لا ينبغي لهم أن يغتروا بزينة الحياة عن طلب الباقيات الصالحات حيث يقول عز وجل: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخيرٌ أملا * ﴾ كما أشار تبارك وتعالى إلى أنه يبتلي عباده بالخير والشر امتحانا واختبارا حيث يقول عز وجل: ﴿كلُّ نفس ذائقة الموت، ونبْلوكم بالشر والخير فتنةً وإلينا تُرْجَعُونَ * ﴾ ولا شك أن هذا الأسلوب في التربية والتعليم وغرس محبة الله ومحبة رسوله ﷺ في النفوس وتربية ملكة الحفاظ على الأمانات لدى أفراد الأمة الإسلامية هو أهم دعائم المجتمع الصالح السعيد، وأعظم أسباب الأمن والاستقرار، ولن يؤمن أحد حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقْذَفَ في النار»، وقد أكد الله تبارك وتعالى على ذلك في كتابه الكريم حيث يقول: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكنُ ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين * ﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم، والله ذو الفضل العظيم * ﴾ بشارة للمؤمنين المتقين بأن الله تبارك وتعالى جاعلٌ لهم بسبب تقواهم نورا في دنياهم يفرقون به بين الحق والباطل، ويهتدون به إلى

الصراط المستقيم ونجاة ونصرا ومخرجا من كل كرب، ووعدهم بتكفير سيئاتهم ومغفرة ذنوبهم من فضله وجوده وإحسانه وهو تبارك وتعالى صاحب الفضل العظيم، كما قال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم، والله غفور رحيم* لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم *﴾ فمن اتقى الله تبارك وتعالى فخافه في السر والعلن والغيب والشهادة وفعل أوامره واجتنب زواجره جعل الله له من كل ضيق فرجا ومن كل شدة مخرجا ويسَّر له الحياة الطيبة كما قال عز وجل: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغُ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدرا *﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا * ذٰلك أمر الله أنزله إليكم، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويُعْظِمْ له أجرا *﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فأما من أعطى واتقى * وصدَّق بالحسنى * فسنيسره لليسرى *﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما *﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان*﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إن للمتقين مفازا * حدائق وأعنابا * وكواعب أترابا * وكأسا دِهاقا *﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هي المأوى *﴾ .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِيـنَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أو يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، ويَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ .

بعـد أن ذكَّر الله عـز وجل المؤمنين بنعمـة الله عليهم حيث بدَّل خـوفهم أمنـا ، وأيـدهم بنصره ، وآواهم إلى طيبـة الطيبـة ، ورزقهـم من الطيبـات ، وحذرهم أشـد التحذير من خيانـة الله ورسوله ﷺ وخيـانة الأمانات عـامة ، ونبههم إلى أن مـا مَنَّ به عليهم من الأمـوال والأولاد هو اختبار لهم فـلا يليق بهم أن يقدموا حب أموالهم وأولادهـم على حب الله ورسوله ﷺ ، وبشرهـم بأن تقوى الله عز وجل تسبب لصاحبها النصر والنجاة وتفريج الكربات وتكفير السيئات ، وتجلب رغد العيش وسعـادة الدارين ، شرع هنا في تذكير المؤمنين بنعمتـه على رسولـه ﷺ وعلى المؤمنين إذ نَجَّى رسـول الله ﷺ من مكر كفـار قـريش وتـدبيرهم لقتل رسـول الله ﷺ أو حبسه أو نفيـه ، ولا شك أن هـذه النعمـة تعم رسولَ الله ﷺ وأصحـابـه رضي الله عنهم وسائر المؤمنين إلى يـوم القيامـة ، وفي هذا التذكير بهذه النعمـة العظيمة يقـول الله عز وجل : ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتـوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ والمراد بالذين كفروا هنـا هـم كفار قريش الذين اجتمعوا وتشاوروا في دار الندوة بمكة للقضاء على رسـول الله ﷺ ، وكان كفار قريش قد أصابهم الرعب والانزعاج عندمـا تمت بيعة الأنصار الثانية لرسول الله ﷺ عنـد العقبـة ، وظهـر الإسلام بـالمدينـة المنـورة ، وأذن رسـول الله ﷺ لبعض المؤمنين بـالهجرة إلى المدينـة ، وأيقن كفار قـريش أن محمدا ﷺ قـد صار لـه أنصار وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ، ورأوا خـروج أصحابه من مكة إلى المدينة وعرفـوا أنهم نزلوا دارا يحب أهلُها من هاجـر إليهم وقد صارت لهم بها مَنَعَةٌ ، وأيقنوا أن رسول الله ﷺ سيلحق بأصحـابه رضي الله عنهم ، فاجتمع

أشراف قريش في دار الندوة بمكة ليتشاوروا ويأتمروا في أمر رسول الله ﷺ، وماذا يصنعون به؟ وكانت دار الندوة لقصي بن كلاب، وكانت قريش لا تقضي أمرا ذا شأن إلا بها، ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وَهَلِي إلى أنها اليمامة أو هجر فإذا هي المدينة يثرب»، كما روى البخاري في صحيحه من حديث الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال - وهو يومئذ بمكة - للمسلمين: «إني أُرِيتُ دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين»، قالت: فهاجر مَن هاجر قِبَلَ المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر قِبَلَ المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «على رِسلِكَ، فإني أرجو أن يُؤْذَنَ لي»، فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «نعم»، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه. اهـ وقد كان في أوائل المهاجرين إلى المدينة المنورة مصعب بن عمير وابن أم مكتوم وبلال وسعد بن أبي وقاص وعمار بن ياسر وعمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي ﷺ، وأبو سلمة بن عبدالأسد المخزومي رضي الله عنهم، فقد روى البخاري في صحيحه من طريق أبي إسحاق سمع البراء رضي الله عنه قال: أَوّلُ من قدم علينا مصعب ابن عمير وابن أم مكتوم، ثم قدم علينا عمار بن ياسر وبلال رضي الله عنهم، وفي رواية للبخاري من طريق أبي إسحاق: سمعت البراء رضي الله عنه قال: أَوّلُ من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فكانا يقرئان الناس، فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي ﷺ. اهـ ثم تتابع المهاجرون رضي الله عنهم، فلما رأت قريش خروج أصحاب رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، وأيقنوا

أنـه ﷺ سيلحق بأصحـابـه رضي الله عنهم، اجتمع أشراف قـريش في دار الندوة للبحث عن وسيلـة يتمكنون بها من القضاء على رسـول الله ﷺ، قال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا عبدالرزاق أخبرنا معمر أخبرني عثمان الجزري أن مقسما مولى ابن عباس أخبره عن ابن عباس في قـوله تعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفـروا ليثبتوك﴾ قال: تشـاورت قريش ليلة بمكـة فقال بعضهم: إذا أصبح فأوثقوه بالـوثاق يريدون النبي ﷺ، وقـال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخـرجـوه، فأطلع الله نبيـه على ذلك، فبـات عليٌّ على فـراش النبي ﷺ تلك الليلـة، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بـالغار، وبـات المشركون يحرسون عليـا يحسبونه النبـي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا عليـه، فلما رأوا عليا ردَّ الله عليهم مكرهم، فقـالوا: أين صـاحبك هذا؟ فقال: لا أدري، فـاقْتَفَوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعَّدوا في الجبل، فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هٰهنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابـه، فمكث فيه ثلاث ليـال. قال ابن كثير رحمه الله في السيرة النبـوية بعد سياق هذا الحديث: وهذا إسناد حسن، وهو من أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار، وذلك من حماية الله رسـوله ﷺ. اهـ وكذلك حسَّن الحافظ ابن حجر إسنـاد هذا الحديث، وقد جعل الله تبـارك وتعالى في هجرة رسـول الله ﷺ آيات بينات، فقد روى البخـاري ومسلم والترمذي من حـديث أنس بن مالك رضي الله عنـه قال: قـال أبو بكـر: نظرت إلى أقـدام المشركين ونحن في الغار على رءوسنا، فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قـدميه أبصرنـا تحت قـدميـه. فقال: «يـا أبـا بكر مـا ظنُّك بـاثنين الله ثَالِثُهُمَا؟» اهـ وكان رسول الله ﷺ قد تـوجه قبل خروجـه من مكة إلى دار أبي بكـر رضي الله عنه، واصطحبـه معـه إلى غـار ثور، فقـد روى البخـاري من طريق ابن شهاب قال: قال عروة: قـالت عائشة رضي الله عنها: فبينا نحن

يوما جلوسٌ في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ مُتَقَنِّعًا في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فِدًى له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمرٌ، قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأُذِن له، فدخل، فقال النبي ﷺ: «أَخْرِجْ مَنْ عندك»، فقال أبو بكر: إنما هم أهلُك بأبي أنت يا رسول الله قال: «فإني قد أُذن لي في الخروج»، قال أبو بكر: الصحابة بأبي أنت يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال أبو بكر: فخذ - بأبي أنت يا رسول الله - إحدى راحلتَيَّ هاتين، فقال رسول الله ﷺ: «بالثَّمن»، قالت: فجهزناهما أَحَثَّ الجهاز، ووضعنا لهما سُفْرَةً في جِراب، قطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين، قال: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور، فمكثا فيه ثلاث ليال. الحديث. وفي اختيار غار ثور للاكتنان من المشركين سياسة نبوية، إذ أن أول ما ينصرف وَهَلُ المشركين للبحث عن رسول الله ﷺ هو طلبه في شمال مكة لا في جنوبها، ليقينهم أنه إذا خرج من مكة فستكون وجْهَتُهُ المدينة، وغار ثور يقع في جنوبي مكة، على طريق المسافر إلى اليمن، وقد نَصَّ الله تبارك وتعالى على صحبة أبي بكر رضي الله عنه لرسوله وحبيبه محمد ﷺ، وأشار إلى قول رسول الله ﷺ لأبي بكر وهو معه في الغار: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» حيث يقول: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى وكلمةُ الله هي العليا والله عزيز حكيم *﴾ قال الإمام البغوي في تفسير هذه الآية: قال الحسين بن الفضل: من قال إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله ﷺ فهو كافر لإنكاره نص القرآن، وفي سائر الصحابة إذا أنكر يكون مبتدعا لا كافرا. اهـ ومعنى

قولـه عز وجل: ﴿وإذ يمكـر بك الذيـن كفروا﴾ أي وإذ يكيد لـك مشركو قريش ويـدبرون للقضاء عليك ويبـذلون مـا يقدرون عليه ضـدك من المكر السيىء، ومعنى قـولـه عـز وجـل: ﴿لِيُثْبِتُـوكَ﴾ أي ليـوثقـوك ويحبسـوك ويسجنوك، ومعنى قوله عـز وجل: ﴿أو يخرجوك﴾ أي أو لينفوك من مكة. ومعنى قـولـه عـز وجل: ﴿ويمكـرون ويمكـر الله والله خير الماكـرين﴾ أي ويدبرون تدبيرهـم السيىء والله يدبر لإعزازك وإذلالهم، والله تبارك وتعالى خير المدبِّرين، وكيـده هو الكيد المتين، وقـد حاق بـالمشركين مكرهم السيىء كما قـال عز وجل: ﴿ولا يحيق المكـر السيىء إلا بأهلـه﴾ وكما قال عـز وجل في قصة تآمر قوم صالح عليه: ﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون * قالوا تقـاسموا بالله لَنُبَيِّتَنَّهُ وأهلـه ثم لنقولن لوليه مـا شهدنا مهلك أهله وإنـا لصادقون * ومكروا مكـرا ومكرنـا مكرا وهـم لا يشعرون * فانظـر كيف كان عـاقبة مكرهم أنَّـا دمرنـاهم وقومهم أجمعين﴾ وقـد جاء في سنن أبي داود والترمذي وابن ماجه من حـديث ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «رب أعني ولا تُعِنْ عليَّ، وانصرني ولا تنصر عليَّ، وامكر لي ولا تمكر عليَّ». الحديث.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ، وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَمَا لَهُمْ أَلا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ، إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلا المُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ * وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ البَيْتِ إِلا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً، فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ *﴾.

بعد أن ذَكَّر الله عز وجل المؤمنين بنعمته على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين إذْ نجَّى رسولَ الله ﷺ من كيد كفار قريش ومكرهم السيِّئ وتدبيرهم لقتل رسول الله ﷺ أو حبسه أو نفيه وسلَّمه حتى تمكن من الهجرة إلى المدينة المنورة، وهي نعمة تَعُمُّ رسولَ الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم وسائر المؤمنين إلى يوم القيامة، شَرَعَ هنا في توبيخ كفار قريش والتنديد بعتوهم وعنادهم وافترائهم وسفاهة عقولهم وتحجر أفئدتهم، وغرورهم، حيث زعم بعض رؤسائهم أنه يستطيع أن يقول كلاما مثل هذا القرآن، وَوَصَفَ القرآنَ بأنه أساطير الأولين، مع أنهم موقنون في قرارة نفوسهم أنهم لن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، فقد تحداهم الله أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله ولم يُؤْثَرْ أن واحدا منهم حاول ذلك ألبتة، كما بيَّن عز وجل هنا صورا من آرائهم المنتكسة وأعمالهم المرتكسة حيث كانوا يقولون: ﴿اللهم إن كان هٰذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ ولو كان لديهم أدنى مسكة من عقل لقالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا للإيمان به والاستجابة للرسول ﷺ، لكنهم لانتكاس عقولهم ورجس أنفسهم وشدة بغضهم لرسول الله ﷺ

فضَّلوا أن يُمْطِرَ اللهُ عليهم حجارة من السماء أو أن يأتيهم بعذاب أليم إن كان ما جاء به محمد ﷺ هو الحق من عند الله، كما بيَّن عز وجل أنهم مستوجبون لعذاب الله لكنه تبارك وتعالى قد اقتضت حكمته أن لا يستأصل قوم رسول الله محمد ﷺ، لعلمه تبارك وتعالى أنهم سيدخلون في دين الله أفواجًا فكان من رحمته أن لا يأخذ جملتهم بدعاء سفهائهم ومع ذلك فإن هؤلاء الذين دعوا بهذا الدعاء قد أهلكهم الله عز وجل يوم بدر بأيدي المؤمنين وشفى صدورهم وأذهب غيظ قلوبهم، كما بيَّن عز وجل أنهم يصدون عن المسجد الحرام، ولم تكن صلاتهم عنده إلا مكاء وتصدية، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنَا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هٰذا إنْ هٰذا إلا أساطير الأولين﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية، فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هٰذا إنْ هٰذا إلا أساطير الأولين﴾ أي وإذا سمعوا آيات الله تُتْلى عليهم استهزءوا وقالوا قد سمعناها ونحن قادرون على الإتيان بمثلها إذا اشتهينا ذلك ورغبنا فيه لأن هذا الكلام أساطير الأولين قد اكتتبها محمد ونحن لا نعجز عن محاكاتها، وقد تقدم بيان معنى قوله: ﴿إن هٰذا إلا أساطير الأولين﴾ في تفسير الآية الخامسة والعشرين من سورة الأنعام عند قوله تبارك وتعالى: ﴿ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وَقْرًا، وإن يَرَوْا كل آية لا يؤمنوا بها، حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هٰذا إلا أساطير الأولين * ﴾ وقد ذكرت في تفسير الآية الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين من سورة البقرة في قوله عز وجل: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس

والحجارة أعدت للكافرين﴾ أنه لم ينقل عن أحد من العرب أنه حاول معارضة القرآن غير ما جاء عن مسيلمة من الهراء؛ فقد أثر عن عمرو بن العاص أنه كان صديقا لمسيلمة الكذاب فاجتمع به مرة، وقال له: يا مسيلمة ماذا نزل عليك من القرآن؟ فقال مسيلمة: يا ضفدع يا ضفدعين نِقِّي كم تنقين، نصفك في الماء ونصفك في الطين، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشا قوم يجهلون، فضحك عمرو بن العاص وقال له: والله إني أعلم أنك تعلم أنك كاذب. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ قد ثبت في صحيحي البخاري ومسلم أن أبا جهل لعنه الله هو الذي طلب من الله أن يمطر عليهم حجارة من السماء أو أن يأتيهم بعذاب أليم إن كان الذي جاء به محمد هو الحق من عند الله ولا شك أن أبا جهل هو رأس السفهاء الذين انحطوا إلى هذا الدرك الأسفل من سوء الرأي وفساد الفكر، قال البخاري في صحيحه: باب قوله: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هٰذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ قال ابن عيينة: ما سمَّى الله تعالى مطرًا في القرآن إلا عذابا، وتسميه العرب الغيث وهو قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الغيث من بعد ما قنطوا﴾ حدثني أحمد حدثنا عُبَيْدُ الله بن مُعَاذ حدثنا أبي حدثنا شعبة عن عبدالحميد هو ابنُ كُرْدِيدٍ صاحبُ الزيادي سمع أنسَ بنَ مالكٍ رضي الله عنه: قال أبو جهل: اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. فنزلت ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون * وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾ الآية باب قوله: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون* ﴾ حدثنا محمد بن النضر حدثنا عبيد الله بن معاذ

حدثنا أبي حدثنا شعبة عن عبدالحميد صاحب الزيادي سمع أنس بن مالك قال: قال أبو جهل: اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فنزلت: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون * وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾ الآية. وقال مسلم في صحيحه: حدثنا عبيدالله بن معاذ العنبريُّ حدثنا أبي حدثنا شعبة عن عبدالحميد الزيادي أنه سمع أنس بن مالك يقول: قال أبو جهل: اللهم إن كان هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فنزلت: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون * وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾ إلى آخر الآية. اهـ وإسناد هذا القول لأبي جهل مع أنه في الآية للعموم لرضاهم بقوله ومواطأتهم له فيه، وهذا شبيه بقوله تعالى في عقر ناقة صالح: ﴿فعقروها﴾ مع أن أشقى ثمود هو الذي تولى ذلك لكنهم راضون بفعله. وقد كان عدو الله فرعونُ هذه الأمة أبو جهل بين من أهلكهم الله من صناديد قريش يوم بدر، هذا وقولُ ابن عيينة الذي ذكره البخاري: ما سمى الله مطرا في القرآن إلا عذابا وتسميه العرب الغيث قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في شرح هذه الترجمة: كذا في تفسير ابن عيينة رواية سعيد بن عبدالرحمن المخزومي عنه قال: ويقول ناسٌ ما سمَّى الله المطر في القرآن إلا عذابا ولكن تسميه العرب الغيث، يريد قوله تعالى: ﴿وهو الذي يُنَزِّلُ الغيث﴾ كذا وقع في تفسير حم عسق، وقد تُعُقِّبَ كلامُ ابن عيينة بورود المطر بمعنى الغيث في القرآن في قوله تعالى: ﴿إن كان بكم أذى من مطر﴾ فالمراد به هنا الغيث قطعا اهـ وقال ابن جرير الطبري: القول في تأويل قوله: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم*﴾ قال أبو جعفر:

يقول تعالى ذكره: واذكر يامحمد أيضا ما حلَّ بمن قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم إذ مكرت بهم فأتيتهم بعذاب أليم وكان ذلك العذاب قتلهم بالسيف يوم بدر اهـ ولا شك أن قوله تبارك وتعالى: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ من أعظم أبواب الترغيب في الاستغفار وأنه يدفع عن المستغفرين عقوبة الله، ومن لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق فرجا ومن كل شدة مخرجا. وقوله عز وجل: ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه، إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون * ﴾ بيان لاستحقاق كفار قريش لعقوبة الله بسبب صدهم عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه، وتحكمهم في شئونه مع أنهم ليسوا أهلا لولاية المسجد الحرام، لشركهم برب البيت ونصبهم للأصنام حول الكعبة، وإنما أولياء البيت المؤمنون المتبعون لملة إبراهيم إمام الحنفاء، باني البيت الحرام، الذين يتقون ربهم، وينقادون لشيخ المرسلين محمد ﷺ، فهم أولى الناس وأحقهم بالمسجد الحرام لأنهم هم الذين يعرفون حرمته، وهم أهله، كما قال عز وجل: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون * إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين * ﴾ ثم بين عز وجل أن صلاة هؤلاء المشركين عند البيت الحرام هي لعب ولهو حيث يقول عز وجل: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾ أي وما كانت صلاة هؤلاء المشركين عند البيت الحرام إلا صفيرا بأفواههم وتصفيقا بأيديهم، لا يذكرون الله، ولا يعرفون مراسيم عبادته وطاعته، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ قال ابن جرير رحمه الله: وأما قوله: ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم

تكفرون﴾ فإنه يعني العذاب الذي وعدهم به بالسيف يوم بدر، يقول للمشركين الذين قالوا: ﴿اللهم إن كان هٰذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ الآية حين أتاهم بما استعجلوه من العذاب ﴿ذوقوا﴾ أي اطعموا، وليس بذوق فم، ولكنه ذوق بالحسِّ ووجود طعم ألمه بالقلوب، يقول لهم: فذوقوا العذاب بما كنتم تجحدون أن الله معذبكم به على جحودكم توحيدَ ربكم ورسالة نبيكم ﷺ . اهـ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ، فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ، أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ * قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ، نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ*﴾.

بعد أن وَبَّخَ الله تبارك وتعالى كفار قريش ونَدَّدَ بعتوهم وعنادهم وافترائهم وسفاهة عقولهم وتحجر أفئدتهم وغرورهم حيث زعم بعض رؤسائهم أنه يستطيع أن يأتي بمثل القرآن وَوَصَفَ هذا السفيهُ القرآنَ بأنه أساطير الأولين مع أنهم كانوا موقنين في قرارة نفوسهم أنهم لن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، كما فضح الحقُّ تبارك وتعالى هؤلاء المشركين وعَرَضَ صورا من آرائهم المنتكسة وأعمالهم المرتكسة حيث سجَّل عليهم مقالتهم البشعة الشنيعة حيث كانوا يقولون: اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم إذ لو كان لديهم أدنى مسكة من عقل لقالوا: اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فاهدنا للإيمان به، وبَيَّنَ عز وجل أنهم مستوجبون لعذاب الله لكنه تبارك وتعالى اقتضت حكمته أن لا يستأصل قوم رسول الله محمد ﷺ لعلمه تبارك وتعالى أنهم سيدخلون في دين الله أفواجًا فكان من رحمته أن لا يأخذ جملتهم بدعاء سفهائهم ومع ذلك فإن الذين دعوا بهذا الدعاء قد أهلكهم الله عز وجل يوم بدر، وبعد أن بيَّن أن صلاتهم عند البيت لم تكن إلا مكاء وتصدية وأن جزاء الكافرين النار،

أعلن عز وجل هنا أن الكافرين مهما بذلوا من أموال للصد عن سبيل الله فلن يحصلوا إلا على الخيبة ولن يحصلوا من ثمار بذلهم إلا الغم والهم والحسرة والندامة ولن يتمكنوا من إطفاء نور الله، وهم سيُهزمون ويُقهرون ويُدحَرُون، ومصيرهم إلى النار إن ماتوا على كفرهم، وقد قضى الله عز وجل أن تكون راية الحق ظاهرة منصورة وراية الباطل مخذولة مدحورة، ثم رغب الله عز وجل هؤلاء الكافرين في المسارعة إلى الإيمان لينالوا عفو الله ومغفرته، وحذرهم من الاستمرار على الكفر حتى لا يستوجبوا غضب الله وعقوبته التي أحلها بأعدائه الغابرين، ثم أمر المؤمنين بقتال الكافرين حتى تنطفئ نار فتنتهم ويظهر دين الله على الدين كله، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم لِيَصُدُّوا عن سبيل الله، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرةً ثم يُغْلَبُونَ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم، نعم المولى ونعم النصير﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله﴾ أي إن هؤلاء المكذبين من قريش وغيرهم يبذلون أموالهم ليحاولوا إطفاء نور الله، ومعنى قوله تعالى: ﴿فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يُغْلَبُون، والذين كفروا إلى جهنم يُحْشَرُونَ﴾ أي فَسَيَبْذُلُونَ أموالهم فتذهب سُدًى وترجع عليهم بالخزي والحسرة والندامة والهم والغم حيث لا يظفرون بما يأملون، فمن عاش منهم عاش محروبا مسلوبا، مقهورا مغلوبا، ومن هلك منهم على كفره فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي حيث مأواه جهنم وبئس المصير. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم، أولَٰئك هم الخاسرون *﴾ قال ابن كثير رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ فيميز أهل

السعـادة من أهل الشقاء، وقـال السدى: يميـز المؤمن من الكـافر، وهـذا يحتمل أن يكـون هذا التمييـز في الآخرة، كقـوله: ﴿ثم نقـول للذين أشركـوا مكانكم أنتم وشركـاؤكم، فزيلنـا بينهم﴾ الآية، وقولـه ﴿ويوم تقوم السـاعة يومئـذ يتفرقون﴾ وقـال في الآية الأخرى: ﴿يومئـذ يصَّدَّعُون﴾ وقـال تعالى: ﴿وامتازوا اليـوم أيها المجرمـون﴾ ويحتمل أن يكون هـذا التمييز في الـدنيا بما يظهر من أعمالهم للمـؤمنين، وتكون الـلام معللة لما جعل الله للكـافرين من مال ينفقونه في الصَّـد عن سبيل الله، أي إنما أقدرناهم على ذلك ﴿ليميز اللهُ الخبيث من الطيب﴾ أي من يطيعــه بقتـال أعـدائه الكـافــرين أو يعصيـه بـالنكول عن ذلك، كقـوله: ﴿ومـا أصـابكم يوم التقى الجمعـان فبإذن الله وليعلم المؤمنين * وليعلـم الذين نافقوا، وقيل لهم تعـالَوْا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكـم﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿أم حسبتـم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الـذين جاهـدوا منكم ويعلم الصـابـرين﴾ ونظيرتها في براءة أيضـا، فمعنى الآية على هذا: إنا ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبـذلها في ذلك ﴿ليميـز الله الخبيث مـن الطيب ويجعل الخبيث بعضـه على بعض فيركمـه﴾ أي يجمعه كله، وهـو جمع الشيء بعضه على بعـض كما قال تعالى في السحاب ﴿ثم يجعله ركـاما﴾ أي متراكما متراكبا ﴿فيجعله في جهنم أولَٰئك هم الخاسرون﴾ أي هؤلاء هم الخاسرون في الـدنيا والآخرة. اهـ وقـوله تبارك وتعالى: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهـوا يغفر لهم ما قد سلف و إن يعودوا فقد مضت سنت الأولين﴾ ترغيب وترهيب أي رغِّب يا محمد هؤلاء الكافرين في الدخول في الإسلام وأخبرهم أنهم إن أنابـوا إلى ربهم وأسلموا له غفر لهم ما مضى من كفـرهم ومعـاصيهم التي ارتكبوهـا قبل الإسـلام، وتجاوز لهم عما

مضى من قبائح أعمالهم، وحذّرهم من الاستمرار على الكفر، وأَخِبرْهُمْ أنهم إن يستمروا على كفرهم ننتقم منهم كما مضت سنتنا في الأمم الغابرة التي أهلكناها لما كذبت المرسلين، وقد أضيفت السنة إليهم لأنها واقعة عليهم، وهي سنة الله فيهم، وهذه الآية صريحة في أن الإسلام يهدم ما كان قبله من المعاصي، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: لما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأُبايعْك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: «مالك يا عمرو؟» قال: قلت: أردتُ أن أشترط، قال: «تشترط بماذا؟» قلت: أن يُغْفَر لي، قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله». الحديث. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ أي وقاتلوا أيها المسلمون من كفر بالله حتى تعلو كلمة الله وتنقطع فتنة الشرك بالله، ويكون أمر الله مطاعا مقدما على أمر غيره، ويتمكن المسلم من إظهار دينه دون أن تصيبه فتنة وتكون العبادة والطاعة كلها لله خالصة له دون سواه. قال البخاري في صحيحه: باب قوله: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكونَ الدينُ كلُّه لله﴾ حدثنا الحسن بن عبدالعزيز حدثنا عبدالله بن يحيى حدثنا حَيْوَةُ عن بكر بن عمرو عن بُكَير عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلا جاءه فقال: يا أبا عبدالرحمن أَلا تَسْمَع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ إلى آخر الآية، فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يا ابن أخي، أغتر بهذه الآية ولا أقاتل أحبُّ إليَّ من أن أغتر بهذه الآية التي يقول الله تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا﴾ إلى آخرها. قال: فإن الله يقول: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلا، فكان الرجل يُفْتَنُ في

دينه: إمَّا يقتلونه وإما يُوثِقُونَهُ، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد قال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال ابن عمر: ما قولي في علي وعثمان؟ أما عثمانُ فكان الله قد عفا عنه، فكرهتم أن يعفو الله عنه، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وخَتَنُهُ، وأشار بيده وهذه ابنته أو بيته حيث ترون. اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فإن انتَهَوْا فإن الله بما يعملون بصير * وإن تولَّوْا فاعلموا أن الله مولاكم، نعم المولى ونعم النصير *﴾ أي فإن ثاب هؤلاء إلى الرشد وأعلنوا أنهم دخلوا في الإسلام فاقبلوا منهم قولهم وأمسكوا عن قتالهم، فإن قولهم: لا إله إلا الله يعصم دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله الذي لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين وهو بصير بأعمالهم وأعمال سائر عباده، وإن لم ينتهوا عن كفرهم وفتنتهم وأدبروا عما دعوتموهم إليه وأصروا على كفرهم وقتالكم فقاتلوهم وأيقنوا بنصر الله لكم لأنه مولاكم يعينكم وينصركم عليهم وهو عز وجل نعم المعين لأوليائه ونعم الناصر لهم، وقد أكد الإسلام وجوب الكف عن من أعلن أنه دخل في الإسلام حيث يقول عز وجل: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحُرُمُ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحْصُرُوهم واقعدوا لهم كل مَرْصَدٍ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم، إن الله غفور رحيم *﴾ وقال عز وجل: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين﴾ وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أُمِرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسولُ الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله تعالى». واشتراط إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة إنما هو فيمن أسلم ووجبت عليه الصلاة والزكاة أما من أعلن في

المعركة أنه دخل في الإسلام فإن يجب الكف عنه فورا ولا يُقَاتَلُ بعد أن قال لا إلّه إلا الله فقد روى البخاري ومسلم من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: قلت لرسول الله ﷺ: أرأيت إن لقيت رجلا من الكفار فضرب إحدى يَديَّ بالسيف فقطعها ثم لاذ مني بشجرة فقال: أسلمتُ لله: أأقتله يا رسول الله بعد أن قالها ؟ فقال: «لا تقتله»، فقلت: يا رسول الله قطع إحدى يديَّ ثم قال ذلك بعدما قطعها، فقال: «لا تقتله، فإن قتلتَه فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال». كما روى البخاري ومسلم من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: بَعَثَنَا رسولُ الله ﷺ إلى الحُرَقة من جهينةَ، فَصَبَّحْنَا القوم على مياههم، ولَحِقْتُ أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم، فلما غَشِينَاهُ قال لا إله إلا الله، فكف عنه الأنصاري وطعنته برمحي حتى قتلته فلما قدمنا المدينة بلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال لي: «يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟» قلت: يا رسول الله إنما كان متعوذا فقال: «أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله ؟» فمازال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم، وفي رواية: «أقال لا إله إلا الله وقتلته ؟» قلت: يارسول الله إنما قالها خوفا من السلاح قال: «أفلا شققت عن قلبه». الحديث. وهذا من براهين كمال الدين وتيسيره.

وقد تم تفسير الجزء التاسع من القرآن العظيم ونسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعله خالصا لوجهه الكريم. وكان الفراغ منه بمنزلنا بالرياض ليلة الأربعاء الموافق لليوم الثاني من شهر ذي الحجة للعام الثاني عشر بعد الأربعمائة والألف من الهجرة النبوية. سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

تفسير سورة الأعراف

تفسير سورة الأنفال ٣٥٩